

أوروبا والتتار

للمختار

محمد محمد موسى الشيبخ

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب
جامعة الإسكندرية - ورئيس قسم التاريخ سابقاً

٢٠٠٢ - ١٤٢٣

رقم الإيداع بالكتاب
٢٠٠٢/١٥٩٧١

مقدمة

شهدت أوروبا في القرون الأخيرة للعصور الوسطى، أي منذ بداية القرن الثاني عشر حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي فترة هامة في تاريخها ومرحلة خطيرة في تطورها في معظم أقطارها في فرنسا حيث لعب أن كاييه دوراً هاماً في تطوير تاريخ هذا القطر الأوربي في تلك الفترة، وكذلك في ألمانيا وإيطاليا حيث خلطت كل منهما خطوة هامة في تاريخها، في ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكان الفتح النورماني للجزيرة البريطانية بداية هامة لتاريخ إنجلترا في العصور الوسطى سطر فيه ملوك النورمان في إنجلترا في تلك الفترة تاريخاً حافلاً للجزيرة البريطانية حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي. أما في شرق أوروبا فقد شهد بروز السلاف وانتشارهم في تلك المناطق، وكذلك الشعوب التي تأثرت بالسلاف واكتسبت صفاتهم مثل البلغار والصرب والكروات والهنغاريين أو المجرين، ومثل السلاف الغربيين في تلك المنطقة المورافيون والتشك والوندونيون والبولنديون، أما السلاف الشرقيون فقد مثلهم الروس بعد امتزاج الفيلكنج السويديين بالسلاف، كما شهدت هذه الفترة أيضاً ازدياد قوة البابوية في أوروبا وتأثيرها في حياة المجتمع الأوربي في العصور الوسطى.

وفي نفس الفترة تقريباً شهد شرق آسيا ومنطقة منغوليا بهمة خاصة ظهور قوة روعت الدنيا في ذلك الوقت، هي قوة التتار أو المغول، منذ ظهور جنكيز خان في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، بعد أن وحد القبائل المنغولية والتترية والتركية، واندفع لغزو المناطق المجاورة في الصين وفي وسط آسيا، فاجتاح منذ بداية العقد الثالث من القرن الثالث

عشر الميلادي الدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر وخوارزم وخراسان وبعض مناطق إيران، واجتاحت التتار شرق أوروبا وروسيا، وأكمل التتار اجتياح المناطق المجاورة فاستولوا على بلاد الكرج (جورجيا) وغرب بحر قزوين واجتاحوا آسيا الصغرى وأرمينيا وديار بكر ومناطق الجزيرة وأطراف العراق .

ثم قسّى هولاء على الخلافة العباسية في العراق ودمر بغداد، قرب منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وتقدموا في بلاد الشام فاستولوا على حلب ودمشق ومعظم مدن الشام حتى فلسطين لولا أن ألحق بهم المماليك بقيادة السلطان قطز هزيمة ساحقة في عين جالوت سنة ١٢٦٠م وجرى طردهم من بلاد الشام وإنقاذ مصر وبقيّة العالم الإسلامي بل وأوروبا من شرهم.

وكان المسلمون قد تعرضوا منذ السنوات الأخيرة للقرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر الميلادي لغزو الصليبي والحملات الصليبية على الشرق، التي بلغت سبع حملات أسفرت عن إقامة أربع كيانات صليبية في أطراف العراق وبلاد الشام وفلسطين، فبرزت مملكة بيت المقدس الصليبية وثلاث إمارات لاتينية في الرها وبي أنطاكية وفي طرابلس واستمرت محاولات المسلمين لتحرير أراضيهم واسترجاعها من أيدي هؤلاء الصليبيين على مدى نحو قرنين من الزمان، حتى نجحوا في النهاية في الإجهاز على بقايا ذلك التبان واسترجاع أراضيهم من الصليبيين قرب أواخر القرن الثالث عشر الميلادي بعد معاناة شديدة وصعوبات مشيئة من الجهاد ضد هذا الغتصب. فكنّلت جهودهم وجهادهم في النهاية بالتوفيق .

غير أنه مما يلفت النظر أنه بينما كان المسلمون في الشرق الأدنى يجاهدون لطرد بقايا ذلك الكيان الصليبي بعد أن انتصوه من أطرافه باسترداد الرها بعد نحو نصف قرن من استقرار الصليبيين بها، واسترداد بيت المقدس إثر موقعة حطين تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي، بعد نحو نصف قرن آخر من الزمان، وبدأ ذلك الكيان يخترق بوشك أن يتداعى في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، حين لم يكن قد بقي بأيدي الصليبيين سوى إمارة أنطاكية وكذلك إمارة طرابلس فضلاً عن مدينة عكا، إذا بالخطر الآخر يهدد منطقة الشرق الأدنى وهو الذي قدم هذه المرة من سهوب آسيا ومنطقة منغوليا وهو خطر التتار أو المغول الذين أشرنا إليهم آنفاً، وهو الخطر الذي أضاف عبثاً جديداً على كاهل المسلمين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، وكان على المسلمين أن يواصلوا محاولاتهم في الإجهاز على بقايا الكيان الصليبي في الشرق، وفي نفس الوقت التسدي لهذا الخطر الجديد الذي روع الدنيا في ذلك الوقت، وأندر بشر مستطير، لاسيما وأنه تأكد للمسلمين أن ثمة اتصالات قد جرت بين أوروبا حكاماً ونباتاً وبين هؤلاء التتار بهدف التقارب والتحالف لتحقيق المصالح المشتركة على حساب المسلمين خاصة مسلمي الشرق الأدنى.

وبدت خطورة هذه الاتصالات في ضوء تعاملت هؤلاء التتار مع المسيحيين بصفة عامة والمسلمين في تلك المنطقة بصفة خاصة، بعد أن دان بعض رجال التتار بالمسيحية الفسطورية، أو وقعوا تحت تأثير من دان بهذه العقيدة من رجالهم أو نساءهم. وأدى هذا التأثير إلى نتائج خطيرة في تصرفات التتار تجاه المسلمين في آسيا وفي الشرق الأدنى. والمعروف أن هولاكو وقع تحت تأثير زوجته -لمر خاتون التي كانت

تدين بالمسيحية النسطورية، فضلاً عن اعتناق بعض قادة ورجال التتار بهذه المسيحية ممن قسادوا الجيوش المغولية ضد المسلمين في آسيا وفي الشرق الأدنى .

لذلك كله خصصت هذا المؤلف المتواضع لدراسة هذه الجوانب المختلفة وإلقاء الضوء عليها، أولاً: لدراسة أوروبا في القرون الأخيرة من العصور الوسطى، أي منذ أوائل القرن الثاني عشر حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي. لإظهار ما شهدته القارة في تلك الفترة من صحوة هامة في أقطارها المختلفة في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنجلترا وشرق أوروبا وكذلك دور البابوية في حياة المجتمع الأوربي في ذلك الوقت ونشاطها في المجالات المختلفة وحرصها على تحقيق أهدافها بصفة عامة والأهداف السلبية في الشرق بصفة خاصة، ولو اضطرت إلى معاداة الحكام والملوك والأممارة، وتوقيع قرارات الحرمان على من لا يستجيب منهم لمطالبها وتحقيق أهدافها .

وثانياً: دراسة التتار منذ قيام دولتهم في آسيا وجهود جتكتيز خان في إرساء دعائم هذه الدولة، بعد توحيد القبائل المغولية وانتزيمية والتركية، ثم توسعته في الصين وفي وسط آسيا وقضائه على الإمبراطورية الخوارزمية وحسم أملاكها إلى دولته الناشئة، ثم توسعته المنهول بعد جتكتيز خان وفي عهد خلفائه في روسيا وشرق أوروبا وغرب بحر قزوين وبلاد الكرج وآسيا الصغرى وأرمينيا والجزيرة وأطراف العراق ثم قضاء هولاقو على الخلافة العباسية في العراق وتدمير بغداد وطرز بلاد الشام والاسكندرية على حلب ودمشق ومعظم مدن الشام حتى فلسطين حتى يقاتلهم على يد المماليك في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م .

وثالثاً: تخصيص جزء هام من هذا المؤلف لدراسة إتصالات أوروبا حكاماً وبابوات بالتتار، والمحاولات التي جرت لتفسير هؤلاء التتار، والاستفادة من حماسهم والدفاعهم من ناحية ولحماية أوروبا من شرورهم وغزوهم من ناحية أخرى، ثم المحاولات التي جرت للتحالف معهم للاستفادة من هذا التحالف لتدعيم الكيان الصليبي في الشرق ومحاولات حفظ بقايا هذا الكيان الشترنج في النصف الثاني للقرن الثالث عشر الميلادي ومدى نجاح أوروبا حكاماً وبابوات في تحقيق ما هدفوا إليه من اتصالاتهم بالتتار.

وعسى أن أكون قد وفقت فيما هدفت إليه من إبراز هذه الجوانب الثلاثة لهذا المؤلف المتواضع، الذي حرصت فيه على الاستفادة من كافة المصادر العربية وغير العربية والمؤلفات والراجع الهامة في الشرق وفي الغرب على حد سواء وكل ما يثرى هذا الموضوع ويجلى غوامضه خاصة مقالات الموسوعات العلمية ومواد دوائر المعارف المختلفة والبحوث التي ألقيت في المؤتمرات العلمية والندوات، وكافة ما يحقق الغرض. وأرجو أن يحظى هذا العمل المتواضع بالقبول والقبول ويكون للقراء والدارسين وطلاب الدراسات العليا إسهاماً متواضعاً في دراسة هذا الموضوع وفهم حقيقة الأخطار التي تصدى لها المسلمون في منطقة الشرق الأدنى في تلك الفترة، ولا ينبى بهذا العمل سوى وجه الله سبحانه وتعالى، كما أتمنى أن يجد السادة الزملاء في هذا المؤلف بعض ما يؤملون وأن يأخذ هذا العمل مكانه في المكتبة العربية مرجعاً من مراجع التاريخ بصفة عامة وتاريخ العصور الوسطى بصفة خاصة.

والله ولي التوفيق.

محمد عبد مرسى الشيخ
٢٠٠٢/٨/١ م

1. The first part of the paper discusses the importance of the study of the history of the world, and the need for a more comprehensive and systematic approach to the study of the world's history.

2. The second part of the paper discusses the importance of the study of the history of the world, and the need for a more comprehensive and systematic approach to the study of the world's history.

3. The third part of the paper discusses the importance of the study of the history of the world, and the need for a more comprehensive and systematic approach to the study of the world's history.

الباب الأول أوروبا في القرون الأخيرة من العصور الوسطى

الفصل الأول : تطور التاريخ الأوربي منذ بداية العصور الوسطى حتى
عصر الحروب الصليبية أي حتى أواخر القرن الحادي
عشر الميلادي.

الفصل الثاني : معالم تاريخ فرنسا منذ بداية الحروب الصليبية حتى
أوائل القرن الرابع عشر الميلادي.

الفصل الثالث : تاريخ ألمانيا ؛ إيطاليا منذ عصر الحروب الصليبية حتى
أوائل القرن الرابع عشر الميلادي.

الفصل الرابع : إنجلترا منذ الفتح النورماني حتى أوائل القرن الرابع
عشر الميلادي .

الفصل الخامس : شؤون أوروبا وروسيا في القرون الأخيرة من العصور
الوسطى .

الفصل السادس : البابوية وازدياد قوتها وتأثيرها في حياة المجتمع
الأوربي في العصور الوسطى .

الفصل الأول

تطور التاريخ الأوروبي منذ بداية العمور الوسطى حتى عصر الحروب المطيرية او حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي

- تاريخ أوروبا حتى عصر شارلمان
 - فتوحات الجرماني وظهور الممالك الجرمانية في الغرب.
 - ازدياد أهمية البابوية في حياة المجتمع الأوروبي .
 - ظهور الإسلام وتأثير أوروبا به سياسياً وحضارياً .
 - عصر شارلمان في الغرب الأوربي .
- إمبراطورية شارلمان أو الإمبراطورية الكارولنجية .
- عصر الإمبراطورية في خالة وإيطاليا وألمانيا .
- بقية أقطار أوروبا الغربية التي لم تدخل في نطاق الإمبراطورية الكارولنجية.
 - أسبانيا
 - الجزيرة البريطانية
 - روسيا
- ضعف خلفاء شارلمان منذ أواخر القرن التاسع وانقسام الإمبراطورية.
 - ظهور دوقية نورمانديا في الشمال الغربي لغاية سنة ٩١١م
 - ظهور الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا منذ سنة ٩٣٦م
 - إنشواء إيطاليا تحت راية الأثنان في الإمبراطورية الجديدة .
- نهاية الأسرة الكارولنجية وقيام آل كابيه في حكم عائلة سنة ٩٨٧م
- الصراع بين أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة والبابوية حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي .

تمثل الألف سنة الواقعة بين القرن الخامس الميلادي والخامس عشر الميلادي - في رأى الغالبية العظمى من المؤرخين - حلقة التاريخ الأوربي الوسيط، يتقاليدها وتطعمها وأحداثها، تتميزاً لها عن التاريخ القديم وعن التاريخ الحديث، مرت القرون الأولى من هذه الفترة وحتى القرن السابع الميلادي في تفاعل ذاتي بطن، أخذ خلالها الغرب الأوربي يتمايش مع الظروف الجديدة التي شهدها والممالك الجرمانية التي انبثقت على أرضه وبين ظهرائه⁽¹⁾، على حين انقسمت الإمبراطورية البيزنطية في شرق أوروبا في أحداثها الخاصة وقتلتها الذهبية، وتسديدها لاختطاف الفرس والأتليار والبلغار والسلاف والقبائل الضاربة فيما وراء الباتوب⁽²⁾.

فقد شهد الغرب الأوربي غزوات القبائل الجرمانية التي اجتاحت أقاليم الإمبراطورية الرومانية الغربية، بغية إقامة ممالك على قرص هذه الإمبراطورية، وأوطان قومية لهذه القبائل في تلك الأقاليم، للإفادة من ثراء تلك الإمبراطورية، والإقامة في أملاكها في الغرب⁽³⁾. فقد أقام السوط الغربيون مملكة لهم في أسبانيا وجزء في جنوب غرب غالة، حتى نجح كلوطس - ملك الفرنجة - في إزاحتهم عن غالة، وقذف بهم إلى ما وراء البرانس بعد معركة قويمه سنة ٥٠٧ م، واستمرت هذه المملكة، قائمة في غالة حتى الفتح العربي الإسلامي للأندلس أي إلى أوائل القرن الثامن الميلادي فيما بين سنتي ٧١١ - ٧١٣ م بعد أن عمزت في تلك البلاد نحو قرنين ونصف من الزمان⁽⁴⁾.

(1) Palmer: A Hist. Of the Middle Ages, p. 3

(2) Ostrogorski: Hist. Of the Byzantine State, p. 47, p. 51

(3) Oman: The Dark Ages, p. 4

(4) Altamira: A Hist. of Spain, p. 76

كما أقام الوندال مملكة جرمانية في شمال إفريقيا. منذ أن عبر بهم جيزريك إلى شمال إفريقية سنة ٤٢٩م لينسحب الوندال فوق شمال إفريقيا من طنجة إلى طرابلس والاستيلاء على قرطاجة سنة ٤٣٩م، لتصبح مملكة الوندال إحدى ممالك الجرماني وأكثرها شراسة وقسوة في حكم هذا الإقليم من الأقاليم التابعة للإمبراطورية الرومانية^(٥)، واستمر حكم الوندال لشمال إفريقيا نحو قرن من الزمان حتى نجح الإمبراطور جستنيان - إمبراطور الإمبراطورية الشرقية - في إنهاء عهد هذه المملكة في شمال إفريقيا والقضاء عليها. حين أرسل قائد بلزاريوس ليصفي ملك الوندال في شمال إفريقيا، فأنقضى هذا الحكم سنة ٥٣٤م، وعادت شمال إفريقيا إلى حظيرة الحكم البيزنطي في الشرق .

واستفاد الموحديون الاندفاع من شمال غالة إلى جنوبها الشرقي لإقامة مملكة أريوسية الذهب في المنطقة الواقعة بين نهري الرون ورسنة جبال الألب، وتوسعت حتى كانت تبتلع المنطقة حتى ساحل البحر المتوسط^(٦)، ثم كافحت هذه المملكة، لتتصدى لمحاولات الفرنجة، حين تطلع هؤلاء تحت حكم كلوفيس لتتصفية هذه المملكة الأريوسية بحكم اعتناق الفرنجة المسيحية على مذاهبها الكاثوليكي ورفضهم في تطهير غالة من تلك العناصر الأريوسية^(٧). وإذا كانت مملكة الموحديين قد نجحت هذه المرة من بطلان الفرنجة بعد أن أعلن مذهبها جندوباد تحولاً

(٥) Oman: op. cit. p. 8

(٦) Hussey: The Byzantine World, p. 18

(٧) Kien : A Hist. Of Medieval Europe, p. 5

(٨) Pirenne: Mohammed and Charlemagne, p. 52

(٩) Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 285

Hodgkin: The unculding of the Nations, B. H. VII, p. 3371

وقومه إلى الذهب الكاثوليكي، فقد نجح خلفاء كلوقس في تصفية هذه المملكة في بداية العقد الرابع من القرن السادس الميلادي، بعد أن عصرت هذه المملكة في غالة نحو ثلاثة أرباع القرن، وظابت غالة للفرنجة وخلفاء كلوقس من البيت الميروفنجي⁽⁹⁾.

وكان غزو الفرنجة لغالة حلقة هامة من حلقات الغزو الجرمانى لإقليم من أقاليم الإمبراطورية الغربية، حين عبر الفرنجة البحريون شبر الراين سنة 486م بقيادة كلوقس ليشابوا فوق رقعة غالة مشكلين مملكة جرمانية، ربما كانت أهم وأبرز الممالك الجرمانية في الغرب⁽¹⁰⁾، نشراً لأن الفرنجة حين عبروا الراين إلى غالة لم يتخلّوا عن موطنهم الأصلي فيما وراء الراين ويؤزحوا إلى موطن جديد، وإنما احتفظوا بذلك الموطن فيما وراء الراين بمدعم ومدعمهم تبعاً في كل عام، فكان الأمر يقتصر على توسع الفرنجة في غالة مع الاحتفاظ بالموطن الأصلي ليحفظ عليهم أصولهم وتقاليدهم ويدفع في كبائهم في كل عام بدعاء جديدة⁽¹¹⁾، فضلاً عن أنهم حين انسحبوا فوق غالة كانوا لا يزالون وثنيين لم يعتنقوا المسيحية بعد. ولهذا حين تحولوا إلى المسيحية اعتنقوها على مذهبها الكاثوليكي الغربي، فصاروا في حلف مع البابوية والقربوا كثيراً من السكان الأصليين في غالة، ولم تند هناك هوة سحيقة تفصلهم عن السكان الغاليين الرومان⁽¹²⁾، وإذا أضفنا إلى ذلك معامتهم للسكان معاملة طيبة لينة وهزؤهم عن إترال السكان إلى رتب الميودية أو الاستيلاء على أراضيهم أو إجبارهم على دفع ضرائب باهظة أو التعسف في جمعها،

(9) Cantor: Med. Hist. P. 135, p. 147

(10) Lec: The end of the Ancient world, p. 316

(11) Heyck: "The rising tide of Teuten power" B. H. VII. pp. 34

38-9

(12) Oman: op. cit, p. 58

كل ذلك قريهم من السكان^(١٣) . وجعل مملكتهم أعظم الممالك الجرمانية . والمملكة الوحيدة التي بقيت ولم يفتس عليها واتصل تاريخها الوسيط بالتاريخ الحديث^(١٤) ، وهدت مملكة الفرنجة أعظم وأهم الممالك الجرمانية والمملكة التي حالقت البابوية وزادت هشيا والمملكة التي انجبت شارلمان باعث النهضة الأوروبية ومجدد عصر الإمبراطورية في الغرب .

كما تجع القوط الشرقيون وهم الشق الآخر من قبيلة القوط في الوصول إلى إيطاليا وإقامة مملكة جرمانية فيها اعتباراً من سنة ٤٩٣م ، حين نجح ثيودريك - الذي لقب بعد ذلك بـثيودريك العظيم - في الانتصار على أودواكر الذي كان قد أزال الإمبراطورية الرومانية الغربية في إيطاليا ونفي آخر أباطرتها إلى الجنوب . وأقام مملكة جرمانية هناك سنة ٤٧٦م^(١٥) . فاستلخ القوط الشرقيون الانتصار على هذا الملك وعصيته من أحلاف الجرمان والانسباب فوق إيطاليا ليخبط القوط الشرقيون صفحة من أبرز وأهم صفحات الغزو الجرمانى في الغرب^(١٦) . لأن ثيودريك ملك القوط الشرقيين في إيطاليا ما لبث أن أظهر روحاً طيبة تجاه الحضارة الرومانية . وحافظ على مفوماتها . ولم يتمسب بحكم أرموسيته ضد رجال الدين الكاثوليكى ، وإنما أظهر كثيراً من التسامح في إيطاليا^(١٧) ، ولم يشأ أن يغير في ذلك ، بل أنه شجع العلوم والفنون

(13) Pirenne : op. cit. pp. 54 - 6

(14) Cantor: op. cit. p. 143

(15) Katz: The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe , p.73

(16) Ostrogorski : op. cit. p. 58

Vasiliev : The Byzantine Empire . p. 107

(١٧) قنر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ١-٢ ص ٣٣

والآداب وأظهر احتراماً شديداً لشاغل الحضارة الرومانية هناك، وغدا بلاطه قبيلة الشعراء والأدباء والعلماء والفكرين حتى استحق اللقب الذي لقب به وهو ثيودريك العظيم^(١٨)، وظلت هذه الملكة الجرمانية قائمة في إيطاليا بعد وفاة ثيودريك العظيم بنحو ريع قرن من الزمان حتى نجحت جيوش جستنيان والإمبراطورية البيزنطية في القضاء عليها قرب منتصف القرن السادس الميلادي سنة ٥٥٢م بعد أن هزمت نحو ستين سنة لتبدأ صفحة جديدة في تاريخ تلك البلاد^(١٩).

أما الجزيرة البريطانية فكانت مقصد ثلاث قبائل جرمانية بدأت تتوافد عليها منذ منتصف القرن الخامس الميلادي، وعلى مدى قرن من الزمان حتى منتصف القرن السادس الميلادي حين انجلى هذا الغزو عن ظهور سبع ممالك جرمانية في بريطانيا أو ما يسمى بالهبتساركي Hepharchy واحدة أقبلها الجوت Jute وثلاث أقامها الإنجليز ومثلها أقامها السكسون^(٢٠)، فكانت مملكة كانت لقبيلة الجيوت، وأقام الإنجليز: إيست إنجليا (إنجليا الشرقية)، وتورثميريا ومرسيا، بينما أقام السكسون ممالك: إسكس وسكس ووسكس، وساعدت الظروف الجغرافية على تكوين هذه الممالك إلا أن الحروب الداخلية عاقبتهم عن تطويرها. ولم تصبح إنجلترا دولة متحدة إلا بعد مرور أجيال عديدة^(٢١). وظلت هذه الممالك تتصارع من أجل السيادة فيما بينها، وكلما نجحت إحداها في الانتماء على الباقيين أكسدت سيطرتها وسيادتها في الجزيرة

(18) Oman : op. cit. P. 20

(19) Hodgkin : "The moulding of the Nations" B.H. VII.

p. 3372

(20) Davis and Anther: "The British Isles" B.H. VII, p. 3837

(٢١) محمد الشيخ : - الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى ص ٤٦
- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ١١٤

وتحولت الممالك الأخرى في ظلها إلى مقاطعات ، وعلى هذه الصورة كان
هزرو واستقرار الجرمان في الجزيرة البريطانية ، حتى انتهى
الأمر - كما ستوضح فيما بعد - بالتحاد هذه الممالك في مملكة واحدة
لتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الجزيرة البريطانية^(٢٢) .

وعلى هذه الصورة كان انسياب الجرمان فوق رقعة أوروبا الغربية
في أسبانيا وغالطة وإيطاليا والجزيرة البريطانية فضلاً عن ملحقات
الإمبراطورية الغربية في شمال إفريقيا ، فضلاً عما شهدته أقاليمها من
هجوم واستقرار السكسون والألاني والبالارين وغيرهم من الجرمان
ليضيّع معالم الشق الغربي من الإمبراطورية الرومانية تحت وطأة هذا
الغزو والاستقرار الجرمانى ، وتتلخّص ملامح الغرب الأوربي بتفلسف
الجرمان مع الرومان لتبدأ مرحلة جديدة في أوروبا وصفحة جديدة في
تاريخها أسفرت عن امتزاج الجرمان بالشعوب الرومانية وظهور ملامح
جديدة لأقطار تلك المنطقة في العصور الوسطى.

وهكذا تشكل تاريخ أوروبا في تلك الفترة اثر غزوات القديريين
وانتشار المسيحية وتعمقها في نفوس الناس ، واتخاذ عناصر الحضارة
الرومانية أساساً لحضارة العالم الرومانى في العصور الوسطى وأتبع خلاتها
للشعوب الرومانية والجرمانية فرصة الاندماج والاندخال في لغاتها
وأثلاثها وقوانينها وعاداتها وتقاليدها^(٢٣) ، فضلاً عن أن هذه الحقبة قد
شهدت ظهور البابوية وأزدياد أهميتها في حياة المجتمع الأوربي والتفاف
الناس حولها كقوة بعد أن انهارت الإمبراطورية والحفسي

(22) Trevelyan: Hist. Of England, Part 1, p. 81

(23) Camb. Med. Hist. Vol. 2, pp. 55-56

الأنشطة وخلا الميدان من القوة السياسية والعسكرية التي يلتفت الناس حولها ويؤمنون حمايتها^(٢٤).

غير أنه بحلول القرن السابع الميلادي بدأت حقبة جديدة بالنسبة لأوروبا بظهور الإسلام وبداية الفتوحات الإسلامية، فأخذت أوروبا تتأثر تأثيراً عميقاً بالإسلام في كافة الميادين سواء السياسية أو العسكرية أو الحضارية^(٢٥)، ففي حين قلم المسلمون أقطار الدولة البيزنطية الواقعة في شرق أوروبا باقتطاع أهم الأجزاء والأقاليم التابعة لها في بلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا فضلاً عن بعض الجزر في البحر المتوسط مثل قبرص وكريت وصقلية^(٢٦) وروندس وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار، إذا بالغرب الأوربي يشهد تقدم المسلمين في أقاليم وأراضيه في أسبانيا وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وما بين إيطاليا وفرنسا^(٢٧)، فضلاً عن سيادة البحرية الإسلامية في البحر المتوسط والوثوب على سواحل أوروبا الجنوبية^(٢٨).

ثم كان عصر شارلمان ابتداء من الثالث الأخير من القرن الثامن الميلادي وبدايات القرن التاسع الميلادي بداية حقبة جديدة وفترة هامة في تاريخ أوروبا، جاءت عقب عصر درج فيه الفرنجة بصفة خاصة على

(٢٤) موس : ميلاد العصور الوسطى من ٤٠
(25) Seidlmayer: Currents of Med. Thought, p. 63 (Trans. By baker)

(٢٦) تاريخي : العرب والروم من ٧٢ - ٧٣

موس : الترجيع السابق من ١٩٦٢ ،
Heurder and Waley : A Hist. Of Italy , p. 28
Oman : op. Cit. P. 220

(27) Lat : The end of the Ancient World, p. 310

(28) Oman : op. Cit. Pp. 448-50

اتباع سياسة توسعية لاحتواء الممالك المجاورة وقرض السيطرة على القبائل الضاربة في الجهات القريبة، والتحالف مع البابوية، وحرص شارلمان على استمرار هذه السياسة بل والتوسع في تطبيقها⁽²⁹⁾، فنجح شارلمان في إقامة إمبراطورية كبيرة كادت تبتلع معظم الغرب الأوربي، ونجح في إضافة أراضي شاسعة لدولته، ونشر المسيحية بين شعوب وثنية ضاربة فيما وراء حدود مملكته ولم يكتف بحماية أوروبا المسيحية من الأخطار بل تعدى لكل الأعداء محاولاً القضاء عليهم وشرك أيتانهم وأحفاده إمبراطورية شاسعة، وحقق لأوروبا أمناً وسلاماً وفترة هامة في تاريخها الوسيط⁽³⁰⁾.

وخلال عصر الإمبراطورية الكارولنجية التي أقامها شارلمان، منذ أواخر القرن الثامن ومطلع القرن التاسع الميلاديين، اندمجت الأقطار الأوروبية الكبيرة في كيان واحد، وشكلت أجزاء هامة في تلك الإمبراطورية الكبيرة، فشكلت إيطاليا – باستثناء أراضي البابوية وبعض الأراضي الأخرى – جزءاً هاماً من إمبراطورية شارلمان⁽³¹⁾، كما دلفنت ألمانيا أو الجزء الشرقي في دولة شارلمان إلى أعتاب تاريخها الهام ضمن أقطار هذه الإمبراطورية الناشئة⁽³²⁾، وغدت فرنسا (غالة) حجر الزاوية في هذه الإمبراطورية وعصب هذا الكيان السياسي الجديد.

(29) Cantor : Med. Hist. P. 223

(30) Oman : The Dark Ages , pp. 338-9

(31) Hearder and Waley : op. Cit. Op. 32

Cantor : op. Cit. P. 221

(32) Einhard : " Life of Charlemagne " in Med. World . by Cantor, p.142

هوسن : ممالك العصور الوسطى ص ٢٥٢

Haskins : The Normans in European Hist. P. 31

أما أسبانيا فقد ظلت خارج نطاق هذه الإمبراطورية، وتناهت تاريخها في ظل الحكم الإسلامي، بعد فتحها على أيدي المسلمين في أوائل القرن الثامن الميلادي فيما بين سنتي ٧١١-٧١٣م^(٣٣) وانتشر الإسلام في ريوخا لتتقد النابوية جزءاً هاماً وإقليمياً مرتبط منذ زمن بعيد بالمسيحية وتاريخ المسيحية وشهد صفحة هامة في تاريخ تلك العقيدة، وسطر القديسون والشهداء جانباً هاماً في تاريخ تلك البلاد وتحولت بقاعهم مزارات للحجاج وطالبي القفران من المسيحيين، قلما دخل المسلمون أسبانيا ونشروا الإسلام فيها شعرت النابوية بخسارة شديدة وفقدت إقليماً هاماً مبرزاً عليها وعلى المسيحيين جميعاً خاصة وأن الحكم الإسلامي استمر في أسبانيا فترة طويلة ربما إلى أواخر العصور الوسطى^(٣٤).

وكذلك كانت الجزر البريطانية خارج نطاق إمبراطورية شارلمان، حيث خطت خطوة هامة نحو وحدتها واندماج ممالكها المتعددة لتظهر نتائج هذه الوحدة منذ أوائل القرن التاسع الميلادي في عهد ملوك السكسون في مملكة وسكس Wessex^(٣٥) خاصة في عهد ملكها داتس الصيت ألفريد العظيم الذي حكم اعتباراً من سنة ٨٧١ وحتى نهاية القرن التاسع الميلادي (٩٠٠م) والذي حاز مكانة في تاريخ الجزيرة البريطانية بنجاحه في التصدي لغزوات الفايكنج الشماليين أو النائيين، الذين توافدوا على الجزيرة، واجتاحوا بعض ممالكها لاسيما نورثمبريا ومرسيا وأبست أنجليا بعد أن استولوا على لندن وكانتربري^(٣٦)، ولم

(33) Ostrogorski : op. Cit, P, 104

(٣٤) ابن بول : العرب في اسبانيا من ٧١١، ٤٨٩، Cumb. Med. Hist, Vol. 8, p. 489

(35) Rayner : Concise Hist. Of Britain, p. 11

(36) Haskins : The Normans in European History, p. 33

يكن يوسع أحد التصدي لهم سوى الملك ألفريد ملكه وسكن الذي اتحدت عليه آسكال إنجلترا لحفظ استقلالها بعد ضياع لندن وكانتربري⁽³⁷⁾، فأبلى ألفريد العظيم بلاءً حسناً في حربهم واستطاع أن يلحق بهم عدة هزائم ويجبرهم على عقد أكثر من صلح، وإن لم يلتزموا كثيراً بذلك وإنما أظهروا روحاً عدائية شديدة تجاه السكان وبالقوا في إظهار القسوة والعنف معهم⁽³⁸⁾، مما كان يجدد الحروب التي نجح ألفريد في كسبها بعد صعوبات جمة⁽³⁹⁾، حتى أرغمهم في النهاية على اعتناق المسيحية وجرى تعميدهم، وحين توافقت جموع جديدة منهم قرب أواخر القرن التاسع إلى الساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة البريطانية، وهاجمت أساطيلهم ذلك الساحل، وكذلك الجزء الشمالي من مملكة كنت نجح ألفريد العظيم قبل وفاته بسنوات قليلة في إجبارهم على الانسحاب⁽⁴⁰⁾.

واعتبر ألفريد العظيم أحد الملوك العظام في تاريخ إنجلترا، لأنه نجح لأول مرة في جمع الممالك الإنجليزية على هدف واحد من طلال تصديه للفيكنج أو الدانين والخيولة بينهم وبين الاستيلاء على ما تبقى من إنجلترا وحفظه بعيداً عن متناول قبضتهم، فتجح قبيبا فشلت فيه الكثيرة من توحيد الإنجليز وجمعهم على هدف واحد، فضلاً عن إصلاحاته التعليمية والكنسية التي أضافت إلى الناحية القومية⁽⁴¹⁾، ولهذا عد عهده بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ الأمة الإنجليزية قاطبة⁽⁴²⁾.

(37) Cantor : Med. Hist. p. 121, p. 325

(38) Rayner : A concise Hist. Of Britain , p. 16

(39) Haskins : op. Cit. P. 34

(40) Schjath : " Great days of the Northmen " B. H. XII, p. 3554

(41) Southern : The making of the middle Ages, p. 167, 188

(42) Cantor : op. Cit p. 207. ^{١٢١} نشر : المرجع السابق من

وعند وفاته تجرأ خلفاؤه وأخذوا يستبدون البلاد من الدانين جزراً جزراً، وكلما تقدموا صوب الشمال وحرروا جزءاً أقاموا فيه قلعة أو معقلًا تحول بمرور الوقت إلى مدينة صغيرة حتى انتهى الأمر بتوحيد إنجلترا كلها تحت حكم ملك واحد هو الملك إدجار (٩٥٩-٩٧٥ م) الذي يمكن وصفه بأنه كان يحق ملكاً لإنجلترا المتحدة⁽⁴³⁾.

وتوارث خلفاء ألفريد العظيم الحكم في الجزيرة في الوقت الذي بدأ النظام الإقطاعي يلقى في كيان المجتمع الإنجليزي، فلما تول ملك ضعاف لم يعد يوسعهم السيطرة على النبلاء انتهب الدانين الفرصة واجتاحوا في أواخر القرن العاشر بعض جهات الجزيرة البريطانية حتى اضطر ملوك وسكس إلى دفع الأموال لهم ليرحلوا عن البلاد⁽⁴⁴⁾، ثم تزايدت موجاتهم في شكل غزو الاسكتلندي عام يعشل الأمة الاسكتلندية المتراصة، الأمر الذي ترتب عليه هروب الملك إلسرد إلى نورمانديا وقيام كاثوت ابن ملك الدانين في عرش إنجلترا سنة ١٠٦٦ م⁽⁴⁵⁾، وهذا هذا الملك يحكم إنجلترا والنرويج والدانمرك، فربطت إنجلترا بعجلة الإمبراطورية الاسكتلندية، ولم يعد عرش إنجلترا إلى البيت المالكة القديم في الجزيرة إلا في سنة ١٠٤٣ م. حين تجح إدوارد الثالث (المعترف) ١٠٤٣ - ١٠٦٦ م وهو من بيت ألفريد العظيم في استرداد عرشه بعد فترة قضاه في المنفى لدى نوي نورمانديا⁽⁴⁶⁾.

(43) Trevelyan : op. Cit. P. 81

(44) Simpson: Everyday life in the Viking Age, 43

(45) Trevelyan : op. cit. pp. 98-9

(46) Haskins : op. Cit. p. 74

وبه وفاة إدوارد الثالث المعترف سنة ١٣٩٦م تذرع فوق نورمانديا وليم - الذي عرف بعد ذلك بوليم الفاتح- ببعض الزرائع والحجج للاستيلاء على إنجلترا، فنزل على الشاطئ الجنوبي الشرقي لإنجلترا، وأُنزل الهزيمة بالإنجليز في معركة هاستنجز في نفس العام وفتح إنجلترا وضمها إلى نورمانديا، ولقب منذ ذلك الوقت بوليم الفاتح^(٤٧). وهكذا بدأ عهد جديد في الجزيرة لأن هذا الفتح كان فرصة مواتية لتوسع النورمان في كل مجالات الحياة في الجزيرة البريطانية، بعد إخضاع الجيوب المعارضة والسيطرة على بقية البلاد^(٤٨)، وكان هذا التوسع النورماني فرصة أيضاً لرجل الدولة والمنظم النورماني لإعادة ترتيب وتنظيم الحكومة في الجزيرة البريطانية، حتى اعتبرت إنجلترا بلداً نورمانياً حتى ليذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن ذلك لم يكن سوى عملاً لإعادة الإصلاح والتنظيم الذي تتطلب كل مواعب النورمان^(٤٩).

ولعل أهم نتائج هذا الفتح بالنسبة لإنجلترا هو تحول إنجلترا جهة الجنوب وزج بها دفعة واحدة في التيار الرئيسي للشؤون الأوروبية^(٥٠)، والمشكلات السياسية لأوروبا والشؤون الكنسية والمؤثرات الثقافية والفكرية بعد أن كاد الغزو الداني يفصل بينها وبين القارة ويشدها بعيداً إلى الشمال^(٥١). ولكن اتحاد إنجلترا ونورمانديا جعل إنجلترا جزءاً من فرنسا فتلقت لغة فرنسا وأدبها وفنونها أيضاً، وأصبح

(47) Trevelyan : op. Cit. pp. 116-17

(48) Stenton : Anglo Saxon England , p. 617

(49) Haskins : op. Cit. p. 81

(50) Ibid. p. 82

(51) Trevelyan : op. Cit. p. 102

قانونها إلى حد بعيد قانوناً فرتجياً وغدت مؤسساتها أكثر رسوخاً في النظم الإقطاعية، مع أن الاتصال بينها وبين فرنسا جرى خلال نورماندي وحمل إليها التأثير الفرنسي في أشكال نورمانيه⁽⁵²⁾، خاصة في المجالات التي برز فيها النورمان أو تفوقوا لاسيما في مجال الحكومة والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وليس بخلاف أن الملكية النورمانية القوية التي قامت في إنجلترا بعد الفتح هي التي حولت الدولة الانجلوسكسونية المتهككة إلى الأمة الإنجليزية، فلم تتحول إنجلترا إلى دولة أوروبية إلا بعد أن دغمت الثمن بجعلها بلداً نورمانياً⁽⁵³⁾. وعلى هذه الصورة جرى تاريخ الجزيرة البريطانية حتى أواخر القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر أي إلى بداية عصر الحروب الصليبية.

أما روسيا فلم يبدأ تاريخها إلا في القرن التاسع الميلادي، حين أوغل الفيكينج السويديون شرقاً في هجرة كبيرة، حيث احتكوا بالسلاف فأطلق عليهم السلاف اسم روس Rus أي الأحمر⁽⁵⁴⁾، في الوقت الذي انتفح فيه الطريق أمام هؤلاء للوصول إلى حوض نهر الدنيبر وسواحل البحر الأسود بعد انهيار قوة الآفار في القرن التاسع الميلادي، فترتب على ذلك تأسيسهم لدولة روسية في شرق أوروبا⁽⁵⁵⁾. ومن هذا الحدث بدأ تاريخ روسيا المكون، أي أن السويديين هم الذين وضعوا أسس الدولة الروسية⁽⁵⁶⁾.

(52) Haskins : op. Cit. p. 82

(53) Ibid. p. 82

(54) Camb. Med. Hist. Vol. 3 p. 327

(55) Ostrogorski : op. Cit. p. 102

(56) Haskins : op. Cit. p. 30

وتطراً لأن هؤلاء الروس عاقلوا الزراعة والرعي ونزعوا إلى التجارة، فقد تالفت روسيا في القرن التاسع الميلادي من مجموعة مدن تجارية كبرى نهض بعضها على نهر الدنيبر وروافده ونهر الفولجا الأعلى وبعض البحيرات الكبيرة، وأوغل هؤلاء الروس شرقاً حتى بحر قزوين واتخذوا طرقاً متعددة أحدها طريق نهر الفستولا إلى البحر الأسود ومنه إلى البسفور^(٥٧)، وبرع الروس في النواحي الإنشائية والتنظيمية والسياسية، فأصبحوا سادة روسيا، واتخذوا لهم مستعمرات في جنباتها لاسيما مدنها التجارية الكبرى مثل نوفجورود، كما استولوا على كييف واتخذوا منها دوقية روسية، فأصبحت مركزاً هاماً للروس في شرق أوروبا^(٥٨)، ثم ما لبث أن اتسع نفوذها فشمّل جانباً كبيراً من السهل الروسي، ولم يمض وقت طويل حتى تفلّت المسيحية وتيارات الدنية من القسطنطينية إلى هؤلاء الروس^(٥٩).

وإلى جانب ما انصف به الروس من حب للتجارة كانوا أيضاً محاربين أشداء اتخذ منهم الأباطرة البيزنطيون جنداً مرتزقة، وفرقاً للحرس الإمبراطوري، غير أن هؤلاء الروس أعطوا التجارة كل اهتمامهم، وكثيراً ما أشعلوا الحروب بسببها، لاسيما مع الدولة البيزنطية لتحكمها في المضائق وتجارة البحر الأسود^(٦٠). وعلى هذه الصورة جرى تاريخ الروس حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي.

(57) Trevelyan: op. Cit. p. 75
Schjoth : "Great days of the Northmen." B. H. VII. pp. 3539-40

(58) Keen : op. Cit. p. 25

(٥٩) قنر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ق ١ ص ٦١٥
(60) Schjoth : op. Cit. pp. 3539 - 40

وإذا كانت إمبراطورية شارلمان لم تسعد كثيراً بوحدةها، بل هانت من جديد مقبة الانقسام والتداعي، حيث لم يستطع خلفاء شارلمان الحفاظ على وحدة هذه الإمبراطورية إلى أواخر القرن التاسع الميلادي⁽⁶¹⁾، إلا بصعوبة كبيرة أو ينجحوا في منع انهيار هذه الإمبراطورية - بما كانت تمثل من وزن في وحدة العالم الغربي إلا بشق الأنفس إلا أن نتائج هذا الانقسام والضعف أخذت تظهر في الغرب الأمر الذي حاولت معه الكنيسة الغربية أن تبرز كوحدة دينية كبرى للفرز بولاء الشعوب الغربية والاتفاف حول البابا. وفي نفس الوقت حاولت الكنيسة أن تجمع هذه الشعوب على هدف واحد وتبث فيهم مشاعر الانتماء إلى الوحدة الجديدة ولو أقيمت هذه الوحدة في ظل الكنيسة أو البابوية⁽⁶²⁾.

قلم يكن في فرنسا - قلب الإمبراطورية الكارولنجية - في أواخر القرن التاسع الميلادي مثلاً للبيت الكارولنجي سوى طفل صغير في السابعة أو الثامنة من عمره، الأمر الذي أدى إلى انتخاب أودو كونت باريس ملكاً وهو أمر أبلته الأخطار المحدقة بالبلاد في ذلك الوقت وحاصر النورمان لباريس⁽⁶³⁾ خاصة وقد أكد هنا حقيقته في العرش الفرنسي بنجاحه في رد الغزو النورماني عن منطقة السين واللوار وإجبار هؤلاء الفرقة على ترك الحصار عن باريس، على الرغم من أن هذا لم يكن بمرور الوقت - سبباً مقنعاً لاحتفاظه بالعرش في ظل النظم الإقطاعية⁽⁶⁴⁾، ووجود الكونتات والتبلاء الإقطاعيين المنافسين من ناحية وعودة أودو

(61) Hoyt and Chodorow : Europe in the Middle Ages, p. 204

(62) Cantor : op. cit. p. 225

(63) Davis : op. cit. p. 166

(64) Ganshof : Feudalism, p. XVI, p. 3, p. 115

Hoyt and Chodorow : Europe in the Middle Ages, pp. 202-3

لمسألة النورمان ودفع الأموال الطائلة لهم حين عادوا لتسديد البلاد من ناحية أخرى^(٦٥)، في الوقت الذي كان الولاء للسلالة الكارولنجية لازال باقياً والرغبة في الحفاظ على أملاكها لازالت حاضرة من ناحية ثالثة .

لهذا اندلعت الثورات في البلاد واضطربت الأحوال وجرى في النهاية تنويع سليل الأسرة الكارولنجية شارك البسيط سنة ٨٩٣م واضطر أوبو إلى الاستسلام في النهاية ووافق على أن يخلفه شارك البسيط عند وفاته نظراً لأنه لم يكن له عقب، فلما توفي سنة ٨٩٨م أصبح شارك البسيط ملكاً على فرنسا^(٦٦) مسترداً بذلك عرش آباءه وأسرته الكارولنجية، وعلى الرغم مما لحق بهذا الملك من أساءات جعلته في عداد البسطاء أو المذبح إذ سمي بشارك البسيط أو الساخج إلا أن فريقاً من المؤرخين يؤكد أن هذا الرجل لم يكن يخلو من مشاقب^(٦٧)، ولم تكن تنقصه القوة أو الطموح في وقت اشتدت فيه هجمات النورمان وغزواتهم في الشمال الغربي من فرنسا وهي الهجمات التي أرققت مضاجع الفرنسيين وأقضت مضاجعهم فتسدى لها هذا الملك وكبار نبلائه^(٦٨) في أوائل القرن العاشر الميلادي في حمة وهزيمة وحماسة طاغية، حتى نجح في إلحاق هزيمة كبيرة بهم تحت أسوار شارتر تراجعتوا بعدها إلى الورا و قبل زعيمهم روللو توقيع معاهدة صلح مع شارك البسيط عرفت بمعاهدة سان كثير على نهر الإيت في يوليو سنة ٩١١^(٦٩) وهي التي كانت نقطة

(65) Camb. Med. Hist. V, III, p. 322.

(66) Fliche : L'Europe Occidentale , p. 68.

(٦٧) حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ص ٤٧٤

(68) Camb. Med. Hist. V, III, p. 322.

(69) Cantor : op. cit. p. 254.

Oman : op. cit. p. 501

الهداية للنورمان في تأسيس دوقيتهم في الشمال الغربي لغالطة، ومركز الانطلاق لهم بعد ذلك لغزو الجزيرة البريطانية سنة ١٠٦٦م تحت قيادة ولهم الفاتح وتخرج منها جماعات إلى جنوب إيطاليا وصقلية ليلعب النورمان دورهم التامسك في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين⁽⁷⁰⁾.

وإذا كانت الأسرة الكارولنجية قد حافظت على عرشها مدة تريسو على نصف قرن من الزمان بعد ذلك وحتى سنة ٩٨٧م أي إلى أواخر القرن العاشر الميلادي، على الرغم من أن تسلسل هذا الحكم قد قطعته حوادث غير متوقعة أحياناً وفقدت هذه الأسرة عرشها سنوات خلال هذه الفترة⁽⁷¹⁾، إلا أن سنة ٩٨٧م جاءت خاتمة لحكم هذه الأسرة ونهاية لحكم ملوكها في فرنسا حين اختير هيو كابيه ملكاً على البلاد وابتدع جموع الشعب الفرنسي هذا الاختيار وبركته أيضاً الكنيسة الفرنسية⁽⁷²⁾.

وعلى هذه الصورة كانت نهاية الأسرة الكارولنجية في حكم فرنسا في أواخر القرن العاشر الميلادي وخلفها آل كابيه في حكم البلاد في الفترة من سنة ٩٨٧م إلى سنة ١٣٢٨م أي أن هذه الأسرة الجديدة حكمت فرنسا نحو ثلاثة قرون ونصف⁽⁷³⁾ وعمل المؤرخون أسباب سقوط الأسرة الكارولنجية بأن ملوكها لم يستطيعوا مسايرة النظم الإقطاعية التي غدت عصب الحياة الاجتماعية في البلاد في ذلك الوقت، ولم يستطيعوا مواكبة أنفسهم مع هذه التيارات الإقطاعية التي أصبحت لتغلغل في كيان المجتمع في وقت لم يعد يوسع أي سلطة الاستمرار دون أن تستدعها أسس

(70) Haskins : The Normans in European Hist. P. 45

(71) Camb. Med. Hist. V. III, p. 74, p. 80

Davis : op. cit. p. 168

(72) Camb. Med. Hist. V. II, p. 80

(73) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 204

حاليوم : المرجع السابق ص ٢٨٩

إقطاعية⁽⁷⁴⁾ ، وأكد تاريخ آل كابيه الأوائل هذه الحقيقة ، فقد حكم أربعة منهم على مدى نحو مائة وعشرين عاماً (٩٨٧-١٠٠٨م) دون أن يتصغيروا كثيراً عن أفضالهم الإقطاعيين ، ولهذا فقد بدأ ملوك آل كابيه الأربعة الأوائل وحتى أواخر القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر في ظل هذه الأوضاع ملوكاً ضعافاً⁽⁷⁵⁾ .

وإذا كانت الحملة الصليبية الأولى قد جذبت بعض كبرار الإقطاعيين ، الأمر الذي لربب عليه هدوء المسرح الفرنسي من ذلك الصراع والتنافس قليلاً إلا أن ذلك كله لم يبطئ ذلك الفرنسي كل ما كان يأمل فيه من السلطة والنموذ ويمتدح الملكية قوة أو منعة ، وظل الوضع على هذا الحال حتى ولاية الملك توماس السادس سنة ١٠٠٨م الذي تبدلت الأوضاع في عهده خاصة في النصف الأخير من عهده لتشهد البلاد خضوع معظم الأنبياع الإقطاعيين⁽⁷⁶⁾ لاسيما وقد دخل في حلف مع البابوية واتخذ موقفاً حازماً مع رجال الدين في بلاده ، ولم يسمح للكنيسة في بلاده أن تملو فوق سلطانه⁽⁷⁷⁾ .

وهكذا كان تطور الأمور في فرنسا قلب الإمبراطورية الكارولنجية وما آل إليه حالها في ظل الملوك الأواخر من الأسرة الكارولنجية والملوك الأوائل من آل كابيه حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي (١٠٠٨م) وأوائل القرن الثاني عشر الميلادي.

(74) Tille: " France under the early Capets " in the Book of Hist. v, VII, p.3771

(75) كاتنور : التاريخ الوسيط ص ٦٠٤ وترجمة د. قاسم عبده قاسم القاهرة ١٩٨٣م

(76) Keen : A Hist of Medieval Europe, p. 89

(77) Tille : op. cit. p. 3771

أما ألمانيا التي كانت تمثل الجزء الشرقي من الإمبراطورية الفرنجية، فقد قامت فيها دولة مستقلة حين انتهت فيها سلالة البيت الكارولنجي في أوائل القرن العاشر سنة ٩١١م⁽⁷⁸⁾ واختير فيها كوتراو الأول ملكاً ثم خلفه هنري الأول (الصياد) سنة ٩١٩م الذي كان بوقاً لسكسونيا والذي ظل يحكم إلى سنة ٩٣٦م حيث أخذ الطابع الألماني يغلب على هذه الدولة لتبرز حلقة جديدة في تاريخ ألمانيا المستقلة⁽⁷⁹⁾، لم خلفه أوتو الأول Otto (٩٣٦-٩٧٣م) فشكل ذلك نقطة تحول هامة في تاريخ هذه الدولة إذ يعتبر هذا الرجل مؤسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بما يشير إليه اسمها من ارتباط إيطاليا وألمانيا برباط متين تحت سيادة حاكم واحد، وعهد أوتو الأول للمؤسس الثاني للإمبراطورية في الغرب بعد شارلمان خاصة بعد دخوله روما سنة ٩٦٣م وتبنيته على يد البابا حنّا الثاني عشر، في نفس المكان الذي توج فيه شارلمان من قبل⁽⁸⁰⁾.

ثم ازداد الارتباط بين إيطاليا وألمانيا في ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد الأباطرة الذين جاءوا بعد أوتو الأول سنة ١٠٥٦م، وأصبحت إيطاليا في نظر هؤلاء الأباطرة لا تنقل أهمية عن ألمانيا⁽⁸¹⁾ لاسيما وقد بذل هؤلاء الأباطرة جهوداً في تثبيت نفوذهم في إيطاليا كلها لا سيما في الجنوب، حيث وثب المسلمون من سفلية واستولوا على بعض المراكز في جنوب إيطاليا في الوقت الذي حرص فيه هؤلاء الأباطرة على إظهار الإمبراطورية بمتنوع الوارثة للتراث روما القديمة من ناحية وإمبراطورية شارلمان من ناحية أخرى⁽⁸²⁾.

(78) Oman : op. cit pp. 472 - 3

(79) Camh. Med. Hist. V, III p. 179

(80) Oman : op. cit. p. 373

(81) Bryce : The Holy Roman Empire, pp. 136 - 8

(82) Epistolae Gerberti . Ed. Havet 1889, p. 231 Chronicon novaliciense (Trans. Davis. in C.M.H. 3, pp. 213 - 14)

هذا وقد حرص أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على دخول روما، وفيها توج بعضهم ومثلت الفترة بين سنتي ١٠٣٩ و ١٠٥٦ وهي الفترة التي حكم خلالها الإمبراطور هنري الثالث أزهى عهود الإمبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب بلغت خلاله الإمبراطورية أوج قوتها وقوة عظمها، وأضحى بوسمها توجيه سياسة الغرب الأوروبي قاطبة^(٨٣) خاصة وقد حرص هذا الإمبراطور على إصلاح الكنيسة في إيطاليا وتطهيرها من الفساد والتنازع على الكرسي البابوي ووضعها تحت سلطته وسيطر عليها سيطرة تامة، على الرغم من أن البابوية كانت قد أخذت تنفصل وتقوى وتحاول التخلص من هذه السيطرة وطرح هذه الطاعة مما أضحى يحدث نزاع حاد بينها وبين الإمبراطورية. أضحت هذه الطاعة مما أضحى يحدث نزاع حاد بينها وبين الإمبراطورية. أضحت في عهد خليفة هذا الإمبراطور (هنري الرابع) ذائع الصيت الذي بدأ عهده سنة ١٠٥٦م واعتلاء الكاردينال هك براند كرسي البابوية كأشهر بابوات العصور الوسطى سنة ١٠٧٣م باسم البابا جريجوري السابع^(٨٤).

اندلع الصراع بين الإمبراطور هنري الرابع والبابا جريجوري السابع بسبب التقليد المائني وإصرار البابا على أحقوقه في تعيين الأساقفة في الوقت الذي تمسك هنري الرابع برأيه وأحققه في ممارسة حقوقه التي ورثها عن آباءه وأجداده فضلاً عن إصراره على الوقوف في وجه البابا لتأكيد هيئته في أملاكه في إيطاليا وفي ألمانيا ذاتها^(٨٥)، على حين آمن البابا بنظرية التفوق والسمو البابوي على كافة القوى العلمانية

(83) Camb. Med. Hist. v. III, pp. 272-306

(84) W. Durant : The Age of the faith, 395 - 1300, pp. 545 - 546 (N. V. 1950)

(85) Brooke : A Hist. of Europe 911-1198, p. 171

بما فيها الإمبراطورية.. وساءت الأمور بين الرجلين وتدرجست الأمور في صالح البابوية لينتهي هذا الدور من الصراع بالنصر البابوية واستسلام الإمبراطور وإقراره بحقوق البابوية وإجابة مطالبها وذلك في يناير ١٠٧٧^(٨٦)... قبل أن يتجدد هذا الصراع من جديد حتى وفاة البابا جريجورى السابع سنة ١٠٨٥م بعد أحداث كثيرة واستماتته بالثورمان في جنوب إيطاليا ثم اعتلى كرسى البابوية البابا ذائع الصيت أوربان الثانى الذى دعا إلى الحرب الصليبية الأولى ثم البابا هاسكال الثانى الذى تابع سياسة جريجورى السابع وتابع عداه للإمبراطور هنرى الرابع حتى اضطر هذا إلى التنحى عن عرش الإمبراطورية سنة ١١٠٥م^(٨٧).

وعلى هذه الصورة كان تاريخ ألمانيا وإيطاليا في ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ انفصال ألمانيا عن إمبراطورية شارلمان في أوائل القرن الماشر حتى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى حيث لعبت دورها في تلك الفترة بعد أن ضمت إيطاليا وأسمت نفسها الإمبراطورية الرومانية المقدسة إشارة إلى رباط ألمانيا مع إيطاليا في تلك الفترة .

(86) Camb. Med. Hist., V, p. 69

(87) Robinson: An Introduction to the Hist. of Western Europe, I, P. 200

الفصل الثاني

معالم تاريخ فرنسا منذ بداية العروب. المظبية منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادي

- أهمية عرض تاريخ أقطار أوروبا في هذه الفترة .
- تطور تاريخ فرنسا (غاة) حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي

- ملوك آل كابيه الأربعة الأوائل في فرنسا (٩٨٧ - ١١٠٨ م)
- لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧ م) .
- لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠ م) .
- فيليب أوغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) .
- لويس الثامن (١١٢٣ - ١٢٢٦ م) .
- لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) .
- فيليب الثالث (١٢٧٠ - ١٢٨٥ م) .
- فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤ م) .
- آخر ملوك الأسرة (١٣١٤ - ١٣٢٨ م) .

عرشناً في الفصل السابق مجملًا للتاريخ الأوروبي الوسيط حتى بداية عصر الحروب الصليبية أي إلى أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الميلادي، وفي الصفحات التالية نعرض تطور هذا التاريخ في الجانب السياسي منذ بداية الحروب الصليبية إلى أواخر العصور الوسطى خاصة القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وهي الفترة التي شهدت تصافر أقطار الغرب الأوربي وكذلك البايوية لدعم الوجود الصليبي في الشرق^(١) ومنع انهيار أسام التيار الإسلامي الذي أخذ ينقص هذا الكيان من أطرافه توطئة للقضاء عليه تمامًا وطرد الصليبيين نهائيًا من الشرق الأدنى^(٢).

وتأتي أهمية عرض التاريخ الأوربي في هذه الفترة من العصور الوسطى لأنها الفترة التي سعى فيها حكام أوروبا والبايوية إلى التناثر في الشرق لإقامة علاقات معهم وبناء جسور اتصال مع أولئك الذين روعوا آسيا والشرق الأدنى واجتاحوا بلاداً كثيرة هناك وقضوا على الخلافة الإسلامية في بغداد وأنهوا عصر المماليك في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي^(٣)، وما حدث من انسيابهم بعد ذلك إلى بلاد الشام وقلسطين مهددين مصر وبقية الأقطار الإسلامية، ولهذا كان لابد من عرض الظروف التي مرت بها أقطار أوروبا في الغرب وما أصاب البايوية من تطور في تلك الفترة لمعرفة نتائج ذلك كله وانمكاساته على الموقف مع الصليبيين في الشرق وأسباب الاتصال بالتناثر ومحاولة استمالتهم لدعم

(1) Stevenson : The Crusaders in the East, pp. 301-2

(2) Grousset: Histoire des Croisades . 111, P. 642

Kirry : The knights Hospitalliers in the Holy land, p. 264

(3) David Morgan : The Mongols, pp. 179-185

فإنما كان حكام الغرب الأوربي قد تحمسوا في كثير من الأحيان لدعم الصليبيين في الشرق بإرسال الحملات العسكرية وبفتح المساعدات الحربية حين أحسوا بضعف هذا الكيان وثرنته حتى أوشك أن يتداعى^(٥)، فإن البابوية كانت أكثر حذراً على دعم هذا الكيان وبذلك كل ما في وسعها لتأييد الصليبيين ومساعدتهم واستقطاب الحلفاء لهم، ولهذا فقد مالاً حكام أوروبا هؤلاء التتار وأظهروا لهم المودة وسعوا للاستفادة منهم لتحقيق أغراضهم في الشرق^(٦) في الوقت الذي أظهرت فيه البابوية حماسة طاغية للتقرب من هؤلاء التتار وإظهار المودة لهم أيضاً التماساً لصدقاتهم ودعمهم للكيان الصليبي في الشرق بإغراء التتار بالاستمرار في الهجوم على المسلمين لتحقيق لهذا الغرض، ولا بأس إذا كانت جهود رجالها ومبشرها بالتجاذب في تحويل التتار الوثنيين إلى المسيحية ووضعهم في خدمة الكنيسة الغربية^(٧).

أي أنه من خلال ما قدمته أوروبا للصليبيين من دعم ومساعدة، وما كانت توليه البابوية من جهود في هذا المجال، ومن خلال ما ظهر من تحفز المسلمين للتصقية هذا الكيان الضعيف والتفاه على بقاياه، جاءت اتصالات أوروبا بالتتار لجذبهم إلى المنطقة وإدخالهم في حروب مع المسلمين لتخفيف الضغط على بقايا الكيان الصليبي في تلك الفترة ومنعه

(4) Grousset : op. cit. 111 , p. 525

(5) Camh. Med. Hist. V.5, p.310, Baldwin: Med. Church. pp. 620-1

(٦) زيادة : حملة لويس التاسع على مصر من ٨٨ - ٨٩
(7) D'Ohsson : Histoire des Mongoles, III, pp. 410-12
Howarth: History of the Mongols, III, PP 278 - 81

من الانهيار^(٨)، فضلاً عن آمال البابوية في إدخال هؤلاء التتار في المسيحية واستمرار التبشير بينهم بالمسيحية لتحويلهم إلى أداة طيعة في يد السلطة الدينية في أوروبا ليصبحوا في خدمة الكنيسة الغربية^(٩).

لهذه الأسباب كلها رأينا أن نعرض تاريخ أقطار الغرب الأوربي في تلك الفترة من القرنين الثاني عشر والثالث عشر وما بعد ذلك لأنها الفترة التي شهدت نشاطاً وحداً من أوروبا سياسياً ودينياً لدعم الصليبيين في الشرق واستقطاب الحلفاء لهم ومحاولة تخفيف الضغط عليهم من قبل المسلمين بالتحالف مع التتار ونبدأ عرض هذا التاريخ بعرض تاريخ فرنسا السياسي.

لقد وضع من الفصل السابق كيف انتهت الأسيرة الكارولنجية في فرنسا سنة ٩٨٧ م ، وألقيها آل كاييه في حكم فرنسا، وكيف مرت الفترة الأولى من عهد هذه الأسيرة الجديدة حتى سنة ١١٠٨ م وهي التي شهدت جهود أريمة من الملوك على مدى نحو مائة وعشرين عاماً دون ما يلتفت النظر في تاريخ هذا الفطر^(١٠) ، لأن هؤلاء الملوك الأربعة الأوائل من آل كاييه لم يستطيعوا مجازاة كبار النبلاء الإقطاعيين في فرنسا في قوتهم أو سطوتهم ، خاصة وقد تطلع بعض هؤلاء النبلاء إلى توسيع نطاق إقطاعاتهم ونفوذهم وحازوا الأملاك وتصرفوا دون كبير اعتناء بملئكمهم الفرنسي ، لاسيما دون نورمانديا ودوق برجنديا وكونسك فلاندرز وغيرهم

(8) Grousset : op. cit. V, 111, p. 525

(9) David Morgan: The Mongols, p. 180, Keen: op. cit. p. 157, p. 163

(10) Tille : " France under the early Capets " - in the Book of Hist. V. VII, p. 3771

من كبار الأقباط الإقطاعيين^(١١) نظراً لتقليل التنظيم الإقطاعية في حياة المجتمع الفرنسي واستمرار تطلع الإقطاعيين حتى صارهم - إلى ممارسة لون من ألوان الاستقلال والظهور بمظهر العظمة والسلطان^(١٢).

وبدأ عهد الملك الخامس من ملوك هذه الأسرة وهو الملك لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧م) شهدت فرنسا فترة جديدة ومهماً آخر، لأن هذا الملك أسهم بتسديد كبير في وضع الأسس التنظيمية للسلطة الملكية^(١٣)، خاصة في النصف الثاني من عهده بإخضاع أقباطه الإقطاعيين في فرنسا وإجبار ملك إنجلترا هنري الأول على الإقرار بالتبعية له بوصفه دوقاً لنورمانديا^(١٤)، وإن لم يقض هذا على تطلمات ملك إنجلترا في الهيمنة على الملكية الفرنسية بحكم أن ملوك إنجلترا قد جمعوا بين عرش إنجلترا ودوقية نورمانديا منذ استيلاء وليام الفاتح على إنجلترا^(١٥)، وتعرض لويس السادس لمشكلات كثيرة من قبل هذا الملك الذي جد في ضم بعض النبلاء الإقطاعيين إلى جانيه من الحائزين على ملك فرنسا في يريتهائي وفي جزيرة فرنسا وكونت بلوا وأهالي بعض المدن، ولكن الملك لويس السادس ظل صامداً محتفظاً بمركزه وقوته^(١٦).

وليس من شك في أن لويس السادس قد منح الملكية الفرنسية قوة وشأناً في مواجهة الأخطار المختلفة التي كانت تواجه فرنسا وترك العرش الفرنسي أقوى مما كان معهداً السبيل لخلفائه لمواصلة العمل على تليبيت

(11) Haskins : op. cit. pp. 64 - 5

(12) Camb. Med. Hist. V, 11, Pp. 594-7

(13) Tiller : op. cit. p. 377

(14) Rayner : op. cit. pp. 40 - 41

(15) Heer : The Med. World. P. 314

(16) Warner and Marten: The Growth and work of British Hist. p. 67

دعائم هذا الحكم^(١٧) ، وخلقه لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠م) الذي امتد حكمه فترة طويلة في القرن الثاني عشر ونجح في ضم دوقية إكوتين عن طريق الزواج السياسي بزواجه من وريثتها الشرعية إيلينور، ولم يحفل بما كان يحدث من فتن في جهات مختلفة من فرنسا بل أنه استطاع إخماد ثورة نفجبرت في شامبني سنة ١١٤٧م بلسن كبير من الجسارة والاندفاع حتى اضطر إلى الهجوم على عدد من الشائرين الذين احتسوا بإحدى الكنائس خلال تلك الثورة واضطر لإحراق هذه الكنيسة فاحترق فيها نحو ألف شخص من الرجال والنساء والأطفال، الأمر الذي أثار غضبه وظل ينفخ عليه حياته خاصة وأنه كان على شرف كبير من التقوى والورع، ولهذا فقد فكر في القيام بحملة صليبية للتكفير عن ذنبه فشارك في الحملة الصليبية الثانية^(١٨) مصطحباً معه زوجته إيلينور سنة ١١٤٧م وهي الحملة التي شاركه في القيام بها إمبراطور ألمانيا كونراد الثالث .

ويشير المؤرخون إلى أن عهد هذا الملك الفرنسي كان استقراراً لمعد القوة في عصر آل كابيه لأنه استمر في تطوير نظم الحكم في فرنسا ومؤسستها. فشلاً عن ممارسته السيطرة على كبار الأمراء الإقطاعيين^(١٩)، إلا أن فرنسا واجهت من جديد عداء ملك إنجلترا وذلك حين طلق لويس السابع زوجته إيلينور وارتبة إكوتين بسبب اختلاف الطباع بينهما وميل إيلينور إلى المرح والطرب والاستمتاع بالحياة وعدم

(17) Tille : op. cit. p. 3771

Keen : op. cit. p. 88

(18) Tille : op. cit. p. 3771

(١٩) كالتور : التاريخ الوسيط في ٢ ص ١٥٥

استطاعتها مجاراة الملك في أسلوب الحياة التي يعمل إليها⁽²⁰⁾ ، فضلاً عن أنها لم تنجب وريثاً ذكراً يلي العرش من بعده فانتهى الأمر بطلاقها⁽²¹⁾ ، فتزوجت من هنري الاتجوى الذي اعتلى عرش إنجلترا باسم هنري الثاني سنة ١١٥٤م⁽²²⁾ ، قامت بممتلكات ملك إنجلترا الجديد وزوج إلهانور في صلب القارة من الجزيرة البريطانية حتي جبال اليرانس بما في ذلك كونتية أنجو ودوقية إكوتين مما أرهص بمصداً جديد مع الملك لويس السابع⁽²³⁾ .

اندلعت الحرب ضاربة بين الملكين حين حاول هنري الثاني الاستيلاء على مدينة تولوز، فتصدى له لويس السابع، ثم تبدلت الظروف في صالح لويس السابع الذي استلزم بعض الأخطاء التي وقع فيها هنري الثاني ، خاصة قتله توماس بيكت رئيس أساقفة كانتربري، وانصراف كبار أتباعه عنه في بريتانى وبواتو وجوين واتجاههم لمساندة لويس السابع ، في الوقت الذي مال فيه لويس السابع إلى كسب الأعوان في الداخل لمساندته في صراعه مع كبار الإقطاعيين⁽²⁴⁾ ، كما لجأ إلى التقارب مع حكام ألمانيا والتحالف معهم وكذلك إشارة المشاكل في وجه هنري الثاني بتحويل أبنائه الثلاثة عليه وهم الذين كانوا يثبون عنه في حكم أملاكه في فرنسا، ونجح في ذلك إلى حد بعيد، الأمر الذي خلف عنه خطر هنري الثاني وخطير الملكية الإنجليزية ضد آل كابيه في

(20) Heer: op. cit. p. 153, pp. 156-9

(21) Tille : op. cit. p. 3771

(22) Camb. Med. Hist. v. 3, p. 609

(23) Heer : op. cit. p. 337

(24) Mahrenholz: " France Through the Middle Ages" B. H. V. 111 , p. 2764

شهدت فرنسا بعد ذلك ولادة تقترب من أربعة وأربعين عاماً فترة ازدهار وقوة على عهد ملكها الجديد فيليب أوغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣ م)، الذي منح الملكية الفرنسية قوة في الداخل وتوسعاً في الخارج⁽²⁶⁾، وتمكن من تحقيق ذلك بفضل ما حياه الله به من ذكاء وفطنة وحسن تقدير للأمور من ناحية، وما أظهره من صبر وثبات مزمنة من ناحية أخرى، فأصبح - على حد قول المؤرخين - ثالث الحكام الكبار في أواخر القرن الثاني عشر والربع الأول من القرن الثالث عشر، إلى جانب هنري الثاني وريتشارد بربروسا⁽²⁷⁾.

تمكن فيليب أوغسطس منذ بداية عهده من فرض هيبة الملكية الفرنسية وبسط نفوذها والتحكمين لها في الداخل والخارج، ففشل خطراً كبيراً على خصومه في نورمانديا وإنجلترا وفلاندرز وجنوب فرنسا، وساعده على ذلك ما أظهره من مقدرة وكفاية في اتخاذ سياسة حكيمة مزج خلالها بين اللطمة العسكرية واستخدام الدبلوماسية والسياسة من ناحية⁽²⁸⁾، وما حدث خلال عصره الطويل من تبدل معظم كبار الأمراء الإقطاعيين في فرنسا وحل محلهم أمراء جدد من ناحية أخرى، فأنجح له ذلك تأكيد حقوقه الإقطاعية قبل هؤلاء الأمراء الجدد والتحكمين للملكية الفرنسية في أنحاء فرنسا وبسط نفوذها⁽²⁹⁾.

(25) Warner and Marten: The groundwork of British Hist., p. 89.

(26) Mahrenholtz: op. cit. p. 3772.

(27) كانتور: الترجع السابق ق ٦ ص ٦٥٦.

(28) Tille: op. cit. p. 3772.

(29) Camb. Med. Hist., V. 6, pp. 284.

استمرت العلاقات العدائية بين فيليب أوغسطس وملك إنجلترا هنري الثاني. لم يأل ملك فرنسا جهداً في الكيد لهنري الثاني وإضعاف قوته ونفوذه واستغلال ما نشب بينه وبين أولاده من خلاف وراج يقدم لهم المساعدة ليك الفرقة والشقاق بينهم وبين والدهم لإضعاف نفوذ الملكية الإنجليزية في الأجزاء التابعة لها في الشمال وغرب فرنسا، ومحاولة عد السلطة الملكية على هذه الأجزاء⁽³⁰⁾.

وعلى الرغم من أنه بدا أن سياسة فيليب أوغسطس تجاه إنجلترا قد تغيرت حين اعتلى ريتشارد الأول عرش إنجلترا عقب وفاة والده هنري الثاني، خاصة بعد أن شارك الملك الإنجليزي الجديد في الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة إلى جانب فيليب أوغسطس وفردريك بربروسا سنة 1190م⁽³¹⁾، إلا أن الأحداث أكدت خطأ هذا الاعتقاد، إذ مالبث فيليب أوغسطس أن تذرع بسوء حالته الصحية وترك ريتشارد في الشرق وعاد مسرعاً إلى بلاده، وفي نهضة الهجوم على نورمانديا أثناء غياب ريتشارد، وتمصية أملاك إنجلترا في فرنسا⁽³²⁾.

إلا أن فيليب أوغسطس لم يتمكن من الهجوم على نورمانديا حينئذ، لرفض أمرائه الاشتراك معه في ذلك لأنه لا يجوز الاعتداء على أملاك صليبي يحارب في الأراضي المقدسة لأن هذه الأملاك كانت تعتبر تحت وصاية البابا طيلة غياب صاحبها وتحت حمايته كما قررت

(30) Warner and Marten : op. cit. p. 90

(31) Rayner, A concise Hist. of Britain, p. 53

(32) Tille : op. cit. p. 3772

(33) Runciman : Hist. of the Crusades, 1, p. 109

التيهوية منذ الحملة الصليبية الأولى⁽³³⁾، ولهذا لجأ فيليب أوغسطس إلى بيت الشقاق بين ريتشارد وأخيه حثاً مقرباً هذا الأخير بإشعال الثورة ضد أخيه ومثاه بمساعدته لتتوجه ملكاً على إنجلترا خلال غيبة ريتشارد الأول في الشرق⁽³⁴⁾.

لهذا اضطر ريتشارد إلى العودة مسرعاً من الشرق لقلقه على أملاكه، فمقد الصلح مع صلاح الدين وعاد مسرعاً إلى الغرب، فتمرض في طريقه لمؤامرة عطلت مودته فترة، لعب فيها فيليب أوغسطس دوراً رئيسياً ولكن ريتشارد نجح في النهاية في الوصول إلى بلاده سنة ١١٩٤م⁽³⁵⁾. وشن هجوماً كاسحاً على فيليب أوغسطس دقاعاً عن نورماندي وأنزل به هزيمة ساحقة في نفس العام وكان بأسره، فاضطر فيليب أوغسطس إلى الانسحاب إلى أملاكه وطلب الصلح مع ريتشارد⁽³⁶⁾. وتجددت الحرب بين الملكين بعد ذلك لسنوات قليلة حين هاجم فيليب أوغسطس نورماندي سنة ١١٩٨م ولكنه هزم وكان يؤسر مرة ثانية لولا أنه نجا بصعوبة بالغة، وتدخل البابا هذه المرة لمقعد الصلح بين الرجلين، فجرى الاتفاق على هدنة بين الجانبين في العام التالي (١١٩٩م) أمدها خمس سنوات، ثم مالبت ريتشارد أن لقي حتفه في نفس العام فتخلص فيليب أوغسطس بذلك من خصم عنيد وجار ملق⁽³⁷⁾.

(33) Runciman; Hist. of the Crusades, I, p. 109

(34) Warner and Marten: op. cit. p. 97

(35) Heer: Med. World, p. 172

(36) Camb. Med. Hist. V, 6, p. 305

(37) Tille : op. cit p. 3772

استقل فيليب أوفسفس وفاة ريتشارد لتسرب شريكه وتمسكة أملاك إنجلترا في فرنسا، خاصة وقد خلف ريتشارد في حكم إنجلترا أخوه حنا الذي لم يكن له ما كان لأخيه من المقبرة السياسية والعسكرية، كما اقتصر إلى المقبرة والكفاية التي أملاز بهما ريتشارد⁽³⁸⁾، وفي نفس الوقت واصل فيليب أوفسفس سياسته في تأليب أحد أفراد البيت الإنجليزي ضد حنا وهو آرثر موق برينثاني ضد عمه حنا مغرباً إياه بمساعدته في التهيئة على نورمانديا إلى جانب برينثاني. في الوقت الذي كان يحشد فيه عدده الفرنسيين للهجوم على نورمانديا وبرينثاني، وقاملاً استولى على مدن نورمانديا واحدة تلو الأخرى بالقوة أحياناً وبذلك الأموال أحياناً أخرى، ولهذا لم يكن تمضي من القرن الثالث عشر إلا سنوات خمس حتى كان فيليب أوفسفس قد استولى على نورمانديا وأنجو ومسين وتورين⁽³⁹⁾، كما كان له معلم أمراء بواشو، وعاد له ولأه الأمراء حتى النورمان منهم بعد أن كان هذا الولاء موزعاً بين ملكي فرنسا وإنجلترا مع ما في ذلك من تناقض خطير، وأدى إعادة نورمانديا إلى فرنسا- كما يقول المؤرخون- إلى عودة إنجلترا إلى كيانها كمملكة جزرية قائمة بذاتها، وهي خطوة نحو بلورة القومية الإنجليزية⁽⁴⁰⁾، وفي نفس الوقت كالت عودة نورمانديا وأنجو إلى فرنسا واندماجهما في ممتلكات التاج الفرنسي نقطة تحول كبيرة في تاريخ فرنسا وتاريخ غرب أوروبا أيضاً⁽⁴¹⁾.

وفي نفس الوقت أمدت هذه الأحداث فيليب أوفسفس بفرصة عظيمة لتقوية نفوذه والتمكين للملكية الفرنسية، فأضحى يفوق في قوته

(38) Warner and Marten : op. cit. p. 102

(39) Keen : op. cit. p. 90

(40) Rayner : op. cit. p. 55

(41) كاتنور : التاريخ الوسيط ق ٢ ص ٦٥٣

أي أمير إقطاعي آخر بعد أن شملت أملاكه نورمانديا وإنجو ويوتو وأوفرن وبهشاردي فحسباً عما عرف بجزيرة فرنسا بل أصبح فيليب أوفسبس الرجل الثاني في أوروبا بعد إمبراطور ألمانيا⁽⁴²⁾ ، ولم يمض بها دهره حتى ملك إنجلترا من مكائد لاسترداد أملاكه الفاشمة والذي نجح في تأليب بعض الحائزين على ملك فرنسا مثل كونت فلاتندرز، واستنار إمبراطور ألمانيا أوتو الرابع ضد ملك فرنسا، وجرى الاتفاق على هجوم هؤلاء الحلفاء على فرنسا من الشمال في الوقت الذي يقوم فيه حنا بمهاجمة انجو، فأصبح الوضع خطيراً بالنسبة لفرنسا خاصة حين حشد إمبراطور ألمانيا نحو ثمانين ألف جندي في فلاندرز سنة ١٢١٤م لمهاجمة فرنسا⁽⁴³⁾، لكن فيليب أوفسبس نجح في إزاحة هزيمة قاسية بالحلفاء في موقعة بوفان Bouvines في يوليو سنة ١٢١٤م بفضل ماسد فرنسا حينئذ من شعور وطني خاصة في شمالها، في الوقت الذي فشل فيه هجوم ملك إنجلترا على اللوار فجاء هذا الانتصار عاملاً هاماً في حماية فرنسا من كيد ملك إنجلترا، كما جاء هذا الانتصار تأكيداً لما أصبح لفرنسا من سيادة في نورمانديا والأراضي التي استردتها من المملكة الإنجليزية⁽⁴⁴⁾.

مالهت الأحداث أن هيأت لملك فرنسا فيليب أوفسبس فرصة أخرى كد نفوذه في الجنوب وتأكيد سلطته على كثير من الأمراء الإقطاعيين في الجنوب⁽⁴⁵⁾ ، فقد وجدت في جنوب فرنسا ثلاثة مراكز

(42) Keen : op. cit. pp. 89 – 90

(43) Warner and Marten : op. cit. pp. 105 – 6

(44) Keen : op. cit. p. 96

(45) كالتور : المرجع السابق ق 2 ص ٦٢٦ – ٦٢٧

أساسية برزت ككيانات سياسية وحضارية كبرى في الجنوب هي : دوقية إكوتين وكوتيه تولوز وكوتيه بروفانس، وإذا كانت دوقية إكوتين وكوتيه تولوز قد ارتبطتا بالتاج الفرنسي وكلفتا ضمن نطاق الملكية الفرنسية، فقد كانت الكوتيه الثالثة (بروفانس) خارج نطاق هذه الملكية^(٤٧)، في الوقت الذي عاش فيه جنوب فرنسا في شبه عزلة عن شمالها زاد من حدتها الاختلاف الحضاري بين الشمال والجنوب، إذ بقي الجنوب يحتفظ بطابعه الروماني وتراثه اللاتيني القديم أكثر من أي جزء من أجزاء أوروبا عامة وفرنسا بصفة خاصة، فضلاً عما ميز جنوب فرنسا عن شمالها من وجود ثروات طبيعية ونشاط تجاري ومناخ معتدل ساعد على تشييد بناة حضاري الشجر بالعظمة والتجديد^(٤٨)، فضلاً عن أن سيطرة المسلمين على مصب نهر الرون على مدى نحو قرن من الزمان قد أشاع في جنوب فرنسا كلها جواً من التسامح الديني وحرية الفكر وباعد الشقة بين جنوب فرنسا وشمالها^(٤٩).

لهذه الأسباب انتشرت في جنوب فرنسا بعض المذاهب المناهضة للكنيسة وشاعت الهرطقة والكفر لرجال الدين وللكنيسة ورجالها، خاصة وقد تردت الكنيسة ورجالها في الجنوب في أوضاع سيئة استياء شديداً بين جموع الناس، واشتهر قساوسة فرنسا بعدم الكفاية والفساد وتردى أغلبهم في حب المال وإيثار العافية، الأمر الذي أوجد ثروة خصبة لنمو الهرطقة الشعبية وظهور المذاهب المناهضة للكنيسة^(٥٠).

(٤٧) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ص ٢٦٥

(47) Heyck : " Rise of the Frankish Dominion " B. H. VII .
p. 3480

(48) Oman : op. cit. pp. 292 - 5

(٤٩) كلتور : التاريخ الوسطى ص ٢٦٦ - ٢٦٧

فزعت البابوية لما حدث في جنوب فرنسا من انتشار الهرطقة وظهر الفاضح المتعصب للكنيسة والكثرة لرجال الدين، وفكر البابا إنوسنت الثالث في أوائل القرن الثالث عشر (سنة ١٢٠٤م) في القضاء على هذا الخطر الذي غدا يهدد الكنيسة ولو بالقوة للخلاص من الهرطقة، فحاول الاستعانة بكونت تولوز (ريموند السادس) ، إلا أن هذا رفض الفكرة تماماً لتعارض أهدافها مع شخصيته ونتيجة لما شاع في جنوب فرنسا من التصامح الديني - كما سبق أن أشرنا - وحرية الفكر في الوقت الذي عصت فيه روح الاستياء من الأوضاع التي ترودت فيها الكنيسة ورجالها هناك^(٥١) . ولهذا لجأ البابا إلى الملك فيليب أوغسطس لتحفيزه على القيام بحملة للقضاء على الهرطقة في الجنوب .

إلا أن فيليب أوغسطس لم يتحمس للفكرة التي دعاه إليها البابا إنوسنت الثالث نظراً لأنه كان يعارض تدخل البابوية في الشؤون الداخلية لفرنسا وما ادعته البابوية من حق في إخضاع المقاطعات الفرعية الخارجة على تعاليم الكنيسة من ناحية، ولأن الملك فيليب أوغسطس حكمته التقاليد الإقطاعية التي تمتع من مهاجمة أقباليه تنقيداً لرغبة البابا والكنيسة من ناحية ثانية^(٥٢) ، في الوقت الذي كان فيه فيليب أوغسطس مشغولاً بحربه ضد حاكم إنجلترا من ناحية ثالثة^(٥٣) ، ولهذا لم يلب الملك الفرنسي نداء البابا الذي تكرر سنتي ١٢٠٥ ، ١٢٠٧ خاصة وقد رفض هذا الطلب ريموند السادس كونت تولوز الأمر الذي عرض هذا الأخير لقرار الحرمان الذي أصدره البابا^(٥٤) .

(٥١) كانتور : المرجع السابق ق ٢ ص ٦٢٧

(51) Camh. Med. Hist. V, 6, P. 314

(52) Keen : op. cit. p. 90

(٥٣) محمد الشيخ : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٤٤٥

لم يسؤد رولف ولفس فيليبس أوجسطس طلب البابوية إنبلاز حملة إلى الجنوب إلى رأس البابوية من تنفيذ الفكرة، بل استمرت تدعو إلى إنبلاز حملة ضد الهراطقة في جنوب فرنسا وشجعها علي ذلك ما أظهره بعض الأمراء في شمال فرنسا من حماسة للاشتراك في هذه الحملة التي كررت البابوية الدعوة إليها سنة ١٢٠٩م^(٥٤)، فخرجت الحملة فعلاً تحت قيادة أمير من أمراء جزيرة فرنسا Ilo de France يدعى سيمون دي مونتفورت، والتسبع نطاق عملها ليشغل محاربة أمراء الإقطاع في الجنوب واستطاعت الحملة فعلاً إزلال الهزيمة بريموث السادس كونت تولوز سنة ١٢١٣م وبعض أمراء الجنوب، وقرر البابا منح دوقية تولوز ودوقية تاريون وغيرهما من الإقطاعات المجاورة لأمر جزيرة فرنسا المشار إليه سيمون دي مونتفورت^(٥٥).

لهذا لم يستطع فيليب أوجسطس أن يقف متفرجاً أمام ازدياد نفوذ البابوية في جنوب بلاده، فبادر بالمشاركة في الحملة وأرسل ابنه لويس على رأس قوة لمحاربة هراطقة الجنوب فأسفرت هذه المشاركة عن اعتراف سيمون دي مونتفورت بالتهيبة لملك فرنسا وتشاخر الجانبين وتعاوناً على تحطيم بعض الحصون والمعازل الإقطاعية في الجنوب ومد النفوذ الملكي إلى جهات لم تكن تربطها بالملك سوى تهيئة اسمية. ثم تلا ذلك مقتل سيمون سنة ١٢١٨م وبقاء نفوذ الملكية الفرنسية في الجنوب^(٥٦).

(54) Mahrenholtz: "France under the early Capet" in B.H. v. VII, p. 3774

(55) Warner and Marten: op. cit. p. 113

(٥٦) سعيد خالور : المرجع السابق ص ٢٦٩

وهكذا استمرت جهود فيليب أوغسطس السياسية والعسكرية من مد النفوذ الملكي إلى جنوب فرنسا، وأكد سلطة الملكية الفرنسية على معظم الأمراء الإقطاعيين، ففقد أحد ملوك فرنسا الأقوياء على الرغم من أنه لم يكن عتيقاً أو معادياً للأقطاع الإقطاعيين، وإنما حكمته في علاقته بهم الأعراف الإقطاعية^(٥٧)، هذا بالإضافة إلى ما حققه من استعادة نورمانديا واستيلائه على أنجو ومين وتورين، كما كان له معظم أمراء يواو، أي أنه هيمن على معظم الأراضي التي كانت تتبع الملكية الإنجليزية في شمال وغرب فرنسا وجهات أخرى^(٥٨).

أما عن سياسته تجاه كنيسة فرنسا ومع البابوية، فقد أظهر فيليب أوغسطس رغبة قوية في إحكام قبضته على رجال الدين في بلاده من ناحية والحد من تدخل البابا في شئون الكنيسة الفرنسية من ناحية أخرى، على الرغم مما كان بينه وبين البابوية من صداقة معروفة^(٥٩)، فقد ألزم رجال الدين في فرنسا بدفع ما كان مقرراً عليهم من ضرائب والالتزامات، وفي نفس الوقت لم يسمح للبابوية أن تفرض نفوذها أو نفوذ من يدور في فلكها في أي جزء من أجزاء بلاده، وربما لهذا شارك في الحملة على المهرطقة في الجنوب حتى لا يترك الميدان خالياً أمام البابوية وحلفائها من الأمراء الفرنسيين للهيمنة أو السيطرة في الجنوب^(٦٠).

وبالنسبة لسياسته الإدارية فقد أسهم فيليب أوغسطس - على حد قول المؤرخين - في البناء الإداري لفرنسا وهو البناء الذي اكتسب في عهد

(٥٧) Keen : op. cit. p. 89

(٥٨) Ibid. p. 89

(٥٩) كاتور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٦٠

(٦٠) Warner and Marten : op. cit. p. 113

حفيدة لويس التاسع : فقد عارض جعل الوظائف الكبرى وراثية ، لما يمثله ذلك من تهديد لسلطة الملك وصلاحياته الملكية ، كما قلل من نفوذ كبار المواطنين لتحقيق نفس الغرض لتقوية نفوذ الملكية الفرنسية^(٦١) . واختار الوكلاء الملكيين من الطبقة الوسطى لضمان إخلاصهم للملك وارتباطهم به . وكانت مهمتهم الإشراف على العدالة وجمع الإيرادات الملكية ، ولجأ إلى تقاعدهم من مكان إلى آخر ، حتى لا ينشأوا علاقات مع الأهالي في المناطق التي عملوا فيها قد تؤثر على درجة نزاهتهم أو حيادهم في ممارسة وظائفهم . ويذكر المؤرخون أنه ابتكر نظام البيلي Bâilli الذي هو الممثل المالي والقانوني والإداري والمسكوكي للملكية الفرنسية في المقاطعات^(٦٢) . على حين أسند مهمة الإشراف على المناطق الواقعة على الحدود إلى بعض الرجال الذين اختارهم من الفرسان والبارونات ذوي الخبرة بالحرب ، فضلاً عن أنه أحاط نفسه بعدد من المستشارين العلمانيين والدينيين ، كان يشيخ إليهم أحياناً بعض القضايا والأسئلة^(٦٣) . وتشكل من هؤلاء مجلس كان يجتمع لمناقشة الأمور التي لا تعرض على الحكومة أو يصرى عليها قواعد العرض على الحكومة ، كما كان هذا المجلس بمثابة هيئة تشريعية وقضائية عليا ، كما كان مجلساً استشارياً بحيث لا يلتزم الملك بتنفيذ قراراته أو الأخذ بتوصياته^(٦٤) .

(٦١) سجد عاشور : المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٦٢) كاتنور : المرجع السابق ص ٦٥٧ .

(٦٣) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 326

(٦٤) Keen : op. cit. pp 89

وبالإضافة إلى هذه الإصلاحات السياسية والدينية والإدارية في فرنسا كان فيليب أوغسطس موافقه تجاه المدن، فقد أظهر تعاملًا كبيراً مع آمال هذه المدن، فأعطى الكثير منها البراءات اللازمة لضمان حريتها، وأسهم ذلك في عودة كثير من المدن إلى الدخول تحت حمايته بعد أن كانت خارجة عن سلطته، فقد شجعها على تقوية أسوارها واستحكاماتها، وحماية تجارتها وتشجيع صناعاتها، ونالت باريس اهتمام هذا العامل الكبير^(٦٦)، إذ شهد لها سوراً عظيماً واعتمد برصف طرقها وفدت باريس عاصمة لملكة عظيمة، غمت القصر الملكي والكنائس والمدارس والأحياء التجارية والصناعية، كما نالت جامعة باريس على عهده أول براءة ملكية ضمنت لها حريتها واعتيازاتها، بل أن كثيراً من القنوديين الملكيين الذين استعان بهم فيليب أوغسطس كانوا متخرجين من الجامعات بل كان بعضهم أساتذة Majistri^(٦٧).

وهكذا أعطى فيليب أوغسطس فرنسا الكثير وجعل منها دولة عظيمة ومنح الملكية الفرنسية قوة وازدهاراً تضاهت إلى جانبه قوة الأمراء الإقطاعيين. فسلماً عن إصلاحاته الأخرى في مجال الإدارة والكنيسة والتعليم وغير ذلك من أوجه الإصلاح، وترك الملكة الفرنسية قوية الجانب^(٦٨)، وحوك باريس إلى أول عاصمة حديثة لدولة مركزية كبرى لاتعلو فوقها كيانات الإقطاع الذي تغلغل في الحياة الفرنسية في ذلك الوقت. وأخيراً وبعد حياة حافلة توفى الملك فيليب أوغسطس سنة

(66) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 327 – 30

Heer : The Medieval World , p. 338

(٦٦) كاتنور : نفس المرجع السابق ق ١ ص ٦٥٨

(67) Mahrenholtz : op. cit. pp. 3780 - 1

١٢٢٣م بعد أن حول التجارب السابقة إلى نظام دائم في الإدارة المحلية ظلت أسسه باقية حتى انهيار النظام الإقطاعي^(٦٩).

تولى بعده ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ - ١٢٢٦م) - ولم يطل به العهد سوى ثلاث سنوات - وعلى الرغم من أنه لم يكن له مكان لوالده من مهارة في الشؤون السياسية أو العسكرية، إلا أنه واصل سياسة والده في بسط نفوذ الملكية الفرنسية على مختلف أنحاء فرنسا خاصة في الجنوب، حيث قام بحملة جديدة ضد الهراطقة هناك^(٧٠)، وذلك سنة ١٢٢٦م نجح خلالها في تحقيق كثير من أهدافه وبسط سلطانه في الجنوب، بالإضافة إلى نجاحه في فرض سلطته على إكوتين وحصل من عموري ابن سيمون دي مونتفرات على تنازل عن كل ما منحه البابوية لوالده من امتيازات في جنوب فرنسا^(٧١)، وتولى لويس الثامن فجأة في نفس العام الذي خرج فيه على رأس حملة إلى الجنوب.

خلف لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠م) والده وكان حينئذ طقلاً لم يتجاوز الثانية عشر من عمره تحت وصاية والدته بلانشي القشتالية، وأظهر لويس التاسع كثيراً من القوى والجرع حتى اشتهر بعد ذلك بالقدس لويس - ولذلك حصل على تأييد البابوية وتدعيمها استمراراً لما كان بين فرنسا والبابوية من روابط وصلات تقليدية وصداقة قوية في فترات كثيرة وحلزت البابوية على دعم الملكية الفرنسية ومساندة الملك لويس التاسع^(٧٢).

(٦٩) كلفور : المرجع السابق ق ٩ ص ٢٤٦

(٦٩) Warner and Marten : op. cit p. 113

(٧٠) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 322 -4

(٧١) Mahrenholz : " The Last of the old Capet ", B. H. vol. VII, p. 3781

ولقد أسهمت هذه العلاقة في تجنب هذا الملك الصغير مخاطر كثيرة في بداية عهده، وهو تحت وصاية والدته، فقد استغل الأكراد الإقطاعيون فرصة صغر سن الملك وعزلوا على التملص من نفوذ الملكية الفرنسية والحد من سلطتها وديروا مؤامرات متعددة تزعم إحداها سنة ١٢٢٩م دوق برجنديا وكونتات برتاني وشامبني ولامارش بتأييد من هنري الثالث ملك إنجلترا⁽⁷²⁾، غير أن هذه المؤامرات باءت بالفشل بفضل حزم الملكة بلانش من ناحية وتأييد البابوية من ناحية أخرى، واستمرت الأوساخ على حالها إلى أن بلغ لويس التاسع سن الرشد سنة ١٢٣٥م وانتهت فترة الوصاية⁽⁷³⁾.

وفي نطاق هذه العلاقة أيضاً خرج لويس التاسع على رأس الحملة الصليبية المروقة بالحملة السابعة، فقد حدث سنة ١٢٤٤م أم مرض لويس التاسع، ونذر إن هو أبلى من مرضه أن يقوم بحملة صليبية إلى الشرق مدفوعاً في ذلك بحماسة الدينية وورعه وتقواه، ولما شفى من مرضه أوفى بوعده، وخرج على رأس الحملة سنة ١٢٤٨م إلى مصر بعد أن سيطرت على الصليبيين فكرة أن مفاتيح بيت القدس توجد في مصر، وذلك منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي⁽⁷⁴⁾، وعلى الرغم مما حشد في هذه الحملة من جنود، وما نالته من اهتمام واستعداد حتى استولت على مدينة دمياط بسهولة، وتقدمت للاستيلاء على القاهرة، إلا أن الهزيمة ما لبثت أن حلت بالحملة في النهاية ووقع لويس نفسه أسيراً في

(72) Rayner : op. cit, p. 59

(73) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 357

(74) Brehier : L'Eglise et L'orient , pp. 191-192

أبدى المسلمين⁽⁷⁵⁾، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن وافق على دفع فدية كبيرة، وتوجه لويس التاسع إلى بلاد الشام، حيث قضى نحو أربع سنوات قبل أن يعود إلى فرنسا⁽⁷⁶⁾.

أما عن سياسته تجاه أقطار الغرب الأوربي، فقد اتسمت بصفة عامة بالمسافة وعدم الرغبة في إثارة المشاكل مع جيرانه وإقرانه ملوك وحكام الغرب الأوربي، وفي إطار هذه السياسة عقد لويس التاسع صلحاً مع إنجلترا عرف بصلح باريس مسالماً بذلك هنري الثالث ملك إنجلترا⁽⁷⁷⁾، بعد فترة طويلة من الحروب بين الدولتين، وعقد هذا الصلح سنة ١٢٥٩ م.، وبمقتضاه تنازل ملك إنجلترا عن حقوقه في بعض الجبهات ووافق على أن تؤدي هذه الجبهات فروض التجهية للويس التاسع⁽⁷⁸⁾.

وأملت عليه هذه السياسة أيضاً مسألة حكام ألمانيا من أسرة هوهنشتاوفن، فلم يحاول استغلال الظروف السهلة التي مر بها هذا البيت في ذلك الوقت للتدخل في شئون ألمانيا، كما رفض أن يقدم نفسه فيما نشأ من نزاع بين الإمبراطورية والبابوية وهو النزاع الذي استمرى بين الإمبراطور فردريك الثاني وألنباي إرنست الرابع⁽⁷⁹⁾، فإذا كان هذا الملك قد سلك سياسة المسافة مع إنجلترا وكذلك مع ألمانيا فإنه لم يرفع راية السلام إلا بوازع من ضميره وقيمه ومثله العليا وهي المثل التي أملتته في النهاية ليصبح في نظر رعاياه قديماً⁽⁸⁰⁾.

(75) Grousset : op. cit V. III P. 484

(76) Mahrenholtz : " France under the Early Capet " p. 3779

(77) Warner and Marten : op. cit, p. 115

(78) Camb. Med. Hist, vol. 6, p. 358

(79) Heer : op. cit, p. 137

(80) محمد الشيخ : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٢١

أما في الداخل فقد أتبع لويس التاسع سياسة لبنة تجاه كبار
أقربائه وأمرائه الإقطاعيين يوازع من ورعه وتقواه، إذ أحترم حقوق هؤلاء
التبلاء في الوقت الذي احتفظ فيه بسلطاته الملكية وحقوقه العليا في
السيادة في الدولة^(٨٢)، وساعده على ذلك أن هؤلاء الأمراء لم يسيبوا له
متاعب تذكر، ولم يكونوا على شاكلته أمراء القرن الثاني عشر الذين
أتموا أسلافه من قبل، وإنما كانوا أضعف من أن يرفضوا راية العصيان
كما فعل أقرانهم في القرن السابق.

لهذا أتبع لويس التاسع القيام بكثير من الإصلاحات الداخلية في
مجال الإدارة والقضاء والتنظيم المالي^(٨٣)، فقد مثل المجلس الإقطاعي
للملك محور السلطة المركزية في ذلك العصر، وثألف هذا المجلس في
جوهره من الوزراء الدائمين ينقسم إليهم أقصاف الملك إذا فكرت الملكية في
إعلان الحرب أو في أمر من الأمور الداخلية الهامة مثل زبادة
الضرائب^(٨٤)، ولما زاد عدد أعضاء هذا المجلس تفرعت عنه عدة لجان
اختصت إحداها بالإيرادات الملكية وأخرى بالقضاء والمحكمة الملكية،
ولقد أسند لويس التاسع مهمة الإشراف على ممتلكاته وأراضيه الإقطاعية
إلى وكلاء ملكيين، وكان يرسل مندوبين ملكيين للتفتيش على الحكام
المحليين وسماحة شكاوى الأهالي والتحقيق فيها^(٨٥).

أما في مجال القضاء فقد أدرك لويس التاسع أهمية القضاء
ووجوب سريان العدل بين الرعية وحاول ألا ينحرف القضاء عن أهدافه

(٨٢) سيجد عاشور - المرجع السابق ص ٢٧٧
(82) Mahrenholtz: "Evolution of Med. France" B. 61. VII,
p. 3796

(83) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 335

(84) Mahrenholtz: op. cit. p. 3790

لتكفالة المدك بين الناس، وحاول ألا يفسد القضاء أو يتزلق إلى الانحراف وذلك بوازع من قيمه وضميره الحي ومثله الدينية^(٨٥)، فحدد لويس التاسع عدداً من الجرائم جعل الفصل فيها من اختصاص القضاة الملكيين وحدهم في الوقت الذي تمسك فيه بحقه في أن تستألف أمامه كافة القضايا بحيث يكون رأيه سهائلاً وملزماً حتى لكبار الأمراء الإقطاعيين^(٨٦).

وفي مجال الإصلاح الذي اهتم لويس التاسع كثيراً باتعاض التجارة وكفالة الأمن للمكين التجار من ممارسة تجارتهم في أمن وطمأنينة، وأضفى حمايته على القومونات وأنشأ عدة مدن في الجنوب وسك عملة ملكية جعلها صالحة للتداول في كافة أنحاء فرنسا، في الوقت الذي لم يسمح فيه بتداول العملات التي يصدرها كبار الأمراء الإقطاعيين إلا في نواحيهم فقط للتمسك العملة الملكية هي الوحيدة للتداول في كافة أنحاء مما يعطيها الأفضلية في هذا المجال^(٨٧).

أما عن سياسته تجاه الكنيسة الفرنسية فقد وجهها وإزعه الدين القوي، وكان لورعه وتقواه أثره في رسم سياسته تجاه الكنيسة الفرنسية، فقد أضفى حمايته على الكنيسة وحماها من جشع الموظفين الملكيين ومنحها حقوقها كاملة دون أن ينقص هذا من سلطاته الملكية أو يكون لذلك أثر في تقليل سلطته الملكية في الوقت الذي لم يسمح فيه للكنيسة بالتدخل في الشؤون العلمانية، بل إنه أصر على أن تدفع الكنيسة ما كان مقرراً عليها من أسواق واستخلص منها حقوقه كاملة^(٨٨)، وإن اظهر

(٨٥) Ibid. pp. 3789 – 90

(٨٦) محمد الشيخ : المرجع السابق ص ٤٠٢

(٨٧) Camb. Med. Hist. V, 6, pp. 336 – 8, p. 351

(٨٨) Ibid. p. 350, Keen : op. cit. p. 171

ميلاً لمنهقي الفرسان والدومنيكان على حساب غيرهم من المنظمات
الريحية الأخرى .

وبن ذلك اتسمت سياسة هذا الملك بكثير من الاعتدال والسلام
واتجه بكل امكاناته للإصلاحات الداخلية ، وعدم إثارة المشاكل في أوروبا ،
وأظهر عطفاً ولبناً مع شعبه وبر كثيراً بالمحتاجين والضعفاء في ظل إدارة
داخلية صالحة⁽⁸⁹⁾ ، فازدهرت فرنسا في عهده كثيراً ورغبت أحوالها
وتقدمت العلوم والفنون والحضارة ، وخطت جامعة باريس خطوات هامة
في عهده وانتعش الفن اللوطي في ميدان العمارة وعمار الكنائس
والكتدرايات بصفة خاصة وشهد هذا العصر تقدماً ملحوظاً وازدهاراً
كثيراً في مختلف الميادين⁽⁹⁰⁾ .

وعلى الرغم من كل ذلك ظل لويس التاسع يفكر في مشروع حملة
صليبية يمح بها الأثر الذي تركته حملته الصليبية الفاشلة على الشرق ،
ويختم حياته بمشروع صليبي آخر في ظل ما سيطر عليه من توازن دينية
وحماسة صليبية متقدة ، فلما في سنة ١٢٧٠م بحملة صليبية جديدة ،
انجذبت هذه المرة إلى تونس في شمال إفريقيا⁽⁹¹⁾ ، إلا أنه ما لبث أن توفي
أثناء هذه الحملة وفي نفس السنة (١٢٧٠م) قبل أن يحقق حلمه ويمحو
الأثر الذي تركته حملته الفاشلة من قبل ، وانتهى بذلك عصر من أعظم
عصور الملكية الفرنسية وأسر كاييه في فرنسا⁽⁹²⁾ .

استمرت الملكية الفرنسية في عهد ابنه فلبس الثالث اللقب

(89) Mahrenholtz : " The last of the old Capet " p. 3781

(90) Heer : op. cit p. 64

(91) Lodge: The close of the Middle Ages 1273 - 1494,

p.46

(92) محمد الفوج : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٤٥١

بالجري (١٢١٠ - ١٢٨٥م) في تقدمها واتساعها بل تدعم نفوذها وامتد سلطانها في أقاليم جديدة نجحت في ضمها إلى التاج الفرنسي على حساب الأمراء الإقطاعيين، فامتد سلطانها في بونتو وتولوز وأوكسرن وبيروفانس على أثر وفاة ألفونس أمير هذه الممتلكات دون عقب^(٩٣)، كما استولت الملكية الفرنسية على ممتلكات هنري كونت شامبني الذي توفي دون وريث في شامبني ويري، ونجح في ضم ليون سنة ١٣١٢م. وهكذا اتسعت سلطة ملك فرنسا وامتدت أملاكه لاستمرار ضعف النظم الإقطاعية وانهايار الإقطاع في أجزاء كثيرة ونشأة المدن وإزدهارها في تلك الفترة من العصور الوسطى، وما ترتب على ذلك من بروز حقبة جديدة ومفاهيم جديدة في أوروبا^(٩٤).

وعلى عهد ملك فرنسا الجديد فيليب الرابع أو فيليب الجميل (١٢٨٥ - ١٣١٤م) استمر توحيد فرنسا وتمد حدودها وتحقيق زعامتها على غرب أوروبا، فقد كرس الملك الجديد جهوده لتحقيق ذلك^(٩٥)، فأعلن هذا الملك أن حدود بلاده الطبيعية هي الراين والألب والبيرونس، ولهذا عمل على ضم الجهات الخارجة عن نفوذه في جوين وجاسكوني اللتين كانتا من أملاك إنجلترا مع اعتراف ملك إنجلترا بالتبعية قسماً لملك فرنسا، كما رغب في ضم فلاندرز رغم ميل أهلها إلى إنجلترا بحكم الروابط بينهما والمصالح المشتركة بين البلدين^(٩٦).

لهذا ساءت العلاقات سريماً بين ملكي فرنسا وإنجلترا وتصادمت

(93) Lodge : op. cit. p. 47

(94) Keen : op. cit. pp. 160-1

(95) Mahrenholtz : op. cit. pp. 3786 - 7

Keen : op. cit. p. 170

(96) Camh. Med. Hist. V. 7 , p. 320

المصالح بينهما، فأعلن إدوارد ملك إنجلترا تحلله من الولاء لملك فرنسا، وتحالف مع بعض الأمراء الألمان ضده، فبرد ملك فرنسا على ذلك التحالف باحتلال جوين ومهاجمة فلاندرز سنة ١٢٩٧ م، كما تحالف مع اسكتلندا ضد ملك إنجلترا^(٩٧)، غير أن البابا بونيفيس الثامن توسط بين الجانبين ونجح في أن يعقد بينهما صلحاً سنة ١٢٩٨ م ثم صلحاً آخر سنة ١٣٠٣ م استردت به إنجلترا جاسكوني وجوين، وإن لم يؤد ذلك إلى وقف أطماع فيليب الرابع في فلاندرز الأمر الذي جدد المحاولات لعقد صلح جديد سنة ١٣٠٥ م مع أهل فلاندرز^(٩٨).

غير أن فيليب الرابع مالئ أن دخل في مشكلة مع البابوية التي يبدو أنها لم تسلم بتغيير الأوضاع في الغرب الأوربي في أواخر القرن الثالث عشر باللقاربة بما كان عليه الحال في الغرب في القرن الثاني عشر، ولم يستطع البابا بونيفيس الثامن الذي اعتبره المؤرخون آخر بابوات العصور الوسطى العظام أن تقسم الروح الجديدة التي سادت المجتمع الأوربي في أواخر العصور الوسطى، وظل يعارض دور كائنه لا يزال يعيش في القرن الثاني عشر بما ساد من الأوضاع، فحين استمر فيليب الرابع في تحصيل الضرائب من رجال الدين لسد العجز في النفقات خاصة نفقات الحروب ضد إنجلترا^(٩٩)، تملل رجال الكنيسة الفرنسية ورفضوا الأمر إلى البابا بونيفيس الثامن الذي أعلن سنة ١٢٩٦ م بطلان حق الملوك في فرض الضرائب على الممتلكات الكنسية دون إذن من البابوية، وعدد بتوقيع قرار الحرمان على كل من يخالف هذا القرار،

(97) Lodge : op. cit. pp. 51 - 3

(98) Keen : op. cit. pp. 215 - 16

(99) Rayner : op. cit. p. 85

فاستاء فيليب الرابع من هذا القرار ومن تدخل البابوية في شئون بلاده، ورد على ذلك بتحريم دخول الأجانب إلى فرنسا بما يعنيه ذلك من منع وصول المندوبين البابويين إلى فرنسا، وكذلك تحريم تصدير الذهب والنقود إلى خارج فرنسا بما يعنيه ذلك من قتل الموارد المالية عن البابوية من فرنسا^(١٠١).

تصاعد الصدام بين ملك فرنسا فيليب الرابع والبابا بونيفيوس الثامن الذي احتج كثيراً على إجراءات ملك فرنسا^(١٠٢)، وعقد مجمعاً دينياً سنة ١٣٠٢م، فأقر المجمع السيادة الروحية والزمنية للكنيسة، الأمر الذي أهاج فيليب الرابع، وجعله يتهم البابا بونيفيوس الثامن بكتشير من الاتهامات، ودعا إلى عقد مجمع لمحاكمته^(١٠٣)، فتأهب البابا لإصدار قرار الحرمان ضد فيليب الرابع، إلا أنه مالبث أن توفي سنة ١٣٠٣م، وانتهت صفحة هامة في تاريخ البابوية.

هكذا حقق فيليب الرابع انتصاراً على البابوية، وإن سلك في ذلك طريقاً غير مشروع، وباستثناء ذلك لم يحقق فيليب الرابع نتائج هامة في الميدان الخارجي، وإن حقق نتائج طيبة في الميدان الداخلي بتحسين الإدارة^(١٠٤)، وسيطرة ملك فرنسا التي أخذت تتسع تدريجياً على حساب كبار الأمراء الإقطاعيين.

(١٠١) محمد الشيوخ : المرجع السابق ص ٤٥٦
(101) Camb. Med. Hist. V, 7, P. 313
Southern: Western Society and the Church in the
Middle Ages, p. 351

(١٠٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ج ٦ ص ٢٧٠
(102) Lodge : op. cit. p. 50, pp. 56-7

وماليت فيليب الرابع أن سائر الاتجاه الذي كان قد بدأ في جهات أخرى من أوروبا ضد اليهود الذين مارسوا - كما اتهمهم - لوتاً من الوان التسلط المالي والاقتصادي واستمروا في إقراض الحكومات والأشخاص والأمراء بالربا الفاحش متتهزين فرصة تحريم الكنيسة الإقراض بالربا، حتى سيطر اليهود على عصب الحياة المالية والاقتصادية في أجزاء كبيرة من الغرب الأوربي، فالتفتت ضدّهم إجراءات الطرد والنفي ومصادرة الأموال في إنجلترا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا منذ أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر، ولهذا سائر فيليب الرابع هذا الاتجاه⁽¹⁰⁴⁾، فصادر أموالهم ولجأ إلى طرد الكثير منهم مستغلاً في ذلك موجة الكره التي سادت بين الرعايا في الغرب ضد اليهود في ذلك الوقت، متحملاً ما ترتب على هذا الطرد في بعض الأحيان من اضطراب في الأحوال المالية والاقتصادية وفي التجارة⁽¹⁰⁵⁾.

كما بطش فيليب الرابع بجماعة الداوية وهي الجماعة التي لعبت دوراً بارزاً في أحداث الحروب الصليبية، ولكن بعد سقوط عكا في أيدي المماليك سنة ١٢٩١م وانتهاء الكيان الصليبي في بلاد الشام فقدت هذه الجماعة أهميتها العسكرية، وانصرف أتباعها إلى المصالح الدنيوية وإلى النشاط المالي والمصرفي الذي در عليهم ثروات هائلة، فالفوا حياة الدعة والرفاهية وأظهروا كثيراً من الفطرسة والتكبرياء⁽¹⁰⁶⁾، واضطروا البابا إلى اتخاذ موقف حازم منهم وأشار إلى إنعاجهم في جماعة الاسبتارية، إلا أن الداوية رفضوا الانصياع إلى رأي البابا واستمروا في

(104) Heer : op. cit. p. 77

(105) Cambv. Med. Hist. V. 7, pp. 74 - 5

(106) Ibid. pp. 316 - 17

قطرستهم، فانتهمز فيليب الرابع الفرصة فلبس على عدد من فرسانهم وأمر بإحراقهم في باريس سنة ١٣١٠م وأمر بحل هذه الجماعة ومصادرة أملاكها فانتحلت هيئة الداوية وتفرق أتباعها في البلاد، وإن أشار بعض المؤرخين إلى أن هذا العمل لم يكن من الأعمال التي ينبغي أن يفخر بها فيليب الرابع⁽¹⁰⁷⁾.

ومما يحسب للملك فيليب الرابع دعوته للمجلس طبقات الأمة لأول مرة سنة ١٣٠٢م وهو المجلس الذي كسان له أثر خطير في تاريخ فرنسا فيما بعد، فأكد بذلك أنه كان يقيم وزناً كبيراً للرأي العام ويتخذ أهميته⁽¹⁰⁸⁾، وتكررت الدعوة لهذا المجلس في سنوات متعددة كلما أحس بحاجة إلى تأييد الشعب وكلمة التمس من الرعية العون والتأييد، واضطر سنة ١٣٠٤م إلى إلغاء بعض الضرائب وعدم التلاعب في العملة عند اعتراض أعضاء المجلس على ذلك، فكانت هذه خطوة إلى الأمام في التاريخ الدستوري والتشريعي في فرنسا في أواخر العصور الوسطى⁽¹⁰⁹⁾.

وكان فيليب الرابع آخر ملوك آل كابيه الأقبية فيموت سنة ١٣١٤م أوشكت الأسرة على التناهي إذ خلفه عدد من الملوك الضعاف أولهم لويس العاشر (١٣١٤-١٣١٦م) ثم فيليب الخامس (١٣١٦ - ١٣٢٢م) ثم شارل الرابع (١٣٢٢ - ١٣٢٨م) والثلاثة كانوا أبناء فيليب الرابع، وبوفاة آخرهم دون عقب انتهت أسرة آل كابيه واجتمع مجلس طبقات الأمة سنة ١٣٢٨م لاختار ملكاً جديداً. وعلى هذه الصورة انتهت

(107) Lodge : op. cit. p. 50

(108) Camb. Med. Hist. V. 7 , p. 684

(109) Lodge : op. cit. p. 50

هذه الأسرة بعد أن أفادت فرنسا من إخضاعها البلاد لسلطانها وتوقيع
 لفرنسا مدناً ثرية وطبقة محاربة فشلاً عن تشجيع الجامعات والإفادة من
 طريقتها، فحققت هذه الأسرة نجاحاً كبيراً حين استقادت من كل
 ذلك^(١١١).

الفصل الثالث

تاريخ ألمانيا وإيطاليا منذ عصر العروب المتطهية حتى أوائل القرن
الراجم عشر المياده

- هنري الخامس (١١٠٦ - ١١٢٥ م) .
- لوثر الثاني (١١٢٥ - ١١٣٨ م) .
- كوتراد الثالث هومشتاوفن (١١٣٨ - ١١٥٢ م) .
- فريديك الأول بروسا (١١٥٢ - ١١٩٠ م) .
- هنري السادس (١١٩٠ - ١١٩٧ م) .
- فريديك الثاني (١٢١٢ - ١٢٥٠ م) .
- نهاية أسرة هومشتاوفن سنة ١٢٥٠ م .
- أحوال ألمانيا حتى قيام أسرة هابسبورج سنة ١٢٧٣ م .
- رودلف هابسبورج ١٢٧٣ - ١٢٩١ م ملكاً على ألمانيا .
- فترة حكم أدولف كونت ناسو ١٢٩٢ - ١٢٩٨ م .
- ألبرت الأول ابن رودلف هابسبورج ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م .

وأشرنا من قبل إلى تاريخ ألتانيا وإيطاليا في ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ انفصال ألتانيا عن إمبراطورية شارلمان في أوائل القرن العاشر حتى نهاية عهد الإمبراطور هنري الرابع الذي اضطر بعد نزاع طويل مع البابوية - إلى التخلي عن العرش سنة ١١٠٥م^(١) ، وكانت هذه الإمبراطورية قد ضمت إليها إيطاليا وأصبحت تسمى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إشارة إلى رباط ألتانيا وإيطاليا تحت راية هذه الإمبراطورية^(٢) ، وكيف تفرج تاريخ هذه الإمبراطورية في تلك الفترة إلى أواخر القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر الميلادي أي إلى بداية عصر الحروب الصليبية .

وباعتلاء هنري الخامس العرش الألماني (١١٠٦ - ١١٢٥م) بدأت حلقة جديدة من حلقات الصراع بين الإمبراطورية والبابوية في هذا الدور، فقد تمسك هنري الخامس بحقوقه كاملة في تقليد الأساقفة وراح يملأ الأسقفيات الشاغرة في الإمبراطورية كما يحلو له، وفي نفس الوقت لم يعط البابوية فرصة تأليب الأمراء الألمان عليه، لأنه سجل بالاتفاق مع كبار الأمراء الألمان ووجد الصف في مواجهة البابوية^(٣) ، ثم ما لبث أن قاد جيوشه إلى إيطاليا سنة ١١١٠م واستطاع أن يخضع البابا باسكال الثاني ويجبره وأنصاره الكرادلة على الترشع في مسألة التقليد العلماني، فاضطر البابا إلى الموافقة على قيام هنري الخامس بتقليد الأساقفة، وهكذا تآمر هنري الخامس لما حل بوالده في كانوسا^(٤) .

(1) Robinson: op. cit. I, p. 200

(2) Oman : op. cit. p. 373

(٣) محمد الطبع : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٣٦١

(4) Brooke : op. cit. p. 252

غير أن هذا الاستسلام من قبل البابوية لم يكن إلا انحناء للريح ومسيرة للتيار لأنه سرعان ما عادت المشكلة من جديد، واضطر هنري الخامس إلى دخول إيطاليا من جديد سنة ١١١٧ م . وبعد اعتقال البابا كالكستس الثاني الكرسي البابوي سنة ١١١٩ م ، وكان رجلاً قديراً اتجه إلى تصفية المشكلة مع الإمبراطور، وفي نفس الوقت كان هنري الخامس قد مل الصراع مع البابوية وما إلى حل المشكلة وأخيراً عقدت اتفاقية Worms سنة ١١٢٢ م ثالثة الميت^(٥) ، ونقضى هذه الاتفاقية أن يجري انتخاب الأساقفة ومقصي الأديرة في خارج ألمانيا وفق القانون الكنسي دون تدخل من السلطة العلمانية، وبعد تقليد الأسقف أو مقدم الدير دينياً يصبح بوسع^(٦) الإمبراطور أن يزوده بأية سلطة، أما في ألمانيا فيكون اختيار الأساقفة بالطريق الانتخاب، ويمكن للإمبراطور أن يحضر بنفسه عملية الانتخاب أو يرسل مندوباً عنه لحضور هذه العملية وبعد أن يجري انتخاب الأسقف يتقدمه الإمبراطور تقليداً علمانياً قبل تقليده الديني^(٧).

وهكذا نجحت البابوية في تحقيق جانب من أهدافها حين حددت سلطة الإمبراطور في اختيار رجال الدين، وأجبرته على التراجع إلى نصف الطريق ، وتقدمت هي لتلقاه في موضعه ، أي أنها تقدمت خطوات وتراجع هو خطوات فالتقتا في نصف الطريق، وإلى ذلك يشير المؤرخ برايس Bryce بأن الأساقفة الآن خسروا نصف الحقوق التي كانت لهم في استثمار المراكز الدينية^(٨) ، وذهبوا أن يكون الأمر بهم

(5) Cambr. Med. Hist. Vol. 5, p. 107

(6) Stroyer, Munro : op. cit. p. 208

(7) Bryce : op. cit. p. 161

وسين البابوية مناصرة وفي نفس الوقت أنهت هذه الاتفاقية النزاع حول التقليد العلماني والدور الأول من الصراع بين الإمبراطورية والبابوية، ولكنها لم تضع في الحقيقة حداً للنزاع بين السلطين الدنيوية والدينية، إذ استمر الصراع بينهما بعد ذلك، وما لبث البابا أن توفي في سنة ١١٢٤م ولحق به الإمبراطور هنري الخامس في العام التالي^(٨).

وعقب وفاة هنري الخامس أجمع الأمراء الألمان على اختيار لوثر الثاني دوق سكسونيا ملكاً سنة ١١٢٥م، وهو الرجل الذي حظى بحب الألمان بسبب نجاحه في الحروب مع السلاف من ناحية والرجل الذي كان يتخذ موقف المعارضة من هنري الخامس من ناحية أخرى، على الرغم من أن هذا الاختيار لم يحظ برضى أسرة هنتشواوفن أسراء سوابيا، الذين اعتقدوا أن لوثر الثاني هذا لم يكن يوسمه يمت هيبة الإمبراطورية واسترداد عظمتها بسبب ضعفه وتقدم سنة^(٩).

وقد خالف لوثر الثاني سياسة سلفه هنري الخامس حين اتعطف جهة البابوية ومال إلى مسالمتها وتأييدها ولهذا لجأ إليه البابا إنوسنت الثاني حين نشأ نزاع حول الكرسي البابوي وفر هذا البابا إلى ملك ألمانيا مستنجداً به ضد خصومه فلأنجده لوثر الثاني، فكان البابا يتتبعه إمبراطراً في روما سنة ١١٣٣م^(١٠)، وكان لوثر الثاني قد اعترف بحق البابوية في تركة الأميرة ماتيلدا على أن يأخذ لوثر الثاني هذه التركة من البابا كإقطاع مقابل إيجار سنوي، فكانت هذه فرصة البابوية في الحصول على دليل جديد أظهر الإمبراطور في صورة فصل إقطاعي للبابا.

(٨) Camb. Med. Hist. vol. 5, pp. 324 - 5

(٩) سيد عاكور : الترجع السابق ١ ص ٣٩٦ - ٣٧٠

(١٠) Southern : op. cit, p. 109

وحين توفي لوثر الثاني سنة ١١٣٨م، جرى اختيار كونراد الثالث هو جوتشالوفن ملكاً على ألمانيا (١١٣٨ - ١١٥٢م)^(١١)، وكان أضعف من تولي عرش ألمانيا في تلك الفترة، فضلاً عن أنه أول ملك من ملوك ألمانيا لا يتوج إمبراطوراً منذ عهد أوتو العظيم، بالإضافة إلى انكماش الأراضي الخاصة بالتاج فأدى ذلك إلى ضعف الملك الذي كان يستمد قوته من الصراع ضياعه الخاصة في ظل النظم الإقطاعية^(١٢). وشهدت هذه الفترة ازدياد نفوذ كبار الأمراء مع ضعف سلطة الملكية الألمانية في تلك الحقبة، ولهذا كان انتخاب الملك على يد هؤلاء الأمراء. كما ضعفت سلطته في إيطاليا، وقلت هيئته خاصة بعد الحملة الصليبية الفاشلة التي شارك فيها وهي الحملة المعروفة بالحملة الثانية، والتي ذبح فيها الجيش الألماني على يد السلاجقة في آسيا الصغرى^(١٣)، وربما لذلك أعلن البابا إنوسنت الثاني في نفس السنة التي اعتلى فيها كونراد الثالث العرش تحلله من الارتباط باتفاقية ورمز التي عقدتها البابوية مع الإمبراطور هنري الخامس سنة ١١٢٢م^(١٤)، وأعلنت البابوية سيادتها العليا على جميع الحكام العلمانيين الذين لا يحق لهم التدخل في شؤون الكنيسة وأعمالها أو بتقليد رجالها، وعلى الرغم من أن ذلك كان بمثابة إعلان العداء للسلطة العلمانية إلا أن كونراد الثالث رفض أن يدخل في حرب مسلحة مع البابوية وفضل العمل على توطيد نفوذه في ألمانيا^(١٥).

(11) Brooke : The saxon and Norman Kings, p. 137

(12) Ibid, p. 137

(13) Runciman : Hist. of the Crusades . 11, p. 268

(14) Camb. Med. Hist. Vol. 5, pp. 358 - 361

(15) Thompson : The Middle Ages, Vol. 1, p. 475

خلف كوتراد الثالث ابن أخيه فريدرك الأول ببروسا (١١٥٢-١١٩٠م) الذي اعتلى العرش الألماني وهو في الثلاثين من عمره، وكان شاباً شجاعاً قصباً محباً للعلامة والمجد ويؤمن بسمو العرش الألماني وعظمة الوظيفة الإمبراطورية^(١٦). ولم يكن ذلك يتحقق إلا بالربط بين شطري الإمبراطورية في ألمانيا وإيطاليا لاسترداد مكانة الإمبراطورية واسترجاع مجدها السالف من ناحية وتخليص ألمانيا من شر الفتنه التي أثرت بكثير من المدن الألمانية الخراب والدمار^(١٧) من ناحية أخرى ولتحقيق الهدف الأول فلما فريدرك الأول ببروسا مع البابا وحقق معه معاهدة كونستانس سنة ١١٥٣م تعهد بموجبها بإخضاع أمراء البابا والخارجين على سلطته وعدم مهادنة خصومه في مقابل أن يقوم البابا بتتويجه إمبراطوراً ويقدم له المساعدة ضد خصومه في ألمانيا^(١٨).

غير أنه قدر للصراع الذي كان قد نشب من قبل بين البابوية والإمبراطورية أن يحي من جديد وتضطرم ناره بعد أن خمد طويلاً نحو خمسة وعشرين عاماً، وذلك على عهد كل من البابا أوربان الرابع ومن خلفه في الكرسي البابوي والإمبراطور فريدرك الأول ببروسا. وإذا كان الصراع في الدور الأول قد اندلع بسبب مسألة التقليد العلماني^(١٩) ونظرية السمو والتفوق التي آمن بها كل طرف من أطراف النزاع، فقد ارتكز الصراع في هذا الدور الجديد حول مشكلة القومونات الإيطالية وأحقية الإمبراطورية في الهيمنة على المدن اللمباردية وإخضاعها^(٢٠)، بعد أن

(16) Bryce : op. cit. p. 160

(17) Davis : Medieval Europe, p. 319

(18) Tour : The Empire and the Papacy, pp. 247 – 48

(19) Fliche : L'Europe Occidentale, Vol. 1, p. 370

(20) Robinson : op. cit. p. 205, Southern : op. cit. p. 313

نجحت المدن اللومباردية في شمال إيطاليا في أن تتخلص من سيطرة الأمراء الإقطاعيين لتصبح قومنات مستقلة وانفقت جميعها على مقاومة أية سلطة تحاول الإمبراطورية فرضها عليها، لرغبتها في مباشرة نشاطها الاقتصادي وإدارة شئونها⁽²¹⁾.

وكان كل من البابا أوربان الرابع والإمبراطور فريديريك الأول ببروسا قد مكن لنفسه وقوى مركزه، فعلى حين تحالف البابا مع النورمان في الجنوب وحمل على ولاء الإيطاليين خاصة في روما، فقد وفق الإمبراطور في حل مشاكله في الإمبراطورية والقرار الأوضاع الداخلية⁽²²⁾، والحصول على ولاء الأمراء الألمان. وهكذا تهيأت الفرصة للدخول في التواجهة مع البابا في هذا المنور الجديد، وبدأت الأحداث برسالة تلقاها الإمبراطور من البابا جاء فيها أن التاج الإمبراطوري إنما هو إحسان وإقطاع من البابا للإمبراطور، وكان رد الفعل لدى الإمبراطور عنيفاً وضع فيه أنه إنما "استلم عرشه وملكه من الله مباشرة لا من البابا"⁽²³⁾، فما كان من البابا إلا أن تراجع واعترف أنه إنما كان يقصد معنى عاماً وليس معنى خاصاً، فسأجل بذلك تفجير الصراع بينه وبين فريديريك الأول، وأرجأ اندلاع الحرب الساخرة بينهما فترة⁽²⁴⁾.

إلا أن الصراع ما لبث أن اشتد على اثر مبادرة فريديريك الأول بمحاولة إخضاع المدن اللومباردية، وتعيين حكام إمبراطوريين فيها، بعد

(21) Camb. Med. Hist. Vol. 5 p. 361

(22) Davis : op. cit. p. 319

(23) Bryce : op. cit. p. 167

Tout : op. cit. p. 254

أن تمتعت هذه المدن فترة من الزمن بشئ من الاستقلال الذاتي، وأنقذت هذه الأوضاع زمناً طويلاً^(٢٥)، ومن الطبيعي أن تنور نائرة البابوية خشية ازدياد نفوذ الإمبراطورية في إيطاليا بما يعنيه ذلك من احتواء البابوية والتنسيق عليها، ولم يحفل فريديك الأول بمعارضة البابا إن حبر جبال الألب سنة ١١٥٨ م، وأخضع ميلان وأعلن تمسكه بكافة حقوقه في المدن للمباردية الأخرى^(٢٦)، وأعقب ذلك وفاة البابا أوربان الرابع وولاية البابا اسكندر الثالث (١١٥٩-١١٨١ م)، الذي أصر على التمسك بحقوق البابوية وإشعل نار الفتنة مع الإمبراطور، وبادر بتحريض المدن المباردية على الثورة ضد الإمبراطور والدخل، الأثنان في إيطاليا، فشارت معظم المدن المباردية ضد فريديك الأول الذي سارع بمواجهة الموقف بتمتوى العنف فدمر كريما Crema وميلان، رقم صعود هذه الأخيرة نحو ثلاث سنوات، وقبض على زعمائها وصفى الموقف لصالحه في إيطاليا ومع المدن المباردية^(٢٧).

التفت الإمبراطور بعد ذلك نحو البابا اسكندر الثالث ورأي أن يرد على عدائه بتميين بابا آخر إمبراطوري هو فكتور الرابع ليتناقص على الكرسي البابوي، وعندئذ لم يجد اسكندر الثالث بداً من الهرب من روما لاسيما وقد أبدى في موقفه كل من لويس السابع ملك فرنسا وهنري الثاني ملك إنجلترا، ففر البابا إلى فرنسا بعد أن سقطت ميلان في يد الإمبراطور سنة ١١٦٢ م، وبدأ الإمبراطور في مواجهة مشاكله في

(25) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 427

(26) العريضي: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٤٢٠ (بيروت لبنان ١٩٦٨)

(27) Robinson : op. cit, pp. 207-8

إيطاليا⁽²⁹⁾ بشئ من العنف والقسوة فناد بعد نحو عامين إلى شمال إيطاليا للمرة الثالثة لإقرار الأوضاع في المدن الليباردية، ولقد شجعت هذه الأحداث البابا المنفى اسكندر الثالث على العودة إلى روما حيث عقد مجمع ديني أعلن فيه البابا قرار الحرمان ضد الإمبراطور⁽³⁰⁾. وساعدت هذه الأحداث على اشتعال الثورة في المدن الليباردية الأمر الذي عجل بعودة الإمبراطور فريديريك الأول ببروسا إلى إيطاليا للمرة الرابعة، واتجه في هذه المرة إلى روما ذاتها للقبض على غريمه البابا اسكندر الثالث، ولكن هذا تمكن من الفرار إلى الجنوب قبل دخول الإمبراطور المدينة⁽³¹⁾، وبعد دخول فريديريك روما سنة ١١٦٧م جرى توجيه للمرة الثانية إمبراطوراً على يد البابا الإمبراطور الجديد باسكال الثالث الذي كان قد عينه الإمبراطور خلفاً للبابا فيكتور الرابع⁽³²⁾.

ولم يكن فريديريك ببروسا حقيقياً في هذه المرة، لأنه ألب جميع أعدائه غده، إذ بدأ الاتصال بسلطنة سلاجقة الروم بقوتية مشيراً الإمبراطور البيزنطي ما نويل كومنين⁽³³⁾، بدلاً من محاربة هذا الأخير وتوجيه الحلف ضد النورمان في جنوب إيطاليا، ولهذا فقد واجه فريديريك عداءً شديداً وثأب غده أعداء كثيرين، فبالإضافة إلى البابا اسكندر الثالث وحلفائه النورمان، انضم الإمبراطور الشرقي مانويل كومنين إلى قائمة الأعداء، فضلاً عن المدن الليباردية التي سارعت بتكوين حلف فيما بينها شمل معظم مدن السهل الليباردي، وزاد في سوء

(٢٨) العربي : المرجع السابق ص ٤٤٣

(29) Robinson : op. cit. p. 208

(30) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 441

(31) Ibid. p. 394

(32) Ostrogorski : op. cit. p. 342

أحوال فريدرىك الأول انتشار الوباء في جيشه أثناء مراهقته في إيطاليا، وتكثرت المدن الليباردية تحاول أن تسد الطريق أمامه، لهذا لم يعد الإمبراطور إلى ألمانيا في هذه المرة إلا بشق الأنفس وبعد أن تكبد خسائر فادحة⁽³⁵⁾، وأصبحت سلطته في إيطاليا شبه مفقودة إذ أصبحت مدن العصبة الليباردية حلقها ضد الإمبراطور مانعية في الحفاظ على استقلالها⁽³⁶⁾.

غير أن فريدرىك الأول ببروسا لم يستسلم لهذه النتيجة وإنما فشل القيام بحملة ضد مدن العصبة الليباردية، فجهز إلى إيطاليا في المرة الخامسة والأخيرة سنة ١١٧٤م حين دارت معارك متتالية في شمال إيطاليا⁽³⁷⁾ أبرزها معركة ليفانو Legnano إلى الشمال الغربي من ميلان وقد جرت سنة ١١٧٦م، وفيها دارت الدائرة على جيوش الإمبراطور ولحققت به هزيمة ساحقة على يد جيوش مدن الشمال⁽³⁸⁾، ولهذا مال إلى عقد الصلح مع هذه المدن ومع البابا اسكندر الثالث الذى انتقل إلى الهندية ليكون قريباً من الأحداث ولم يصانع البابا في هذه الرحلة من الدخول في مفاوضات مع الإمبراطور بعد أن أحس اتجاه هذا إلى الخسوف والاستسلام، وبعد أن أصر على التمسك بحقوق البابوية كاملة، ولهذا تكررت في سنة ١١٧٧م مهزلة كانوسا التي جرت قبل ذلك بمائة عام بالضبط⁽³⁹⁾، فدخل الإمبراطور فريدرىك الأول ببروسا على البابا اسكندر

(33) Tout: op. cit. p. 259

(34) العزتي : نفس المرجع ص ٤٤٤

(35) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 445

(36) E. yce : op. cit. p. 175

(37) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 448

مثلاً فعل سلفه هنري الرابع مع البابا جريجوري السابع سنة ١٠٧٧م
أي قبل ذلك بقرن من الزمان^(٣٨).

وحتى عقد صلح البندقية بين البابوية والإمبراطورية في أغسطس
سنة ١١٧٧م على قاعدة رد جميع الأملاك البابوية إليها وعلى أن يعتمد
الإمبراطور بعقد هدنة مع النورمان حلفاء البابوية أمدها خمسة عشر
عاماً، ويعتمد أيضاً بمساعدة البابا ضد أي عدو يتهدده، وأن يهادن
أيضاً المدن الليماردية^(٣٩) لمدة سنة أعوام، وانتهت الأمور بين الإمبراطور
والمدن الليماردية فعلاً سنة ١١٨٣م حين عقد صلح حصلت فيه المدن
الليماردية على استقلالها باستثناء بعض الأمور الشكلية وهكذا فقدت
الإمبراطورية إيطاليا وأخذت قوتها تضعحل رويداً رويداً ويعزى لها
الذبول^(٤٠).

وترتب على صلح البندقية بين الإمبراطور فريديك الأول ببروسا
والبابوية أن هدأت الأحوال واستقرت الأمور وسادت علاقة جديدة بين
ألمانيا وإيطاليا، ولعل ذلك قد أتاح فرصة للإمبراطور فريديك الأول
ليدعم نفوذه في ألمانيا^(٤١) ويتصدى للأسرّة الطامعين إلى الهيمنة
والظهور وتهديد السلطة الإمبراطورية خاصة أمير سكسونيا الذي نجح
الإمبراطور في إزلال النفوذة به سنة ١١٨٠م وتقسيم أملاكه بين عدد من
النبلاء^(٤٢).

(38) Tout : op. cit, p. 263

(39) العربي : الترجع السابق ص ٤٦٥

(40) Bryce : op. cit, pp. 201 – 205

(41) محمد عاشور : الترجع السابق ص ٢٥٥

(42) Rompsen : op. cit, vol. I , pp. 200 – 201, p. 507

كما نجح الإمبراطور فريديك الأول ببروسا بعد ذلك بسنوات قليلة في تزويج ابنه وخليفته من وارثة مملكة صقلية الأمر أدى إلى التوحيد بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومملكة صقلية مما جعل أملاك البابا في وسط إيطاليا تقع بين شقي الرمح، بعد زواج ولي العهد الألماني من الأميرة كونستانس وارثة المملكة المذكورة⁽⁴³⁾، وجاء ذلك تضرراً سياسياً للإمبراطورية في مواجهة البابوية وتهديداً لسلطة البابا في وسط إيطاليا، الذي أحاطت به أملاك الألمان من الشمال والجنوب⁽⁴⁴⁾.

ثم مالبت الإمبراطور فريديك الأول ببروسا أن أحرز نجاحاً آخر حين تفكك حلف القومونات اللمباردية، واشتد التنافس بين تلك القومونات في الفترة التي أحسبت فيها بانتهاك الخطر الإمبراطوري عليها، وعندئذ تمكن الإمبراطور من التفتت إلى إيطاليا: بعد أن تعرضت سلطة الإمبراطور في تلك المنطقة من قبل لاهتزاز كبير في الفترة السابقة⁽⁴⁵⁾، وعادت من جديد للإمبراطور فريديك الأول ببروسا عيادته على ألمانيا وإيطاليا بعد أن قضى على الثفلوثين في ألتانيا من التيلاء ودعم نفوذه هناك ونفذ إلى إيطاليا شمالاً وجنوباً ليقيى نفوذه في شطرى الإمبراطورية الرومانية المقدسة⁽⁴⁶⁾.

قلما وردت الأخبار من الشرق بانتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين واسترداده بيت المقدس سنة ١١٨٧ م، عولت البابوية على قوى الغرب وخاصة الإمبراطورية الألمانية للمشاركة في حملة صليبية

(43) Painter : A Hist of the Middle Ages, p. 280

(44) Southern : op. cit. p. 205

(45) Bryce : op. cit. pp. 201 - 205

(46) Thompson : op. cit. Vol. I, p. 509

جديدة للتأثر من المسلمين كما حل بالتصليبيين من هزائم على يد صلاح الدين، ولهذا خرج الإمبراطور فريديك الأول ببروسا سنة ١١٨٩م على رأس الشطر الألماني من الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة متوجهاً إلى الشرق^(٤٧)، ولكن هذا الإمبراطور لقي حتفه غرقاً وهو يسير نهر السالف بأسها الصغرى سنة ١١٩٠م - قبل أن يصل إلى الأراضي المقدسة أو يلتقي بالشق الإنجليزي أو الشق الفرنسي من تلك الحملة الهامة^(٤٨)، ونهب القرويون إلى أن غرق هذا الإمبراطور في ذلك النهر كان يسبب تقدمه في السن وهو شيخ كبير لم يتحمل السباحة في النهر مع ثقل ملابسه وضعف صحته، فغرق وهو في طريقه من طرسوس إلى أذنة وأنطاكية^(٤٩).

تولى العرش الألماني بعد فريديك الأول ببروسا، ابنه هنري السادس (١١٩٠ - ١١٩٧م) الذي لم يكن يقل عن والده مقدرة وعزيمة وميلاً لاستمرار هيمنة الإمبراطورية باعتبارها إمبراطورية عالمية^(٥٠)، وخطط هنري السادس لجعل المنصب الإمبراطوري وراثياً في ذريته، وإلغاء مبدأ الانتخاب في اختيار الإمبراطور، واستثمار مركز زوجته كوارثة لعرش صقلية كدعم نفوذه في جنوب إيطاليا، وإن صادفته مشاكل في ذلك واستخدام بعض الفلواتين، غير أنه تمكن في النهاية من الانتصار على خصومه في ألتانيا مما أتاح له فرصة توجيه كل جهوده نحو إيطاليا^(٥١).

(47) Tout : The Empire and the Papacy , pp. 270-271

(48) (العربي) : المرجع السابق ص ٢٩٩

(49) Grousset : op. cit. III, pp. 16 - 17

(50) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 460

(51) Tout : op. cit, pp. 306 - 309

ثم ما لبث هنري السادس أن استولى على مملكة الصقليتين بعد أن ساعدته الظروف بانتشال المدن الصقلية في شمال إيطاليا بمساعدة بيتهما من خلاف، فضلاً عما حصل عليه من معونة بحرية من جنوة وبيزا في حربه في صقلية، في الوقت الذي لم يكن للهابوية في تلك الفترة جراحة للوقوف في وجه الإمبراطور، أو الحيلولة بينه وبين تنفيذ مشروعاته في الجنوب، الأمر الذي مكن الإمبراطور من تحقيق أهدافه في إيطاليا وتوسيع نفوذه في الغرب أكثر من أي إمبراطور آخر خاصة بعد خلاصه من متاوليه في ألمانيا ابتداء من سنة ١١٩٥م عند وفاة خصمه أمير سكسونيا السابق⁽⁵²⁾ ولهذا نجح الإمبراطور هنري السادس في الحصول على موافقة أمراء ألمانيا سنة ١١٩٦م على أن يخلقه ابنه فريدرick الثاني في عرش الإمبراطورية، ثم اتجه بعد ذلك إلى إيطاليا حيث توفي سنة ١١٩٧م⁽⁵³⁾.

وبعد وفاة الإمبراطور هنري السادس ألزمت زوجته كونستانس - والدة فريدرick الثاني - الاحتفاظ لأبنها بمملكة الصقليتين مبتعدة عن ألمانيا ومشاكلها، في الوقت الذي شرقت فيه ألمانيا في مشاكل كثيرة، وشهدت أطماع الفاسمين وحوادث الانقسام التي جرتها إلى حروب أهلية⁽⁵⁴⁾، ثم سالت كونستانس أن توفيت سنة ١١٩٨م، بعد أن أوصت بأن يخلقها البابا في الوصاية على ابنها الصغير فريدرick الثاني، ونظراً لتعرض البابا لعداء وأطباع الأمراء الألمان الرامين إلى الهيمنة على العرش الألماني والتمسك بالسيادة الإمبراطورية في إيطاليا، الأمر الذي

(52) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 469

(53) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 512

(54) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 233

جعل البابا إنوسنت الثالث يعلن فريديك الثاني إمبراطوراً^(٥٥)، وانتهى الأمر بإجماع عدد من أمراء ألمانيا سنة ١٢١٦م على اختيار فريديك الثاني - ابن هنري السادس - ملكاً على ألمانيا، وأيد البابا إنوسنت الثالث ذلك، على الرغم من أن ذلك كان يعنى أن تصبح البابوية من جديد بين شقي الرجا: فيحيط بها أملاك الألمان من الشمال ومن الجنوب، وما يترتب على ذلك من نتائج^(٥٦)، وبعد انتصار فريديك الثاني في ألمانيا واستسلام خصومه احتفل بإعادة تنويجه في كاتدرائية آخن، فأصبح بذلك الحاكم الذى لا يتنازع متنازع في حكم ألمانيا والصقليتين^(٥٧).

وعد فريديك الثاني من أكثر الشخصيات الأوروبية حينئذ شهرة وغرابة في نفس الوقت فهو ابن هنري السادس من زوجة صقلية وارثة عرش صقلية - كما سميت الإشارة - فهو بذلك من أب ألماني وأم نصف إيطالية، وعاش فترة طفولته وصباه في صقلية وتلقى تعليمه هناك وسط المؤثرات العربية والبيزنطية^(٥٨)، فنشأ نشأة خاصة وأغرم بالرياضيات والفلسفة - وأحب الجدل وأجاد عدة لغات منها اللغة العربية، وكان يتقن الشعر العربي وغير العربي، ويعرف القانون وله خبرة كبيرة في الشؤون السياسية فضلاً عن كونه محارباً قذاً^(٥٩). ولقد أظهر فريديك

(٥٥) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 621

(٥٦) Tout : The Empire and the Papacy, p. 239

(٥٧) عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٣٤٤

(٥٨) Heer : Medieval World, p. 284, p. 323

(٥٩) قسّر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ج ١ ص ٢٥٥ (ترجمة زبادة والبرهنى والمعدى)

محمد الشوح : النظم والحفارة الأوروبية في العصور الوسطى ص ٣٢٤
Bryce : op. cit. p. 204

الثاني اعتماداً كبيراً بإيطاليا ورسية في التمكنين لنفسه فيها ليس في جنوبها وصقلية فحسب، وإنما أيضاً في شمالها فضلاً عن ألمانيا⁽⁶⁰⁾، ولعل ذلك كان له شغل في إثارة مخاوف البابوية التي خشيت أن تقع أملاكها بين شقي الرجا، ويبدو أن البابوية على عهد البابا ثالث الصيت إنوسنت الثالث حاولت أن تفرغ حماية الإمبراطور في الحروب الصليبية وتدفعه إلى القيام بحملة صليبية ووعد فريديك الثاني البابا إنوسنت الثالث سنة ١٢١٥م بالقيام بحملة صليبية، لكنه عاد فتلكتاً في إنجازها ومات في تنفيتها، فضلاً عن أنه توج ابنه هنري في حياته ليخلفه في حكم صقلية والإمبراطورية كلها⁽⁶¹⁾، فزاد في إقزاع البابوية وزيادة مخاوفها، وبعد وفاة البابا إنوسنت الثالث وقيل حملة جان دي بريس (١٢١٩ - ١٢٢٦م) زادت رغبة البابا الجديد هينريوس الثالث في قيام الإمبراطور بالحملة الصليبية التي وعد بها وشجع فكرة زواج الإمبراطور من واثرة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ليعسى الإمبراطور بوعده⁽⁶²⁾ فتزوجها الإمبراطور فعلاً سنة ١٢٢٥م، لكنه مع ذلك راح يساند في القيام بالحملة بل أنه جد في فرض قوانين مشددة على رجسال الدين ليحد من نفوذهم، كما أعلن تمسكه بحقوقه الإمبراطورية في السيطرة على لبارديا وكل ذلك زاد من حنق البابا وفزع، وأوشك البابا أن يتخذ خطوة ضد فريديك الثاني لولا أنه توفي سنة ١٢٢٧م وخلفه في الكرسي البابوي جريجوري التاسع⁽⁶³⁾.

(60) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 76

(61) Tout : op. cit. pp. 364 - 5

(62) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 307

Runciman : op. cit. Vol III, p. 176

محمد الشيرازي : عصر الحروب الصليبية من ٤٧٧

(63) Durant : The Age of the Faith, 395 - 1300, p. 714-717

ولم يقبل البابا الجديد الشرائع التي تشرع بها فريديريك الثاني للمعاطلة في أمر القيام بالحملة الصليبية، بل إنه أسر على قيسام الإمبراطور بحملة⁽⁶⁴⁾، واضطر هذا للخروج قاصداً الشرق سنة ١٢٢٧م، إلا أنه عاد بعد أيام مدعياً المرض، الأمر الذي أعطى البابوية سبباً لإصدار قرار الحرمان عليه في سبتمبر من نفس العام⁽⁶⁵⁾، ويبدو أن البابوية انتهزت هذه الفرصة لتنتقم من الإمبراطور ليس لمماطلته في أمر الحملة، وإنما لمواقفه تجاه البابوية ورفضه في إخضاعها وتدخله في شؤون إيطاليا ولباردنيا بصفة خاصة، غير حائل بمشاعر الإيطاليين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى، ولهذا جد البابا في محاولة إثارة مشاعر الرعايا ضد الإمبراطور والتأكيد على وجوب طاعته والثورة في وجهه لأنه محروم من رحمة الكنيسة⁽⁶⁶⁾.

ويبدو أن ذلك أتى بلمعة في النهاية فقد اضطر فريديريك الثاني للخروج إلى الشرق وهو كثره لهذا الأمر، ويدل على ذلك أنه لم يعزم على الاشتباك مع المسلمين في الشرق بدليل أنه اصطحب قوة صغيرة يقال أنها لم تزد عن خمسمائة فارس لانتكفى لمجرد التفكير في شن حرب على المسلمين وإنما كان يعول على فتح باب المفاوضات مع الملك الكامل الأيوبي للحصول على بيت المقدس بطريق السياسة لا بطريق الحرب⁽⁶⁷⁾ بل بطريق الاستعطاف إن لزم الأمر، وقبلاً وصل به الأمر في بعض

(64) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 146

(65) Runciman : op. cit. Vol. III, p. 178

محمّد الشويخ : المرجع السابق ص ٢٨٠

(66) Tout : op. cit. p. 367

(67) Stevenson : op. cit. p. 311

مراحل المفاوضات أن يكي أمام رسل الملك الكامل ليعرق قلب السلطان ويمنحه بيت المقدس حتى لا يعود إلى الغرب صغر الدين، فبنتهز البابا الفرصة لخلعه من عرشه، وفعل رز له قلب الملك الكامل وعقد معه معاهدة جرى بمقتضاها تسليم بيت المقدس للإمبراطور فريديك الثاني سنة ١٢٢٩م، فدخل فريديك الثاني كنيسة القيامة ببيت المقدس وقام بتكويج نفسه بنقسه فيها إشارة إلى أنه لم يتلق التاج من يد رجال الدين، وإنما تلقاه من الله مباشرة. ثم قفل راجعاً إلى الغرب الأوربي بعد قليل في يونيو سنة ١٢٢٩م^(٦٩).

وكان البابا جريجوري التاسع قد انتهز فرصة غياب فريديك الثاني في الشرق، وأشاع نبأ وفاته هناك وقام من جانبه بالإشارة على أملاك الإمبراطور في إيطاليا واستولى على بعض القلاع^(٧٠)، غير أنه فوجئ بوصول الإمبراطور إلى إيطاليا فألجس خيفة وأخذ يستعد للدفاع عن روما، إلا أنه أثر في النهاية الاعتراف بما حققه الإمبراطور للمسيحية كلها والمسيحيين قاطبة من نصر باسترجاع بيت المقدس، وسال إلى عقد الصلح مع الإمبراطور، فعلاً عقد صلح سان جرمانو سنة ١٢٣٠م رفع البابا بموجبه قرار الحرمان عن الإمبراطور^(٧١) وانتهز الإمبراطور هذه الفرصة ليؤكد سيطرته في إيطاليا ويتزك بحلف العصبة اللامباردية الهزيمة قرب ميلان سنة ١٢٣٨م واضطرها إلى عقد الصلح مع الإمبراطورية، الأمر الذي اسفاهت له البابوية وبدأ في ظله صلح سان جرمانو مجرد هدنة بين البابوية والإمبراطورية^(٧٢) لأن النزاع مالميت أن تجدد لاسيما حين جد

(68) W. Durant: op. cit. p. 717

(٦٩) هافور : المرجع السابق ٣٩٨

(70) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 147

(71) Thompson : op. cit. Vol. 2, pp. 629 – 630

الإمبراطور في محاولة إثارة القلاقل ضد البابا في روما ذاتها، مما دفع هذا إلى القيام بإصدار قرار الحرمان ضد الإمبراطور للمرة الثانية سنة ١٢٣٩م^(٧٢)، واشتعلت الحروب بعد ذلك بين البابا والإمبراطور واستمر البابا في ذلك بالقوى البحرية الإيطالية جنوا وبيزا والبندقية، غير أن الهزيمة لحقت بهم وتقدم الإمبراطور في أسلاك البابا في وسط إيطاليا، ووسط ذلك كله توفي البابا في عام ١٢٤١م وقد قارب عمره المائة عام^(٧٣).

استمر النزاع بين الإمبراطورية والبابوية بعد ذلك وعلى عهد البابا إنوسنت الرابع الذي اضطر أمام ضربات الإمبراطور القوية في إيطاليا إلى الفرار إلى ليون سنة ١٢٤٢م، وظلت يد الإمبراطورية هي العليا في إيطاليا حتى سنة ١٢٥٠م باستثناء مرات قليلة لقيت فيها قواته بعض الهزائم من المدن الإيطالية، وأخيراً توفي فريدريك الثاني سنة ١٢٥٠م وكان متوجهاً من جنوب إيطاليا إلى شمالها^(٧٤)، وبذلك انتهى عهد الأباطرة المطام الذين آمنوا بنظرية سمو الإمبراطورية وعاليتها وتلقاها على كافة القوى بما فيها البابوية وانتهت بذلك عالمية الإمبراطورية الرومانية المقدسة^(٧٥)، فقد ضعفت الإمبراطورية وانتشرت بين ربوعها الفتن ولم تعد تداً للبابوية، وانتهى ذلك الدور الخطير من أدوار الصراع بين القوتين وهو الدور الثالث في أدوار الصراع بين الجانبين في العصور الوسطى، ولعله من الواضح أن الإمبراطورية قد عجزت بكل ما لها من ثقل عن إخضاع البابوية نظراً لأن هذه اعتمدت على رصيد هائل من

(72) Camb. Med. Hist. Vol. 6 p. 133

(73) Ibid. p. 136

(٧٤) عاكور : المرجع السابق ص ١٠٣

(75) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 164

الشعور الروحي لدى الناس الذي كان منهلاً قهراً اعتمد عليه البابوات في صراعهم مع الأباطرة الذين لم يكن لهم سوى مسوايق الماضي وأمعان الأباطرة في الماضي دون سند قوى يمكن أن يكون له أثر في جسم هذا الصراع لصالحهم .

ولاشك أن عهد الإمبراطور فريديريك الثاني كان عهد ازدهار وعظمة للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، على الرغم من أن هذا الإمبراطور لم يول ألمانيا الاهتمام الذي أولاه لكل من صقلية وإيطاليا ، لأنه اعتبر نفسه صقلياً قبل أن يكون ألمانياً ، ولم يستقر في ألمانيا سوى سنوات قليلة من عهده الطويل ، وراقت له صقلية وإيطاليا مستقراً أكثر من ألمانيا ، وعلى الرغم من ذلك سارت ألمانيا في طريق التطور والازدهار والقوة والتوسع ⁽⁷⁶⁾ ، ولعل من هذا التي انتمت صناعاتها وتجارتها ، والتي اتجهت نحو الاستقلال السياسي وتأكيد ذاتيتها ، وتكوين الصيغ فيما بينها والتحالفات ضماناً لمصالحها وتقوية نفوذها ⁽⁷⁷⁾ ، وكذلك انتمت تجارتها لألمانيا كنها ، وسدت ألمانيا مركزاً للثراء والنظمة الاقتصادية في غرب أوروبا ، كما دلفت ألمانيا إلى ميدان الحضارة والتطور الحضاري ، في العلوم والآداب والقانون والتشريع ، وربما كان لتشجيع الإمبراطور فريديريك الثاني نفسه لهذا التطور الحضاري الفضل الأكبر في تطور ألمانيا في هذه الميادين ⁽⁷⁸⁾ ، فقد حمى الشعراء والأدباء والمعلماء برعايته وتشجيعه وأظهر حذاً واهتماماً بالقروء العلمية المختلفة وعفا بملأه قبلة الشعراء والأدباء والمعلماء والفلاسفة وغيرهم ⁽⁷⁹⁾ .

(76) Tout : The Empire and the Papacy , p. 378

(77) Thompson : op. cit. vol. 2, p. 637

Carob. Med. Hist. V, 6, pp. 112-113

(78) Bryce : op. cit. pp. 203 - 4

(79) قشر : المرجع السابق ق ١ ص ٢٥٥

وعلى الرغم من كل ذلك يعمل كثير من المؤرخين إلى القول بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد انتهت من الوجهة العملية، بوفاة الإمبراطور فريدرش الثاني سنة ١٢٥٠م وإن ظلت بعد ذلك أسعيا حتى القرن التاسع عشر الميلادي^(٨١)، وبانتهاء عهد فريدرش الثاني انتهت أسرة هوهنشتاوفن، ثم توفى كونراد الرابع ابن فريدرش الثاني سنة ١٢٥٤م، وعانت ألمانيا على مدى عشرين سنة معاناة شديدة وانقسمت خلالها في حروب أهلية وصراعات دموية في غيبة من يتولى أمرها أو يسيطر على مقدراتها حتى سنة ١٢٧٢م، ومثلت هذه الفترة لغرة خطيرة في تاريخ الحكم الألماني^(٨٢)، جاءت تمثلاً لافتتاح حكام ألمانيا بهيمنة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على مقدرات الغرب الأوربي ووجوب هائلتها واحترامها في الغرب الأوربي، وجاءت كنتيجة جري هؤلاء الحكام وراء سراب هذه الإمبراطورية واستمرار وجودها مع التصحية بمصالح وطنهم ذاته ومستقبل ألمانيا نفسها^(٨٣).

جرى انتخاب رودلف (١٢٧٣ - ١٢٩١م) كونت هابسبورج ملكاً وتوج في أكتوبر سنة ١٢٧٣م فبدأت بعدة أسرة هابسبورج في حكم ألمانيا، وكان في الخامسة والخمسين من عمره وواجهته مصاعب جمة على رأسها إخضاع النشأون والطامعين في العرش، وكذلك تحديد مسار علاقته بالبابوية وحقوق الإمبراطورية الألمانية في إيطاليا^(٨٤).

(٨٠) عاشر : المرجع السابق ص ٤٠٤ - ٤٠٥

(81) Southern : op. cit. p. 207

(82) Bryce : op. cit. p. 210

(83) Camb. Med. Hist. Vol. 7, p. 78

ويشير المؤرخون إلى أن رودلف هذه غاير سياسة ألتانيا نحو الهابوية، حين تنازل للهابوية عن كل حقوق الإمبراطورية وأملاتها في إيطاليا ليتفرغ لحل مشكلاته مع المشاويين خاصة في دوقية أوستريا (التمسا). واضطر إلى قيادة جيشه لإخضاع حاكمها وأنهى هذه المهمة سنة ١٢٧٨م وأقر الأمور في تلك المناطق^(٨٤)، ثم توفي رودلف سنة ١٢٩١م وهو في الثالثة والسبعين من عمره.

جرى انتخاب أدولف (١٢٩٢ - ١٢٩٨م) ككونت ناسو سنة ١٢٩٢م فاضطر إلى القيام بحملة ضد ألبرت ابن الملك القوي خشية أن ينازعه السلطة وأجبره فعلاً على تقديم قروض التبعة والدولة. وتسليم الشعار الملكي الذي احتفظ به منذ وفاة أبيه وعمل على الحد من نفوذ كبار الأمراء في المملكة، لكن ذلك كله لم يمتنع من التهمة على عرش ألتانيا لأن ألبرت جد في التحالف مع كبار الأمراء والمثاليين لأدولف^(٨٥)، وكذلك ملك فرنسا فقرر عزل أدولف سنة ١٢٩٨م، ثم قتلوه في نفس العام فساد الحكم إلى أسرة هابسبورج وإلى ألبرت ابن الملك السابق رودلف. فحكم ألبرت عشر سنوات أثبت خلالها مقدرة وكفاية رغم قصر حكمه ورغم عنقه وقسوته ورغم خلافه مع الهابوية حين رفض البابا بونيفيس الثامن الاعتراف به ملكاً على ألتانيا، فعاد ألبرت الأول إلى محاربة فيليب الرابع ملك فرنسا، الذي كان في نزاع هو الآخر مع الهابوية^(٨٦).

(84) Painter : op. cit. p. 397

(85) Camb. Med. Hist. Vol. 7, pp. 88 - 9

(86) Ibid. p. 88

ومن مميزات حكم ألبرت الأول هذا مناصرته لسكان المدن ضد الأمراء والغاشه جميع الفرياليد والمكوس التي استحدثت قبل نحو خمسين عاماً. ولذلك بذل جهداً كبيراً في القضاء على القصردين وقوار الأمور في المملكة وحل المشكلات المتعلقة بحكم بعض الأقاليم التابعة لألمانيا، إلا أنه مالبث أن قتل عنى يد ابن أخيه حنا سنة ١٣٠٨م فانتهى بذلك عهد أسرة هابسبورج وظهر بيت جديد في حكم ألمانيا في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي^(١٧٧).

(87) Ibid, p. 93

الفصل الرابع

إنجلترا بعد الفتح النورماندي حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي

- أعمية الفتح النورماندي لإنجلترا
- عهد الملك وليام الفاتح في إنجلترا ١٠٦٦ - ١٠٨٧ م
- فترة حكم الملك وليام الثاني ١٠٨٧ - ١١٠٠ م
- هنري الأول ١١٠٠ - ١١٣٥ م
- هنري الثاني ١١٥٤ - ١١٨٩ م
- ريتشارد الأول قلب الأسد ١١٨٩ - ١١٩٩ م
- يوحنا والعهد الأعظم ١١٩٩ - ١٢١٦ م
- هنري الثالث ١٢١٦ - ١٢٧٢ م
- إدوارد الأول ١٢٧٢ - ١٣٠٧ م

أشرفت في الفصل الأول إلى أهمية الفتح النورمانى للجزيرة البريطانية، وكيف جعل هذا الفتح إنجلترا جزءاً من فرنسا، فتلقت لغة فرنسا وأدبها وقانونها، وأصبح قانونها قانوناً فرنجياً إلى حد بعيد كما أصبحت أكثر رسوخاً في النظم الإقطاعية، وشهدت تقدماً في مجالات مختلفة خاصة تلك التي يبرز فيها النورمان أو تفوقوا^(١)، كمجال الحكومة والنظم السياسية، وكذلك النظم الاقتصادية والاجتماعية، كما حولت الملكية النورمانية القوية التي قامت في إنجلترا الدولة الأنجلو سكسونية المتفككة إلى الأمة الإنجليزية المتحدة، فكان إنجلترا دفعت ثمن تحويلها إلى مولة أوروبية متقدمة بجعلها بلداً نورمانياً^(٢).

ولم يكن تأثير إنجلترا بفرنسا بعد الفتح النورمانى قاصراً على النواحي العلمانية وإنما تعدى ذلك إلى الشئون الدينية والكنسية، فقد حمل رجال الدين النورمان معهم، وهم الذين وصلوا على إنجلترا وتولى بعضهم رئاسة أسقفية كانتربري، حملوا معهم حركة الإصلاح الكنسية ومبادئها المرتكزة على تحرير الكنيسة ورجالها من سيطرة السلطة العلمانية وسلطة الحكم^(٣)، ولهذا شهدت إنجلترا بعد الفتح النورمانى حركة إصلاح كنسية واسعة، وربما لهذا اصطدم كبار رجال الدين في كانتربري بالملوك في إنجلترا من خلفاء وأيسم القانتح للحفاظ على مكانة الكنيسة وسيادتها واستقلالها عن السلطة الزمنية في الوقت الذي نشطت فيه الديرة الإنجليزية محلدية حقو الديرة الفرنسية التي بلغت في تلك

(1) Haskins : op. cit p. 82

(2) Ibid. p. 82

(3) Tout : France and England, op. 56

الفترة لوج عظمتها في فرنسا^(١) ، وكان وليم الفاتح قد حصل على تسليح الهابوية قبل شروعه في غزو إنجلترا، فلم يكن غريباً أن يحصل رجال الدين النورمان إلى إنجلترا مرتكزات الإصلاح الكنسي الذي ارتبط بإسم البابا جريجوري السابع، والذي بعث روحاً جديدة في حياة الكنيسة الغربية لتبدأ صفحة جديدة في الحياة الدينية في الجزيرة البريطانية .

جاء حكم وليم الفاتح ابتداءً من سنة ١٠٦٦م بداية مرحلة جديدة في إنجلترا، لأن وليم أدرك أن الملكية بحاجة ماسة للحماية العسكرية والتمدد لما قد يحدث في الداخل لو ما يمكن أن يهددها من الخارج، فقد تحفز السكسون لتنجير الثورات في الداخل في الوقت الذي تربعت بها الأخطار من الخارج^(٢) ، ولهذا حكم وليم الفاتح الجزيرة حكماً قوياً محاولاً أن يخضع شعب إنجلترا من ناحية، ويسيطر على رفاقه النورمان من ناحية أخرى^(٣) ، ولهذا عمل على إبعاد نقاصات قوية للتمدن لغارات الإسكتلنديين والويلشيين في الداخل ورد الغارات الاسكتلندية من الخارج، فكان لابد من سلسلة من القلاع والحصون القوية المشحونة بالجند والقائدين، وكذلك جيش كبير يمكن أن يتصدى للأعداء في الخارج، فضلاً عن أنه فُكر أيضاً في دراسة شاملة لأحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية، وإحصاء لثروة إنجلترا وكيف يجري توزيعها وعدد السكان توطئة لإصلاح أحوال إنجلترا في المجال

(١) كاتون : التاريخ الوسيط ق.١ ص ٣٦٨ - ٣٦٩

Eyre : European civilization , 3, p. 222

جوزيف شيم يوسف : حاشية (١) في ص ١٧٢ من ترجمته لكتاب كوتون : عالم الصور الوسطى في التظلم والحضارة

(5) Camb. Med. Hist. Vol. 5, pp. 507 - 8

(6) Warner and Marren : The Groundwork of British Hist. p.58

وفي نفس الوقت عمل ولیم الفاتح على تحويل إنجلترا إلى دولة إقطاعية نظراً لأن من تبعه من اللطالين النورمان كانوا قد تشبعوا بالفكرة الإقطاعية^(٩)، ولم يقاتلوا لمجرد إقامة ملك نورمانى في إنجلترا وإنما من أجل ما سوف يحصلون عليه من أراضي وإقطاعات ومغانم في الجزيرة البريطانية. فأعلن ولیم الفاتح أنه المالك لكل أراضي إنجلترا، لأن ذلك حق أمجاد إياه الانتصار في هاستنجز^(١٠)، فضلاً عن أحقيقته في مصامرة أراضي كل من يقاومه من الأمراء في الجزيرة، فأصبح لديه قائماً من الأراضي قام بلونيعها على أتباعه النورمان^(١١)، وراعى ألا تجتمع أراضي أى من نبلائه في منطقة واحدة هائلاً بذلك إلى إضعاف نفوذ كبار النبلاء النورمان من ناحية، في الوقت الذى أسس فيه على أن يؤدي اتصال هؤلاء الأمراء بيمين الولاء والتمعية له، ليكونوا تابعين له مباشرة، فتصبح الالتزامات المفروضة على الأتباع لأسماهم تلى في الأهمية إلزاماتهم للملك. وفي ذلك إضعاف لهؤلاء الأمراء من ناحية أخرى^(١٢)، فنجح ولیم الفاتح بذلك في بناء حكومة إنجلترا بناء إقطاعياً، وقى نفس الوقت منح نفسه سلطة كبيرة تمكنه من الهيمنة على نبلائه ويضعف من

(٧) وهو الإحصاء الذى صنف باسم Domesday Book أو البروك النورمانى الذى كان مسجلاً لمساحة الأرض وما يملكه الملك من الأراضي في إنجلترا وتمداداً للسكان وإحصاءاً للثروة وكيفية توزيعها. انظر

Davis: Medieval Empire, p. 296

(8) Rayner : A Concise Hist. of Britain, p. 32

(9) Stephenson : Med. Hist. p. 250

(10) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p 506

(11) Ibid. p. 506

سلطة هؤلاء النبلاء بتأثير شعاعهم التي تخللت شعاع غيرهم مما أضعف قوتهم في الوقت الذي وافق فيه على أن يحتفظ بعض الإنجليز بأراضيهم بشرط أن يتنازلوا عنها لم يستمديونها باعتبارهم حائزين لها كإقطاعيات فأدت هذه التفتيمات إلى هيمنة وليم الفاتح على إنجلترا الإقطاعية⁽¹²⁾.

وعلى الرغم من أن وليم الفاتح قد حصل قبل غزوه لإنجلترا على موافقة البابوية على الفتح، الأمر الذي شجع رجال الدين النورمان على أن يحملوا معهم إلى الجزيرة ركائز الحركة الإصلاحية الكنسية وأهدافها في التحرر من رقة السلطة المملانية، كما سبق أن أشرنا⁽¹³⁾، إلا أن وليم الفاتح عاد فأنكر على البابوية رغبتها وحماسها في ممارسة سلطتها الدينية في إنجلترا، وتكريس تحرير رجالها من سيطرة الحكام النورمان والسلطة الزمنية، فرفض أن يتصاع للبابا، ولم يسمح للبابا بتوقيع قرارات الحرمان على كبار نبلائه دون إذن منه شخصياً وموافقة، بل استمر في ممارسة سلطانه المملانية على رجال الدين بتعيين الأساقفة ومقدمي الأديرة في إنجلترا، غير ملقحت لمضرب البابوية واحتجاجاتها وإن لم يمنعه هذا من شعول الكنيسة الإنجليزية بعطفه ورعايته، وتشجيع الدبرية في الجزيرة، وإن كان ذلك تحت إشراف أعيانه من النورمان⁽¹⁴⁾، فضلاً عن أنه أجاز للكنيسة أن تتخذ لها نظاماً قضائياً مثلما كان لها في سائر أقطار الغرب الأوربي، وفصل المحاكم المملانية عن المحاكم الكنسية.

وهكذا حين وليم الفاتح على الملكة هيمنة زمنية ودينية، ودعم

(12) Davis : Medieval Empire, p. 296

(13) Tout : op. cit. p. 56

(14) Camb. Hist. Vol. 5, pp. 515 – 16

البناء الإقطاعي فيها وفق معاييرها هو، وحماها من خطر الشورات الداخلية والهجمات من الخارج، فبانت له المملكة، منذ الفتح أكثر من عشرين سنة حتى توفي سنة ١٠٨٧م، بعد حياة حافلة وفترة حكم ناجحة في إنجلترا وورمانديا⁽¹⁵⁾.

خلف ولهم الثاني والده في حكم إنجلترا (١٠٨٧-١١٠٠م) طبقاً للتقسيم الذي كان قد أجراه ولهم الفاتح بين أبنائه قبل وفاته، فتابع ولهم الثاني سياسة والده في حكم إنجلترا، وإن أظهر شدة في تعامله مع الكنيسة أكثر مما أظهر والده⁽¹⁶⁾، الأمر الذي أثار بوقوع صدام عنيف بين الجانبين، لا سيما وقد أصر أنسلم رئيس أساقفة كانتربري على اتصاف برأيه في ضرورة إقرار الملك باسم الكنيسة على الدولة وتحريرها من سيطرة الحكومة، واضطر أنسلم في النهاية إلى ترك منصبه بل ومغادرة إنجلترا كلها حتى لا يضطر إلى التراجع عما أصر عليه⁽¹⁷⁾.

وأثار ذلك صدام عنيف بين الكنيسة في إنجلترا والملكية النورمانية، مسيرة لما كان جارياً بين البابوية والإمبراطورية في ألمانيا من صراع عنيف في تلك الفترة، وشعر خائف أن ذلك الصراع الأخير في مرحلته الأولى بين البابا جريجوري السابع والإمبراطور هنري الرابع⁽¹⁸⁾، قد انتهى بانتصار البابوية واستسلام الإمبراطور، وإقراره بحق البابوية وإجابة مطالبها على عهد جريجوري السابع، ثم اضطر في النهاية إلى

(15) Warner and Marten: op. cit. pp. 58 - 9

(16) Rayner : op. cit. p. 38

(17) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 526

(18) Stephen : Hildebrand and his times, p. 114

Brooke : A Hist. of Europe, p. 185

Tout : The Empire and the Papacy, p. 130

التنحي عن عرش الإمبراطورية سنة ١١٠٥م^(١٩) ، بعد صدام جديد مع البابا أوربان الثاني ومن ولى بعده عرش البابوية، وربما لهذا تمسك أنسلم براهه وإصراره على سمو الكنيسة على الدولة في إنجلترا، وتركه إنجلترا ومغادرته إيها مفضلاً ذلك على تنازله عن رايه، لولا ما حدث من وفاة وليم الثاني سنة ١١٠٠م وولاية هنري الأول عرش إنجلترا، فكان ذلك بانتهاه هذه الأزمة وتجنب الصدام مع الكنيسة^(٢٠).

ولى هنري الأول عرش إنجلترا بعد أخيه وليم الثاني، وامتد عهده من سنة ١١٠٠م إلى سنة ١١٣٥م : فكان عليه أن يجنب الملكة النورمانية في إنجلترا مغية الصدام مع الكنيسة وتهدة الأمور معها، فدعا أنسلم رئيس أساقفة كانتربري السابق إلى العودة إلى إنجلترا، الأمر الذي جعل المؤرخين يصفونه بكثير من الاعتدال^(٢١) ، ليس بسبب موقفه فقط من الكنيسة، وإنما أيضاً مع الشعب وأعوانه الإقطاعيين، فغاية يحرص الكنيسة، فقد رفض أنسلم بعد عودته إلى إنجلترا أن يقدم فروض التهمة الإقطاعية للملك على أراضي الكنيسة، كما عارض تعيين الملك للأساقفة في مناصبهم الدينية، فأطهر هنري الأول كثيراً من الاعتدال، ووافق على أن يعترف الأساقفة بالتبعية للملك في الشؤون الدينية مقابل تنازل الملك عن تقليد الأساقفة مناصبهم الدينية^(٢٢) : فجنب ذلك الدولة مغية الصدام مع السلطة الدينية، فضلاً عن أنه غاير سياسة والده وأخيه في اختيار موظفيه، فلم يشأ أن يختارهم من طبقة البارونات وكبار النبلاء

(19) Robinson : op. cit. I, p. 200

(20) Camh. Med. Hist. Vol. 5, p. 526

(٢١) الغريش : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٥٠٢
(22) Adams: The History of England , p. 147

عاشور : المرجع السابق ص ٤٧٠

وإنما مال إلى اختيار هؤلاء من صفاء الإقطاعيين أو الطبقات التي تلي البارونات في المكانة فجنب الملكة أيضاً ما كان يجرى من نزعة استقلالية لدى كبار البارونات، وما يترتب على ذلك من مشاكل، وجعل الشرفين الإباريين يمثلون الملك في مختلف الأقسام الإدارية، وأخضع هؤلاء لإشراف بعض أعضاء المجلس الملكي⁽²³⁾.

وكان هنري الأول ملكاً نورماندياً قوياً في إنجلترا، محققاً حذو والده وإيم الفاتح، فحين اندلعت ثورة في إنجلترا فجرها بعض البارونات محاولة منهم للتخلص من السلطة الملكية، لم يتردد هنري الأول في القضاء على تلك الثورة بشئ كبير من القسوة والعنف، ولم يسمح لثل هذه الثورات أن تهمز عرشه، وحين فجر أخوه روبرت ثورة في نورمانديا لم يتردد في الزحف عليها حيث قبض على أخيه الشارل وزج به في السجن حيث مات في سجنه، وأعاد الأمور إلى نصابها في تلك الدولة⁽²⁴⁾، بل أنه منع البارونات من انتزاع حقوق الولاية القضائية في إنجلترا ومنعهم من تشييد القلاع إلا بإذنه، وتصدى أيضاً لملك فرنسا وحليفه كونت أنجو⁽²⁵⁾، ثم توفي سنة ١١٣٥م دون أن يترك وريثاً للعرش في إنجلترا سوى ابنته ماتيلدا أرملة الإمبراطور هنري الخامس وزوجة كونت أنجو.

وعقب وفاة هنري الأول وقعت إنجلترا في فوضى وحروب أهلية استمرت سنوات طويلة نظراً لتعدد المطامعين في العرش منهم إسترلين ابن أخت الملك المتوفى، وكذلك ماتيلدا ابنة الملك الراحل وزوجها كونت

(23) Adams : op. cit. p. 147

(24) Palotier : op. cit. p. 184

(25) Tout : France and England, p. 68

أنجو، وأخيراً فاز بالعرش في إنجلترا هنري الثاني الذي حكم فيما بين سنتي ١١٥٤ و ١١٨٩^(٢٦).

وكان على هنري الثاني القيام بمهام عدة على رأسها إخضاع الأمراء وفرض السيطرة الملكية عليهم، وقد نجح في ذلك نجاحاً مؤزراً^(٢٧)، لما تمتع به من قوة وطموح وذكاء، فقام بإقتحام بعض حصونهم بل وتحليمها لمنهم من حشد المقاتلين بها، فضلاً عن قيامه بإصلاح الإدارة في المملكة وتوابعها، وكذلك أصلح التواحي المألوبة والقضائية، بل كانت الإصلاحات القضائية في مقدمة أعماله الهامة في المملكة^(٢٨).

أما عن سياسته مع الكنيسة فقد كانت الكنيسة قد استغابت من حالة الفوضى التي عصت إنجلترا عقب وفاة هنري الأول واستمرار الحروب الأهلية، وسيطت هيمنتها من ناحية وأضافت إلى ممتلكاتها من ناحية أخرى، فضاغف هذا من نفوذ رجال الدين^(٢٩)، فحاول هنري الثاني إعادة سيطرة الدولة على الكنيسة، وإخضاع رجال الدين لسلطة الملك، كما جرى الحال حال عهد ملوك النورمان الأوائل في إنجلترا^(٣٠)، فضمن إصلاحاته القانونية تشظيمات من شأنها الحد من سلطة رجال الدين في إنجلترا، فقرر أن يمثل أمام قضاة الملك رجال الدين المتهمون بارتكاب الجرائم^(٣١)، وتحددت سلطة الكنيسة فيما كانت تصرفه من قرارات الحرمان والقطع من رحمة الكنيسة خاصة بالنسبة لكبار النبلاء،

(26) Keen : A Hist of Medieval Europe, p. 87

(27) Warner and Marten: The Groundwork of British Hist., p. 74

(28) Rayner : op. cit. p. 46

(29) Stephenson : op. cit. 422

(30) Warner and Marten: op. cit. p. 80

(31) Rayner : op. cit p. 48

وكبار المواطنين في المملكة، فلا يجوز ذلك إلا بعد إخطار مندوب الملك وموافقة الملك على ذلك، بالإضافة إلى التصوص التي تؤكد حقوق الملك باعتباره سيداً إقطاعياً على أراضي الكنيسة وحائزها⁽³²⁾. بالإضافة إلى ما نص عليه من حق الملك في تعيين الأساقفة ومقدي الأديرة في الأماكن التي تخلق على أن يبدل للمعين الجديد يمين الولاء والإخلاص للملك قبل رسامته⁽³³⁾.

ثم قام هنري الثاني بتعيين أحد مستشاريه وصديقه توماس بيكت رئيساً لأساقفة كانتربري لمحاولة إحكام سيطرته على الكنيسة، وإخضاع رجال الدين، مؤملاً أن تلقى قراراته موافقة وتأييد بيكت، ويدفعه ولاؤه للعرش إلى تنفيذ رغبات الملك، فقبل توماس بيكت هذه القرارات في أول الأمر، وامتنل لرغبة الملك، ولكنه عاد فأعلن إنكاره لهذه القرارات وعدم قبوله لها، ففجر بذلك صراعاً رهيباً وتسبب في شجار بين الملك والكنيسة⁽³⁴⁾، إذ تمسك بيكت بحقوق الكنيسة، وعدم السماح بمساس هذه الحقوق، كما أعلن سيادة القانون الكنسي وسمو الكنيسة، ولم يتراجع أمام إصرار الدولة، ولما فشل في تغيير الموقف ترك إنجلترا واتجه إلى فرنسا حيث أقام هناك نحو ست سنوات خاصة وقد أهداه الملك لويس السابع في موقفه⁽³⁵⁾.

ويبدو أن موقف الملك لويس السابع هذا مع سوء العلاقات بين فرنسا وإنجلترا في تلك المرحلة⁽³⁶⁾، قد جعل هنري الثاني يحاول

(32) Keen : op. cit. p. 88

(33) Warner and Munen : op. cit. pp. 80-81

(34) Painter : op. cit. p. 251

(35) Ibid. p. 251

(36) King of Hoveden : The Annals of Roger of Hoveden Vol. 2, p. 367

Haskins : The Growth of English Representative Government, p. 29 (London 1948)

استرضاء توماس بيكت وحمله على العودة إلى إنجلترا، فلما عاد بيكت إلى مكانه السابق كان أول عمل قام به هو إصدار قرار الحرمان ضد الأساقفة الذين تأسروا الملك وأهدوه، فغضب لذلك هنري الثاني غضباً شديداً وأغرى بعض رجاله بتأديب هذا الأسقف التمتعت، فهاجم عليه أربعة منهم وقتلوه في كانتربري، فكان لهذا العمل ردود أفعال غاضبة من الناس والرأي العام⁽³⁷⁾، الذي اعتبر بيكت شهيداً وقديساً، وأنحى باللائمة على الملك لقتل هذا الأسقف، فاضطر هنري الثاني لتقاضي ما قد يحدث من ردود أفعال إلى محاولة التوصل من المسؤولية فيما حدث، والتسم بأنه يرى من هذه الجريمة، واضطر أيضاً إلى إعلان موافقته على احترام حقوق رجال الدين والتراجع عما أصدره من قوانين مجحفة بهم، وهكذا لم يولق هنري الثاني في سياسته مع الكنيسة⁽³⁸⁾.

ويذكر المؤرخون أن سياسة هنري الثاني الخارجية وعلاقته مع غيره من الحكام شغلت حيزاً كبيراً من تفكيره، فحين أساء نبلاؤه معاملة الأيرلنديين، ولم ينصاعوا لرغبة الملك للعمل في ظل حكومة مركزية واحدة واستعروا في اعتداءاتهم على الإيرلنديين مما فجر الثورات والفتن في الجزيرة⁽³⁹⁾، اضطر الملك إلى اللجوء بشخصه إلى هناك على رأس جيشه وبقي بالجزيرة من أكتوبر سنة ١١٧١ إلى أبريل سنة ١١٧٢م⁽⁴⁰⁾، نجح خلالها في إحصال الهزائم بكثير منهم حتى اضطر الآخرون إلى التوافق عليه لتقديم قروض الملاءة والولاء، وساعده على ذلك أن الإيرلنديين نظروا إليه على أنه منصفهم وراى الظلم عنهم من قبل

(37) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 566

(38) Stephenson: op. cit. p. 422

(39) Adams: op. cit. pp. 279 - 99

(40) Roger of Wendover: Flowers of History, Vol. 2, p. 20

التيلاء النورمان، قسول له ذلك إتمام الفتح وإرساء دعائم الملكية في جزيرة أيرلندا⁽⁴¹⁾ وفي نفس الوقت نجح هنري الثاني في إقامة علاقات سياسية طيبة مع بعض الحكام الآخرين في أوروبا عن طريق الزيجات السياسية والمصاهرة. فقد زوج بئاته الثلاث من دوق سكسونيا وملك قشتالة وملك صقلية فأرتبط مع هؤلاء بروابط ممتازة⁽⁴²⁾.

غير أن علاقة هنري الثاني بفرنسا ساءت كثيراً بسبب تعهد الملك لويس السابع ومن بعده فيليب أوغسطس للثورات التي اندلعت ضد هنري الثاني في إنجلترا، وفي أملاك إنجلترا في فرنسا، الأمر الذي اضطر معه هنري الثاني إلى محاولة إخضاع هؤلاء الأمراء، بل أنه أعلن الحرب على فرنسا أكثر من مرة⁽⁴³⁾ بسبب موقف ملكها من تلك الثورات، خاصة تلك التي جرت في أملاك هنري الثاني في فرنسا، ولما بدأ هنري الثاني في تقسيم ممتلكاته وتوزيعها على أولاده بعد أن توج أحد أبنائه ملكاً على إنجلترا ونورمانديا، وخص الأبن الثاني بجزء من أملاكه في فرنسا (أكويتين) وضمن بريتانى للأبن الثالث وهي أيضاً في فرنسا، واضطر هنري الثاني إلى المجئ إلى بريتانى لتأكيد تهيئتها لإنجلترا وإقرار الأمور فيها سنة ١١٦٩م أثار هذا نازر القهيرة والحسد في قلب الملك الفرنسي وجعله يترقب الفرصة للتكيد له وإثارة المشاكل في وجهه، فلما شرع هنري الثاني في سنة ١١٧٠م في تقسيم أملاكه بين أبنائه، قام الملك الفرنسي بتحريض أبنائه الملك هنري الثاني ضد والدهم⁽⁴⁴⁾، فاندلعت الثورة ضد

(41) Roger of Hoveden : op. cit. vol. 2, p. 354

(42) Stephenson : op. cit. p. 423

Warner and Marten : op. cit. p. 93

(43) Davis : England under the Normans and Angevins 1066-1272, p. 202

Maitland : The Constitutional Hist. of England, p. 13

(44) Nicholas : The Evolution of Medieval world, p. 224

هنري الثاني فجبرها أبناؤه وشاركهم في ذلك بعض الأمراء في إنجلترا وملك اسكتلندا وكذلك بعض الأمراء في أيرلندا إنجلترا في فرنسا، إلا أن هنري الثاني نجح في إخضاع الثوار، وأجبر ملك اسكتلندا على الخضوع وإعلان تبعيته لملك إنجلترا⁽⁴⁵⁾، وهكذا في نفس الوقت عن أبناؤه، غير أنه أعقب ذلك وفاة اثنين منهم في حياته، بينما بقي ريتشارد الذي أغراه ملك فرنسا الجديد فيليب أغسطس بالثورة ضد أبيه سنة ١١٨٨م، ثم كانت وفاة هنري الثاني في العام التالي سنة ١١٨٩م فبدأت حقبة جديدة في تاريخ إنجلترا في العصور الوسطى⁽⁴⁶⁾.

ول العرش في إنجلترا ريتشارد الأول بعد وفاة والده، وامتد عهده من سنة ١١٨٩م إلى سنة ١١٩٩م، واتصف هذا الملك بالشجاعة والبطولة والجرأة حتى سمي بريتشارد قلب الأسد⁽⁴⁷⁾، مع ميل شديد للعنف والقسوة ربما لهذا لم يمتد به العمر كثيراً، ولم يزد حكمه عن عشر سنوات، بل إنه لم يمكث في إنجلترا طوال هذه المدة أكثر من سنة واحدة قضاه على دفعته لم تزد إقامته فيها في كل مرة على عدة شهور، واقتسرت أعماله فيها على جمع الأموال لتمكينه من القيام بمشروعاته وحروبه خارج إنجلترا⁽⁴⁸⁾، سواء في الشرق في الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة وكذلك في حروبه ضد فرنسا ومشروعاته في القارة. واشتهر هذا الملك بكراميته الشديدة لليهود، فقد سلك دماء كثير منهم حتى أولئك الذين قدموا له الهدايا بعد تنويجه ملكاً على إنجلترا، ولكن شهرة هذا الملك تستند كلية على اشتراكه في الحملة الصليبية المذكورة التي حاول

(45) Warner and Marten; op. cit p. 76

(46) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 572

(47) Rayner : op. cit. p. 52

(48) Palmer : A Hist. of the Middle Ages, p. 266

من خلالها الاستيلاء على مدينة بين القدس التي كان صلاح الدين قد نجح في استعادتها عقب موقعة حطين سنة ١١٨٧م^(٤٩) ، وكذلك تقديم المعون للصليبي الشرق ، وتدعيم كياناتهم في الشرق بعد أن احتل هذا الكيان وأوشك أن يتداعى بسبب جهاد صلاح الدين في تلك المرحلة ، وحدث أن اشتد الخلاف بين ريتشارد هذا وليفيلب أوغسطس ملك فرنسا ، الذي شاركه في تلك الحملة ، فاضطر ليفيلب أن يغادر إلى بلاده بعد نجاح الصليبيين في دخول عكا سنة ١١٩١م^(٥٠) ، ولحق به ريتشارد في العام التالي سنة ١١٩٢ م عائداً إلى إنجلترا بعد عقد الميثاق مع صلاح الدين^(٥١) ، حيث قضى عدة أشهر يجمع الأموال لتغطية التكاليف في حرب مع ملك فرنسا ، الذي تأخر عليه أثناء مودته وأثار عبده العصيان في بعض أملاكه في فرنسا ، فكانت حرب ريتشارد في فرنسا دفاعاً عن أملاكه فيها^(٥٢) ، ولكن من سوء حظه أن أصيب بجرح خطير في إحدى المارك ، ثم لم يلبث أن تولى متأثراً بجراحه سنة ١١٩٩م لتتسبب صفة عامة في تاريخ إنجلترا من ناحية وفي علاقتها بالملكية الفرنسية من ناحية أخرى^(٥٣) .

ول العرش في إنجلترا بعد ريتشارد الأول أخوه يوحنا (١١٩٩ - ١٢١٦م) ، الذي حاول زيادة سلطة الملك على حساب البارونات من ناحية والبابوية من ناحية أخرى ، على الرغم من أنه لم يكن على شاكلته أخيه ريتشارد أو والده هنري الثاني ، بل اقتدر إلى القوة والشجاعة^(٥٤) ،

(49) Warner and Martin: op. cit. p. 95

(50) Runciman : A Hist. of the Crusades, III, p. 52

(51) Grousset : Histoire des Croisades, III, p. 119

(52) Keen : op. cit. p. 89

Rayner : op. cit. p. 53

(53) Adams : The Hist. of England, p. 378, p. 386

(54) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 218 - 19

واستخف به الناس، بل أنه أفضح معظم أملاكه في فرنسا خاصة نورماندي وماين وأنجو ولازمه سوء حظ، فواجه عدوين في وقت واحد هما الملك فيليب أوفيسن ملك فرنسا والبابا إنوسنت الثالث، فضلاً عما كان يواجهه من مشكلات مع البارونات⁽⁵⁵⁾.

فحين عزم يوحنا على استرجاع أملاكه في فرنسا ومحاربة ملك فرنسا فيليب أوفيسن بعد شياخ نورماندي وأنجو وماين، كان عليه أن يعد لذلك ميزانية ضخمة للحرب⁽⁵⁶⁾، وكان لابد أن يأتى الجانب الأعظم منها من حقوق الإقطاعية، وما يحصله من النبلاء من رسوم ضخمة للأبنوة حين يؤهل الإقطاع إلى الوارث بعد وفاة الحائز له، وبما كان يأتيه من منح الامتيازات للنبوة لهؤلاء النبلاء، فضلاً عن الرسوم المحصلة باسم البذل الحربي Seutage وهي الضريبة التي كان يدفعها كل فارس لا يريد أداء الخدمة العسكرية ويستعير عنها بالبدل النقدي، بالإضافة إلى ما استحدثه من ضرائب جديدة مثل ضريبة الدخل وضريبة المقار والمكوس الجمركية وغيرها⁽⁵⁷⁾، فلما أضفنا إلى ذلك ما حصله من أموال من رجال الدين خلال نزاعه مع البابوية⁽⁵⁸⁾، أدركنا أن يوحنا قد زج بنفسه في صراع داخلي رهيب مع باروناته وأمرائه إنجشتر في تلك الفترة وهم الذين أثقلت كاهلهم هذه الأعباء، وقتلك بدأ البارونات في تهوير المواثبات وإعداد أنفسهم للثورة ضد الملك، وتولت قيادة هذه الثورة جماعة منهم لا يتجاوز عددهم الثلاثين حركت بعضهم أسباب شخصية لعاداة الملك⁽⁵⁹⁾، ونقم عليه آخرون مسا فرضه من

(55) Rayner : op. cit. p. 54

(56) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 244 – 5

(57) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 244 – 5

(58) Warner and Marien : op. cit. p. 104

(59) Rayner : op. cit. p. 54

ضرائب وما حصله من رسوم بأهظة، ولما يقصوه من حقوق امتيازات وحيازة الضياع، وما صرفوه في تشييد القلاع والحصون، فأصبح كل نبيل يكره الملك لسبب أو لآخر دون أن يعنى ذلك أن جميع البارونات كانوا يملكونه لنفس الأسباب⁽⁶⁰⁾.

ولما اندلعت ثورة الأمراء في وجه الملك يوحنا وقدم الثوار مطالبهم في قائمة إلى الملك راح الملك يعامل في إجابتها مؤبلاً أن يحصل خلال ذلك على مساعدة أهل لندن وتأييد رجال الدين، فقام البارونات باحتلال لندن، والضغط على الملك الذي اضطر في النهاية إلى الإذعان والموافقة على ما عرف بالمعهد الأعظم وذلك في ١٥ يونيو سنة ١٢١٥م⁽⁶¹⁾، حيث عكف كتاب الملك على صياغة الوثيقة الهامة التي جعلت مطالب البارونات لها قوة القانون، وصارت هذه الوثيقة هي المعهد الأعظم Magna Carta، واعتبر المؤرخون المعهد الأعظم وثيقة إقطاعية تهدف إلى تنظيم العلاقة بين الملك وكبار الأمراء الإقطاعيين⁽⁶²⁾، دون أن تعني في جوهرها تحقيق الحرية للشعب - كما يبدو - لأنها لم تتعرض أصلاً لمكان القرى والريف الذين يمثلون ثلاثة أرباع السكان حينئذ، وإنما تطلعت حول علاقة الملك مع كبار نبلائه⁽⁶³⁾.

فقد جرم هذا المعهد على الملك جمع إتاوات دون موافقة المجلس الكبير إلا في حالات خاصة، كما أتاح للتجار الدخول إلى البلاد مباشرة نشاطهم دون أن يتعرضوا لأية مضايقات، فإذاً أرادت الدولة الإستيلاء على بعض الممتلكات للمصلحة العامة، فلا بد من تمويش أصحابها

(60) Keen : op. cit. p. 88

(61) Adams : The History of England, p. 437

(62) Painter : op. cit. p. 369

(63) Warner and Marten; op. cit. pp. 106 - 7

تعميماً متناسباً⁽⁶⁴⁾ ، ونص على ألا يؤخذ الناس بالشبهات وإنما لابد من شهود وأدلة دامغة لإثبات التهمة ، ونص كذلك على إلغاء بعض العقوبات القاسية ، وجعل العقوبة تتناسب مع الجريمة دون إسراف أو تسيف ، كما نص على احترام حقوق الكنيسة خاصة فيما يتعلق بانتخاب القساوسة⁽⁶⁵⁾ .

واعترفت المادة التاسعة والثلاثون والسادة الأرمينيون من العهد الأعظم أهم مواد هذا العهد فقد نصت الأولى مفهومة على أنه لا يجوز إلقاء القبض على أي شخص أو تجريده من ممتلكاته أو نفيه أو إخراجيه من مقلّة القانون أو إيداعه بشكل من الأشكال إلا بعد محاكمته أمام محكمة من أئاده وفق أحكام القانون المطبق في البلاد⁽⁶⁶⁾ ، والمقصود بهذا أنه لا يجوز للملك أن يلحق الضرر بأحد إلا بمقتضى حكم صادر من المحكمة ، ويعتبر ذلك أصل ما صرف عنه الإنجليز بعد ذلك من فكرة الإجراء القانوني ، وأما المادة الأرمينية فتتس على تمهيد الملك بالآلات ينكر حقاً لأحد أو يماطل فيه⁽⁶⁷⁾ .

ولعل أهمية العهد الأعظم في تاريخ إنجلترا ما يشهده من أن الملك خاضع للقانون ، وأن القانون فوق الملك ، وأن الملك لا يملك الخروج على القانون ، فإذا فعل ذلك وجب على رعيته استعمال القوة لإخضاعه ، ولهذا كلما أظهر أحد الملوك الاستبداد والخروج على القانون أجبره البارونات على الخضوع لمواد القانون أو العهد الأعظم واحترامه⁽⁶⁸⁾ ،

(64) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 245 – 6

(65) Rayner : op. cit. p. 57

(66) painter : op. cit. p. 269

(67) Warner and Marken : op. cit. pp. 106 – 7

(68) Adams: op. cit. p. 439

فأنشأ العهد الأعظم رمزاً لخصوع الملك للقانون، ومثل ذلك ركناً أساسياً في الدستور الإنجليزي، وظل العهد الأعظم يذكر ملوك إنجلترا دوماً بأن ملكيتهم مقيدة^(٧٠).

أما عن علاقة يوحنا بالكنيسة والبابوية، فقد حدث سنة ١٢٠٥م أن حاولت الكنيسة الإنجليزية التوصل معاً كان سالدن من تدخل الملك في تعيين رئيس أساقفة كانتربري^(٧١)، فقام البابا إنوسنت الثالث بتعيين أحد رجال الدين رئيساً لأساقفة كانتربري، فرفض الملك يوحنا قبول ذلك، فغضب البابا غضباً شديداً وأخذ سوء التقادم يزداد بين الجانبين، حتى انتهى الأمر بأن أصدر البابا قرار الحرمان ضد الملك يوحنا سنة ١٢٠٨م^(٧٢)، بل أعلن البابا إنوسنت الثالث عزك يوحنا وأباح لرهباة طرح طاعته، فقام يوحنا بالاستيلاء على أراضي الكنيسة في إنجلترا، فرد البابا بتحريض فيليب أوغسطس ملك فرنسا بمحاولة غزو إنجلترا سنة ١٢١٢م^(٧٣).

ونظراً لأن الملك يوحنا كان يواجه حينئذٍ ثورة البارونات ومؤامراتهم، فقد اضطر إلى الإذعان لرغبة البابوية سنة ١٢١٣م، وقبل من عبته البابا رئيساً لأساقفة كانتربري، ورد أراضي الكنيسة التي كان قد سبق وأن صادرها واضطر إلى الاعتراف بسيادة البابوية، وتمهد بتقديم مبلغ سنوي رمزاً لهذه التبعية^(٧٤)، فاعتبر البابا ذلك من الانجازات الهامة للبابوية وأسهمت الكنيسة بعد ذلك في حل مشكلة الملك يوحنا

(٦٩) محمد هافور : أوروبا العصور الوسطى ص ٤٧٧

(٧٠) Stephenson : Med. Hist. pp. 430 - 31

(٧١) Warner and Marten : op. cit. p. 104

(٧٢) Rayner : op. cit. p. 56

(٧٣) Stephenson : op. cit. pp. 431 - 32

مع باروناته، إذ قام رئيس أساقفة كانتربري الذي عينه البابا وهو ستيفن لانجتون Stephen Langton ، وكان أحد رجال القانون في عصره بحث البارونات على أن يضعوا قائمة بالمطالب العامة للطبقة الإقطاعية التي عرفت بمطالب البارونات والتي اعتبرت أساس العهد الأعظم⁽⁷⁴⁾.

توفي الملك يوحنا سنة ١٢١٦ م ، وترك ابنًا في التاسعة من عمره ليخلفه في الحكم هو هنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) الأمر الذي دفع مجموعة من النبلاء وكبار الأساقفة إلى القيام بتشجيع دفع الحكم على مدى نحو خمسة عشر عاماً، كان أشهرهم: هوبرت دي برُو Hubert de Burgh الذي كان رجل قانون⁽⁷⁵⁾ فقاموا بذلك خير قيام حتى وضع هنري الثالث على العرش وتولى السلطة سنة ١٢٢٧ م. لكنه كان ملكاً ضعيفاً افتقر إلى الحكمة أو الشجاعة، فصارت إنجلترا في تلك المرحلة مسلوئ الحكم الضعيف⁽⁷⁶⁾ ، وانتهزت الكنيسة الفرصة، فأخذت البابوية تعين رجال الدين الإيطاليين في المناصب الشاغرة في إنجلترا، وحرصت على جباية الأموال الطائلة من الكنيسة الإنجليزية برسم الحروب الصليبية حتى ذكر المؤرخون أن ثروات البلاد تسربت إلى طوائف البابوية، فأثارت سخط الجميع في إنجلترا⁽⁷⁷⁾.

واستمرت البلاد في انحدارها نحو الضعف والاضمحلال خاصة وقد أحاط هذا الملك نفسه بهيئته من رفقاء السوء وتصادى في نزواته وشهواته، وفشل في كبح جماح نفسه عن ارتكاب الرذائل ففشل في

(74) Keen : op. cit. pp. 88 - 9

(75) Rayner : op. cit. p. 38

(76) Warner and Marten : op. cit. p. 110

(77) Stephenson : op. cit. pp. 478 - 9

سياسته الداخلية ومشروعاته الخارجية خاصة ضد ملوك فرنسا⁽⁷⁸⁾ ، في الوقت الذي رحب هنري الثالث باستخدام الأجانب وشجعهم على المجئ إلى إنجلترا، وأغدق عليهم، فقدم كثيرون من سافوي وبروفانس، ونعموا بخيرات البلاد على حساب أهلها، فكان ذلك مصاً زاد في معاناة سكان إنجلترا وأضاف إلى ضعفها⁽⁷⁹⁾.

ونظراً لما أدته إنجلترا من أموال للبابوية برسم الحروب الصليبية من ناحية ، فضلاً عما قدمه هنري الثالث للبابوية من أموال أخرى دعماً لها في حروبها ضد مملكة صقلية طمعاً فيها وعدته به البابوية من تقييد أحد أبنائه ملكاً على تلك المملكة من ناحية ثانية، بالإضافة إلى ما صرفه هنري الثالث من أموال في مشروعات فاشلة في ألمانيا من ناحية ثالثة⁽⁸⁰⁾، فقد أقلمت خزائن إنجلترا، وعانت البلاد مسعوى ذلك كله، فلما اشتدت حاجة هنري الثالث للمال، اضطر إلى اللجوء إلى المجلس الكبير، الذي كان يمثل السلطة في البلاد، والذي غدا منذ ذلك الوقت يعرف بالبرلمان سنة ١٢٥٨م : فطلب منه هنري الثالث تعضيده فيما كان ينفسي من جمع المال، إلا أن البرلمان أجبر هنري الثالث على الإذعان⁽⁸¹⁾، واشترط طرد جميع الأجانب من البلاد، كما اشترط أن يتولى السلطة في المملكة جماعة من البارونات على أن يصبحوا كوزراء مسئولين أمام البرلمان، وعهد ذلك تحرك أحد النبلاء وهو سيمون دي مونتفورت ليصبح زعيماً لهؤلاء النبلاء⁽⁸²⁾، ويخطو هذا الزعيم خطوات

(78) Keen : op. cit. p. 88

(79) Warner and Marten : op. cit. p. 113

(80) تقديمه وشاؤى ثلاثان حتى يتكلموا ويشاروا فيهم المورا، وكان يشكرك هذا

أحد لهنري الثالث

المقر : Keen : op. cit. p. 147

(81) Tout : The Hist of England, pp. 98 – 102

Keen : op. cit. p. 180

(82) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 283

ناجحة نحو تجنب البلاد الحرب مع فرنسا ف عقد معها معاهدة سنة ١٢٥٩م، وأوقف كثيراً من الفساد في البلاد ، فلما حاول حفلة من أنصار الملك الوقوف في وجه هذا الزعيم أنزل بهم سيمون دي مونتفورت الهزيمة وتابع مسيرة الإصلاح⁽⁸³⁾ ، وأصر على عقد البرلمان سنة ١٢٦٥م بشكله الجديد، الذي مثلت فيه المدن لأول مرة وهو الأمر الذي جعل هذا البرلمان يبدو بصورة البرلمان الشعبي، الأمر الذي جعل سيمون دي مونتفورت هو صاحب الفضل الأول في نشأة فكرة مجلس العموم، بل أنه مالمثل أن ألقى القبض على الملك نفسه وتولى حكومة البلاد⁽⁸⁴⁾.

وكانت هذه هي فرصة ليقية الأمراء لاستمادة ما كان لهم من امتيازات، فهدموا على أراضيهم، وسيطروا على محاكم المقاطعات، واغتصموا امتيازات موظفي الملك المحليين وأخضعوا أجهزة الحكومة المركزية والمحلية لسلطتهم، غير أن بعض هؤلاء النبلاء ثاروا وقتلوا سيمون دي مونتفورت في نفس العام سنة ١٢٦٥م فضربت البلاد في فوضى من جديد بعد أن أسهموا في تحطيم استبداد الملك، ثم توفي في النهاية هنري الثالث سنة ١٢٧٢م وبدأت مرحلة أخرى في تاريخ إنجلترا⁽⁸⁵⁾.

ول العرش في إنجلترا بعد هنري الثالث ابنه إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٧م) الذي كان شاباً طموحاً محارباً شجاعاً أسهم بنصيب في الحملات الصليبية حتى أن والده توفي وهو غائب في حملة صليبية، فضلاً عن أنه نال قسطاً طويلاً من التعليم والثقافة جعله يتطلع إلى تحقيق

(83) Rayner : op. cit. p. 60

(84) Warner and Marten : op. cit. pp. 113 – 14

(85) Rayner : op. cit. p. 488

ويرى المؤرخون أن عهد هذا الملك يمثل خطوة هامة في تاريخ إنجلترا، فإنه كانت المملكة قد عرفت معنى الوحدة التي تجمع الممالك الجرمانية في العهد الأنجلو - سكسوني بقيادة مملكة وسكس حين حكم إنجلترا الملك إدجار (٩٥٧ - ٩٧٥ م)^(٨٧)، فإن إنجلترا في عهد الملك إدوارد الأول شهدت محاولة لتحقيق هذه الوحدة بين مختلف أجزاء الجزر البريطانية، لتصبح دولة واحدة متحدة، بعد أن تطور تاريخ المملكة تطوراً جديداً منذ الفتح النورماني، وأعيد بناء الأمة الإنجليزية في تلك الفترة^(٨٨).

ولتحقيق ذلك كان لابد من ضم إمارة ويلز بعد أن أصبحت خطراً يهدد المملكة تحت حكم بعض أمراءها الطموحين. فتجس إدوارد الأول في إخضاع إمارة ويلز، وضمها إلى الناحج الإنجليزي بمقتضى قانون سنة ١٢٨٤ م، وأمر بتطبيق القوانين الإنجليزية في ويلز، وابتداء سنة ١٣٠١ م منح إدوارد الأول ولي عهده لقب أمير ويلز وهو اللقب الذي لا يزال ملازم ولي عهد إنجلترا^(٨٩).

أما بالنسبة لاسكتلندا فقد استمرت جهود إدوارد الأول لإخضاعها فترة طويلة، فقد تدخل لإختبار وراث للمرش الاسكتلندي، بعد انتهاء سلالة البيت المال فيها سنة ١٢٩٠ م وقد نجحت البعثة التي أوقفها إدوارد إلى هناك في اختصار ملك جديد هناك هو يوحنا باليول

(86) Stephenson : op. cit. p. 488

(87) Rayner : op. cit. p. 31

(88) Haskins : op. cit. p. 82

(89) Warner and Marten : op. cit. pp. 128 -9

John Balliol^(٩٠) ، فهاجر هذا الملك بتقديم الولاء والتعزية لملك إنجلترا إدوارد الأول إلا أنه عاد فمارش تدخل إنجلترا في شئون مملكته، وأعلن إنكاره لاستئناف الأحكام التي تصدرها المحاكم الاسكتلندية أمام المحاكم الإنجليزية، بل وخلفا خطوة لتجنب رمود القمل الإنجليزية بمخالفة ملك فرنسا^(٩١) ضد إدوارد الأول ، فسرد إدوارد الأول بمرزو اسكتلندا وقبض على يوحنا باليول، وأقام حكومة موالية له وأحمد الثورة. غير أن الاسكتلنديين ما لبثوا أن ثاروا من جديد سنة ١٢٩٧م ، بقيادة زعيم جديد هو وليام ولانس، وألحقوا هزيمة بالجيش الإنجليزي، فاضطر إدوارد الأول للمودة بنفسه إلى هناك بعد أن صالح ملك فرنسا، فأنزل بالكلوار الاسكتلنديين هزيمة جديدة وأمر بإعدام قائدهم ولانس، وإن لم يقض هذا على توازع القوة في نفوس الاسكتلنديين حتى وفاة إدوارد الأول في سنة ١٣٠٧م^(٩٢).

أما عن علاقته بالكنيسة فقد عمل إدوارد الأول على الحد من نفوذها ومنع ازدياد اتساع أراضيها عن طريق الهبات والمنح والهدايا، وأمر أن توضع هذه المنح تحت الإدارة الملكية، ويبدو أن إدوارد الأول وجد الكنيسة تمتلك نسبة كبيرة من الأراضي في البلاد فأرعبت على الملأ وتمنع بالإعلاء من الضرائب الإقطاعية، فأصدر تشريعا للحد من نفوذ الكنيسة^(٩٣)، كما أصدر تشريعا حدد به اختصاص مجالس القضاء الكنسية^(٩٤).

(90) Camb. Med. Hist. Vol. 7, pp. 563 – 64

(91) Rayner : op. cit. p. 86

(92) Ibid pp. 86 – 7

(93) Camb. Med. Hist. Vol 7 , pp. 398 – 400

(94) Stephenson : op. cit. p. 490

Rayner : op. cit. p. 82

وواصل إدوارد الأول إصلاحاته في مجال الإقطاع بتشريعاته الهامة التي مست النظم الإقطاعية الأساسية، بأن نظمت تقديم الخدمات والالتزامات الإقطاعية للسيد الإقطاعي الكبير مباشرة، وقللت عدد الأوصال بين الملك وأصحاب الفief الغنيسين أو كبار الأئمة⁽⁹⁵⁾، كما أجازت تشريعاته انتقال الأراضي من أيدي إلى أخرى عن طريق البيع والشراء بعد أن كان هذا الانتقال لا يحدث إلا بحيازة الأرض طبقاً للنظم الإقطاعية، فضلاً عن أنه اتجه إلى تمكين الأسر الإقطاعية الكبيرة من الاحتفاظ بأراضيها وتكتيلها، بأن أصدر تشريعاً يسمح بحبس الأراضي ووقفها، فأعطى فرصة للبيوت الكبيرة للاحتفاظ بأراضيها وقوتها الإقطاعية⁽⁹⁶⁾.

وكان إدوارد الأول من ملوك إنجلترا الذين أظهروا كراهية شديدة لليهود مثل الملك ريتشارد الأول الذي سبق أن نكل بهم⁽⁹⁷⁾، خاصة وقد ازداد نفوذهم كثيراً في إنجلترا وبعثوا على الحياة الاقتصادية فيها وكراهية الناس لهم، لما أظهروه من مواقف ضد المسيحيين والمسيحية، فبدأ إدوارد الأول في اضطهادهم، فالزمهم بلبس زى خاص بهم إمعاناً في تحقيرهم، وانتهى الأمر بأن طردهم من بلاده سنة ١٢٩٠ م، فخرجوا من دخول البلاد فترة طويلة⁽⁹⁸⁾.

وواصل إدوارد الأول إصلاحاته القضائية والتشريعية، حتى أدت إصلاحاته إلى ظهور ثلاث محاكم انفصلت عن المحكمة الملكية، إحداها اختصت بحمايات الملكة والقضايا المالية واختصت الثانية بالقضايا

(95) Warner and Marten : op. cit. pp. 127 - 8.

(96) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 272.

(97) Coulton : Life in the Middle Ages Vol. 2, Pp. 31-33.

(98) Rayner : op. cit. pp. 84 - 5.

اللدنية بين الأماي بعضهم والبعض، والثالثة اختصت بالفصل في جميع القضايا المدنية والجنائية التي تهم الملك، ولهذا سميت بمجلس القضاء الملكي⁽⁹⁹⁾.

وظهر في عهد إدوارد الأول الوجه الدستوري العظيم للحكم في إنجلترا، فقد أصبح البرلمان الإنجليزي يضم جميع ممثلي الأمة الإنجليزية من نبلاء وأساطفة ومقدمي أدبهم، فضلاً عن اثنين من فرسان كل مقاطعة وممثلين عن أمالي المدن⁽¹⁰⁰⁾، ثم حدث تطور هام في تشكيل ممثلي الأمة، فاجتمع الفرسان والنبلاء وممثلي أمالي المدن في الوقت الذي اجتمع فيه رجال الدين وهدمهم وجرى تصفيتهم والاقتسام على حضور كبار رجال الدين في عضوية هذا البرلمان، ثم جرى جمع الفرسان مع ممثلي المدن وأضيف إليهم عدد من البرجوازيين ليؤلفوا مجلس العموم، الذي يعتبر ظهوره من المعالم الهامة في التطور الدستوري في إنجلترا⁽¹⁰¹⁾ في حين انضم النبلاء إلى الأساقفة ليتكون مجلس اللوردات، ولم يلبث أن جرى تحديد سلطة الملك حين طلب منه النبلاء أن يحرم من حق جمع الأموال دون موافقتهم، فكان ذلك أحد الإنجازات في الملكية⁽¹⁰²⁾.

وبانتهاء عهد الملك إدوارد الأول سنة ١٣٠٧م تكون قد وصلنا إلى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، الذي جعلناه هدفاً لعرض تاريخ إنجلترا في ظل النورمان وبقي في تاريخ الملكية في هذه الفترة بعد ذلك

(99) Keen : op. cit, pp. 167 – 8

(100) Warner and Marten : op. cit p. 127

(101) Rayner : op. cit p. 85

(102) Tout : op. cit, pp. 202 – 4

عهد كل من إدوارد الثاني وإدوارد الثالث وريتشارد الثاني وهنري الرابع
 وهنري الخامس ثم هنري السادس وأخيراً ريتشارد الثالث وقيام أسرة
 تيودور أي أن عهد هؤلاء الملوك امتدت من سنة ١٣٠٧م إلى سنة
 ١٤٨٥م^(١٠٣).

(103) Palmer : op. cit. p. 382

•
•
•

•
•
•
•

الفصل الخامس

شرق أوروبا وروسيا في النصف الثاني من العصور الوسطى

- السلاف ومجال انتشارهم في أوروبا .
- الشعوب التي تأثرت بالسلاف واكتسبت صفاتهم .
 - البلغار .
 - المارب .
 - الكروات .
 - الهنغاريين أو المجرين .
- الشعوب السلافية ذاتها : السلاف الغربيون والسلاف الشرقيون
- السلاف الغربيون :
 - النورافيون .
 - التشيك أو البوهيميين .
 - البولنديون .
 - البولنديون .
- السلاف الشرقيون :
 - الروس بعد امتزاج الفينكج السويديين بالسلاف .

استقرت كتلة سلافية فوق مساحات شاسعة من شرق أوروبا، بعد أن انسابت إلى هذه البقاع في هجرتها صوب الغرب، والمعروف أن السلاف يرجعون إلى الجنس الهندوأوروبي وهاجروا إلى تلك البقاع في أوروبا وشكلوا كتلة كبيرة أخذت تتوسع تدريجياً نحو الغرب والجنوب في أوروبا لتغطي أجزاء كبيرة من شرق القارة وشمالها الشرقي وجنوبها الشرقي، وخفضت جموع كثيرة منهم لقوى أخرى أقوى استبدادهم وانزلتهم إلى رتب العبودية أي جعلتهم عبيداً Slaves^(١)، ومن هذه الرتبة استمدوا اسمهم "سلاف" خاصة وأنهم لم يظهروا مقاومة كبيرة لدفع العناصر الأقوى منهم، بل جنحوا إلى المسألة إيماناً منهم بأن إمكاناتهم خاصة الإمكانيات السياسية لا تؤهلهم للوقوف في وجه تلك العناصر^(٢).

وعلى عكس ما جرى لعناصر غزت أوروبا من قبل مثل الكلت Celts الذين كانوا محاربين أشداء انسابوا فوق رقعة أوروبا في زمن قديم مشكلين كتلة كلتية امتدت من المحيط إلى الأطلس غرباً إلى آسيا الصغرى وسواحل البحر الأسود شرقاً ثم ما لبثوا تركبوا الجندية وعرفوا عن القتال وتحولوا إلى شعب مسالم، وغدوا شعب زراعة وموسيقى ورقص وغناء^(٣)، فسادوا ونشربتهم الشعوب، ولم يبق لهم من أثر سوى آثار ضئيلة في الجزر البريطانية خاصة في إيرلندا^(٤)، تقول على عكس هؤلاء، كان السلاف من الشعوب المسالمة إلى حد بعيد استبدت شعوب أخرى

(1) Dunlop: The History of the Jewish Khazar, p. 114

(2) عاشور : أوروبا المصور الوسطى ص ٦٠-٨

(3) Cantor : Med. Hist, p. 121

(4) Trevelyan : Hist of England, Part 1, pp. 10 – 11

محمد الشيخ : الممالك الجرمانية في أوروبا في المصور الوسطى ص ٤

أقوى وأزلتهم إلى رتب الميودية، لكنهم مالبثوا أن تحولوا بمرور الوقت إلى شعب محارب، واكتسبوا كثيراً من القوة، وتمكنوا من تأسيس دول لهم في بعض جهات أوروبا لاسيما في شرقها والبلقان واعتنقوا المسيحية وخطوا خطوات هامة نحو الحضارة^(٥).

وإذا أردنا تحديد القباع والأقاليم التي انتشر فوقها السلاف، وكيف كانت حركتهم التوسعية في شرق أوروبا وروسيا وجدنا أنهم نزحوا في البلقان^(٦) واللتلطق التي عرفت بعد ذلك ببلغاريا وكرواتيا وصربيا وهنغاريا ومورافيا ويوهيميا وبولندا وشرق ألمانيا فضلاً عن روسيا، ولم تكن حركة السلاف قاصرة على الشعوب السلافية وحدها وإنما شملت شعباً أخرى تأثرت بالسلاف وسأيرتهم في العادات وأساليب الحياة والنظم مثل اليقغار والصرب والهنغارين أو المجرين وبعض الشعوب الأخرى^(٧).

أما البلقان فالعروف أنهم يرجعون إلى أصل تركي ارتحل جانب منهم من موطنهم الأول تجاه الغرب في السبعينات من القرن السابع الميلادي، فظهروا قرب مصب نهر الدانوب بالبلقان^(٨)، ثم ما لبثوا أن عبروا نهر الدانوب إلى الإقليم الشمالي الشرقي من البلقان ليجتمعوا من العناصر المتبربرة وليقيموا من الأراضي الخصبة في دلتا نهر الدانوب من ناحية أخرى^(٩)، ومنذ ذلك الوقت غدت تلك المنطقة الجديدة التي

(5) Carh. Med. Hist. Vol. 3 p. 327

(6) Ostrogorski : Hist. of the Byzantine State, p. 74

(7) Jinkins : Byzantium, p. 45

(8) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 219

(٩) وسام عبد العزيز قسج : دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية ص ١٢٨

أسسها البلغار خطراً كبيراً يهدد الدولة البيزنطية، خاصة بعد أن شرع البلغار في التوسع، فاختلطوا بالسلاف واضطروا للتأثر بهم والبدء تدريجياً عن الأصول التركية حتى غلبوا في القرن التاسع من الشعوب السلافية رغم احتفاظهم باسم البلغار وظلوا يهددون بيزنطة ويمثلون قوة معادية لها^(١١).

ولقد واجهت دولة البلغار مصاعب جمة من قبل الإمبراطورية البيزنطية بصفة خاصة فترات متعددة صير تاريخها، إذ اعتبرها البيزنطيون شوكة في ظهورهم وهدوا يترص بهم وعلى مقربة من العاصمة البيزنطية، وشهدت دولة البلغار خلال حكم ملكها تيليتز Teletz بصفة خاصة، وكان يعاصر إمبراطور بيزنطة قنسطنتين الخامس، عداءً شديداً حتى أن قنسطنتين الخامس وجه حملة شرسة ضد البلغار سنة ٧٦٣م محاولاً استئصال شأفتهم، ونجحت الحملة فعلاً في إلحاق هزيمة ساحقة بالبلغار^(١٢) ثم نفى ملك البلغار الشار إليه حقه على إثر ثورة انطلقت في بلغاريا بعد الهزيمة المروعة بقليل^(١٣).

وعلى الرغم من ذلك ظل البلغار يتوسعون فيما حولهم حتى كونوا إمبراطورية فيما بين أواخر القرن التاسع وأوائل القرن الحادي عشر بلغت هذه الإمبراطورية أوج عظمتها على عهد ملكها سميون (٨٩٣-٩٢٧م)، لاسيما بعد أن تم الامتزاج بين البلغار والسلاف وأضحت دولة البلغار تشغل جانباً كبيراً من غرب البلقان. بعد أن اعتلى العرش البلغاري سنة ٨٩٣م سميون أعظم ملوك البلغار في العصور الوسطى^(١٤).

(١٠) حشيش وريح : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية من ٩٢ - ٩٣
(11) Vasilev : op. cit. I, p. 239

(12) Ostrogorski: op. cit. pp. 148 - 9.

(١٣) العربي : الدولة البيزنطية ص ٣٧٦

وكان هذا الرجل قد نشأ بالسطنطينية وتلقى تعليمه بها وأتقن اللغة اليونانية واستهوته الحضارة البيزنطية، وعلى الرغم من ذلك تشب النزاع بين بلغاريا وبيزنطة بمجرد ولاية هذا الملك الحكيم، فقام سنة ٨٩٤م بالاعارة على الأراضي البيزنطية في ثراقيا على عهد الإمبراطور البيزنطي إيو السادس، فانزل سميون بالقوات البيزنطية هزيمة ساحقة^(١٤)، ويعد بمن أسهم إلى القسطنطينية بعد جمع أنوفهم، وردت بيزنطة على ذلك بالتحالف مع المجريين الثاقلين في ذلك الوقت وراء الحدود البلغارية، فانزل المجريون الهزيمة بالبلغار وخربوا الأراضي الواقعة بشمال بلغاريا^(١٥)، بينما أرسلت بيزنطة قواتها لاحتلال جنوبى بلغاريا في الوقت الذي أحكم فيه الأسطول البيزنطي الحصار على مصب الدانوب، فاضاف إلى متاعب سميون كثيراً، وأجبره على طلب الهدنة. ثم ماليت سميون أن تغلب على صاعبه وهاد من جديد إلى الهجوم على بيزنطة فألحق بها هزيمة قاسية قرب أدريّة سنة ٨٩٦م وأجبرها على قبول الصلح ودفع الجزية مع التنازل عن بعض الأراضي^(١٦)، فامتد نفوذه في البلقان على حساب بيزنطة وغيرها من الشعوب المجاورة^(١٧)، فضلاً عما ثبوته إمبراطوريته من مكانة في الحضارة وبحكم أن سميون نفسه كان قبل ولايته العرش قد تلقى تعليمه في القسطنطينية - كما سبق أن أشرنا - ولذا شجع الآداب وأشرف على ترجمة الإنجيل وكتابات القديسين إلى لغة البلغار^(١٨).

(14) Vasiliev : op. cit. I, p. 316

Jenkins : op. cit. p. 202

(15) Ostrogorski : op. cit. p. 227

(16) Camb. Med. Hist. Vol. 3, p. 237

(17) Miller : The Balkans, pp. 135 - 7

(18) Camb. Med. Hist. Vol. 4, p. 327

غير أن إمبراطورية البلغار ما لبثت أن سقطت وخضعت لبيزنطة سنة ١٠١٨م على يد الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني الشهير في التاريخ بذابح البلغار ^(١٩) Bulgar Slaves ولم تستطع أن ترفع رأسها إلا بعد مرور نحو قرن وظلّى القرن من الزمان أي في سنة ١١٨٦م وظلت حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٩٨م) فيما عرف باسم الإمبراطورية الثانية للبلغار، وهي الإمبراطورية التي شهدت الغزو العثماني لأملاك البلغار في شرق أوروبا ^(٢٠).

وإذا كان ذلك قد جرى في الجزء الشمالي الشرقي من البلقان، فإن الأوضاع في الجزء الشمالي الغربي من البلقان شهد أيضاً هجرة مماثلة قام بها الكروات والصرب، بعد أن تخلصا من سيطرة الأتراك قرب منتصف القرن السابع الميلادي، إذ جمعت قواصر القربى بين الشعبين ^(٢١)، فسير الكروات الناطقون ليفوموا بطرد بقايا الأتراك من إقليم البلقان، واستقر هذا الشعب بموافقة الإمبراطورية البيزنطية في ذلك الإقليم بين درافا والبحر الأدرياتي وعلى طول الساحل الشرقي للادرياتي، وبعد ذلك بتقليد عبر الشعب الآخر وهو الصرب ونزلوا بموافقة الإمبراطورية البيزنطية أيضاً إلى الشرق من الكروات في الجزء الشمالي الغربي من شبه جزيرة البلقان ^(٢٢)، ثم ما لبثت الشعبان أن أصبحا يندوران في فلك الإمبراطورية البيزنطية واعتنقوا المسيحية على يد بعثات تبشيرية أرسلت إلى الصرب من بيزنطة فاتبع الصرب الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية في الوقت الذي اعتنق فيه الكروات المسيحية على مذهب الكنيسة الغربية، وظل الكروات يمارسون

(19) Hussey : The Byzantine World, p. 38

(20) Miller : op. cit. pp. 187 – 194

(٢١) وسام عبد العزيز فرج : المرجع السابق ص ١٧٠

(22) Camb. Med. Hist. Vol. 4 pp. 541 - 2

دورهم حتى أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، حين فقدوا استقلالهم تحت وطأة قوة جديدة^(٢٤).

ومن الشعوب الأخرى التي واكبت حركة السلاف في شرق أوروبا الشعب الهنغاري وهو من الشعوب الآسيوية أيضاً، وبدأ ظهورهم في شرق أوروبا في القرن التاسع الميلادي واقترون زحفهم في شرق أوروبا بالقوة المتنامية والتمطش لمسلك الدماء، وانتزاع الطراب والدمار في الجهات التي اجتاحتوها^(٢٥)، إذ كانوا من أشهر الشعوب في ركوب الخيل مع ميل شديد للقوة والعنف، كما اشتهروا بالسرعة الفائقة في حركتهم وبالصلاية الشديدة في القتال والبراعة في الرماية، وفي حملتهم ضد مورافيا أحدثوا بها الخراب والدمار، وفرضوا الهوان والفرق على بعض الشعوب السلافية، وأسس زعيم هؤلاء المجرين ويدعى أرباد Arbad^(٢٦) أسرة حاكمة عاشت زمناً طويلاً، وظفر المجرين بتصليب الأسد من الأرماس في البلقان.

ثم نزل الهنغاريون أخيراً في المنطقة الواقعة بين نهري الدون والدينير وتوسعوا فيما حولهم منذ أواخر القرن التاسع الميلادي، حتى أخضعوا المنطقة المعروفة الآن بالمجر أو هنغاريا وسكنوها فاستخذت هذه المنطقة اسمها هنغاريا^(٢٧)، ومن أجل التوسع وتدعيم كياناتهم لجأ الهنغاريون أو المجرين إلى التحالف مع بيزنطة ضد البلغار حين سبب ملك البلغار سيميون (٨٩٣ - ٩٢٧م) المآخذ لبيزنطة في البلقان، فخطب

(٢٤) محمد الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١٠٩

(24) Miller : op. cit. pp. 30 - 31

(25) Vasiliev : op. cit. p. 388

(26) Keen : op. cit. pp. 25 - 6

البيزنطيون ود هؤلاء الهنغارين لحرب البلقان وقملاً لنجح الهنغارون في إلحاق الهزائم بالبلغار وخربوا الأراضي الواقعة بشمال بلغاريا^(٢٨) إلا أن سيميون لم يستسلم بل ما لبث أن تحالف مع قبائل الهنجاك شديدي المراس، ونجح بمساعدتهم في التغلب على الهنغارين أو المجرين^(٢٩)، ثم على البيزنطيين وأدجأ هؤلاء إلى طلب الصلح - كما سبق أن أشرنا - إلا أن المجرين استمروا في انقضائهم، ولم تسلم الجهات المجاورة لهم من هجماتهم فشنوا منذ أواخر القرن التاسع وعلى مدى النصف الأول من القرن العاشر هجمات عنيفة على ليباردا في إيطاليا وبافاريا وسكسونيا في ألمانيا وحتى برجنديا الفرنسية لم تسلم من هجماتهم وكذلك بروفانس^(٣٠)، ونجح الألمان في النهاية في إجبارهم على الإخلاء للسكنة والتمركز في البلقان وذلك قرب منتصف القرن العاشر الميلادي.

ثم صالبت الهنغارون أن اعتنقوا المسيحية، وراحوا يسايرون أسس الحضارة الأوروبية لاسيما فيما يخص بالقطاع^(٣١)، ثم ما لبثوا أن أقاروا على المناطق المجاورة فهاجموا في أوائل القرن العاشر الميلادي ألمانيا، وقضوا كذلك على مملكة الوردن سنة ٩٦٥ م، وغلبوا معالم المنطقة المجاورة^(٣٢)، ويشير المؤرخون إلى أن حركة توسع الهنغارين بدأت منذ أواخر القرن العاشر الميلادي تتجه نحو الجنوب تجاه البحر الأرميني وتجاه سواحل دالماتيا، ولم يكن ذلك يرغى كلا من

(27) Ostrogorski : op. cit. p. 227

(28) كان الهنجاك يهاجمون البلقان وكثيراً ما حاربهم وتطاولوا عليهم القوم من

لاحمة وكثرتهم الحدية من ناحية أخرى .

انظر : قسطنطين السابع : إدارة الإمبراطورية البيزنطية ص ٥٦ - ٥٧ .

(29) المعنى : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٣٦٨ - ٣٦٩

(30) Dunlop : op. cit. p. 94, p. 196

(31) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 421 - 2

البندقية أو الإمبراطورية البيزنطية، وجاء ذلك في الوقت الذي تسليكت فيه الأحداث، وظهرت في الأفق مشكلات أخرى في سياسة بيزنطة على عهد ألكسيوس كومنين وتعني بها الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ومطلع القرن الثانى عشر الميلادى⁽³²⁾.

أما الشعوب السلافية ذاتها، فقد صنفهم المؤرخون صنفين: السلاف الغربيون، والسلاف الشرقيون، ومثل المورافيون والتشك أو اليوهميون والوندونيون والبولنديون أبرز الشعوب السلافية الغربية، بينما كان الروس الذين ظهروا بعد امتزاج السويديين بالسلاف الشرقيين هم أبرز السلاف الشرقيين⁽³³⁾ وهم الذين استقروا حول شواطئ البحر الأسود وتركز نشاطهم حول الأنهار المطيعة الواصلة بين البحر البلقى والبحر الأسود⁽³⁴⁾.

ولقد انساب المورافيون فوق رقعة كبيرة من البلقان مشكلين مملكة في النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى، امتدت من إقليم باتونيا في الشمال الغربى للبلقان متضمنة يوهيميا ومقدنة حتى غاليسيا في الشرق. ولقيت مورافيا أو دولة المورافيين اعترافاً كبيراً من قبل بيزنطة، حتى استطاعت بيزنطة أن تجبر هذا الكيان السلافى على تقديم المساعدات العسكرية للإمبراطورية⁽³⁵⁾، في الوقت الذى اضطرت فيه مدن دالماتيا أيضاً لمعالاة بيزنطة والدوران في فلكتها، أى أن بيزنطة لم تنجح فقط في إجبار هذه المدن على مساعدتها، بل أيضاً نجحت في إجبار المورافيين

(32) Vasiliev : op. cit, Vol. 2, p. 388

(33) Camb. Med. Hist, Vol. 4, p. 307

(34) Fisher : A. Hist. of Europe , p. 375

(35) Ostrogorski : op. cit, p. 210

سكان الساحل وكذلك داخل البلقان على الاتصاف⁽³⁶⁾، يحكم ماكان لها من امتيازات لدى هذه القوى، وكان تأثير بيزنطة في البلقان لاسيما التأثير الديني قوياً، فقد نشطت بيزنطة لنشر المسيحية بين هؤلاء المورافيين على أيدي مبشرين من لدنها، إلا أن مورافيا تلقت تأثير روما في ذلك⁽³⁷⁾، في الوقت الذي مال فيه أيضاً معظم السلاف الغربيين لكنيسة روما، واعتنقوا المذهب الكاثوليكي الغربي، ولم تعمر مملكة المورافيين كثيراً، فسرعان ما تهاوت تحت ضغط الهنغارين⁽³⁸⁾، كما سبق أن أشرنا، ثم ماليت المغول أن اجتاحتها كل شرق أوروبا حتى سواحل البحر الأدرياتي بما في ذلك بولندا وبوهيميا ومورافيا وبنغلاريا وغيرها من الأراضي في البلقان⁽³⁹⁾.

أما التشك أو البوهيميون، فقد اتسبوا مع بعض الشعوب السلافية فوق الرقعة التي عرفت بعد ذلك ببوهيميا في البلقان، وحدها نهر الدانوب من جهة الجنوب، وعاصرت دولتهم منذ أوائل القرن التاسع الميلادي إمبراطورية الفرنجة في أوج عظمتها على عصر شارلمان⁽⁴⁰⁾، وقصفتهم من دولة الفرنجة - في ذلك العصر - غارات غير مطروقة وبعض الجبال والمرتفعات وجعلتهم يمتأون من التأثير الفرنجي، غير أنه في عام ٨٠٥ - ٨٠٦م أرسل إليهم شارلمان حملة على رأسها أحد

(36) Vasiliev : op. cit. 2, p. 414,

Jenkins : op. cit. p. 175

(37) Oman : The Dark Ages, p. 471

(38) Jenkins : Byzantium, p. 170

(39) Ostrogoski : op. cit. p. 390

Morgan : The Mongols, p. 138

(40) Oman : op. cit. p. 361,

أبنائه الذي اجتاحت مرتين كل وادي الإلب الأعلى، ونجح في النهاية في إجبار رؤساء التشك هؤلاء على دفع الجزية للحفاظ على استقلالهم^(٤١).

ثم حل التشك أو البوهيميون محل الوارقيين بعد انهيار دولة هؤلاء في أوائل القرن العاشر، ونجح التشك في إرساء دعائم دولتهم في القرن العاشر الميلادي على الرغم من اتساع أعداد كبيرة من المواطنين الألمان إلى أراضي بوهيميا حيث استقر هؤلاء فوق جزء كبير من بوهيميا ربما وصل إلى ثلثها، فضلاً عما أبداه الأساقفة الألمان من نشاط تربط هذه الدولة بألمانيا، وإدخالها في نطاق المسيحية الغربية^(٤٢)، وجذبها نحو الحضارة الألمانية، ولهذا تأثرت بوهيميا تأثراً عميقاً بالطابع الألماني في الحياة والنظم والبلادة اللكني، وأظهر بعض ملوكها وأمرائها ميلاً شديداً للحضارة الألمانية والنظم الألمانية في جوانب متعددة، على الرغم مما أبداه بعض ملوك بوهيميا من رغبة في الوقوف في وجه السيطرة الألمانية ومحاولة التمسك عن ألمانيا^(٤٣)، بل أظهر بعضهم ميلاً نحو التوسع جهة الغرب على حساب أملاك ألمانيا وأراضيها، ثم اجتاحت المنيول بوهيميا سنة ١٢٤٠م قبل انجذابهم نحو روسيا^(٤٤).

ومن العناصر السلافية أيضاً من سموا بالونديين الذين ظنوا يضغطون على الحدود الشرقية لألمانيا منذ أواخر القرن العاشر الميلادي، وعلى مدى سنوات متفرقة من القرن الحادي عشر ونظراً لأن هؤلاء الونديين ظلوا وتبين فترة طويلة منذ ظهورهم في القرن السابع بل وأبدوا

(41) Oman : op. cit. p. 361.

(42) Jenkins : op. cit. p. 175.

Southern : op. cit. p. 262.

(43) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 422.

(44) Vasiliev : op. cit. Vol. 2, p. 530.

تغوراً من الحصار، خاصة تلك التي غدوا يقرها وهي الحصار الألمانية وسبوا لجيرانهم متاعب كثيرة خاصة الفرنجة^(٤٥) بسبب إغارتهم المتواصلة على حدود دولة الفرنجة، فقد وصلوا إغارتهم على الحدود الشرقية لألمانيا كما سبق أن أشرنا، بل ركزوا إغارتهم على الكنائس والأديرة والمزارع والحقول^(٤٦)، حتى افتتح الغرب الأوربي في عصر الحروب الصليبية بأنه من الأولى توجيه إحدى الحملات الصليبية إلى هؤلاء الونديين الوثنيين وهي الحملة التي وجهت لحربهم قرب منتصف القرن الثاني عشر الميلادي (١١٤٧م)^(٤٧)، في نفس الوقت الذي وجهت فيه الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق، ويشير المؤرخون إلى أن الحملة الصليبية ضد الونديين هي التي مدت النفوذ الألماني شرقاً بعد أن قصت على وثنية هؤلاء الونديين. وطبعت الأراضي ومن عليها بين نهري الإلب والأودر بالطابع الألماني، وخلصت تلك البقاع من شرور تلك العناصر الوثنية^(٤٨).

وهكذا تزايد الطابع الألماني وأمد إلى أراضي البحر البلطي، إذ تشير الدلائل إلى أنه فيما بين سنتي ٩٠٠ - ١٢٠٠م أي على مدى القرون من القرن التاسع حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي تزايد عدد المدن الألمانية في أراضي البلطي من أربعين مدينة إلى ٢٥٠ مدينة وحتى مدينة لوبك Lübeck التي تأسست في أغلب الظن على أيدي الونديين حوالي سنة ١٠٥٠م أي بعد تأسيسها في سنة ١١٤٣م كمدينة ألمانية^(٤٩)، وتقدمت هذه المدينة بجهود هنري الأسد الألماني وبعد انتهاء

(45) Oman : The Dark Ages, Period 1, pp. 177 - 8

(46) Ibid. p. 177

(47) Heer : op. cit. p. 86, pp. 135 - 6

(48) Thompson : The Middle Ages, Vol. 1, pp. 513 - 14

(49) Heer : op. cit. p. 85

عهد أصبح الطريق ممهداً أمام هذه المدينة للحكم نفسها بنفسها وأن تستقل بأمورها في السهول التالية ثم تابعت تقدمها في هذه الناحية، وغدت لوبك نموذجاً يحتذى لمجموعة المدن الوندية⁽⁵⁰⁾، مشكلة نواة العمية الهانزية، وفي غضون قرن منذ تأسيس لوبك أصبح الساحل البلطي من لوبك إلى ريغال وإلى تيرفا ساحلاً ألمانياً وغدت لوبك نفسها النموذج الأمثل لما يمكن أن يؤسس في نطاق الإقليم كله⁽⁵¹⁾.

أما البولنديين فتشير الدلائل إلى أنهم نجحوا في الإقامة في البلقان في القرن التاسع الميلادي، لكنهم تعرضوا - طبقاً لما ورد في المصادر الروسية - لضغط الخزر في الجهات الواقعة إلى الجنوب من وادي الدنيبر الأوسط أي في مناطق الغابات والجهات المرتفعة على طول النهر حتى أنهم أجبروا على دفع الجزية عن كل صاحب مأموى أو حائل سيف⁽⁵²⁾، وتشير هذه المصادر إلى أن سيوف هؤلاء البولنديين كان لها نصيب من أنها سببت من الجهتين، وأن هذه المثلثة حين وصلت إلى حاكم الخزر ورفاقه الأكبر والأكثر خبرة الزعماء كثيراً، لأن سيوف الخزر - على حد ما تذكره هذه المصادر أيضاً - كان لها نصيب واحد أي أنها سببت من ناحية واحدة⁽⁵³⁾، ويبدو أن ذلك كان يخص الفترة السابقة على سنة ٨٥٩م لأنه في نفس هذه السنة استطاع هؤلاء البولنديون وبعض حلفائهم دفع الخزر من تلك المناطق التي تمركزوا فيها⁽⁵⁴⁾.

(50) Oman : op. cit. p. 426

(51) Hear : op. cit. p. 85, p. 86

(52) Dunlop : op. cit. p. 198

(53) Vernadsky , Anc. Russ. P. 332

Dunlop : op. cit. p. 198

(54) Ibid. p. 198

ثم أرسى البولنديون دعائم مملكتهم بين نهري الأودر والفستولا مع حركة السلاف في شرق أوروبا، وفي القرن العاشر الميلادي اعتنق البولنديون المسيحية على منعب روسيا بواسطة ألمانية، إذ نشط الألمان كثيراً في جذب كثير من المناسخ السلافية لتلقى مسيحية الغرب وإيمانها عن المؤثرات الدينية البيزنطية⁽⁵⁵⁾، وإن تفوقت هذه الملكة البولندية باستقلالها الديني والديوي فترات طويلة في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين تحت حكم بعض ملوكها الكبار، على الرغم من أنها ضعفت بعد ذلك بسبب شطب الألمان عليها، ثم تفككت في النهاية وعانت الحروب الأهلية بين أمراءها، بل اندسوت بعض أقاليمها إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت حكم بعض أباطرتها من أسرة هوهنشتاوفن⁽⁵⁶⁾، وفي القرن الثالث عشر الميلادي فقدت هذه الملكة سيطرتها على سواحل البحر البلطي فانتقلت تجارتها إلى إحدى الألمان، ثم كان الغزو القوي لهذه الجهات وهو الغزو الذي قضى على كثير من القوى ومن بينها هذا الكيان البولندي⁽⁵⁷⁾، وإن عادت بولندا ففازت بعد انحسار هذا الغزو في القرن الثالث عشر الميلادي⁽⁵⁸⁾.

أما السلاف الشرقيون، فبعد أنهم كانوا أكثر خطراً من السلاف الغربيين، فقد مرحوا في شرق أوروبا حتى القرن التاسع الميلادي، أي حتى قدوم القبكج السويديين، الذين اندفعوا بعد عبورهم البحر البلطي في الاتجاه الجنوبي الشرقي تجاه الدانوب وسواحل البحر الأسود واحتلظ

(55) Morfill : Poland, pp. 26 – 28

عاشر : أوروبا المعصر الوسطى ص ٦٢

(56) Camb. Med. Hist, Vol. 6, pp. 462 – 3

(57) Morgan : The Mongols , p. 139

(58) Lodge : The Close of the Middle Ages, Period III, p. 183

السويديون بالعناصر السلافية الشرقية في تلك الحقاق، حيث أطلق عليهم السلاف لفظ "روس" Rus أي الحمر⁽⁵⁹⁾، وأسس الروس هؤلاء دوقية كيهف منذ أوائل القرن التاسع الميلادي، حيث أصبحت هذه الدوقية نواة الدولة الروسية⁽⁶⁰⁾، ثم اتخذت دولة الروس نوفجورود مركزاً لها بعد ذلك وهي المدينة التي جعلها روريك مقراً لحكمه في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي.

وعلى الرغم من ذلك ظل الروس على قنوتهم، ولم يصيهم في تلك الفترة ما أصاب الغرب الأوربي من طواهر حضارية وما شاب تاريخهم من حروب دينية⁽⁶¹⁾، وهي الحروب التي هزت عروش كثير من الملوك والحكام في غرب أوروبا، ولم يعرف الروس أيضاً ما عرفه الغرب من نزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية وما ترتب على ذلك من صراع بين البابوية والامبراطورية، وهو النزاع الذي أضاف إلى خيرات الغرب الأوربي وصلل تجارب شعوبه، لكن روسيا هذه بقيت في عزلة في الشرق بعيدة عن المؤثرات الروحية التي تأثرت بها شعوب غرب أوروبا، وبقيت كذلك حتى القرن العاشر الميلادي⁽⁶²⁾.

ومنذ ظهرت الدولة الروسية في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، واتخذت نوفجورود مركزاً لها، أخذت هذه الدولة في التوسع حتى أخضعت الخزر شمالي البحر الأسود⁽⁶³⁾، وامتد نفوذها في تلك

(59) Camb. Med. Hist. Vol. 3, p. 327

(60) Moss : The Birth of the Middle Ages, pp. 266 – 7

(61) Fisher : A Hist of Europe, p. 374

(62) Ibid, p. 374

(63) Dundop: op. cit, p. 99

Ostrogorski : op. cit, pp. 259 - 62

الجهات، فضلاً عن سيطرة الروس على الطريق التجاري بين البحر البلطى وعاصمة بيزنطة القسطنطينية، وهكذا بدأ التاريخ الروسى حول شواطئ البحر الأسود، وتكونت أول حكومة للروس ليكون مجال نشاطها حول الأنهار العظيمة الواصلة بين البحر البلطى والبحر الأسود⁽⁶⁴⁾، واستقر الروس حول المحطات التجارية بالقرب من الأنهار لا سيما نهر نيفا ونهر الدنيبر منذ القرن الثامن الميلادى بعد فترة تغلبت على جنوب روسيا وديان نهر الدانوب وجبال الكريبات، ثم تطورت هذه المحطات لتصبح مدناً ذات حكومات⁽⁶⁵⁾.

أى أن نشاط هؤلاء الروس اتحصر في السهول الشرقية لأوروبا، حيث حلوا محل الآفار، الذين انتهارت قوتهم في القرن التاسع⁽⁶⁶⁾، وتزايدت عظمة دوقية كييف بصفة خاصة بعد أن صارت عاصمة للدولة الروسية منذ أواخر القرن التاسع الميلادى، وزادت أهميتها منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، ففسدت علاقاتها التجارية مع كثير من القوى السلافية والقريبة مثل البولنديين والهنغاريين والألمان، فضلاً عن بيزنطة والخلافة العباسية في بغداد⁽⁶⁷⁾.

وبنى الروس الأساطيل البحرية وكونوا الجيوش وهمموا على الأنهار والبحيرات بين البحر البلطى والبحر الأسود، واتسعت تجارتهم

(64) Fisher : op. cit. p. 375

(65) Ibid. pp. 375 - 6

Vasiliev : op. cit. Vol. 2, pp. 322 - 3

(66) Stephenson : Medieval Hist. pp. 201 - 11

(67) Thompson : The Middle Ages , I , p. 325

Mawer : The Vikings , pp. 79 - 80

وتضاربت مصالحهم مع جيرانهم حتى بدأوا في الإشارة على المناطق المحيطة، حتى انشغلت بيزنطة بمحاولة ترويضهم وإدخالهم في المسيحية⁽⁶⁸⁾ ثم اتسمت تجارة الروس مع الإمبراطورية البيزنطية، خاصة منذ النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، فقد كانوا يجلبون لها منتجات الشمال مثل الفراء والأخشاب والأسماك واللحوم والشمع والرقائق؛ ويعودون حاملين معهم المنسوجات والتوابل والحلى والزجاج والبخور وغير ذلك من المنتجات، كما يرهقوا في التواحي إلى البازعة والتنظيمية والسياسية فأصبحوا سادة روسيا⁽⁶⁹⁾، وبذلك ذلك على أن الروس عاقدوا الزراعة والرعي، ونزعوا إلى التجارة، فقد تألفت روسيا من مجموعة مدن كبرى تهيض بعضها على نهر الدنيبر وروافده ونهر الفولجا الأعلى وبعض البحيرات الكبيرة، وأرسل الروس شرقاً حتى بحر قزوين واتخذوا طرقاً متعددة أجمعها طريق القسطنطينية إلى البحر الأسود ومنه إلى القسطنطينية⁽⁷⁰⁾، ولم يمض وقت طويل حتى نفذت المسيحية وثقافات المدينة من القسطنطينية إلى هؤلاء الروس⁽⁷¹⁾.

وإلى جانب حب هؤلاء للتجارة كانوا أيضاً محاربين أشداء اتخذ منهم الأباطرة البيزنطيون جنوداً مرتزقة، وافرقة للحرس الإمبراطوري، وفي

(68) Morfill : *Russie*, p. 119

Vasiliev : *op. cit.* I, p. 323

(69) Simpson : *Everyday life in the Viking*, p. 126

Jenkins : *op. cit.* pp. 161 – 2

(70) Schjorh : “ Great days of the Northmen ”, B.H. VII, pp. 3539 – 40

Trevelyan : *op. cit.* p. 75

(٧١) فليشر : المرجع السابق ص ١١٥

هذا الإطار السلمي جرت العلاقات مع بيزنطة، لكن هذه العلاقات ما لبثت أن ساءت، وتحكمت في هؤلاء الروس نزعتهم الحربية، وديلتهم للقتال، فسلحوا في الهجوم على بيزنطة ومحاصرة عاصمتها القسطنطينية، وأجأت بيزنطة أحياناً إلى دفع مبالغ مالية لهم لإجلائهم من عاصمتها⁽⁷²⁾.

وتكررت هجمات الروس على العاصمة البيزنطية في القرن العاشر الميلادي، حتى اضطرت بيزنطة إلى اللجوء معهم قرب منتصف القرن العاشر الميلادي، واستقبلت أعداداً ضخمة منهم للعمل في بحريتها، نظراً لخبراتهم ومهارتهم في ذلك الميدان، فالتفتع الروس في النهاية بضرورة مسألة بيزنطة والاستفادة منها بتبادل التجارة وتنمية مصالحهم التجارية التي تعود عليهم بالربح الوفير⁽⁷³⁾، واستمر امتزاج السويديين مع السلاف فترة طويلة ربما إلى قرب منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، حين امتزج الشعبان في شعب واحد طبع بالطابع السلافي. ومثل الروس كتلة هامة في شرق وشمال شرق أوروبا، ولعبت دوراً هاماً في تلك البقاع، وشكلت علاقاتها ببيزنطة أهمية خاصة لهذه القوة في أوروبا⁽⁷⁴⁾.

أما عن عقيدتهم، فقد ارتبط هؤلاء الروس أو السلاف الشرقيين بالكنيسة البيزنطية، واعتنقوا المسيحية على مذهبها الأرثوذكسي الشرقي، مخالفين في ذلك معظم العناصر السلافية الغربية الذين تحولوا أكثرهم إلى المسيحية على مذهبها الغربي اللاتيني، والتي تلتوها من روما

(72) Ostrogorski : op. cit. p. 229

(73) Vasiliev : op. cit. vol. 1, p. 322

Jenkins : op. cit. p. 250

(74) Ostrogorski : op. cit. p. 229, p. 245

بواسطة رجال الدين الألمان أحياناً وعن طريق المبعوثين البافاريين أحياناً أخرى أما الروس هؤلاء فقد ارتبطوا رباطاً وثيقاً بالكنيسة الشرقية البيزنطية^(٧٥) ، ورسخت المسيحية على مذهبها الشرقي لدى هذا الشعب بصفة خاصة في عهد الملك فلاديمير الأول، في الربع الأخير من القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر، وصارت الديانة الرسمية للدولة، الأمر الذي جعل كنيسة روسيا تتبع مباشرة كنيسة بيزنطة^(٧٦).

وإذا كان الروس قد تأثروا ببيزنطة كثيراً وأكثروا الحفارة البيزنطية وحاولوا تقليدها في مجالات متعددة^(٧٧) ، إلا أنهم لم يتجسوا في ذلك بل طوّروا في مكانة أدنى واقتفروا للوعي الحضاري لتتقيم دولتهم، وضمان وحدة أجزائها والشرائط بين مختلف أقاليمها، بل فقد أسراء كييف ابتداء من بداية الربع الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي وحدثت من الدولة وحكم جميع قبائل الروس، وعجزوا عن التصدي لما حدثت من نزعة انفصالية أدت إلى الانقسام والتفتت في تلك الدولة المترامية الأطراف^(٧٨).

وقد بدأت هذه الدولة تعاني الضعف منذ بداية الربع الثاني من القرن الثاني عشر بعد انتهاء عهد فلاديمير الثاني أي بعد سنة ١١٢٥م^(٧٩) ، بدأت حقبة عصمت بالقويسي والانقسام التي سادت آنحاء البلاد في الوقت الذي فقدت فيه كييف أهميتها بعد انتهاء عهد ذلك

(75) Camb. Med. Hist. Vol. 4, p. 207

(76) Palmer : op. cit. p. 60

(77) Vasiliev : op. cit. I, p. 243

(78) Ostrogorsky : op. cit. p. 341

(79) Camb. Med. Hist. Vol. 7, pp. 607 - 8

الملك، حيث حلت محلها مدينة سوزدال Suzdal في الشمال الشرقي من روسيا ولم تكن هذه الدولة تطبيقاً حتى دمجتها لغزوات القبول في القرن الثالث عشر لتوقف تقدم هذه القوة في أوروبا⁽⁸⁰⁾.

(80) Vasiliev : op. cit. 2, p. 530

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

الفصل السادس

البابوية وازدياد قوتها وتأثيرها في حياة المجتمع الأوربي في العصور الوسطى

- ارتفاع مكانة الكنيسة الغربية في أوائل العصور الوسطى وأسباب ذلك
- ظهور بابوية روما والمعامل التي أسهمت في تدعيم سلطة البابا وانفراجه بالنفوذ الديني والسياسي في الغرب .
- مرحلة ضعف البابوية عقب تقسيم إمبراطورية شارلمان خاصة بعد غارات الفكيكج والمجريين وغيرهم .
- بروز سلطة رجال الإقطاع وسيطرتهم على الكنيسة الغربية ودخول الكنيسة في خدمة الدولة .
- حركات الإصلاح في جوف الكنيسة الغربية خاصة الحركة الكلونية.
- إصلاحات البابا جريجوري السابع في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي.
- موشوخ زواج رجال الدين
- التقليد العلماني
- النتائج التي ترتبت على إصلاحات جريجوري السابع .
- مكانة بابوية روما منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي .

انفردت الكنيسة في غرب أوروبا بمكانة بارزة تفجئة لانحصار الكاثوليكية من ناحية وانتقال الأباطرة إلى القسطنطينية من ناحية أخرى، ومالئ سلطان رجال الدين في أوروبا أن أخذ يعملوا شيئاً فشيئاً دون معارضة تذكر من السلطات الحاكمة، في الوقت الذي خضع فيه رجال الدين في الشرق لسلطة الأباطرة البيزنطيين، ولم ينجحوا في الانفراد بتدبير الأمور أو الوصول إلى نفس المكانة التي وصل إليها الآخرون في الغرب^(١).

ثم أخذت الكنيسة منذ القرن الرابع الميلادي تتدخل في شؤون السلطة العلمانية وإزمار تدخلها بضعف سلطة الإمبراطور ونهايتها، وتوغل الجرمانيون في جوفها، مما أدى إلى انهيار الحكومة الإمبراطورية ذاتها^(٢)، حتى انتهى الأمر بحلول الكنيسة محل الإمبراطورية عندما أقل نجم الأخيرة في الغرب الأدنى^(٣) وساعد الكنيسة على ذلك ما حدث من التهاجها نهج التنظيم الإمبراطورية، بل اتبعت الكنيسة ما سبقتها إليه الإمبراطورية، بل جعلت التنظيم الإمبراطوري نموذجاً لتنظيمها فأصبحت — على حد قول أحد المؤرخين — "هي الإمبراطورية الرومانية في قالب كنسي"^(٤)، ولم يلبث رجال الدين أن بلغوا مكانة ملحوظة في حياة المجتمع، فقولوا القضاء وراقبوا الشؤون العامة والسلوك الفردي، وأسهموا في تكييف الغرب^(٥).

ولم يمض وقت طويل حتى حصلت الكنيسة المسيحية من الحكومة الإمبراطورية على بعض الامتيازات الخاصة والإعفاءات، فبدأ لها الحق في

- (١) نشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ق ١3 ص ١٠٦ (مترجم)
(2) Hoyerik : "Rise of the Germanic race and the Coming of the Barbarians" , B. H. Vol. VII, pp. 3423 - 5
(3) Chapman : Studies in the Early papacy, p. 97

(٤) نشر : المرجع السابق ق ١ ص ١٠٤
(٥) كريب وجاكوب : التراث العصور الوسطى ج ١ ص ٤٦ (ترجم بدران وزهانة)

الحصول على الهيئات وكذلك الإعفاءات من الضرائب وحق قيام الأساقفة بالفصل في المنازعات بين المسيحيين، وترتب على ذلك ازدياد نفوذ الأساقفة في أقاليمهم بحكم مكانتهم الدينية من ناحية، وبحكم ما حصلوا عليه من ثروات بطريق الهيئات والصدقات إلى غير ذلك^(٦). وهكذا أخذت ثروة الكنيسة تزداد ونفوذها يتسع حتى امتلكت الشياخ الواسعة - وصار لها نفوذ ديني ونبوي كبير - ونشبه الأساقفة بالأمراء واتخذوا الأتباع والموظفين والخدم والحشم^(٧).

برزت إذن أهمية الكنيسة الغربية وانتزاعها بالأمر، لعدم وجود قوة حاكمة تقبل من شأنها أو تحد من سلطتها^(٨)، ولهذا استطاع رجال الكنيسة في روما الرقي بكنيستهم والوصول بها إلى مكان الصدارة في العالم الغربي، وماليت أن حصل أسقف روما على لقب بابا Pope تشريفاً له وتكريماً لكانته عن بقية رجال الأسقفيات الكبار في العالم المسيحي فقد استطاعت كنيسة روما أن تقدم من النصوص والأسانيد ما يكفي لإقناع الناس بزعامتيتها للعالم المسيحي في ذلك العهد، حين كان الناس يؤمنون ويسلمون بكل ما هو تقليدي ويكفي ما من شأنه الدلائل على المعبد الروماني القديم^(٩).

وهكذا علا نجم أسقف روما ولتمتع بمكانة لا يدانيه فيها أحد بين أساقفة الغرب واستند هذه المكانة من أهمية روما، ومن ثم راح أساقفة هذه المدينة يستثمرون هذه الأهمية والكانة في الحصول على الزعامة على أسقفيات الغرب وتحقيق السمو على تلك الأسقفيات بما فيها مدينة قرطاجنة^(١٠) - وفي

(6) Camb. Med. Hist. Vol. 1, p. 561

(7) Thompson : The Middle Ages, Vol. 1, p. 49

(8) Deanesly : A Hist. of Early Med. Europe, p. 165

Lot : The end of the Ancient world, p. 53

(9) نشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ١5 - ١-١ - ١٠٠٠

(10) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 51 - 2

عهد البابا ليو الأول أو العظيم (٤٤٠ - ٤٦١م) جرى الاعتراق بسيطرة البابوية على كافة الكنائس المحلية في الغرب، ثم جاء سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب على أيدي الجرمان سنة ٤٧٦م عاملاً هاماً في تدعيم سلطة البابا وانفراد بالفلوذج الديني والسياسي في الغرب^(١١)، ثم كان اعتلاء البابا جريجوري الأول أو العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤م) فصل الختام بالنسبة لمكانة البابا وسقطته البابوية في الغرب الأوربي، بعد أن دانت له الكنيسة الغربية بوصفه خليفة القديس بطرس ورأس السلطة الدينية في أوروبا والعالم المسيحي كله^(١٢)، وما لبث الإمبراطور فالنثيان الثالث أن أصدر مرسوماً يخضع جميع أساقفة الغرب للبابا في روما^(١٣).

غدا البابا إذن رأس الجهاز السياسي والديني معاً بحكم خلافته للقديس بطرس واعتبر المعاصرون سلطته فوق سلطة الملوك وسعادته فوق سعادة الأمراء أي أن السلطة الكهنوتية أعظم بكثير من السلطة العثمانية للسادة الإقطاعيين والملوك والأباطرة، وأن المجتمع المسيحي الحق هو الذي تسيطر عليه الكنيسة^(١٤)، ثم نتج البابوات جهودهم لجعل نفوذ الكنيسة الغربية حقيقة ملموسة في مختلف أنحاء الغرب المسيحي وساعد البابوية على ذلك أيضاً ما حدث من انصراف الإمبراطورية البيزنطية عن إيطاليا إلى حل مشاكلها في الشرق، مما ألقى عبء حماية إيطاليا وجمالية حضارتها على كاهل البابوية وحدها^(١٥)، وما حدث أيضاً من طلال مذهبي وانقسام

(١١) هيلتر : أوروبا في العصور الوسطى ص ٩٣ (مترجم)

(12) Sullivan : Heirs of the Roman Empire, pp. 48 - 9
Baldwin : The Med. Church, p. 27
La Mome : The world of the Middle Ages, p. 31, 72, 79

(١٣) حاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٤

(١٤) هيلتر : أوروبا ص ١٧٩

(15) Vasiliev: op. cit. I, p. 259
Ostrogorski : op. cit. p. 58

سياسي بين الشرق والغرب والثقافات الشعوب الغربية حول البابوية في صراعها ضد الإمبراطورية الشرقية^(١٦).

وبما للمعاصرين في الرحلة الحائلة الظلام عقب تقسيم إمبراطورية شارلمان وضعف السلطات الحاكمة في الغرب أن الحفاظ على التراث الغربي والحضارة الغربية مرهون بقيام سلطة كنسية مركزية، يصبح بوصفها الممسود في وجه السلطة العلمانية والتنازع اعترافها بسمو الكنيسة وسمايتها^(١٧)، إلا أن الكنيسة عانت في تلك الفترة الضعف والاضمحلال، بعد أن عصفت عواصف الفكيكج والمجريين بأوروبا^(١٨)، من الشمال والشرق وهجمات المسلمين عليها من الجنوب والغرب، فعلى إثر هجمات الفكيكج وغيرهم من البرابرة، انحلت الأديرة في إنجلترا مثلاً، كما حطموا الكتائس والأديرة في شمال فرنسا^(١٩)، وعانت البلاد الجبل وانحدار الحضارة، نظراً لأن الأديرة كانت مراكز التعليم والثقافة والتهديب في العصور الوسطى، وحدث مثل ذلك في فرنسا أيضاً^(٢٠)، في الوقت الذي انتهمز السادة الإقطاعيون في دولة الفرنجة القرصة لبيدوا من هذه القوضى لاغتصاب أراضي الكنيسة وأظهر كبار رجال الدين حرصهم على أن يحولوا حياة الفرسان والإقطاعيين ويتبعوا نفس نظمهم^(٢١)، ولم تتغير الصورة كثيراً في ألمانيا، ولهذا ازديادت الكنيسة ضعفاً في تلك الفترة، وغدت أحوال البابوية بالغة السوء.

(16) Chadwick : The early Church , p. 283

(١٧) ماثور : أوروبا ج ٢ ص ٢١٧ ط ١٩٧٦

(18) Southern : Western Society and the Church in the Middle Ages, p. 27

(19) Keen : op. cit. p. 25

(20) Haskins : op. cit. p. 35

(21) Stephenson : Medieval Feudalism , pp. 237 - 8

وإذا كانت البابوية والكنيسة الغربية قد عانت مخاطر الهجمات الخارجية وأخطار البرابرة في تلك الفترة، فقد عانت في نفس الوقت داخلياً بسبب ما كان يجري من افتراك نبله روما في اختيار البابا الذي لم يزد في كثير من الأحيان عن كونه رئيس حزب سياسي، بل لم يكن كل من تولّى هذا الكرسي الديني بعيداً عن الشبهات أو سمعته فوق مستوى الشبهات^(٢٤)، ولهذا فقد انحطت مكانة البابوية، وفقدت كثيراً من أهميتها الروحية في تلك الفترة.

ويبدو أن الكنيسة اضطرت للإبقاء على وجودها واستمرارها في أداء دورها إلى الدخول في حلف مع النبلاء الإقطاعيين والسلطات العلمانية، وتوثيق علاقاتها مع هذه الفئة لأنها الوحيدة التي يوسعها أن تبذل لها الحماية وتضمن لها الاستقرار^(٢٥)، فبذل كبار رجال الكنيسة النجاسة الإقطاعية للسلطة النبلاء والتزموا بتأدية الخدمات الإقطاعية لهم وترتب على ذلك امتداد سلطة هؤلاء السادة الإقطاعيين لتشمل الناس النازلين بأراضي رجال الكنيسة^(٢٦).

وتنظراً لأن رجال الدين الذين بذلوا النجاسة الإقطاعية للنبلاء لم يكن يوسعهم تقديم الخدمة العسكرية التي هي جوهر النظم الإقطاعية، فقد أجيّز لهم اختيار نواب عنهم لممارسة القتال بقيادة الفرسان إلاّ دعيت الحاجة إلى ذلك^(٢٧)، وكذلك نواباً عنهم لممارسة القضاء والنظر في القضايا، بعد أن شغلتهم مهامهم الكثيرة عن ذلك، وأجيّز لهم أيضاً اختيار نواب عنهم

(٢٤) قشر : المرجع السابق ج ١ ص ٨٦.

(٢٥) كاتنر : التاريخ الوسيط ج ١ ص ٣٤١ - ٣٤٢.

(24) Durant : The Age of the faith, p. 546

(25) stephenson : op. cit. p. 238

لإنجاز هذه المهام، وفي سبيل حصول رجال الدين على الإقطاعات تظاهروا كثيراً عن مهامهم الدينية ودخلوا في طاعة السادة الإقطاعيين والسلطات المحلية، بل شاركوا أحياناً في الحرب خاصة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين^(٢٧)، فأدخلوا إلى شعف الكنيسة في تلك الفترة.

وترتب على ذلك أن حرص رجال الدين وكبار موظفي الكنيسة على إرضاء السادة الإقطاعيين بتعيين الأساقفة ومقدمي الأديرة الذين يرضى عنهم هؤلاء السادة، في الوقت الذي تسول فيه السادة الإقطاعيون تعيين موظفي الكنيسة ومنحهم شارات الوظيفة الدينية والذهبية^(٢٨)، فهدت الوظائف الدينية الكبرى من صنع رجال الإقطاع، فأغرى هذا رجال الدين وموظفي الكنيسة على انتزاع حقوق الكنائس وأراضي الكنائس الداخلية في سلطتهم في ظل نفوذ رجال الإقطاع^(٢٩). وصار يوسع بعض كبار رجال الدين خاصة في ألمانيا أن يتخطى السادة الكونتات والنوابات المحليين ونوابهم، ويتفقوا علاقاتهم وتعاملهم بالملك مباشرة، فوسعت الكنيسة نفسها في خدمة الدولة، وأدخلت نفسها في نطاق السلطة المحلية^(٣٠).

ازدادت سلطة رجال الإقطاع، وتقلصت في نفس الوقت سلطة الكنيسة في فترة الاضطرابات والضعف حين أظهر السادة الإقطاعيون اعتماداً كبيراً بإنشاء كنائس جديدة خاصة في القرى والديار التابعة لهم لإلزام سيطرتهم على التواحي الدينية والذهبية^(٣١)، فأصبح يوسعهم جباية العشور وضرائب

(٢٧) بيلز : أوروبا في العصور الوسطى ص ٩٢ - ص ٩٦ ترجمة د. عبد الحميد حمدي

(27) Fliche : L'Europe Occidentale , pp. 121 - 2

انغريني : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ١٢٦

(28) Stephenson : op. cit. pp. 237 - 8

(29) Camb. Med. Hist. Vol. 1, p. 152

(30) Heer : op. cit. pp. 26 - 7

الإخراج من الأراضى التى كانت تتبع الكنائس في الولايات الذى تمتعوا فيه بتعيين رجال الدين من القساوسة، ولم يدفعوا من الرواتب إلى القليل، وما يكاد يمد حاجتهم، فأضاف السادة الإقطاعيون إلى مواردهم ما أصبح يحصل من عشور وإخراج من أراضى الكنائس، وأضافوا إلى سلطاتهم سلطات جديدة حسباً من سلطة الكنيسة^(٣٢).

والدليل على ما عائلته الكنيسة في تلك الفترة من ضعف هو شعور رجال الدين أن قانون الكنيسة الذى تألف أصلاً من الأحكام الواردة بالكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة وقرارات البابوات وإصدارات المجالس الدينية^(٣٣) شعور هؤلاء بأن القانون الكنسى لم يعد صالحاً لنحهم ما أملوا فيه من حقوق وما كانوا في حاجة إليه من موارد لتمجيد بعض القوة وتمجيد أسلحة روحية لتمجيد الثقل في حربهم ضد السادة الإقطاعيين والسلطات العلمانية من ناحية وإخضاع رجال الدين الآخرين من ناحية أخرى^(٣٤).

ويذكر المؤرخون أنه في ظل هذه الظروف ظهرت مجموعة قوائم كنسية مزورة لجأ بعض رجال الدين إلى اختراعها في القرن التاسع بعد أن أجروا في قرارات البابوات بعض التفسيرات التى تطابق آراءهم، وتمنحهم بعض الميزات، ونسبت هذه الواد إلى بابوات ريبا بابوات وهميين، بل أنهم مزوا المجموعة كلها إلى العالم الدينى القديس إيزيدور الإشبيلي^(٣٥)، منشئة أيضاً وثائق مزورة ومدسوسة ترجع إلى زمن سابق، والهدف من ذلك كله هو محاولة إخراج رجال الدين مما كانوا فيه من الضعف وإعطائهم ما يقوى

(31) Keen : op. cit, p. 35

(32) قولتون : عالم الصور الوسطى ٢٤٨

(33) البريقي : المرجع السابق ص ٤١٧

(34) Keen : op. cit, p. 78

مركزهم في مواجهة السلطات العلمانية في تلك الفترة الالهة الاضطراب بالنسبة لأحوال الكنيسة الغربية⁽³⁵⁾.

ومن مظاهر الضعف أيضاً في تلك الفترة أن رئيس الأساقفة لم تكن سلطته تزيد من سلطة الأسقف إلا في اتساع حدود الأسقفية وازدياد ثرواتها، ولم يكن لرئيس الأساقفة سلطة على الأساقفة. أما الأسقف فكانت سلطته مطلقة في أسقفية من الناحية الدينية والثالية⁽³⁶⁾ دون أن يعني ذلك خضوعه لأي سلطة روحية أعلى. حقيقة جرى انتخابه من قبل رجال الدين في الأسقفية لكن هؤلاء لم يكن بوسعهم سوى اختيار الأسقف الذي يرضى عنه السيد الإقطاعي، وعلى هذا كانت الكنيسة في جبهة الإقطاعيين والسلطة كانت لرجال الإقطاع في تلك الفترة وكذلك الملوك⁽³⁷⁾.

وحتى الأبيرة لم تعد تهتم بالتواصي الدينية إلا قليلاً بل إنها غدت متلاذبةً إليها الناس مما قد يهددهم من أخطار أو تجنّباً لما يمكن أن يحدث لهم خلال الاضطرابات خارج الديار من أضرار، وتولى مقدم الديار مهمته بترشيح من السيد الإقطاعي في كثير من الأحوال وحدث في فرنسا في القرن العاشر أن تولى أمر الديار السيد الإقطاعي نفسه الذي يقبض عنه من يقوم بمهمة مقدم الديار خاصة اتهام الدينية⁽³⁸⁾، وعلى الرغم من أن الأسقف هو الذي يعتبر من الناحية النظرية المسؤول عن الأبيرة في نطاق أسقفية، وله السلطة في الإشراف عليها وتلقف أسوائها إلا أن الواقع يؤكد أن هذا الأسقف لم تكن له سلطة فعلية لأن الأساقفة حرصوا على عدم إفساد السادة

(35) Ibid. p. 78

(36) Southern : op. cit. p. 96

(37) Ibid. pp. 96 – 7

(38) Heet : op. cit. p. 51

الإقطاعيين بالتدخل في شؤون الأديرة^(٤٠)، في الوقت الذي حصلت فيه بعض الأديرة الكبيرة على قرارات من البابا تعفيها من سلطة الأساقفة وتخليصها مباشرة للبابا، ولم تكن للبابا سلطة حقيقية على هذه الأديرة بل ساعدت هذه الأديرة على مركز البابوية من ناحية، وضعف سلطة البابا من ناحية أخرى على منح هذه الأديرة الاستقلال الكامل^(٤١).

ثم شهدت الكنيسة حركات إصلاحية، فتنهضت الحركة الكولونية بإصلاح عام في النبرية في القرن العاشر الميلادي في فرنسا وألمانيا، وأصبح مجموعة من رجال الدين على رأسهم القديس ديسمان الكنيسة والأديرة في إنجلترا طبقاً للنظم الكولونية، فلم تكن سوى فترة قصيرة حتى شهد غرب أوروبا إصلاحاً دينياً وكثيلاً كبيراً^(٤٢)، واستكمل عدد كبير من رجال الدين في القرن الحادي عشر إصلاح أوضاع الكنيسة كلها وتوحيد نظامها وإخضاعها لسلطة مركزية قوية، قالتموا القادة من البابوية وساعدتهم في ذلك بعض الرجال المخلصين من الحكام، فكان لهذه الحركة آثارها البالغة الأهمية، وامتد حدود تأثيرها إلى بقية أنحاء الغرب الأوربي^(٤٣).

وفي هذا الإطار جرت محاولات للتخلص من نفوذ السلطة العلمانية في انتخاب البابا بعد أن غدا انتخاب البابا موضع تنافس الأسرات العريقة في روما وتبلائها، وما كان يمتنع ذلك من فوز هذه الأسرات بالمناصب العليا في الكنيسة، ولهذا جدت البابوية للتخلص من كل هذه العوائق منذ منتصف

(٣٩) العريضي : المرجع السابق ص ١٤٧ - ١٤٨

(40) Southern : op. cit. p. 98

(41) Camb. Med. Hist. Vol. 5, pp. 662 - 4

(42) Coulton : Med. Village , p. 210

Baldwin : Med. Church , pp. 34 - 6 , p. 41

القرن الحادي عشر الميلادي، باعتبارها مصدر جميع السلطات السياسية والدينية^(١٣).

كما أبدى مصلحو الكنيسة أيضاً اعتماداً كبيراً بموضوع زواج رجال الدين ، فقد كان زواج رجال الدين شائعاً حتى ذلك الوقت^(١٤) ، بل لوارث أبائهم المناصب الكنسية بل تعادى بعض رجال الدين في ذلك ، فاختدوا السراري والمخفيات، ولم يعبأوا بما كان من استهجان الناس وانحدار الأخلاقيات ، ولرب على تكوينهم الأسرات انشغالهم بالفتاوى الاجتماعية وانصرافهم عن أداء واجباتهم الدينية بل حرص هؤلاء على وضع أيديهم على ثروات الكنائس وأموالها لتأمين مستقبل أبنائهم وتربيتهم سواء كانوا في نظر الناس شرعيين أم غير شرعيين ، ولهذا أصبح الإصلاح ضرورة في جوف الكنيسة وإلزام رجال الدين بالمزوجة قد أصبح فرضاً لحيات رجال الدين حياة دينية سانية^(١٥).

فما لبثت الكنيسة أن بلغت على عهد البابا ثالث نصبت جرجوري السابع أو هديراند (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) شأواً بعيداً ، وشهدت مرحلة هامة في تاريخها ، لأن هذا البابا تامل كثيراً لحرمان السلطة العلمانية من اختيار الأساقفة وتقليدهم^(١٦) ، لأن ذلك ليس ثابتاً من الله في الأرض ، لأنه مجرد شخصية علمانية مكلفة بحفظ النظام في المجتمع المسيحي^(١٧) ، وغدت الرحلة منذ بداية النصف الثاني للقرن الحادي عشر الميلادي مرحلة هامة في

(١٣) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 650 – 1

(١٤) Keen : op. cit. pp. 59 – 62

Southern : op. cit. pp. 101 – 104

(١٥) كاتنر : المرجع السابق ص ١١٩

(١٦) Palmer : A Hist. of the Middle Ages, p. 161

(١٧) هشتلر : أوروبا ص ١٨٨

تاريخ الكنيسة الغربية، حتى يُعَد جريجوري السابع أعظم باباوات العصور الوسطى، بسبب موقفه العنيد من السلطة العلمانية، ومحاويلته انتزاع اعتراف الإمبراطورية بسمو البابوية ومركز البابا واعتبارها مصدر جميع السلطات الدينية والزمنية⁽⁴⁸⁾.

وعلى الرغم من شهرة هذا البابا ومكانته في تاريخ الكنيسة الغربية، إلا أنه أيضاً كان من الشخصيات التي اكتنفها الغموض، والتي أثارت كثيراً من الجدل والإعجاب في نفس الوقت، فقد اختلف الرواة حول أصوله وأسرته وهل التحير من جد يهودي اعتنق المسيحية، أو أنه الرجل الأسير الذي كان يقف وراء عدد من الباباوات في روما، وهل كان مخلصاً فعلاً في ورعه وتقواه أم أنه الرجل المحب للقوة والسلطة⁽⁴⁹⁾، وما إذا كان فعلاً يكره الإمبراطورية أم كان يؤمن بضرورة التمايش معها، أي التعايش بين الإمبراطورية والبابوية، ولكن الشيء الذي لا خلاف عليه أنه منذ أصبح عضواً في هيئة المجلس البابوي سنة ١٠٤٥ م حتى اعتلى كرسى البابوية سنة ١٠٧٣ م كان من أبرز المصلحين الدينيين في الكنيسة الغربية⁽⁵⁰⁾.

اعتلى هلبنداند كرسى البابوية باسم البابا جريجوري السابع في إبريل سنة ١٠٧٣ م، فبدأت مرحلة هامة في تاريخ الكنيسة الغربية، إذ كان لشخصية هذا الرجل التأثير الشديد في الغرب اللاتيني وحماسة طائفة الإصلاح الكنيسة⁽⁵¹⁾، فسمى إصلاحه بالإصلاح الهلبندندي أو الإصلاح الجريجوري، الذي لم يكن كله أفكاراً جديدة بل كان جانب منه إصلاحات

(48) Camb. Med. Hist., Vol. 6, pp. 650 – 1

(49) southern : op. cit. pp. 101 – 3

(50) Keen : op. cit. p. 58

(51) Heer : op. cit. p. 198

سبق الماداة بها مثل زواج رجال الدين، يضاف إلى ذلك هيمنة العلمانيين على الكنيسة التي اعتبرت شراً، وعرفت في ذلك الوقت بالتقليد العلماني⁽⁵²⁾. أي قيام السلطة العلمانية بتعيين رجال الدين في وظائفهم والإنعام عليهم بشاراتهم، فإذا طلق الأسقف شارته من الملك أو الإمبراطور، اعتبر ذلك تقليداً علمانياً لأنه لم يتلقاها من رئيسه المباشر بالكنيسة بل تلقاها من صاحب السلطة العلمانية، فصار بذلك خاضعاً لسلطانه⁽⁵³⁾. وهذا ما اعتبره الملاحون الدينيون من الشرور.

لذلك اتجه جريجوري السابع لإصلاح هذه الشرور: زواج رجال الدين، والتقليد العلماني، أي تحريم زواج رجال الدين ومنع هؤلاء من تكوين الأسرات⁽⁵⁴⁾، وكذلك التخلص من هيمنة الدولة على تعيين رجال الدين أي تعيينهم وفقاً للقانون الكنسي وقيام رئيس الأساقفة برسماسة الأسقف وتقليده شارات وظيفته الروحية، ثم يجرى تقليده شارة السلطة الزمنية من السيد العلماني بعد ذلك، دون أن يكون لهذا الأخير دور في اختيار الأسقف أو الموافقة على تعيينه، أي حرمان السلطة العلمانية من اختيار الأساقفة وتقليدهم⁽⁵⁵⁾.

ولم يكن الأمر هيئاً على جريجوري السابع، فلم يكن متوقفاً من رجال الدين الاستجابة لطلب البابا بعزوبتهم ومنعهم من الزواج وتكوين الأسرات، بعد أن ألفوا هذه الحياة على مدى سنوات طويلة وتصربوا على

(52) Southern : op. cit. pp. 278 – 9

(53) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 650 – 1

(54) كانتور : المرجع السابق ج ١ ص ٤١٤

Eyre : op. cit. p. 216

(55) painter : op. cit. p. 161

الحياة الأسرية وإقامة العلاقات الاجتماعية فترة طويلة⁽⁵⁷⁾، فلم يكن سهلاً عليهم الانصاع بمن يوم وليلة لقرار البابا جريجوري السابع، والالتزام بإصلاحه وحمود تعليماته في هذا الشأن، وتطلب الأمر شدة وعزيمة كبيرة لإلزامهم بهذا الإصلاح⁽⁵⁸⁾.

أما التقليد العلماني فكان من المتوقع أيضاً ألا يقبل الحكام هذا الإصلاح والتخلي عن سلطاتهم على الكنيسة، لأن ذلك يعني فقدان السيطرة على الكنيسة والتفريط فيما بدا أنه حق من حقوق الإمبراطورية، فكان متوقفاً أن يقاوم الإمبراطور دماوي الإصلاح والنخس في اختصار الأساقفة وتقليدهم شارات السلطين الدينية والزمنية لممارسة وظائفهم⁽⁵⁹⁾، وتصادف أن كان الإمبراطور هنري الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦ م) يتولى عرش الإمبراطورية في ذلك الوقت لغرب عرش العائلة يدعوى الإصلاح الديني، وعشى قدماً في ممارسة ما كان يمارسه أسلافه الأباطرة في موضوع التقليد العلماني، ولم يمضِ كثيراً بغضب البابا⁽⁶⁰⁾.

واستند البابا جريجوري في إصلاحه على ما كان للبابوية من سلطة وسيادة في العالم الغربي، وما كان لها من أهمية في قيادة العالم المسيحي كله، فقد اشرف المقر الرسولي على سائر الوحدات الدينية، وقادت البابوية أمر الدفاع عن روما وإيطاليا ضد خطر اللعباريين من قبل، وكان للبابوية الهيمنة والسلطة على كل أساقفة إيطاليا⁽⁶¹⁾، وهي التي أفاضت إنجيلها إلى المسيحية ووقفت في وجه القسطنطينية ودعواها في الاستقلال، وإننا لم تكن

(57) عاشور : أوروبا ج ٢ ص ٢٣٠

(57) Keen : op. cit. pp. 59 – 62

(58) Brooke : A Hist. of Europe 911 – 1198, p. 171

(59) Stephen : Hildebrand and his times , p. 114

(60) العربي : المرجع السابق ص ٢٥٤

اليابوية قد تمسكت بكل ما كان لها من حقوق فلم يكن ذلك إلا بسبب ما أصابها من فساد واضمحلال وتقليبها الدنيوية، ويعدّها كثيراً من الحق^(٦٢).

أما بالنسبة لزواج رجال الدين، فقد اشتركت الرقبة في الأخذ بعيداً عزوبة رجال الدين لأنه بينما كان التدين ينمو باطراد في شتى أنحاء الغرب الأوربي، ظلت الصفات الخاصة برجال الكنيسة أقل من المطلوب^(٦٣)، وحاولت اليابوية حينئذ برسم كل ما قابلته من معارضة من قبل رجال الدين الذين ألفوا حياة الزوجية وتكوين العائلات، وأبشاً من قبل مبادئ النظر الذين خشوا انتشار الزنا والزواج العرفي بين رجال الدين، حاولت اليابوية بكل طاقتها التي في تنفيذ سياستها^(٦٤)، فعدلت المجامع الدينية المتعاقبة أسفرت آخرها سنة ١٠٧٤م - بعد اعتقال هلدبراند كرسي اليابوية بعام واحد - عن إصدار مرسوم يحرم زواج رجال الدين تحريماً تاماً، فيحيا كل منهم حياة دينية سامية وعندئذ عزم البابا على تفلّخ هذا القرار بكل ما أوتى من قوة حتى أنه أمر المتزوجين من رجال الدين بترك زوجاتهم فوراً^(٦٥).

ولم تجد المعارضة التي تفجرت في أنحاء مختلفة من أوروبا عن ثنى اليابوية عن عزمها فأكدت سياستها تلك بجميع آخر في روما سنة ١١٣٩م قرر من جديد مبدأ عزوبة رجال الدين وأن زواج أي منهم يعتبر غير شرعي وتصبح لريته بعد ذلك أبناء سقاح^(٦٦)، واستقامت اليابوية في النهاية بعد تحقيق سيادتها وسموها، أن تفلّخ مبدأ عزوبة رجال الدين تنقيحاً دقيقاً

(٦٢) Heer : op. cit. pp. 323 - 4

(٦٣) كانتور : التاريخ الوسيط، ص ١١٤

(٦٤) Keen : op. cit. pp. 58 - 61

(٦٥) عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٢٢٩

(٦٦) Eyre : European Civilization , p. 216

شاملاً، بعد أن قام عدد من البابوات بحملة قوية ضد السيمونية وزواج رجال الدين وسافروا إلى كل مكان في أوروبا ومقدوا المجالس المحلية Synods وعزلوا رجال الدين الذين ارتكبوا الآثام^(٦٦)، حتى أصبحت أي مخاللة لهذا الهدأ منذ منتصف القرن الثاني عشر خرقاً تبدأ هام من مبادئ القاتون الكنسي^(٦٧).

وقد أسفر هذا الهدأ عن نتائج بالغة الأهمية في الحياة الدينية والاجتماعية في أوروبا في العصور الوسطى، إذ زاد من قوة الورايط بين رجال الدين بعد أن كانت العلاقات الأسرية قد أوشكت على الفناء عليها، فبدأ عن أنه وقع رجال الدين في أعين الناس وأنزلهم منزلة سامية في نفوس الأهالي. كما أسفر ذلك عن تحسن ملحوظ في المستوى الأخلاقي والفكري لرجال الدين^(٦٨).

أما بالنسبة للتقليد العلماني فقد أسر جريجوري السابع على الرجوع إلى القاعدة القديمة التي تقضي بأنه ينبغي على رؤساء الأساقفة ألا يتلقوا شارات وهائلهم^(٦٩)، إلا من البابا وحده وألزمهم البابا جريجوري السابع أن يحلفوا بيمين الولاء للمقر الرسول في الوقت الذي حرص فيه البابا على إرسال المذنبين البابويين إلى كل التوحدات الدينية لفرض سلطة البابوية من ناحية، والتحقق من تنفيذ أوامر البابا من ناحية أخرى^(٧٠)، أي أن جريجوري السابع حرص على تحقيق سيادة البابوية الدينية بالإضافة إلى سلطتها

(٦٦) هيلر : أوروبا من ١٨٢

(٦٧) Eyre : op. cit. p. 217

(٦٨) كاتنور : المرجع السابق ص ٢١٩

(٦٩) كاتنور : الشارة عبارة من شريط طرقت زوايا الأربعة بالصلبان

هيلر : الميرنى : المرجع السابق ص ٤٠٠

(٧٠) Southern : op. cit. p. 181

اللاهوتية معقدة في قطع الملوك والأمراء من رحمة الكنيسة وتوقيع قرارات
الحرمان عليهم^(٧١).

وتطور هذا الإصلاح فيما أملاه البابا جريجوري السابع من حقوق في
سبع وعشرين مادة عنوانت "الإرادة البابوية" "Dictatus Papae" نصت
على عظمة ومكانة كنيسة روما التي أنشأها الله تعالى وحده وهي معصومة من
الخطأ، وحظرت أن يجتمع مجمع ديني إلا إذا اعترف البابا بسلطته وأن
البابا لا يمكن محاكمته أمام أحد سوى الله وحده، وأنه وحده صاحب الحق
في عزك الأساقفة أو إعانتهم إلى وظائفهم كما أنه الوحيد الذي بإمكانه عزك
الإمبراطور وإقصائه عن عرشه^(٧٢).

وهكذا بلغت الكنيسة مرحلة هامة في تاريخها في النصف الثاني من
القرن الحادي عشر الميلادي، حتى سمي هذا العصر بعصر البابا جريجوري
السابع، لأن هذا البابا وقف موقفاً صلباً من الإمبراطورية لإجبارها على
الاعتراف بسمو البابوية، وبأن هذه البابوية مصدر جميع السلطات السياسية
والدينية^(٧٣).

وقد أدت سياسة جريجوري السابع فيما يتعلق بالتقليد العلماني
بصفة خاصة إلى دخول البابوية في صراع طويل وتزاع شديد مع السلطة
الزمنية معقدة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومع الإمبراطور الألماني هنري
الرابع المعروف بهناده وسطوته وحرصه على سيادة الإمبراطورية وهيبتها في
أماكنها في ألمانيا وإيطاليا^(٧٤)، والذي رفض رفضاً تاماً الانصياع لشبهة

(٧١) Brooke : op. cit. p. 185

(٧٢) انظر نص هذه الوثيقة في كتاب العريضي : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى
ص ٤٦٢

(٧٣) عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٧

(٧٤) Brooke : op. cit. p. 171

البابوية، فتمهياً البابا جريجوري السابع لاستخدام سلاح الحرمان ضد الإمبراطور بشقيه الحرمان الفردي والحرمان الجماعي إن لزم الأمر، ولم يكن هذان السلاحان جديدين على الكنيسة، فكتيراً ما لجأت البابوية إلى استخدامهما ضد الأفراد والشعوب، أي ضد الحكام أحياناً وشعوبهم أحياناً أخرى لتنفيذ مخططاتها وفرض سيطرتها⁽⁷⁵⁾، إلا أن الجديد في ذلك أن جريجوري السابع عزم على استخدام عقوبة الحرمان في عتف وقسوة وبطريقة لمها كثير من الإمبراطور والقسوة لتخليق أغراضه⁽⁷⁶⁾.

وتتضح خطورة القطع الفردي الذي لجأ إليه جريجوري السابع ضد الإمبراطور هنري الرابع من أن هذا غذا مطروداً من رحمة الكنيسة مثبوتاً من المجتمع المسيحي كله، لا يسمح لأحد بالاقتراب منه أو التعامل معه⁽⁷⁷⁾، في الوقت الذي يسبب فيه القطع الجماعي أو حدث جلياً لدى الشعب بأسره يكل قتاله إذ يترتب على توافيقه إغلاق الكتائس في وجه الناس واضراب رجال الدين عن تأدية مهامهم، والتي تقوم بها الكنيسة كمراسم الزواج والتعميد والشعائر الجنائزية، بالإضافة إلى تحريم ارتباط هذا الشعب المحروم بأي شعب آخر من الشعوب المسيحية أي قطع الروابط بينه وبين بقية المجتمع المسيحي كله⁽⁷⁸⁾.

وهكذا أحسنت البابوية استخدام أسلحتها في وجه الإمبراطورية فتمسك كثير من رجال الدين بوجود مثل هذا البابا القوي في الكرسي البابوي مع رغبة في الاستمرار في إكمال حركة الإصلاح الكنسي، في حين أمل البابا في

(75) Southern : op. cit. pp. 102 – 5

(76) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 650 – 3

(77) Brooke : op. cit. p. 185

(78) عفاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٧

عطف الناس في جميع أنحاء العالم المسيحي باعتباره رأساً للكنيسة الغربية وأباً روحياً للشعوب المسيحية⁽⁷⁹⁾ ، وفي نفس الوقت أصبح هنري الرابع في موقف لا يحمده عليه خاصة بعد أن وقع عليه البابا عقوبة الحرمان وبادر بمنزله من منصبه ، إلا لم يكن يوسعه الاعتماد على الجيوش الإمبراطورية التي أقيمت حينئذ عجزها عن إخضاع البابوية وإقرارها بالتبعية للإمبراطورية⁽⁸⁰⁾.

وساعد البابوية على نجاحها أن رجال الدين الألمان الذين آمنوا بالإمبراطور في معادلتهم بعد أن أظهروا تخوفاً من قوة البابوية وسلطانها وأظهروا أيضاً ولاء للإمبراطور إلا أن هذا الولاء للإمبراطور لم يكن إلا ولاء ظاهرياً ، في حين كانت ألفتهم مع البابوية باعتبارها القوة الروحية في العالم ، فضلاً عن كبار رجال الدين الألمان لم يكن يؤمل في كسب إعجابهم وتحطيم ما كان قائماً بينهم وبين البابوية من صلات⁽⁸¹⁾.

لجحت إذن البابوية في تحقيق أغراضها في التهيمنة على الكنيسة الغربية وانحصرت مهمتها الرئيسية بعد تحقيق هذا النجاح في تنظيم شؤون البابوية والكنيسة الغربية حتى شملت مهمة البابوية منذ منتصف القرن الحادي عشر هي تحقيق السيطرة المركزية للكنيسة أي تدعيم مركز البابا ونفوذه داخل الكنيسة بعد أن حقق البابا سموه بالنسبة للإمبراطورية فأصر البابا على أن تعامل البابوية باعتبارها المرجع الوحيد فيما يختص بشرح أصول العقيدة وكذلك عمل على نمو التنظيم الكنسي الإقليمي ليعود من سلطة الملكية والأمراء الإقطاعيين وتدخلهم في شؤون الكنيسة⁽⁸²⁾.

(79) Keen : op. cit. pp. 58 – 61

(80) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 68

(81) Durant : The Age of the Faith 395 – 1300, p. 549

(82) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 553 - 4

ورأيتا كيف ازدادت سلطة رجال الإقطاع في فترات الاضطرابات والضعف وتقلصت في نفس الوقت سلطة الكنيسة وكيف حرص رجال الدين وكبار موظفي الكنيسة على إرضاء السادة الإقطاعيين بتعيين الأساقفة ومقدمي الأديرة الذين يرضى عنهم هؤلاء السادة في الوقت الذي تولي فيه السادة الإقطاعيون تعيين موظفي الكنيسة^(٨٤) . بعد أن شدت الوظائف الدينية الكبرى من صنع رجال الإقطاع مما هدد نفوذ البابوية وحققها في الهيمنة على الكنيسة، ولهذا أصبحت البابوية أيضاً على جعل الإقليم - لا المملكة - الوحدة الأساسية في التنظيم الكنسي، كما نجحت أيضاً في إخضاع رؤساء الأساقفة في الإقليم لمسلطان البابوية المطلق وحرمان رجال الإقطاع من الهيمنة عليهم^(٨٥) فلم يكف القرن الثاني عشر الميلادي ينتهي إلا وتحلقت سيادة البابوية على الكنيسة كلها في غرب أوروبا^(٨٦) .

وهكذا بلغت البابوية شأواً بعيداً حين ولّى كرسى البابوية البابا ذاتع الصمت إتوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م) في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي بعد أن أكدت سمو مركزها بالنسبة للسلطة العلمانية وسيطرت سيطرة تامة على الهيئات الدينية بل أصبح لها النفوذ السياسي الملحوظ^(٨٧) . فقد كانت الكنيسة الرومانية هيئة سياسية إلى جانب كونها هيئة دينية، وجاء ذلك كله المكاسب لا تمتعت به البابوية داخل الكنيسة الغربية، فقد اعتبر البابا نفسه ثالثاً عن السيد المسيح وأعطاه هذا شعوراً باقفاً جعلت هدفه الأعلى أن يجعل من العالم المسيحي كله مملكة يتولى هو حكمها وزيارتها^(٨٨) .

(٨٤) العربي : المرجع السابق ص ٤٤٦

(84) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 557

(85) Eyre : op. cit. p. 204

(86) Keen : op. cit. pp. 58 - 61

(٨٧) عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٩

وترتب على نجاح البابوية في تحقيق أهدافها في السمو والهيمنة على الكنيسة الغربية أن أخذ البابا يعادل ملوك أوروبا وأمرائها باعتبارهم أبناء الكنيسة وأنه هو أبوها، أي أنه أدخل غرب أوروبا كله داخل نطاق الكنيسة فمتى مطلع القرن الثالث عشر احتضنت البابوية الكتلة الهامة في المجتمع الغربي يشقيه الديني والدنيوي، فتم يكن البابا يعتبر نفسه زعيماً لرجال الدين والكهنة فحسب، وإنما اعتبر نفسه أيضاً رأساً للعالم المسيحي بأسره^(٣٨).

الباب الثاني

الانتشار (المغول) وقيام مولاتهم في القرون الأخيرة من العمور الوسطى

الفصل السابع : انتشار حتى عصر جنكيزخان .

الفصل الثامن: جنكيزخان وإرساء دعائم الدولة .

الفصل التاسع : توسعات انتشار في عهد جنكيزخان في آسيا وشرق أوروبا

الفصل العاشر: توسعات انتشار بعد جنكيزخان (في عهد خلفائه) في
العراق والشرق الأدنى وأوروبا .

الفصل السابع

الانتشار معاصر جنكيزخان

- من هم التتار ؟
- المنطقة التي عاش فيها التتار .
- ظروفها الجغرافية والمناخية وأهم معالمها .
- أثر البيئة فيها النصف به التتار من صفات جسمانية ونفسية .
- الأسباب التي دفعت التتار لتحرك من موطنهم .
- معتقدات التتار ودياناتهم .
- علاقات التتار بجيرانهم .
- غزوات التتار في آسيا والنتائج التي ترتبت عليها .
- أحوال مغوليا قبل جنكيزخان .
- ظهور جنكيزخان وبداية عهد جديد في تاريخ التتار .
- أشهر قبائل الخوّل والتتار وطوائفهم .

—

التتار من الشعوب التركية التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ. ومن الغزاة الذين روعوا وسط آسيا والشرق الأدنى وشرق أوروبا في العصور الوسطى، وهم التتار في القرن الثامن الميلادي نحو تسع وثلاثين قبيلة، شكل قسم منها تسع قبائل وشكل القسم الثاني ثلاثين قبيلة، واتخذ المغول اسم التتار خاصة في فترة الفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر الميلادي^(١)، فعرفوا بالتتار في الصين وفي العالم الإسلامي وفي روسيا وفي غرب أوروبا، بعد أن أطلق هذا الاسم على أسلاف جنكيزخان في زمن يسبق الفتوحات المغولية، بينما صار اسم المغول يطلق على الشعوب التي خضعت لجنكيزخان بعد قهرها. ثم لم تلبث لفظة التتار أن غلبت عليها لاسيما في الجهات الغربية من الإمبراطورية المغولية، بعد أن كان لفظ المغول والتتار يشير إلى طائفتين كانتا تعيشان في الشطر الشرقي من آسيا الوسطى وفي الشمال الغربي من الصين^(٢).

وواضح أن شهرة التتار ذاعت كثيراً أكثر مما صادف القول من شهرة، نظراً لأن مضارب التتار كانت تقع على طريق التجارة الرئيسي بين الصين في الشرق وبلاد المسلمين في الغرب، فضلاً عن شدة بأسهم في الحرب، حتى أجبروا إمبراطور الصين على إقامة سور الصين العظيم ليمنع إغاراتهم المدمرة على ممتلكاته القريبة منهم؛ وظل لفظ التتار يطلق على كافة القبائل التي تجاور الصين، وتقتل الأقاليم المتقدمة في أواسط آسيا وذلك حتى ظهور جنكيزخان^(٣). وعلى الرغم من شهرة المغول بعد

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٨٧

(٢) العربي : التتار ص ٣٤

(٣) أحمد محمود السبائي : الدوك الإسلامية ص ٥١ - ٥٥
Morgan : The Mongols , p. 56

جنگيزخان فقد ظل حيث التتار القديم هو الغالب، وأطلق أيضاً على المغول أنفسهم في كثير من البلاد^(٤).

ولقد عاش المغول في المنطقة التي عرفت بمغوليا وهي جزء من الهضبة الآسيوية وعاش التتار على شاطئ بحيرة بويور في أقصى الشرق من مغوليا^(٥)، التي كانت تطوقها هي والتركستان سلسلتان من الجبال، سلسلة في الشمال الغربي هي سلسلة جبال تيان شان والتاي، والأخرى وهي الأشهر في الجنوب وهي سلسلة جبال الهيمالايا، التي تعرف بسقف الدنيا وهي في تشيما وتريماتما كانت يحق حاجزاً بين القبائل التي لا تزال على البداوة والشعوب المتحضرة في جنوبها^(٦).

وهاتان السلسلتان تطوقان منطقة مغوليا والتركستان وتمزلهما عن بقية أنحاء آسيا، وامتمدت هضبة مغوليا التي عاش فيها أغلب قبائل التتار في أواسط آسيا طويلاً من جنوب سيبيريا حتى شمال التبت وعرضاً ما بين غرب منشوريا وشرق تركستان^(٧).

وتسبب بعد هذه المنطقة عن البحار، فضلاً عن ارتفاعها فوق مستوى سطح البحر ارتفاعاً شديداً في جعل مناخ هذه المنطقة مناخاً شديداً القسوة، مناخاً قارياً شديد الحرارة صيفاً قارس البرودة شتاءً^(٨)، بل إنه

(٤) السادقي : المرجع السابق ص ٥٥ ، وصلى مصدر قديم :
"... in 1221 described all the Mongols as Tatars, dividing them into Black, White and Wild."
Morgan : The Mongols , p. 57

انظر :
(٥) مصطفى طه بدر : مجلة الإسلام الكبرى ص ٧٣
(٦) السدقي : الدول الإسلامية ص ٤١
(٧) جمال حيدر : أقطاب الدنيا ص ٤٤
فريد جمال هاشور : العلاقات السياسية بين الممالك والمغول ص ٢٧
(٨) العربي : المغول ص ٩

كان والصحرا في قاربتة بين الفصول بعضها والبعض وحتى بين الليل والنهار، والأمطار قليلة بوجه عام، الأمر الذي سبب جفافاً في تلك الينابيع، خاصة في أواسط الصيف وأواسط الشتاء، وتفاوتت درجات الحرارة في بعض جهات منغوليا تفاوتاً كبيراً بين شدة الحرارة وشدة البرودة، ولهذا دخلت هضبة منغوليا في نطاق منطقة الاستبس^(١٠).

ولم تكن هذه الظروف الجغرافية والمناخية هي السائدة في كل المناطق التي عاش فيها المغول، بل يستثنى من ذلك هضبة التبت، التي تدرج فيها النباتات حتى تصل إلى نباتات للمنطقة القطبية، وكذلك المناطق الجبلية التي تتساقط فيها الثلوج في الشتاء والأمطار في الصيف، ولهذا نمت الأشجار في بعض الجهات لتؤلف نطاقاً من الغابات، وانتشرت المراعي الصفية الخضراء في الأحواض العليا وعلى جوانب التلال، فضلاً عن المناطق التي تغطيها الأعشاب شتاءً وتجف صيفاً لتتصل بمناطق البراري والصحراوات في جهات متعددة^(١١).

وهناك أيضاً أحواض بعض الأنهار مثل حوض نهر التاريم وغيرها من الأحواض التي اشتهرت بعض واحاتها بنشاط تجاري مميز، على الرغم من أن هذه الواحات كانت متأثرة إلى حد بعيد، كما اشتهرت هذه الواحات بوجود بعض المدن على طول طرقها، خاصة في حوض نهر التاريم، الذي كانت تمر به — على طول امتداده — صحارى وحيال، ولكنه مع ذلك حافظ منذ القدم على اتصال الحضارات، مثل الحضارة الصينية والحضارة الفارسية، وشهد كذلك طريق الحرير وطريق التجارة أي الطريق الذي سلكه التجار^(١٢) والحجاج واجتازته البعثات التبشيرية،

(١٠) جمال جنتان : المرجع السابق ص ٤٤

(١١) Morgan : op. cit. p. 37
(١٢) Ibid. pp. 33 - 35

فضلاً عن طرق أخرى للرعاة التي وظلتها أقدام اللذين يسيرون على مدى أزمنة طويلة، بالإضافة إلى الطرق التي وظلتها أقدام الفرسان القادمين من منغوليا^(١٢١).

وبصفة عامة كانت البيئة التي عاش فيها المغول والتتار بيئة قاسية في ظروفها الطبيعية والمناخية. انعكست آثارها على صفات هذه الشعوب وتكوينهم الجسدي والنفس وعلى حياتهم ذاتها. فقد كانوا قساير القامة، وروسهم عريضة، وجباههم مرتفعة يشترتهم صفراء سمكة أنوفهم فسطاء وحيونهم منحرفة وجفونهم لثيثة^(١٢٢)، وشعورهم خفيفة مرسله وذقونهم جرداء وسيقانهم مقوسة وأجسامهم معتقة^(١٢٣) واتصفوا بالتقذارة واعتادوا عليها وأظهروا من العناد والطمرة والكبرياء ما أخرجهم عن نطاق الشعوب والأقوام المألوفة، أي أنهم اتصفوا بصفات بدنية ونفسية تناسب البيئة التي عاشوا فيها^(١٢٤).

وفي نفس الوقت هيأتهم هذه البيئة القاسية ليكونوا فرساناً أشداء ومقاتلين بالفطرة يجيدون فنون القتال^(١٢٥)، وكان أمالي الاستبس الرجل في آسيا يدخلون الرعب في نفوس أعدائهم وهم على ظهور الجياد. ويصل الأمر بهم إلى أن يتألموا وقد أماتوا وروسهم على أعناق دوابهم، وهم لا يزعمون حقلاً أو يحرقون أرضاً بل هم في تجوال دائم^(١٢٦)، بل شغل القتال والفروسة كل حياتهم بل اشتق اسم المغول نفسه من كلمة Mong

(١٢١) الصيني : تنغول من ٥ - ١٠

(١٢٢) محمد فلاب : تطور الجنس البشري من ١٩٧٧

(١٢٣) غزاد العلماء : المغول في التاريخ من ٧ ، ص ٢٥

(15) Walker : Jenghiz Khan , p. 33

(١٢٤) براون : تاريخ الأدب في إيران من ١٩٣٨

(١٢٥) هارولد لام : جنغيزخان من ٢٩ (ترجمة ماري لينز)

الصينية بمعنى يأسل أو شجاع كما يذهب إلى ذلك Schott ، على الرغم من أن هذا الاسم لا زال موضع خلاف بين الباحثين^(١٨) ، كما اكتسبت تلك البيئة الفاسية الشجاعة والإقدام، وقوت فيهم روح المخاطرة ومنحتهم الجلد والمسير وتحمل الجوع^(١٩) ، خلال الحروب أباناً، فيكتنون بأقل التقليل وعودتهم هذه البيئة الفاسية أيضاً تحمل اليرد الفارس والحر اللافح بمزجة وهمة لا تفت^(٢٠) ، فضلاً عما منحتهم من جرأة وصراحة في إبداء الرأي والجهر به دون مؤاربة أو خوف أو تفاق، وقوى المجتمع نفسه هذه النزعة ونماها في الأفراد فصارت من العادات^(٢١) .

وعلى مر التاريخ اجتازت الدروب الشرقية في آسيا جماعات جالية في سبيلها للحصول على المراضى وطلب الرزق^(٢٢) ، والطمع في فرض سلطنتها على الجموع الأخرى، وتنازع الترك والنموك وتخاصموا لتوفير المراضى لقطعاتهم والهيمنة على الساحات الشاسعة التي تهين للفرسان ما يلائم نشاطهم وما يوفر لهم الحياة التي تتاسبهم، وتعين للهدو الرعاة وجموع الاستبس ظروف الحياة التي يبتلون بها، ويمد هبوط الرعاة من مشاربهم وإرتحالهم إلى جهات أخرى قاعدة طبيعية وأمرأ مألوفة عبر الحقب التاريخية المختلفة خاصة وأن منغوليا تدخل في نطاق منطقة الاستبس^(٢٣) .

(١٨) الفريزى : القول ص ٢٩

(١٩) هارولد لام : المرجع السابق ص ٩٠

(20) Howorth : Hist. of the Mongols , Vol. 1 , p. 18

(٢١) مصطفى خن بذر . مجلة الإسلام المكون ص ٩٥

(22) Morgan : op. cit. p. 33

(٢٣) جمال عثمان : أقطاب الهيئت ص ٤٤

وفي هذا الإطار تدفقت الجموع الجافية من مناطق منغوليا والتركستان على الجهات المجاورة عبر القرون، حيث للفظ هذه المناطق وما حولها جمع الهون الذين نفذوا إلى جنوب شرق أوروبا قادمين من أواسط آسيا عبر البراري والسهوب الآسيوية في أواخر القرن الرابع الميلادي⁽²⁴⁾، وتركزت هجماتهم في القرن الخامس الميلادي على شرق أوروبا ووسطها⁽²⁵⁾، ثم تدفقت جموع الآفار على أوروبا في القرن السادس الميلادي، وبمقدمهم التحزب الترك في القرن السابع الميلادي⁽²⁶⁾، ثم الخطا المغول في القرن العاشر الميلادي والهجئاتك الترك في القرن الحادي عشر الميلادي، ثم الكومان الترك في القرن الثاني عشر الميلادي، ثم بعد ذلك جميعاً مغول جنكيزخان في القرن الثالث عشر الميلادي، بعد أن نجح جنكيزخان في إضفاء الصفة المغولية على كثير من القبائل التركية قبل إقصاءه على اجتياح الجهات المجاورة⁽²⁷⁾.

ولاشك أن ما كانت تمارسه هذه الأقوام البدوية من ضغط على الإمبراطوريات المتعدية القريبة منها خاصة في الجنوب، قد تطور إلى غارات للضم والتوسع على يد هؤلاء المتبرسين الذين ظل جانب كبير منهم يعيش على الصيد في الغابات والصيد في الأنهار والبحيرات والرعى في المراعي⁽²⁸⁾، وظل جانب آخر منهم قابضين في مناطق الغابات والمراعي حتى القرن الثاني عشر الميلادي منعزلين في موطنهم دون أن تكون لديهم

(24) Ammianus Marcellinus : The Huns , pp. 576 – 79.

Trans. by yong. In Med. World by Cantor, p. 68

(25) Bury : Hist. of the Roman Empire, Vol. I pp. 291 – 4

(26) Dunlop : the Hist. of the Jewish Khazar, p. 44

(27) Morgan : op. cit. p. 137

(28) رالف تلون : فجرة الحضارة ج ٩ ص ١٦٩

فكرة عن الجهات الأخرى، وفرضت البيئة على جانب ثالث منهم من سكان الصحارى والاستبس عادات وتقاليد خاصة، لاسيما فيما يختص بتوزيع المراعى واقتسام المياه، وهى الأمور التى حددت مجال طواقمهم في فصول السنة المختلفة، الأمر الذى تطور إلى غارات على الشاطئ المجاورة^(٢٨)، خاصة عند اشتداد الجفاف في فصل من الفصول وتقلص المراعى بسبب ذلك، وتلك كانت هى أسباب الترحال والغزو والتوسع.

ولقد مارس الفول أعداد جنكيزخان الرعى وكذلك الصيد في سهوب وغابات آسيا في منطقة منغوليا^(٢٩) والتركستان فدخلوا بالتالى في نطاق شعوب السهوب الذين تغلب عليهم سمة البداوة ويحترفون الرعى، وكان عليهم أن يتغلبوا على مصاعب الصحارى القرايية الأطراف وأن يجتازوا الجبال وأن يعبروا البحار والأنهار وأن يقهروا قسوة المناخ وأن يصيروا على ما تقضى قبيهم من أوبئة ومجاعات، ولهذا الأسباب حدثت الحركات المنتظمة للرعاة أولاً داخل مواطنهم، ثم طورت إلى إغارات على البلاد المجاورة لحدودهم^(٣٠).

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أدت هزلة العالم التركى للفول بسبب ما كان يحيط بمنغوليا والتركستان من سلاسل جبلية، أن انفصل هذا العالم عن بقية أنحاء آسيا وأجبر على مواجهة ظروفه الصعبة ومواجهة أقداره ومحاربة التواؤم مع ما كان يعيشه من ظروف طبيعية قاسية^(٣١)، هذا فضلاً عما أحدثه وقوع نهر سيحون بين هذا العالم التركى

(٢٨) الميريس : الفول ص ١٤

(30) Morgan : op. cit: p. 32

(٣١) الجريلى : المرجع السابق ص ٦٣

(٣٢) مصطفى طه بدر : مجلة الإسلام الكبرى ص ٤٩

المغول والعالم الإسلامي من عزل هذا العالم وقصته عن جيرانه سكان البلاد الإسلامية، وإن أدى ذلك إلى محافظة المغول الشرك على تقاليد عنصرهم وتشبيهم بالوثنية والبوذية^(٣٣).

ويشير المؤرخون إلى أنهم لم يعرفوا في البداية ديناً واضحاً، أو يؤمنوا بمعتقد معينة، نظراً لما عاشوه من بدارة وفزلة في مغوليا، ونظراً للظروف التي عاشوها وقسوة الطبيعة حولهم وجفاف البيئة وجسوت الملئس وفقر الصحارى، التمس الملوك قوة تحميهم من الأخطار وتمتجهم ما كانوا في حاجة إليه من وسائل المعيش وترعى ما يملكون من حيوانات^(٣٤)، فسجد بعضهم للشمس عند شروقها، وعظم بعضهم النجوم وعينوها، ومنهم من عبد النار ومنهم من قدس أرواح الأجداد^(٣٥)، والمغلب منهم إلى الشامانية، وهي ديانة وثنية بدائية وإن اشتملت على فكرة البعث والحساب ولكن بطريقة مختلفة^(٣٦).

وكانت هذه فرصة لانتشار السحر والشمونة وتقلب الخرافات، فظهرت طبقة من الكهان والسحرة من الشامان وسيطروا على عقول البسطاء ولقدت لهم بمرور الوقت مكانة لدى الحكام، ثم انتشرت البوذية لديهم بالاتصال بالصينيين في الشرق وقبائل الأويغوريين في الجنوب^(٣٧). ويشير المؤرخون إلى أن المغول انتقلوا بذلك من تقديس قوى الطبيعة إلى عبادة الأوثان، خاصة تلك التي أقيمت ليوندا وجرى عبادتها تزلزلاً^(٣٨).

(٣٣) Morgan : op. cit. p. 41

(٣٤) مصطفى طه بدر : المرجع السابق، ص ٥٦

(٣٥) طاهر : ابن الصمد الشافعي : شذرات الذهب ج ٥ ص ٥٤٩ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٨ ، الترمذى : أخبار الدول وأثر الأوك ص ٥١٣ ، إبراهيم العمري : العرب وانتشار ص ٩٧ .

(٣٦) بارنولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٨٦

(٣٧) بارنولد : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ٥١٩

(٣٨) محمد ناصر حمدان : وقائع الحروب الصليبية والغزو المغولي ص ٦٥

ثم عرف القول بعد ذلك عقائد أخرى اختلفت عن وثنية الشامانية وأصنام البوذية، فقد نفذت إليهم المسيحية والإسلام، لكنهم لم يولوا اليهودية أي اهتمام^(١٧٠)، ولم يكن انتشار المسيحية ثم الإسلام بين القول أمراً سهلاً وإنما احتدم التنافس بينها وبين الشامانية والوثنية فترة طويلة، حتى نفذت إليهم في النهاية واعتنقها فريق منهم^(١٧١)، على الرغم من أن انتشار المسيحية النسطورية جرى بين بعضهم من فترة وكذلك تأثروا إلى حد ما بالحضارة المسيحية، ولخص المؤرخ دوسون Dohsson ذلك كله بقوله أنهم لم يكونوا يؤمنون بدين في البداية لأنهم عبدوا الشمس عند شروقها ولم يعرفوا حراساً أو حلالاً، وأكلوا لحوم الحيوانات على اختلافها حتى الكلاب والخنازير وغيرها.

وهكذا كانت منطقة منغوليا والتركستان وشعوبها، فلم تكن سوى مستودعاً للأمم مثلها مثل اسكندرية في أقصى شمال أوروبا، إذ خرج القزوينيون من منغوليا والتركستان إلى بقية أنحاء آسيا والشرق الأدنى وروسيا وشرق أوروبا^(١٧٢)، مثلما خرج الجرماني فذكوا هرس الإمبراطورية الرومانية الغربية، وأقاموا الممالك الجرمانية في أنحاء أوروبا، وأسهموا في صنع التاريخ الأوروبي في العصور الوسطى^(١٧٣)، وكان هبوط الجموع من الآشيس سبباً في إقامة الإبلخانات والسلطنات في جهات متعددة من آسيا والشرق الأدنى وشرق أوروبا.

(١٧٠) بارنولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٦٤

(١٧١) أ. لوبل : الدعوة إلى الإسلام ص ١٩٠

(172) Danlop : op. cit. p. 10

(١٧٣) محمد الشيخ : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٨٧

وكان المغول قبل جنكيزخان قد انمزلوا كثيراً عما حولهم في منطقة منغوليا وما حولها باستثناء ما أقاموه من علاقات قليلة مع الصين في فترات متفاوتة، أو ما أقاموه من علاقات مع بعض القبائل التركية الرعوية، خاصة تلك التي زاحمتهم في المراعى الفقيرة وشاطرتهم الماء القليل في تلك المناطق، لأن المغول والتتار في تلك الفترة كانوا رعاة وصيادين في مجموعهم تختلفوا كثيراً عن ركب الحضارة، بل كانوا أميين لا يعرفون القراءة أو الكتابة، ولا علم لهم بالديالوجين شأنهم في ذلك شأن الرعاة في المناطق الأخرى^(١٧٦).

ثم عرفت منغوليا في ظل جنكيزخان الوحدة بعد أن أعلن هذا نفسه خاقاناً أعظم في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، وسيداً علي كل القبائل الرعوية في منغوليا، خاصة وأنه كان إذ ذاك شيخاً قد تعدى الخمسين من عمره حنكته تجارب الحياة، وجاء انتصاره على القبائل المناوئة خاصة من القبائل التتبية وغيرها من القبائل التركية مسبباً في انضمام قبائل أخرى طواعية ودون حرب^(١٧٧). ومن هذا اتخذ المغول اسم التتار — كما سبق أن أشرنا — ولأسباب سالفة الذكر التي أشرنا إليها، فمُنذ زمن الفتوحات في عهد جنكيزخان بدأ اسم التتار يغلب على الشعوب التي دانت لهذا القائد خلال توسعته في الغرب^(١٧٨).

وكان خطر التتار أوضح في آسيا منه في أوروبا، فلم يبلغ من الشدة في أوروبا ما بلغه هذا الخطر في آسيا، فقد دمر التتار بغداد، وأزالوا الخلافة العباسية، فرب منتصف القرن الثالث عشر الميلادي واستأصلوا

(١٧٦) رالف تاتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١١٩

(١٧٧) ماركوف : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ٤١٣ - ٤١٤

(١٧٨) الساماني : الدول الإسلامية ص ٥٤ - ٥٥

شأفة الأسرة الحاكمة في شمال الصين قبل ذلك بنحو ربع قرن من الزمان، وبعثوا على جنوب الصين، واجتاحوا خوارزم وقارس وكل المناطق المجاورة، وأقاموا لهم حكماً في الهند امتد نحو ثلاثة قرون^(٤٨)، وإن أظهر حكامهم في الهند كراميتهم للأصل للمولى.

ولم يكن غزو التتار كله شراً، على الرغم مما أحدثه من تدمير واعتداء على الحضارة والفنية فقد اعقب هذا الغزو حركة إحياء ضخمة انبثقت من بين أنقاض الحضارة التي دمرتها الغارات التتارية^(٤٩)، إذ ترتب على سقوط بغداد في أيدي هؤلاء التتاريين أن انتقل مركز الدراسات الإنسانية إلى مصر، وتفرق العلماء والأدباء في أنحاء العالم الإسلامي، فأضاف ذلك إلى الحركة العلمية في الجهات التي حلوا بها، وجاء انتماء الحركة العلمية في مصر وبعض البلاد الإسلامية الأخرى منهاً أفاد العالم العربي الذي كان معنيّاً في ذلك الوقت بعلوم الشرق وثقافته^(٥٠).

في الوقت الذي أحدث فيه هذا التوسع المقترى تطورات بالغة الأهمية في آسيا وتتلج محاولة في تلك القارة، فقد جرى توحيد أجزاء واسعة من آسيا، كفل لها هذا الغزو السلام والأمن في تلك الإمبراطورية للترامية الأطراف، وغدت طرقها آمنة مفتوحة بضمن التجار والمسافرون إلى اجتيازها، بالإضافة إلى أن عدم اكتراثهم بأمور العقيدة أو الدين^(٥١)

(٤٨) للمباين : نفسه ص ٤٢

(٤٩) العربي : القول ص ٢٥ - ٢٦

(48) Camb. Med. Hist. Vol. 8, p. 667

(49) Nizami : op. cit. pp. 41 - 48

وقدم الخرج رشيد الدين صورة بالغة السوء للمجتمع القوي في تلك الفترة أثار فيها إلى ما حدث من انعدام الأمن في كل مكان، وانتشار قبائح الطرق والتفريدين قلم بعد أحد يامن على نفسه أو قبطانه من الموت أو السرقة، فقد انتشر الصلوص في كل مكان، واستفحل أمر الخارجين على العرف والتقاليد، ولم يظهر الأغنياء بهلا للوقوف إلى جانب رؤساء القبائل أو ساداتهم وحتى المجتمع نفسه لم يعد كما كان، فلم تعد النساء يورثن أزواجهن ولا عاد الصغار يستجيبون للكبار، بل لم يعد الأطفال يطيعون آباءهم وأمهاتهم (١٢٧).

(51) Walker : *op. cit.* p. 33

(۵۳) العرضی : المرجع السابق ص ۴۹

كما تشير الدلائل أيضاً إلى أنه قد جرت محاولات لتوحيد القبائل الغولية قبل عهد جنكيزخان، ولكنها كانت محاولات باهتة، ونظراً لأن التتار كانوا معروفين منذ القرن السادس الميلادي، فقد اتخذ المغول اسمهم، لما كان للتتار من شهرة سابقة على ظهور المغول^(١٤)، فلم تبدأ شهرة هؤلاء المغول إلا في القرن الثاني عشر الميلادي، بالإضافة إلى ما كان للتتار من قوة كانت مصدر تهديد لمملكة الصين الشمالية، ولكن جاورهم من أقوام في الوقت الذي حلت فيه الفوضى والاضطراب بين قبائل المغول، بسبب ما كان بينها من نزاع مستمر وحروب دائمة^(١٥).

وأسفر اتحاد قبائل المغول في النصف الأول من القرن الثاني عشر، وظهور الملكية الأولى للمغول عن نهوض هذه المملكة وإزدياد قوتها، فلما جرت المشاحنات بينها وبين مملكة الصين واندمجت الحرب بينهما سنة ١٢٣٥م حلت الهزيمة بجيش الصين^(١٦) وحده هذا التاريخ بداية نهوض التتار خاصة بعد أن سادوا قبائل التتار النازلين على الضفة الجنوبية لنهر كيرولين بعد معارك عديدة اشترك فيها والد جنكيزخان الذي أشارت الروايات إلى أن اسمه يسوكاي بهادر^(١٧)، الذي أبلى بلاء حسناً جعله يخلد هذا الانتصار بأن أطلق على ابنه الولود اسم أحد قادة التتار الذين صرعهم وهو الآهن الذي عرف بعد ذلك باسم جنكيزخان^(١٨)، قائد وزعيم التتار بعد أن عرف المغول بهذا الاسم الجديد.

(١٤) الساماني : الدول الإسلامية ص ٥٤ - ٥٥
عبد السلام طهري : تاريخ الدولة الغولية في العراق ص ١٧.
(١٥) فؤاد عبد المحسن الصفاء : المغول في التاريخ ص ٦ - ٧.
(١٦) عبد السلام طهري : تاريخ الدولة الغولية في إيران ص ٢٨.
(١٧) الفقهري : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١٥.
(١٨) فريد جواد عاشور : المرجع السابق ص ٢٨.

تبع ذلك تداعى مملكة المغول الناشئة وسيطرة التتار، وما أصبح لهم من النفوذ والسلطان، بفضل مساعدة أسرة كين بالصين الشمالية، وبفضل ما وصلت إليه جيوش التتار من قوة حتى صار التتار مصدر خطر على أسرة كين نفسها فلم يسع هذه إلا أن تنقلب عليهم^(٦٠)، في الوقت الذي صار لجنكيزخان الهيمنة على قبائل المغول فهبطت أسرة كين الفرصة لجنكيزخان للإتصار على التتار فضلاً عما لجأ إليه جنكيزخان من مخالفة طغرل زعيم الترك الكرايت في الغرب، فأفاد جنكيزخان من هذا التحالف في تدعيم مركزه وإقرار الأمور في مملكته^(٦١).

وعلى رأس مشروعات جنكيزخان في ذلك كان مشروع تصفية التتار والقضاء على قوتهم، فانتهاز زعيم المغول فرصة إرسال إمبراطور الصين جيشاً لمحاربة التتار – وانتظر حتى تنهقر التتار أمام ضغط الصينيين، وانقض المغول على التتار من الخلف مدعمين بحلفائهم من قبائل الكرايت، فحطموا قوة التتار وأجبروهم على الخضوع^(٦٢)، ثم أمر جنكيزخان أن يقتل التتار جميعاً ولا يبقى منهم أحد فراح المغول يجهزون على كل من يعادفهم من التتار حتى النساء والأطفال وبقرود بطون الحوامل ولم يفلت منهم إلا القليل^(٦٣).

ويبدو أن جنكيزخان كان يهدف من هذه المذبحة تصفية عدو اعتقد أنه يمكن أن يسبب له مشاكل في الرحلة التالية، وتأمين جيوشه

(٦٠) العمري : المغول ص ١٤

(٦١) Walker : op. cit. p. 34

(٦٢) هارولدام : جنكيزخان وجيوش المغول ص ٥٩

(٦٣) D'Ohsson : Histoire des Mongols, Tom I, p. 372

من الخلف، إذا فكر في الاتجاه شرقاً نحو أملاك الصين أو غرباً تجاه أملاك المسلمين^(١٧٩).

وما كان من اتخاذ المغول اسم التتار بعد ذلك إلا إحساساً من جنكيزخان من أنه صلى هذا العدو القوي وورث أرضه وأملكه وكذلك اسمه الذي كان أكثر ذيوماً من اسم المغول^(١٨٠) للأسباب التي أسلفناها، فضلاً عن أن جنكيزخان نفسه أطلق عليه في البداية اسم تيموجين وهو اسم أحد قادة التتار الذي صرعه والد جنكيزخان، وأطلق اسمه على ابنه المولود، تخليداً لذكرى انتصاره من ناحية، وإكسابه مهابة وعظمة من ناحية أخرى. وعلى هذا كان اسم التتار أكثر قبولاً لدى المغول في عصور هذه التفسيرات وبحكم هذه الأحداث التاريخية التي أشرنا إليها. وكان أن أقبل كثير من المغول على الزواج من بنات التتار فأصبح هذا عن تسلسل جديد يضم كبار قادة المغول وزعمائهم^(١٨١).

ويعن الشراك مع جنكيزخان من طوائف المغول ذكر المؤرخون: قبائ وهي قبيلة جنكيزخان، ولم تكن من القبائل كثيرة العدد، تكن شهرة لها جاءت بعد قيادة جنكيزخان لها. أويرات Oirat وهي من القبائل كثيرة العدد، وكان لها لهجتها الخاصة دون القبائل المغولية الأخرى^(١٨٢). النايغان وكانوا من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولي، وكانوا يدعوا رجل ودان بعضهم بالنسحجة النسطورية وتكلموا باللغة القولية، وتشابهت عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليد المغول.

(١٧٩) العربي : المغول ص ٥٠

(١٨٠) عبد السلام قهس : تاريخ الدولة المغولية في إيران ص ١٧

(١٨١) رشيد الدين فضل الله : جامع القوافل ج ١ ص ٦٢-٦٣ : تحقيق يوسف كزيمي ٩

(١٨٢) عبد السلام قهس : المرجع السابق ص ٦٢

الكراميت Kerait ، وهم شبه بدويين وينتمون إلى أصول تركية ودان بعضهم بالتسمية النسطورية وكانوا من أقوى قبائل المغول، وأصاب ملكهم طغرل شهرة كبيرة^(١٧٧)، وساعده يسوكاي والد جنكيزخان في حروبه فصار أقوى ملوك رؤساء القبائل في منغوليا. التركيت وهم من المغول وكان لهم جيش قوى ومالوا كثيراً إلى إحصاءات الخيل والفن، ولهذا دخل جنكيزخان معهم في حروب حتى أمر بالقضاء عليهم تماماً فلم ينج منهم إلا القليل^(١٧٨). التتار وكانوا قبائل كثيرة أحرزوا شهرة كبيرة أكثر من المغول، وكانت لهم صلات بالمسلمين، كما كان من بينهم من اعتنق الإسلام، وكانوا أكثر قبائل الجنس الأصغر بطشاً وجبروتاً وأكثرهم رفاة وتنعماً وثراء^(١٧٩).

(١٧٧) القريني : المغول ص ٤٧

(١٧٨) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ المجلد الأول ص ٧٢

والظاهر فيه السلام فليس : المرجع السابق ص ١٤

(١٧٩) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ج ١ ص ٦١

- مولد تیموجین (جنگیزخان) ونشأته وحياته وأسرتة بعد وفاة والده یسوکای زعيم قبيلة قيات المغولية .
- مواهب تیموجین الکثیرة وشخصيته القيادية .
- خطوته السياسية الأولى تجاه القبائل في منغولیا .
- اختباره خائناً على المغول ليهيئ الوحدة للقبائل المغولية، وإستاده الوطنف الهامة لمعاونيه .
- تأكيد زعامته على القبائل الأخرى .
- الرحلة الهامة في حياة جنگیزخان ابتداء من سنة ١٢٠٦ م .
- مجتمع وجيش المغول وأسباب انتصارهم في الحروب والياسا .
- حروب جنگیزخان في الصين.

أشرفنا من قبل إلى أن والد جنكيزخان ويدهي يسوكاي الذي كان زعيماً لقبيلة قبايات المولوية كان غائباً عن معاربه يقاتل التتار ، وقت ولادة ابنه ، وذلك بعد منتصف القرن الثاني عشر الميلادي بسنوات قليلة . ذهب بعض المؤرخين إلى أن ذلك جرى سنة ١١٥٥ م ، وذهب البعض الآخر إلى أنها جرت سنة ١١٦٧ م^(١) ، أي أن يسوكاي لم يحضر مولد ابنه لانشغاله بحرب مع قبائل التتار .

وتذكر الروايات أن يسوكاي قد أبلى بلاء حسناً في تلك الحرب مع التتار ، وصرع زعيماً لهم يدعى تيموجين^(٢) قلماً عاد إلى أهله منتصراً فوجئ بأن زوجته قد أنجبت له ابناً فترادى له أن يخلد انتصاره على التتار بأن أطلق اسم زعيمهم الملقب (تيموجين) على ابنه المولود^(٣) . وهو المولود الذي سيكون له شأن كبير بعد ذلك وسيصبح زعيم قبائل المغول ويحمل اسم جنكيزخان .

وكان هذا المولود الذي سماه والده باسم تيموجين موضع اهتمام والده يسوكاي فكان يصحبه معه في رحلاته : وصحبه معه وهو في التاسعة من عمره لزيارة أخواله ، فالتقى أثناء الرحلة برؤساء قبيلة القنقرات المغول ، الذي أعجب كثيراً بالطفل تيموجين ، وثنيّاً له بمستقبل عظيم وعزم على أن يزوجه من ابنته عندما يكبر فلم تكن ابنته تتجاوز

(١) عبد السلام فهمي : تاريخ الدولة المغولية في إيران ص ٣٠٠ .

Morgan; op. cit.p.55

(٢) تعني العليق القاتل ، ومن معانيها أيضاً القارس الكامل .

انظر العريضي : المغول ص ١٣ .

(3) Morgan; op.cit.p.57

العاشرة من عمرها في ذلك الوقت^(٤) . ويصدها قتل يسوكاي واجمعا الى أهله، غير انه ما لبث ان توفي في طريق عودته، وقيل أن التشار هم الذين دسوا له السم فمات لقوه سنة ١١٧٦ م بعد حياة حافلة في قيادة قبيلة قيات وقبائل اللؤل^(٥) .

وكان يسوكاي قد نجح قبل وفاته في جمع عدد من قبائل اللؤل تحت زعامته وحصل منها على الولاء له باعتباره زعيم قبيلة قيات ، فلما توفي يسوكاي ظهرت أحقاد هذه القبائل و أعلن خصومه من زعماء هذه القبائل عداؤهم لآبنة تيموجين ، وعارضوا رقبته في خلافة والده في الزعامة، ويعمل المؤرخون تلك الأحقاد بسبب ما حققه يسوكاي من انتصارات خلال فترة زعامته^(٦) ، وكانت أكثر القبائل حقدًا وكراهية لتيموجين هي قبيلة التاليجوت التي أظهرت عداؤا شديدا لذلك الشاب وأتتكرت عليه طموحه لخلافة والده في الزعامة .

لهذه الأسباب بدأت أحوال أسرة تيموجين تسوء يوما بعد يوم، وتمر تيموجين ووالدته وإخوته بطروف غاية في الصعوبة وساءت أحوالهم المعيشية يوما بعد يوم خاصة وأن أكبر الأبناء كان لا يزال صغيرا^(٧) ، وتذكر الروايات أن أرملة يسوكاي وتدعى بولون جماعت كثيرا لتحصل على الزاد الضروري لهذه الأسرة، مما يؤكد انصراف الناس عنهم وحرمانهم من أى مساعدة ممن حولهم، حتى قيل أن هذه الأرملة كانت تلتقط لهم النار، وما يمكن أن تحصل عليه مما تخرجه الأرض ، وما

(٤) هارولد لام : جنكيزخان وجمائل اللؤل من ١٢-١٤ (ترجمة مازى اسعد)

(٥) العربي : اللؤل من ٤٤

(6) Morgan: Op. cit. p. 59

(٧) عبد السلام فهمي : المرجع السابق من - ٢

تجود به البيئة لاسيما من حصة العيد من الأنتهار : ولم يزد ذلك كله الأسرة إلا إسرا على الحياة وسيرا على الكارهة^(١٦) وقد جيلوا على مجابهة مثل هذه الصعاب في البيئة التي عاشوا فيها : في الوقت الذي راحت فيه تلك الأملة تعمل على لم شمل الأسرة من أبناء يسوكاي الأشقاء وغير الأشقاء لمجابهة ما يحرق من طرف^(١٧) من ناحية واستعدادا لما يمكن أن تقوم به قبيلة التايجوت من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من هذه الظروف ووسط ما تعرضت له أسرة تيموجين من مصاعب ، تم تردد قبيلة التايجوت في شن غاراتها على هذه الأسرة ببدية رغبة محبوبة لإلالتها والخط من قدرها ، حتى اضطرت هذه الأسرة إلى الانجاء نحو المناطق الجبلية للنجاة بأنفسهم ، وكان لذلك أثره الكبير في نفس تيموجين وتكوينه النفسي والجسدي . وقدرته على مجابهة مختلف الظروف^(١٨) ، حتى ذهبت الروايات إلى أن الأسرة لم تكن تملك سوى قمع أفراس نجح للفرار من قبيلة التايجوت في الاستيلاء على لمان منها : فالأمر تيموجين إلى مطاردة الفارين لاستخلاص الأفراس من أيديهم : وأظهر شجاعة وبراعة في تلك بمساعدة شاب يدعى بورتشو ، حتى نجح في إجبار الأعداء على التخلي عن الأفراس ، فعاد بها إلى أسرته بمساعدة ذلك الشاب ، الذي بدأت الصداقة تربط بينهما لتخط بداية مرحلة هامة في تاريخ هذين الشابين^(١٩) .

وليس من شك في أن تيموجين كان صاحب مواهب كثيرة

(١٦) هارولد لام : المرجع السابق ص ١٦

(١٧) العزيمي : القول ص 4٠

(18) Morgan: Op. cit, p. 60

(١٩) هارولد لام : نفس المرجع ص ٢٦

وشخصية قيادية عظيمة بهرت كل من عرقه أو النقي به. ولهذا أمل الكثيرون أن يتجح فيما عزم عليه من استعادة الزعامة وخلافة والده في قيادة القبائل لما ظهر فيه من قوة الشخصية وحسن القيادة^(١٣)، وحببه للمدالة والزانة وإخلاصه لأصدقائه وحفله لمهودهم وامتنانه لما يؤدونه من خدمات، وليس من شك في أن الجانب الأعظم في هذه الشخصية والسجاي التي تميز بها، إنما كانت بالمليقة وقطرية، لأنها من صفات الأقبام الرجل وسكان الخيام لاسيما المحبة الشديدة للأصدقاء والكراهية المتناهية للخصوم^(١٤).

لم يلبث تيموجين بعد ذلك أن تزوج بورته ابنة زعيم قبيلة القنقرات الملوك المقيمين على نهر كيرولين، وهي الفتاة التي كان والده قد عقد له الخطبة عليها^(١٥) منذ سنوات قاتنقل تيموجين وأفراد أسرته للإقامة بالقرب من منابع نهر كيرولين، فبدأ نجسه يمتدح في سماء المنطقة لاسيما بعد أن نجا من شرور التايجوت وهرب من أسرهم، ثم أكد قوته ورسوخ أقدامه ودأبه لتحقيق أهدافه^(١٦).

ثم خطا تيموجين بعد ذلك خطوة غريبة في الأهمية من الناحية السياسية أبانت عن ذكاء وفطنة حين بذل التبعة لطقول زعيم الكرايت، للإفادة من دعم هذا الزعيم وتأبيده القوى باعتباره من أقوى ملوك الاستنيس من ناحية، وباعتباره في مقام والده من ناحية أخرى، لأنه سبق أن شرب مع يسوكاي نخب المصادقة الأبدية وتعاهدا

(12) Morgan: Op.cit.p.59

(١٣) عبد السلام فهمي: المرجع السابق ص ٣٠

(١٤) هارولد لام: المرجع السابق ص ١٣-١١

(15) Morgan: Op.cit.pp.60-61

على أن يساعد كل منهما أولاد الثاني إذا دعت الحاجة إلى ذلك^(١٦)، وكان يسوكاي قد أسهم في تدعيم مركز هذا الزعيم ، حتى صار إلى ما صار إليه من قوة وزعامة . فتوجه تيموجين إلى طغرل اللقيم على نهر شولا ، وبذل له بعض الولاء ، وتمهد بأن يكون من أتباعه الخاضعين وعامله كما يعامل الابن أباه^(١٧) ، فأنارت هذه الخطوة نائراً طيباً في نفس طغرل وأرتاح كثيراً لبذل هذه التهمة ، ووجد بمساندة تيموجين وجمع القبائل التي سبق أن خضعت لوالده من قبل على الولاء له بعد أن طرحت هذه القبائل الطاعة سنوات طويلة بعد وفاة يسوكاي^(١٨).

وفي نفس الوقت نجح تيموجين في كسب صداقة رجال كثيرين على المستوى الشخصي لعينوا دوراً كبيراً في دعمه وتأييده في الفترة التالية منهم زعيم أحد القبائل الغولية وهي قبيلة جاجيرات ويدعى جاموكا الذي ربطت الصداقة بينه وبين تيموجين قصارا كالأخوين ، إلا أنهما اختلفا بعد ذلك وتنازعا وانفردت عقد التحالف بينهما^(١٩) ولكن تيموجين أفاد من ذلك أنهما إذا انحاز كثير من أتباع جاموكا إلى صف تيموجين لما لمسوه فيه من إصرار على الانفرد بالزعامة الكبرى وطموح لبلوغ هذه الزعامة وإصرار على ذلك^(٢٠).

وتذكر الروايات أن القبائل بدأت تسعى لكسب مودة تيموجين وصداقته بل والانضمام إلى حلقه والذخول في طاعته لما ذاع حينئذ من أن الزعامة الكبرى سوف تلوح إليه ، فاحتازت كثير من القبائل إليه وكثير

(16) Grousset : L. Empire Mongol, VIII , pp. 48-54

(١٧) خارولد لام : الترجع السابق ص ٣٥ ، ص ٥٨

(١٨) العريضي : المغول ص ٤٧

(١٩) عبد السلام قهسي : الترجع السابق ص ٣٩-٣٣

(٢٠) خارولد لام : الترجع السابق ص ٦٦

من العشائر الغولية والتركية فبسط سيطرته على منطقة شاسعة من إقليم منغوليا تمتد حتى صحراء جوبي حيث مشارب عدد كبير من قبائل التتار^(٢٢) كما انحاز إليه أربعة أمراء منوك تجرى في عروقهم الدماء الملكية من الذين انفصلوا عن جاموكا خاصة وأن تيموجين كان ينتمى إلى أسرة ملكية قديمة^(٢٣).

ثم جرت أهم خطوة في حياة تيموجين بعد ذلك «حين أجمع الأمراء الملكيون الأربعة على اختياره خاتماً أعظم على المغول، واضعين في اعتبارهم التماسه إلى الأسرة الملكية القديمة من ناحية، ومؤمنين فيه حسن القيادة من ناحية أخرى، حتى للذهب الرواية إلى أنهم بذلوا له التسمية وأكدوا له الإخلاص، وتعاهدوا على خوض المراكب إلى جانبه»^(٢٤). بل إنهم تعهدوا بالطاعة له وتقدم كل عون، فإذا هموا أوامره أو برسوا به حق عليهم العقاب واستحقوا ما ينزل بهم من عقاب، بل أعطوه في هذه الحالة - حق أن يفرق بينهم وبين زوجاتهم - ويشترع منهم مشاعهم ويمنزلهم ويجعلهم منبوذين، فالزبوا بما وعدوا به واختاروه خاتماً أعظم وأطلقوا عليه اسم جنكيزخان^(٢٥).

(٢٢) عبد السلام فهمي: ناس المراجع السابق ص ٣٩

(22) Morgan: Op. cit. p. 60

(٢٣) العريشي: المغول ص ٤٨

(٢٤) أشار مؤرخ المغول رشيد الدين إلى أن هذا التلقب الملكي مشتق من لفظة صينية مغولية هي (Tch'ing) التي تعني القوى، وأشار مؤرخ صيني إلى أنها مشتقة من لفظة تعني ابن السماء، وفي رواية ثالثة أنها اشتقاق صيني يعني المحارب الكامل. ومن ناحية أخرى تصدت الروايات عن الزمن الذي اتخذ فيه تيموجين اسم جنكيزخان: فلي رواية أنه اتخذ هذا الاسم بعد انتصاره على الكرايت سنة ١٢٠٣م. وفي رواية أخرى أنه اتخذ سنة ١٢٠٦م بعد الانتصار على التايان. انظر العريشي: المغول ص ٤٨.

ويبدو أن هذا الانتخاب الذي شارك فيه الأمراء من الأسرة الملكية السابقة كان يهدف بالدرجة الأولى إعادة الوحدة إلى القبائل المملوكة، والسيادة إلى الأسرة الملكية القديمة أسرة قبيلة قيات التي ينتمى إليها الخان الجديد، ومحاولة جمع القبول على هدف واحد، وإعدادهم لمحاربة التتار والانتقام منهم تحت قيادة هذا الزعيم الذي أملوا فيه قائدا قويا ومحاربا من طراز فريد ومنظما بارعا ورجلا شديدا الاحترام للنظام دقيقا في اختيار أمواته ومعاونيه^(٢٥).

ولم يفسح تيموجين وقتا، بل شرع بعد انتخابه في توزيع الوظائف الهامة على معاونيه سواء الوظائف العربية أو الهندية فاختار حرسه الخصوصيين من أمهر الرماة وأشد الآخرين أمر توفير مؤن الجيش وسقاية الجنود وإعداد العربات، فضلا عن يشرفون على الخدم وينقلون الأوامر الملكية، ويحافظون على النظام خاصة عند انعقاد مجلس القبيلة، وكان انعقاد هذا المجلس يعقب الأحداث الهامة، وفيه تجرى مناقشة أهم الأمور التي تواجه القبيلة^(٢٦)، وأهتم كذلك بتعيين من يشرفون على رياضة ركوب الخيل، وأشد الإشراف العام على كل هؤلاء لبعض رفاقه القدامى، خاصة بورشور رفيق صباه وصديقه القديم الذي وقف إلى جانبه وهو في أسوأ الظروف، فقد كان تيموجين حليفا بكل أصدقائه ورفاقه القدامى ومن اتحازوا إليه وقت الشدة وكانوا أوفياء له^(٢٧)، وفي سبيل تأكيد زعامته بدأ تيموجين في التغلب على منافسيه،

(25) Morgan : Op .cit, p. 61

(٢٦) ماركوك لام : المرجع السابق ص ٦١
(٢٧) العربي : القبول ص ٤٩

فهاجم قبيلة التايجوت^(٢٩) أعداءه القدامى سنة ١١٨٨م الذين خشوا أن تزداد قوة تيموجين والذين ندعوا على أنهم أعطوه فرصة الهرب حين وقع تحت أيديهم من قبل^(٣٠)، وعلى الرغم من أن جموع التايجوت كانوا أكثر من ضعف جموع تيموجين : إلا أنه نجح في إلحاق هزيمة قاسية بهم ، وبلغ من شدته وقسوته أنه كان يلقي بالأسرى منهم في أحواض ملهنة بمياه شديدة الحرارة ، فأثقى بذلك الرعب في قلوب أعدائه ، و أثار الخوف في نفوس الخصوم ، ولما بين الناس جميعا ما انصف به هذا القائد من قسوة وغلظة^(٣١) .

غير أنه برغم ذلك كان لا يزال من الناحية التشكيلية تابعاً من أتباع طغرل ملك الكرايت ، الذي أشرنا من قبل إلى أنه كان يعامله كما يعامل الابن أباه ، ولهذا فأدت هذه التبعية تيموجين كثيراً لأنه بفضل تعاون طغرل معه استطاع أن يلقها كثير من القبائل المغولية والتركية الخارجة على طاعتها^(٣٢) ، وشغلت هذه الحروب السنوات الخمس الأخيرة من القرن الثاني عشر للهلاوي ومطلع القرن الثالث عشر للهلاوي ، فأنصاعت كثير من القبائل لهما خاصة قبيلة التايغان التي أغار عليها تيموجين سنة ١٢٠٤م وألحق بها هزيمة قاسية هتد جبال التتار وقتل زعيمها واستول على ممتلكاتها^(٣٣) ، بعد حدوث خلاف بين زعمائها أضعفها و أوردوا هذا السورد وأدخلها في نطاق التبعية للزعيم الجديد^(٣٤) .

(٢٨) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٤٢.

(29) Morgan; Op. cit. pp. 38 - 9.

(30) D'Ohasen : Histoire des Mongols, Tom 3, p. 372.

(٣١) العربي : القول ص ٤٠.

(٣٢) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٣٩ - ٣٤.

(33) Morgan; Op. cit. p. 56.

ويذكر المؤرخون أن ما وقع في منغوليا من أحداث في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، أسهمت في متعة سياسة أسرة كين في الصين الشمالية بالإضافة إلى عوامل أخرى جرت في منغوليا، إذ درجت الحكومة في الصين الشمالية على سياسة الإيقاع بين قبائل منغوليا وزعمائها فنجحت هذه السياسة في دفع قبائل التتار للنحور بكثير من أمراء الملوك والإيقاع بهم : حتى فقد كثير من هؤلاء الأمراء حياتهم بسبب ذلك فأضحى للتتار من القوة ما أعجز الصينيين عن مناعتهم^(٣٤).

ويبدو أن حكومة الصين الشمالية حرصت في تلك الفترة أي في النصف الثاني للقرن الثاني عشر الميلادي على تكوين حلف يدعم سياستها في منغوليا ويضمن لها النفوذ فيها^(٣٥) فاتخذت من الكرايت والملوك حلفاء لها فنجحت سنة ١١٩٤م في الانتصار على القبائل المناهضة وذلك أنعمت بالقباب التشريف على ملك الكرايت وعلى زعيم اللقو تيموجين الذي صار يحمل اسم جنكيزخان ، وأرست دعائم سياستها في منغوليا معتمدة على أقطاب هذا الحلف العسكري^(٣٦) الذي قد يمثل القبائل المعوزة أو يمثل الأرستقراطية التركية المغولية .

ولهذا جاء رد الفعل لدى القبائل الخارجة على هذا الحلف سريعا وحاسما فسرعان ما تحالفت قبائل التايهوت والمركيت وجاجيررات والقفقرات والتتار ، واتفق زعماءها على مناهضة حلف ملوك تيموجين والكرايت ، واختاروا جاموكا -ملك جاجيررات- وعدو تيموجين

(٣٤) بالعربي: المرجع السابق ص ٥٠

(٣٥) بيلولد لام : جنكز خان وجبائل الملوك ص ٥٨

(٣٦) باللاتني : الدول الإسلامية ص ٦٢

زعميا وإمبراطور سنة ١٤٠١ م^(٣٧).

وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بجايونكا وحلفه سنة ١٢٠٦/١٢٠٧م، إلا أنه نجح في إغراء بعض قادة حلف تيموجين بالانصراف عنه والتخلي عن حلفه الأمر الذي اضطر معه تيموجين للتحسن بالتقرب من إحدى البحيرات مع فئة قليلة من السواليين له، حيث نجح في خداع أعدائه بقتل ما كان له من دهاء ومكر^(٣٨)، وما لبث أن بالغت أعداءه بهجوم مفاجئ سنة ١٢٠٣ م. فأتزل بهم هزيمة ساحقة، ولم ينج زعمائهم من الموت إلا القليل، وإن لم يحل ذلك بينهم وبين مصيرهم المخبوم، فقد لقي هؤلاء الزعماء حتفهم بعد هذه الأحداث بقليل، وأثبتت تيموجين أنه فعلا قائد مخلص ودهية من دهاء القوي في تلك الفترة، فضلا عما اتصف به من قسوة وعنف^(٣٩).

وترتب على هذا الانتصار نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لتيموجين، وقد بداية مرحلة جديدة في حياة هذا الزعيم القوي الكبير، فقد منحته هذا الانتصار فرصة للتخلص من التبعية لتغول ملك الكرايت، بعد أن بنى هذا بالهزيمة وثبت أنه لم يكن على المستوى الذي يضمن له الاستمرار في الزعامة، فتحول الكرايت أنفسهم إلى طاعة تيموجين وخضعوا له^(٤٠)، بل انضوت تحت لوائه جميع القبائل التي كانت تقطن الجانب الشرقي من منغوليا، وبدأت زعامته على معظم القبائل

(37) Morgan: Op. cit. p.59 □

(38) هارولد لام: المرجع السابق ص ٦٠-٦٢
العربي: القوي ص ٥٩

(39) Dôhsson: Op. cit. tom.3 p.372

(٤٠) عبد السلام قومي: تاريخ الدولة المغولية ص ٣٩

تصبح حقيقة واقعة في ذلك الوقت أي في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر الميلادي^(١٢)

لم يلبث تيموجين أن صلب بعد ذلك تطلعات القبائل التي مضت في عدائها له وكونت حلفاً جديداً ، كان أبرز زعمائه ملك التايغان وجاموكا -ملك جاجيرات وغيرهم من الزعماء ، وضم بعض القبائل مثل المركيت والايورات والقتار وغيرهم ، إلا أن تيموجين نجح في ، إزوال هزيمة جديدة بهم في العام التالي (١٢٠٤م)^(١٣) وقتل بعض كبارهم مثل زعيم التايغان ، فاضطرت قبيلته للخضوع لتيموجين ، وكانت خسائر القبائل الأخرى أشد وأدفع خاصة التتار الذين جرى تدميرهم تدميراً يكاد يكون تاماً في الوقت الذي استسلم فيه جاموكا -ملك الجاجيرات- للأسر ، ثم لقى مصيره المتوقع إذ أمر تيموجين بقتله وتقطيع أطرافه وأعضاء جمده^(١٤) ، ليكون عبرة لمن يتجرأ فيخرج عن طاعة هذا الزعيم القاسي ، واستفاد تيموجين من هذا الانتصار فأدخل بعض السامانيين لدى ملوك القبائل المهزومة في خدمته ، ومنهم كاتب الملك التايغان الذي أسره تيموجين أن يعلم أبنائه هو شخصياً الأبجدية الأويغورية وكذلك تعلم أبناء الطبقة الراقية في المجتمع الفول تلك الأبجدية لهذا الملوك مرحلة جديدة في حياتهم^(١٥) .

(١٢) Morgan : Op.cit.pp.60-61

(١٣) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص٣٢-٣٣

(١٤) يذكر بعض المؤرخين أن تيموجين أمر أن تحمد ألقابه تحت شجرة أفضلة ثقيلة .

انظر خارولد لام : جنكيزخان ص٦٠

(١٥) العريضي : الفول ص٥٢-٥٣

وتتمثل سنة ١٢٠٦م بداية مرحلة هامة في تاريخ تيموجين السياسي، بعد أن أكمل فتح الجانب الغربي من منغوليا، وبعد أن هزم قبيلة التايغان التي كانت تدين بالمسيحية والتي اعتبرت من القبائل القوية^(١٤). فقد منح هذا النصر قوة وعظمة جعلته يباشر بمقعد مجلس النبل، حيث هدف به الحاضرون جنكيزخان أي الطائر الأعظم على سائر الأقاليم المغولية التركية. ويبدو أن توحيد منغوليا هو الذي أعطى لجنكيز خان البداية الحقيقية في زعامة تلك القبائل بعد سنة ١٢٠٦م، فبدأ بمقعد أول مجلس للنبل، بعد هذه الأحداث^(١٥) وفي هذه المناسبة اتخذ جنكيزخان رداء الخاتمة ووضع نظم الإمبراطورية لأول مرة ورفع فوق معسكره دلائل الزعامة والقوة والعظمة بعد أن قام بتوزيع الوظائف المدنية والعسكرية على أتباعه وأحاط نفسه بمجموعة من الأصدقاء المخلصين ووضع فيهم كل ثقة وكان يركن إليهم في كل الأمور^(١٦).

ويذكر المؤرخون أن جنكيز خان أبدى اهتماما كبيرا بقوة الحرس التي بلغت في عهده نحو عشرة آلاف رجل، فاختذت صورتها النهائية في هذه المرحلة أي في سنة ١٢٠٦م، وبحددت بدقة واجبات هؤلاء الحراس، فضلا عما عرفوا به من الثقل والحذر الشديد وشدة لباس: وعهدوا اليهم بحفظ النظام في معسكر الخاقان، ويميز جنود هذا الحرس في رتبهم^(١٧) من بقية جنود الجيش القوي، إذ كان جندي الحرس يقف في رتبته قائد ألف رجل في الفرق الأخرى، ولهذا شدوا طبقة مميزة في الجيش، بل ألقوا طبقة أرستقراطية ممتازة، وعهد إلى كتيبة من

(١٤) عبد السلام طهسي - المرجع السابق ص ٣٢-٣٣

(١٥) هارولد لام: نفس المرجع ص ٦٤-٦٩

(١٦) المرفي: القول ص ٥٤

(١٧) هارولد لام: المرجع السابق ص ٦٩

هؤلاء الحراس قوامها ألف رجل من الرجال الشجعان خدمة الخان وملازمته ،حتى أنهم كانوا لا يخرجون للحرب إلا في معية الخان ،أى أن هذه الفرقة هي فرقة الحرس الخصوصيين للخان^(٩٩).

وبدأت تنتشر معالم الفئات المميزة في هذا المجتمع الفول ،فلمس رأس هذه الفئات المميزة طبقة الأمراء من أسرة جنكيز خان الذين احتلوا الكاتبة الأولى في ذلك المجتمع ،يلسهم طبقة أشرف الجند أو الطرخانات^(١٠٠) ،الذين مثلوا الطبقة المميزة الثانية في ذلك المجتمع ،والذين جرى إعلاؤهم من بلغ الخراشب،وكان لهم ما يحصلون عليه من الغنائم في الحروب ووضح أن هذه الفئات المميزة كانت الدعامة الأولى للخان في ذلك المجتمع والفئات التي يعتمد على تأييدها ومساندتها في كل الظروف^(١٠١).

بينما تألف جيش الفول من وحدات محددة قوامها :المشورات والمئات والألوف ولكل وحدة مشرف أو قائد تسهيلا وتنظيما لسريان الأوامر وتسيطا للإجراءات الحربية واشتهر الجيش الفول بالقوة وسرعة التعمية والتحرك ،وما أظهره جنود هذا الجيش من القسوة وشدة البأس ،ملا قلوب معاصريهم رهبا وخوفا^(١٠٢) ، وجعل أعداءهم في وجل وخوف دائما ،خاصة وقد عرف عنهم المبادرة بالهجوم قبل أن يتهيأ الأعداء

(٩٩) العربي : الفول ص٥٩

(١٠٠) هاروك لام :الرجع السابق ص٦٩

(١٠١) العربي :نفسه ص٦٥

للدفاع ، وقبل أن يصل التحذير أو الإنذار^(٥٣) ، فضلا عما لجأ إليه
 المفوك من استخدام الجواسيس والمغلاة ومشيري الفتن والمؤامرات في
 جبهات الأعداء ، وما اشتهر به من طرق في استخلاص الأخبار
 والمعلومات التي تفيد الجيوش من كل من يستطيعون الإفادة منه ،
 لاسيما التجار وعابري السبيل ومن لهم صلة بالأعداء^(٥٤) فضلا عن
 الإفادة من الذين خضعوا لهم في نقل أدوات الحصار وعدد الجيش
 وإتقائه ، وكانوا دائما معرضون على أعدائهم أما الاستسلام والإنهتان أو
 التعرض للقتل والنهب والتدمير ، وضمن لهم ذلك في كثير من الأحيان
 توفير الجهد والتفكير من الخسائر والإمعان في القهر والإذلال ، بعد أن
 حرم سكان البلاد الخاضعة لهم على اللقائي في تقديم الخدمة لهم^(٥٥) .
 وعلى الرغم من ذلك لم تكن غزوات المفوك كلها مغامرات أو
 اندفاعات ، وإنما كانت مشروعات محسوبة ، وفيها كثير من التمثل
 والاعتزان ، فإذا شعروا بخطر يهددهم توفقوا عن الحرب ، وإذا لم يكن
 النجاح مضمونا بنسبة تكاد تكون كاملة عرّفوا عن الخس في القتال ،
 وانهوا المشروع وعادوا من حيث أتوا^(٥٦) ، ولم يكن ذلك دائما على الجبن
 أو الضعف أو إثارة العافية ، لأن شجاعتهم وإقدامهم لم تكن لها حدود ،
 وبأسهم وعنفهم لم تكن تحددها حدود^(٥٧) ، فلم يسمع الماصرون أن
 أحدا منهم وقع في أسر الأعداء أو استسلم أثناء القتال لأنه إما أن

(٥٣) Morgan : Op. cit. p. 59

(٥٤) الميريتي : المفوك ص٩٠

(٥٥) ق. باق : جنكيزخان سلاح الشعوب ص٩٦

هارولد لام : الترجيع السابق ص ١٥١

(٥٦) الميريتي : المفوك ص٩٠

(٥٧) D'Othasson : Op. cit. Tom.3. pp. 372 - 4

ينتصر أو يلتق حقيقه صرعا في المعركة ، أى أنه لم يكن هناك أمر وسط إما النصر أو الموت^(٥٩).

ولم يكن ذلك كله هو سبب انتصارات الفول أو التتار ، وإنما أهم من ذلك هو تجاح جنكيز خان في تعبئة النفوس قبل تعبئة الجيوش ، وإقناع شعيه بما كان يراه قبل أن يطلب منهم الغزو والغنم والغنى في الاندفاع^(٦٠) ، فلم يبن جنكيز خان مشروعاته على أنها مشروعات يقصد بها فقط خير شعيه وأشباههم بعد فقر وكسوتهم بعد هوى ، بل ركز هذا الخائن على أن ما يقوم به إنما كان لضمان الأمن لهم وإقرار النظام وتكوين المجتمع ، وإعادته إلى جادة الصواب ، خاصة وقد اهتم بإصدار الياسا بعد تعديلها لتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وعلاقة المحكومين بعضهم باليمن وتكوين التواشى الاجتماعية للفول^(٦١).

قد حدث قبل زمان جنكيز خان أن خرج الالين عن طوع أمية ، ولم يستجيب الصغير لتصح الكبير ، ولم تكن الرعية تستجيب لأمال الحاكم ومطالب الحكام ، بل أن هؤلاء الحكام لم يلتزموا من جانبهم بالواجبات تجاه رعاياهم^(٦٢) ، أما في زمانه فإنه يجب أن يعود الأمن ويقر النظام ويجرى تصحيح المسار ، ولهذا حقق جنكيز خان بجيوشه ما فشل في تحقيقه كثيرون ، وعلو بجيوشه شعيه ملحمة فريدة في تاريخ هذه الأقاليم^(٦٣).

(٥٩) العريشى : المرجع السابق ص ٥٧ □ Morgan : Op. cit. p. 61 (59)

(٦٠) عبد السلام فهمي : تاريخ الدولة المغولية ص ٣٥

حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والفول ص ٦١ □ Howarth : Op. cit. v. iv , p. 79

(٦١) العريشى : الفول ص ٨٨ □ D'Ohsson : Op. cit. Tom.2, p. 288 (62)

جرى كل ذلك وبذلة المفلول أو القطار لم تأخذ بعد بأسباب الحفاضة ولم تول هذه ما هي جديرة بها من اهتمام ، على الرغم من أنها ورثت إمبراطورية الصين العظيمة ودخلت عاصمتها بكين ، وتزوج جنكيز خان نفسه أميرة صينية من أسرة كين ، ولم يمنع جنكيز خان الثقافة الصينية فرصة التأثير ، إلا بعد زمن طويل من حكمه^(٦٦)، ولم يستخدم المفلول الأجددية الصينية إلا بعد سنوات طويلة من غزوهم للصين ، وظلوا يستخدمون اللغة الأيغورية فترة طويلة ، وحسروا بها الوثائق وبنوا المكاتب ، ولم يكن جنكيز خان نفسه بصرف سوى لغة قومه وإن سمح لبعض شباب المفلول بالإلمام بلغات وثقافات الشعوب القسورة ، وأدخل في خدمته بعض الرجال المثقفين من الشعوب المغلوبة^(٦٧)، وعهد إليهم ببعض المهام كإدارة مدينة بكين ، وتعليم أبنائه و أبناء الطبقة الرقيقة^(٦٨) .

والمعروف أنه كان للمفلول قبل جنكيز خان مجموعة من الآداب والتقاليد تمارفوا عليها وكانت نتاج أعرف توارثها المفلول جهلا بعد جهل ، فلما انتخب جنكيز خان إمبراطوراً أعاد النظر في هذه الآداب والتقاليد ، فعدلها بالحدف والإضافة^(٦٩) ، وأعطها الصفة الرسمية ، وأمر بتدوين تلك الأحكام والاحتفاظ بها في خزائن الأمراء ، وهو ما عرف بالياسا ، التي أصدرها هذا الخان سنة ١٢٠٦م^(٧٠)، ووضع جنكيز خان في هذه الياسا خلاصة

(63) Morgan: Op. cit. pp. 108 - 109

(٦٦) هارولد لام : المرجع السابق ص ٨٧

(٦٧) العربي : المفلول ص ٨٨

(٦٨) أحمد شافى : موسوعة التاريخ الإسلامي والحفاضة الإسلامية ج ٧ ص ٧٣٨

(٦٩) الياسا لغة مغولية تعنى الحكم أو القاعدة أو القانون وتوسيت بالخط الأيغوري.

انظر : العربي : المفلول ص ٨٩ - ٩٠

تجاريه وحصيله ما صر به من أحداث ، فحرص على أن يجمع من خلالها كلمة القائل ويكبح جماح أفرادها ويخضعهم لأحكامه^(٦٨) ، فكان لابد وأن تتضمن هذه الياسا عقوبات بالغة القسوة لإعادة الأمن إلى نصابه وتقويم المجتمع المفلوي . كما عنى هذا القانون بتحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم وعلاقة المحكومين ببعضهم ببعض وعلاقة الفرد بالمجتمع^(٦٩) .

بل إن الياسا نظمت العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة تقوية للكتان الاجتماعي القائم على الأسرة^(٧٠) . كما عالجت أمر الزواج ووضعت قواعد لذلك تتناسب مع طبيعة هذا المجتمع^(٧١) . فقد جعلت الزواج رهناً بموافقة المرأة وأحلت الجمع بين الأخنتين^(٧٢) ، وأحلت كذلك زواج الابن من زوجات أبيه بعد وفاته باستثناء أمه^(٧٣) . فهدت الياسا وقد دعمت الروابط الاجتماعية بين المنول ودهتهم إلى الالتزام بالأخلاق ليقوى المجتمع ويأمن شرور الأعداء^(٧٤) . وحظرت تصوص الياسا على أي فرد من المنول أن يشبع وعيره جوعان ، بل عليه أن يقتسم معهم الطعام ، فمن أكل ولم يطعم من عنده جناز قتلته ، بل عليه أن يسلم الطعام بيده إلى الآخرين ولا يرميه لهم^(٧٥) . ومن يكذب يتعرض للموت ، ومن يمارس السحر كذلك لما يمكن أن يلحق الناس بسبب ذلك

(٦٨) رالف لنتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٧٨

(٦٩) العربي : المنول ص ٦٠

(٧٠) رالف لنتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٧٤

(٧١) ابن خلدون : فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠٦

(٧٢) عبد السلام هادي : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٠٤

(٧٣) حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمنول ص ٢١٩

(٧٤) عزاد الصياد : المنول في التاريخ ص ٣٥٦

(٧٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١١٩

من أضرار ، وكذلك من يتجسس على الآخرين لمعرفة هوياتهم ومن يسرق يعدم أيضا في أغلب الأحيان وكذلك من يلوث المياه يعاقب بالوت^(٣٦).

وهكذا جاء الانتخاب تيموجين إمبراطورا على الأقوام التركية المغولية ، واتخاذ اسم جنكيز خان إحياء للإمبراطورية التركية القديمة أي إمبراطورية الإيغور في القرن التاسع الميلادي ، واتخذ جنكيز خان عاصمته في قراقورم ، ثم بدأ يغير على البلاد المجاورة في منغوليا بغرض السلب والنهب^(٣٧) لما ما وجهه من حملات جهة الغرب فكان يطارد فيها الأعداء الهاربين إلى تلك الجهات ، ثم لم يلبث أن أصبحت حملات بغرض التوسع والضم ، فقد قضى جنكيز خان أكثر من عشرين سنة يحاول فيها توسيع نطاق حكمه ، وشم ما يمكن ضمه من المناطق المجاورة حتى وفاته سنة ١٢٢٧م^(٣٨).

ويذكر المؤرخون أنه في السنوات الأولى بعد التتادة به إمبراطورا نشط جنكيز خان للقيام بحملات بهدف من ورائها إخضاع القبائل المتمردة وإدخال البعض الآخر تحت رايته لمحارب التانجوت وأحرز انتصارات باهرة على الموكيت والتانيمان وبادر ملك الإيغور بالاعتراف بسيادته سنة ١٢٠٩م ، وحذا حذوه ملك القارلق بعد ذلك بعامين ونهج نهجهما أمير المالتق ، وقد دبت كذلك قبائل القرغيز التركية خضوعها لجنكيز خان . كل ذلك قبل أن يشرع في غزو الصين ، وهكذا انضوت

(٣٦) براون : تاريخ الأدب في إيران ص: ٥٦١.

Howarth ; Hist. Of the Mangols , IV, p 79

(77) Morgan; The Mongols , p.63

(٧٨) هارولد لام : للرجع السابق . ص: ٨٤

القبائل القويّة والتركبة في صحراء جوبي تحت رايته باعتباره الخان الجديد^(٧٩).

وانقسمت الصين إلى قسمين : الصين الشماليّة ، وكانت تحكمها حينئذ أسرة كين ، والصين الجنوبيّة وكانت تحكمها أسرة سونج . وكانت الصين هدفاً لحملات جنكيزخان خاصة الصين الشماليّة التي كان لها السيادة على التتار وغيرهم من القبائل ، ونجح جنكيزخان في إنزال هزيمة ساحقة بجيش أسرة كين^(٨٠) . فخضعت له البلاد الواقعة داخل سور الصين العظيم سنة ١٢١١ م .

ثم حشد جنكيزخان ثلاثة جيوش كبيرة سنة ١٢١٣م شوى هو قيادة أحدها ، وتولى قيادة الجيش الثاني بعض أبنائه بينما قاد الجيش الثالث بعض أخوته ، فاجتاحت هذه الجيوش الثلاثة جارتها هابا من الصين الشماليّة . ولم تتوقف إلا في ربيع العام التالي بعد أن وصلت إلى مرتفعات شانتونج^(٨١) ، حيث قرر جنكيزخان أن يرسل إلى إمبراطور الصين الشماليّة من أسرة كين رسالة يعلمه فيها أن كل ما يقع شمال النهر الأصفر من بلاد إنما يعتبر من أملاكه باستثناء بكين ، وأنه على استعداد للتوقف عن القتال بشرط أن يقدم الهبات ويذل السفاحات لرجاله ليخلدوا إلى الهدوء ويركنوا للسلام^(٨٢).

لم يكن أمام إمبراطور كين إلا أن يقبل هذه الشروط لإقرار السلام ، فقدم لجنكيزخان ابنة الإمبراطور الصيني السابق وأميرة أخرى

(٧٩) الساعاتي : الدول الإسلامية ص٢٧

(٨٠) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص٣٧

(٨١) العريبي : التتار ص٦٩

من البيت المالك الجديد ، فضلا عن خمسمائة من الجوارى والغلمان ، وثلاثة آلاف فرس. وعلى الرغم من ذلك نشبت الحرب بين الجانبين بعد شهر قليلة ونجح الصينيون في استرداد جانب كبير من أملاكهم بعد عودة جنكيز خان إلى منغوليا سنة ١٢١٦م، واستمرت أسيرة كثيرين تحكم جانباً كبيراً من أملاكها حتى وفاة جنكيز خان ، ولم تفقد هذا الجانب من أملاكها إلا في عهد خليفة جنكيز خان^(٨٣).

وخصص جنكيز خان حملات لإخضاع القبائل والممالك في الغرب في السنوات السابقة على سنة ١٢١٦م، والسنوات التالية لسنة ١٢١٦ م نظراً لانشغاله بالحروب في الصين فيما بين سنتي ١٢١١ : ١٢١٦م. فقد أخضع كثيراً من القبائل والممالك في تلك الجهات في غرب منغوليا في إقليم ما وراء النهر وغربها من الجهات لتمتد إمبراطوريته استناداً عظيماً حتى وفاته في سنة ١٢٢٧م^(٨٤).

(٨٣) خارولد آم : المرجع السابق ص ٧٩-٨٠.
(٨٤) العريضي : التلويح ص ٦٦-٦٨.

الفصل التاسع

توسعات انتشار في عهد جنكيزخان في آسيا وشرق أوروبا

- دولة الخطا (القرة خطائيين) ومجال نفوذها .
- إقليم خوارزم في ظل نفوذ دولة الخطا .
- خوارزمشاه تكتش .
- خوارزمشاه علاء الدين محمد وظهور الإمبراطورية الخوارزمية .
- علاقة خوارزمشاه علاء الدين محمد بكوجيك زعيم التايغان .
- كوجيك يقبض على دولة الخطا ويصبح جباراً للخوارزمشاه .
- جنكيزخان يقبض على قوة كوجيك ليصبح المغول مجاورين للخوارزمشاه .
- العلاقات بين جنكيزخان والخوارزمشاه محمد .
- بداية النزاع بين التايغان سنة ٦٢٦٩ م / ٦١٦ هـ .
- جنكيزخان يعلن الحرب على الدولة الخوارزمية :
- استيلاء المغول على بلاد ما وراء النهر : أوتتر - بخارى - سمرقند - جند - قرمز .
- استيلاء المغول على إقليم خوارزم : بلخ - خوقند - جرجانية .
- استيلاء المغول على خراسان : بلخ - مرو - نيسابور - هرات - هزنة .
- غزوات المغول في الأقاليم المجاورة حتى بلاد الروس وفي شرق أوروبا .
- عودة جنكيزخان إلى بلاده سنة ١٢٢٥ م
- وفاة جنكيزخان سنة ١٢٢٧ م

شهدت آسيا الوسطى تغيرات هامة وظهور قوى مهيمنة جديدة في القرن الثاني عشر الميلادي، وبالتحديد ابتداءً من بداية الربع الثاني لذلك القرن بقيام دولة الخطا (القرة خاناتين) في كاشغر وسمرقند وبخارى وإقليم ما وراء النهر وكذلك إقليم خوارزم، بعد أن أدركت الصفه التركية معظم هذه المناطق وحوض نهر سيحون وصقلت بالصفه التركية، ففرضت هذه القوى الجديدة سلطانها على ما حولها من الحكام وأرغمتهم على دفع الإتاوات^(١).

وكانت خوارزم قد خضعت لسلطان السلاجقة في إيران، الذين امتد حكمهم لهذا الإقليم حتى وفاة السلطان سنجر سنة ١١٥٧ م، وكان قد أناب منه في حكمها اتسز الذي اضطر لدفع جزية سنوية للقوة القريبة المهيمنة قوة الخطا (القرة خاناتين)، وقدرها ثلاثين ألف دينار من الذهب حتى يأمن شرهم، ويتقي بأسهم بعد أن هزموا السلطان سنجر هزيمة ساحقة، وأخضعوا أجزاء واسعة من آسيا الوسطى^(٢).

وعلى الرغم من أن الخطا قد ألحقوا إقليم ما وراء النهر حتى خوارزم، إلا أن الأمور لم تتغير كثيراً في تلك الأقاليم، ولم يكن لذلك سوى تأثير ضئيل في أجزاء من هذه المنطقة، فقد ظل الأسراء المحليون يحكمون أقاليمهم باعتبارهم أتباعاً للخطا، في الوقت الذي شكلت فيه هذه الأقاليم الجانب الأكبر من إمبراطورية الخطا، واحتفظ المسلمون في إقليم ما وراء النهر بمناصبهم ومراكزهم في ظل التبعية للخطا، وإن أدى

(١) Morgan : op. cit. pp. 48 - 49

(٢) كانت خوارزم قد خضعت قبل ذلك للتتاريين، منذ سنة ١٠١٧ م فحين السلطان محمود الغزنوي التوتاش حاكماً عليها، ظل يحكم هو وأسرته حتى سنة ١٠٤١ م. انظر العربي : تلوك ص ٨٠

ذلك إلى تحجيم دورهم كثيراً، خاصة فيما يختص بمناهضة الديانات والمذاهب الأخرى في تلك المناطق.^(٣)

وفي أعقاب توسعات الخطا في آسيا الوسطى، تدفقت جموع من الغز التركمان صوب الجنوب إلى المناطق الخاضعة للسلاجقة وسلطانهم سنجر، وكانت أعداد كبيرة منهم لازالت على وثنيتها، فاصطدموا بالسلاجقة ونشب القتال بينهم وبين سنجر، فأُسروا هذا السلطان لفترة، ثم أفلت منهم قبل وفاته بعام واحد (١١٥٦م)، بعد أن خربوا جهات كثيرة وأزالوا فرع الأسرة السلجوقية في كرمان وعاثوا الفساد في معظم أنحاء سلطنة السلاجقة^(٤).

إلا أن الظروف خدمت خوارزم كثيراً فلم تتعرض لهذه الفتن لوقوعها في واحة خصبة يحميها شريط من الصحراء من ناحية، ولتحررها من التبعية للسلطان سنجر بعد أن تداعت سلطته من ناحية أخرى، وأكمل استقلالها ما حدث من تفكك دولة الخطا بسبب ما تعرضت له من ضغط الشعوب والفائل القادمة من سهوب آسيا، الأمر الذي حتم على الخوارزمية الاهتمام بتدعيم قوتهم العسكرية، وتوجيه حصيلة النشاط التجاري لخوارزم لزيادة قوة الجيش ودعم كيانهم العسكري تحسباً للظروف^(٥).

انتهز حكام خوارزم المسلمين هذه الفرصة لتكوين جيش من الأتراك المقيمين في الجهات المجاورة خاصة في الشمال الغربي، بعد

(3) Morgan : op. cit. p. 49

(٤) العربي : المرجع السابق ص ٨١ - ٨٢

(5) Morgan : op. cit. p. 49

إدخالهم في الإسلام، وإن لم تنجح لهم فرصة شرائهم صفار المن لتنتسبهم
لنشئة إسلامية صادقة، ومنحهم قدرًا من التربية والثقافة الإسلامية،
وربما لهذا اشتهر هؤلاء الخواريذية بعد تعيينهم في جيش خوارزم
بالقسوة والعنف في حروبهم خارج خوارزم، حتى مع المسلمين في البلاد
الأخرى^(٧).

حكم خوارزم فيما بين سنتي ١١٧٢ و ١١٩٩ م / ٥٦٨ - ٥٩٦ هـ
خوارزمشاه تكتش فبدأ هذا الخوارزمشاه جهوداً صادقة في تقوية دولته:
وتوسيع رقعتها، رغم ما واجهه من مصاعب، وما كان يفتشده من
عقبات، خاصة من القوى المحيطة والأعداء المترصين به، خاصة دولة
الخطا (القرة خاناتين) التي أجبرته على دفع الإتاوة والإقرار بالتبعية،
لكن الظروف خدمته بزيادة تفكك قوة السلاجقة^(٨) في إيران الأمر الذي
مكن تكتش من الاستيلاء على الري وهمدان، قلما حاول آخر سلاطين
السلاجقة (طغرل الثالث) استعادة سلطته على حساب الخليفة العباسي،
استنجد الخليفة بتكتش، ثم ما لبث طغرل الثالث هذا أن لقى مصرعه
سنة ١١٩٤ م، فقتل تكتش إلى أن برز السلاجقة، خاصة بعد أن احتل
طراسان سنة ١١٩٠ م، وزادت قوته واتسع نفوذه^(٩)، فطلب من
الخليفة العباسي أن يعترف به سلطاناً في بغداد، وأن تجري له الخطبة
فيها، وأن يتنازل له الخليفة الناصر لدين الله عن السلطة الزمنية، ظلما
حدث زمن البيهقيين والسلاجقة، ولكن الخليفة لم يستجب لذلك، بل

(٧) العيني : المتوك من ٨٢ - ٨٣

(٧) Morgan : op. cit. p. 52

(٨) عن الإمبراطورية الخواريذية انظر :
Barthold : Turkestan down to the Mongol invasion chapter 3.

عوك على مساعدة الإسماعيلية للتخلص من أعوان خوارزمشاه في العراق وفي جهات أخرى من أراض الخلافة: فقتل خوارزمشاه ببعض الدوائر وأعلن عزل الخليفة الناصر، وأسقط اسمه من الخطبة ومن التقويم^(١٠) وتصاعد العداء بين تكش هذا والخليفة العباسي، وأفسح تكش عدوا للخليفة وأتباعه المسلمين من أهل السنة، وكان في نيته الزحف إلى بغداد لولا أن توفي تكش فجأة سنة ١١٩٩م / ٥٩٦هـ. تاركاً الحكم لابنه من بعده، وتركته مثقلة بالمتاعب^(١١).

احتل عرش خوارزم سنة ١١٩٩م علاء الدين محمد خلقتاً لأبيه تكش، فسار على نهجه في محاولة توسيع رقعة بلاده، ودعم ثلوثها فيما حولها، حتى بلغت أقصى اتساع لها في عهده، رغم أنه ورث تركة مثقلة بالمتاعب، وواجه مشكلات كثيرة في الداخل وعداء من بعض القوى المحيطة في الخارج^(١٢)، إلا أن الظروف ساعدته بشداعي دولة الخطا نتيجة للضغط عليها من قبل للغول من الشرق والمسلمين من جهة الغرب، فاستطاع خوارزمشاه أن يفتزع منها إقليم ما وراء النهر بعد أن أنزل بالقرة خطائين هزيمة ساحقة^(١٣)، وأجبرهم على التخلي عن الإقليم، غير أن سياسته لم تلبث أن ساءت في ذلك الإقليم، فخرج عليه سكانه وكذلك أمير سمرقند، فاشتد خوارزمشاه في قمع هذه الفئة. واستول على سمرقند وأباحها لجنوده ثلاثة أيام، أعملوا فيها السلب والنهب والقتل، حتى دانت له سائر مدن ما وراء النهر بالمطاعة، فبعد بحكم كل مدينة فيها لحاكم من قبله من الخوارزمية^(١٤).

(٩) الميرني : الملوك ص ١١٦

(١٠) Morgan : op. cit. p. 52

(١١) عبد السلام فهمي : تاريخ الدولة التولوية ص ٤١

(١٢) النحوي : المعبر في طبر من قمر ج ٥ ص ١٥

(١٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٥

ويعلق المؤرخون على تلك الأحداث التي أسفرت عن ظهور الإمبراطورية الخوارزمية التي ضمت خوارزم وطراسان وبلاد ما وراء النهر وأقاليم أخرى والتي لم يرجع تاريخها إلى أبعد من سنة ١١٩٤م ، وما حققته من انتصارات أدت إلى امتداد ملكها تحت سلطان رجل يفكر إلى التجربة ، لأنه على الرغم مما انصف به علاء الدين محمد خوارزمشاه من الشجاعة والإقدام، فقد اشتهر أيضاً بالخفة والطيش والرعونة ، ولم يكن لدولته دعائم اجتماعية أو قانونية تستند إليها^(١١) ، وحتى الناحية العسكرية لم تستند هذه الإمبراطورية إلى عشيرة تركية واحدة بلما استند السلاجقة إلى عشيرة تركية واحدة اعتنقت الإسلام ، ولم تكن العلاقة وثيقة بين الذين يسكنون المدن وبين الترك الذين يتألف منهم الجيش ، وحتى الأسرة الخوارزمية ذاتها كانت تنتمي إلى بيت كان يعمل في خدمة السلاجقة ، وليس لها عشيرة قوية تستند ، وفشرت الاختلافات العسكرية في أقاليم هذه الإمبراطورية في إقليم ما وراء النهر وفي طراسان وأفغانستان وفي العراق العجمي^(١٢) .

وبامتداد ملك خوارزمشاه علاء الدين محمد إلى سمرقند وبلاد ما وراء النهر صار مجاوراً لأعدائه الخطأ (القرة خطبايين) ، إلا أن قوة هؤلاء كانت قد أصبحت بتصدع أودى بها في النهاية ، وأسهم أحد اللاجئين إليها وهو كوجيك زعيم طائفة النايما ، الذي فر إليها هرباً من بطش جنكيزخان ، وأضحى بها كلاجين هارب من المغول ، فأنسهم في

(١١) استندت دولة جنكيزخان مثلاً على دعامة قانونية هي «الساسا» . انظر Howorth : Hist. of the Mongols . 1V, p. 79

(١٢) العربي : المغول ص ١١٢

النهاية في القضاء عليها^(١٧)، بعد أن حتمه ومكنته من تأسيس قوة عسكرية من فلول طائفته الفارة من سيوف الفول، لكنه ما لبث أن هبت اللمبة على حريتها وتصفية أملاكها ووراثتها، وتذكر الروايات أن طريق هذا الصراع وهما ملك الخطا وزعيم التايغان قد أخذ يتوعدان لخوارزمشاه، والتمس كل منهما انضمامه إلى صفه، فقاد خوارزمشاه جيشه فعلاً، ووصل إلى مكان قريب من أرض المعركة بحيث يراء كلا الفريقين، وكل منهما يظن أن الجيوش الخوارزمية إنما جاءت لمؤازرته^(١٨)، ولكنه في حقيقة الأمر كان ينتظر رجحان كفة أحدهما على الآخر لينضم إلى المنتصر ويجهز على الخاسر، فلما دارت الدائرة على الخطا، وجري أسر ملكهم، انضم خوارزمشاه إلى كوجك زعيم التايغان وأعمل جيشه السيف في رقاب البقية من جنود الخطا المهزيمين والفارين من أرض المعركة، وأسفرت هذه الأحداث عن تصفية قوة من القوى الثلاثة ونفى كل من الخوارزمية ودولة التايغان بزعامة خاتهم كوجك^(١٩).

ترتب على تدمير قوة الخطا (الفرقة خطائين) نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للعالم الإسلامي كله والدولة الخوارزمية والشرق الإسلامي بصفة خاصة؛ ذلك أن أملاك كوجك خان أصبحت مجاورة لأملاك الدولة الخوارزمية بعد القضاء على دولة الخطا، ونظراً لأن كوجك هذا كان قد فر من وجه جنكيزخان، فقد أصبح خوارزمشاه في وضع خطير، ومواقف لا يحسد عليه لأن جنكيزخان بدأ يتجهه ببصره

(١٧) Morgan : op. cit. p. 60

(١٧) النعمان : المصدر السابق ج ٥ ص ١٦

(١٨) النعمان : المصدر السابق ج ٥ ص ١٦

نحو الأقاليم الغربية من آسيا، ويرصد دولة كوجلك هذه القديم، ويفكر في شن الحرب عليه، خاصة بعد أن أخضع هذا عدداً كبيراً من القبائل بعضها كان تابعاً للمغول، فكان لابد من أن ينشب القتال بينهما وتجرى معركة مصيرية^(١٩) سيكون لها أثر كبير على مستقبل الدولة الخوارزمية والشرق الإسلامي كله، ولابد وأن يجرى الدور على دولة خوارزمشاه.

وإذا كانت الأحداث قد تطورت فوسعت كوجلك في مواجهة جنكيزخان وقوة التتار، مع استقرار العداء والأحقاد بين الرجلين من ناحية، وفي نفس الوقت وضعت قوة كوجلك مجاورة للدولة الخوارزمية للسلطة، مع احتكاك المدام معها من ناحية ثانية، فإن سياسة كوجلك زعيم التايبان - الذي تحول من المسيحية إلى البوذية الوثنية^(٢٠) - تجاه المسلمين من رعاياه والسطهادهم ومحاولة إجهادهم على الارتداد عن دينهم واعتناق المسيحية أو الدخول في البوذية، فضلاً عن منعهم من أداء شعائهم والتكديك ببعض أئمتهم^(٢١) كانت سبباً في دخوله في صدام مع خوارزمشاه باعتباره حامياً الإسلام في تلك الجهات، غير أن تهديد المغول لكوجلك شغل هذا عن الالتفات إلى خوارزمشاه في الوقت الذي اكلت فيه خوارزمشاه بشن بعض الهجمات الخاطفة على الأراضي التابعة لكوجلك^(٢٢).

وقعلاً لم يكد كوجلك يقف على قوة الخطأ ويجلس على عرش هذه الدولة إلا ودهمه التتار قبل أن ينعم بانتصاره وقبل أن يجنى ثمار

(19) Morgan : op. cit. p. 67

(20) Ibid. p. 60

(٢١) العربي : المرجع السابق ص ١٠٩

عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٤٥

(22) Morgan : op. cit. p. 67

هذا الانتصار، فبعد أن فرغ جنكيزخان من حروبه في الصين أرسل جيوشه لمحاربة كوجك وإخضاره حياً أو ميتاً، وإخضاع القبائل التي أسهمت في إقامة دولته وإعادتها إلى حظيرة دولة التتار، ونجحت جيوش هؤلاء في إنهاء دولة كوجك وإجباره على القرار، ثم قبضوا عليه وقتلوه وبعثوا برأسه إلى جنكيزخان^(٢٢)، وأجهزوا على طائفة التايغان سنة ١٢١٨م / ٦١٥هـ، وتمكنت جيوش جنكيزخان من إخضاع كل القبائل التي خضعت من قبل لدولة الخطا، وأصبح جنكيزخان بذلك مجاوراً لأمالك الخوارزمية، فالتفتت الكارثة من هذه الدولة وهددت الشرق الإسلامي بأسره.

ويذكر المؤرخون أن الحروب بين المغول وخوارزمشاه لم تتأخر كثيراً، فبعد قضاء المغول على دولة كوجك زعمهم التايغان، وربما قبل ذلك بقليل أي سنة ١٢١٦م / ٦١٢هـ^(٢٣) حدثت اشتباكات حربية بين فرقة المغول يقودها أحد أبناء جنكيزخان^(٢٤) والسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه لم تسفر عن نتيجة محددة، على الرغم من أن جيش الخوارزمشاه كان يبلغ ثلاثة أضعاف هذه الفرقة التتارية، وعلى الرغم أيضاً من أن الخوارزمشاه هو الذي سعى إلى القتال وأصر على انتهاز الفرصة مع ميل المغول لتجنب ذلك، وعدم رغبتهم في القتال لأنهم لم يلقوا الأوامر بقتال الخوارزمية من جنكيزخان^(٢٥).

(٢٣) عبد السلام قهس : المرجع السابق ص ٤٦

(٢٤) العيني : المغول ص ١٠٩

(25) Barthold : op. cit. p. 369

(٢٦) هو جوشي (جوش) بن جنكيزخان - وكان يقود فرقة يبلغ عدد جنودها نحو عشرين ألف جندي انتقل النسيب - سمرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٤٦-٤٧

(٢٧) العيني : المرجع السابق ص ١١٠

فلما اضطهرهم الخوارزمية إلى الحرب وأمر الخوارزمشاه جنوده بالهجوم على الغول، أظهر هؤلاء شجاعة فائقة وجسارة نادرة، ولجأوا إلى استخدام أساليبهم الجديدة في الحرب وقدراتهم القتالية العالية^(٢٨)، الأمر الذي أنهش الخوارزمية وجعلهم في ذلوك تام، فلم يستطع الخوارزمية تحقيق أهدافهم ولم تكن تلك الحرب حرباً بالمعنى المعروف، وإنما كانت هجوماً لمود هؤلاء القطار واختياراً لقوتهم وما تمتعوا به من ميزات قتالية، الأمر الذي ترك أثراً سيقاً في نفوس الخوارزمشاه وجعله يتحاشى بعد ذلك مواجهتهم، وتفصيل القرار من أمامهم في أي مكان^(٢٩)، ويذكر المؤرخون المعاصرون أنه منذ ذلك اللقاء تمكن العرب من قلب الخوارزمشاه من هؤلاء الملوك وسيطر الخوف عليه لإيمانه بما اتصفوا به من البسالة والإقدام والخبرة بفنون القتال، بعد أن خبرهم من خلال هذا اللقاء^(٣٠).

وتذكر الروايات أيضاً أنه على الرغم مما كان يخشاه جنكيزخان من مداء للدولة الخوارزمية ورغبة في تصقيتها والاستيلاء على أملاكها، فإنه تظاهر في هذه الفترة التي أعقبت القضاء على كوجليك بالولادة تجاه خوارزمشاه، والرغبة في التعاقد معه لمصلحة التجارة والتجارة. ويبدو أن جنكيزخان كان يعتقد أن للتجارة مع الشعوب المستقرة أهمية بالغة باعتباره دولة من البدو، فحسباً عن أن حملاته في شمال الصين ترتب عليها الخراب والدمار، حتى أن الحبوب كانت ترد إلى منغوليا من الغرب يحملها تجار أغلبهم من المسلمين^(٣١)، لذلك تحمس جنكيزخان

(28) Morgan : op. cit, p. 68

(٢٩) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٤٧

(٣٠) النسوي : سير السطان جلال الدين منكبرتي ص ٤٨

(٣١) العريش : القول ص ١٦١

لتميز العلاقات التجارية وكذلك السياسية مع خوارزمشاه، فأرسل إليه رسائل تحمل هذا المعنى وتعمل في نفس الوقت التهديد والوعيد مستتراً، واستقبل في نفس الوقت رسل وسفراء خوارزمشاه، وبلغ في إكرامهم وحملهم هدايا قيمة ونفيسة للخوارزمشاه، ورسائل دارت حول الأمور التي أشرت إليها، وحملت في نفس الوقت ما كان يضمنه من تهديد ووعيد وإن كان مستتراً^(٣٢).

كما نحمد جنكيزخان أن يخبر خوارزمشاه أنه يعتبره كأحد أبنائه^(٣٣) "وأنت هندی مثل أعز أولادی" ومعروف عند أمراء الشرق الأقصى والأمراء المسلمين من أن الإيمن أو الولد تدل على العلاقة بين التابع والسيد^(٣٤)، وحرص جنكيزخان أيضاً أن يعلمه أنه فتح الصين وأخضع كافة القبائل والطوائف التركية هادفاً من ذلك تهديداً صريحاً للخوارزمشاه باعتباره تركياً، وأنه لو لم أفضل أو أقوى ممن دأبوا بالطاعة لجنكيزخان من الترك. وعلى الرغم من ذلك فقد ملك خوارزمشاه للاستجابة إلى طلب اللودة والوداعة وعقد المعاهدة التجارية بين الدولتين والتغاضي عما استتر من تهديد ووعيد واعتبار الهدايا وحسن استقبال السفراء والرسول من قبل جنكيزخان سبباً ومبرراً لهذه الاستجابة وعقد المعاهدة التجارية، فترتب على هذه المعاهدة أن نشط التجار من المسلمين والصينيين في تبادل التاجر وفي التعامل التجاري بين الدولتين^(٣٥).

(٣٢) التسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٨٣ - ٨٤
(33) Morgan : op. cit. p. 68

(٣٤) العريضي : الملوك ص ١٦٨
(35) Morgan : op. cit. p. 68 - 9

ولم يمض سوى وقت قصير على توقيع المعاهدة التجارية بين الدولتين، إلا وقام جنكيزخان بإخضاع القبائل التركية المنتشرة في أواسط آسيا، متزعمًا برغبته في تأمين الطرق التجارية والقرب يمد من حديد على أيدي التماس وقطاع الطرق، لينتقل التجار في أمن وسلام، وتأمين الطرق التجارية بل زود الطرق الرئيسية بحراس من الخوكم وأمرهم بأن يرافقوا كل تاجر أجنيى يحمل تجارة إلى مسكرات الخوكم^(٣٦٦)، ورد ذكر هؤلاء الحراس في بعض المصادر المعاصرة على أنهم جماعة يسموا "قراقجية" أي مستحلفين كما يذكر ابن العربي^(٣٦٧).

وكان لذلك رد فعل سن على السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، الذي اعتبر ذلك عدواناً على بلاده، وإظهاراً لروح عدائية ضده، لكنه مع ذلك حاول احتواء الأمر واستقر في التعامل مع دولة الخوكم ليتجنب نشوب الحرب معها، إلا أن جنكيزخان واصل أفعاله العدوانية ضد الخوارزمية فصادر تجارة بعض التجار، ثم ما لبث أن تراجع عن ذلك بل أمر هؤلاء التجار ذهباً وقضة وأعادهم على بلادهم معززين بكرمين مسحوبين بوقد مكون من نحو أربعمائة وخمسين رجلاً^(٣٦٨) مسلحين ويحملون في نفس الوقت متاجر مغولية حملت على طمسائة جعل كل منها يحمل سلماً تجارية من الذهب والفضة والمنسوجات الحريرية وفراء السمور وغيرها من التاجر الغالية الثمن^(٣٦٩).

(٣٦٦) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٥٠ .

D'ohsson : Histoire des Mongols, Tom 1, p. 204

(٣٦٧) ابن العربي : تاريخ مختصر الدول ص ٤٠٠ (تصحيح الأب أنطون صالحاني

البيروت - بيروت)

(٣٦٨) ذكر ابن العربي أنهم كانوا مائة وخمسين رجلاً . نفس المصدر ص ٤٠٠

(٣٦٩) العربي : الخوكم ص ١١٤

لبيعهما في الأسواق الخوارزمية ولشراء بعض السلع التي يحتاج إليها القول. وواضح أن هذا الوفد لم تكن له علاقة بالتجارة، بل كان وقفاً عسكرياً تخصص أفراد في التجسس والاستطلاع وجمع المعلومات، يرافقتهم مبعوث مغولي يحمل رسالة إلى الخوارزمشاه من جنكيزخان يقول فيها أنه أعاد التجار الخوارزمية سالمين غانمين، ويطلب أن يعود غلمانه إليه أيضاً سالمين - بعد أن يحصلوا على طرائف تلك الأطراف - ليناكد الوفاق بين الجانبين -^(٤١).

وصل هذا الوفد إلى أوتزار - على نهر سيحون - وهي مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربها ويحكمها أحد أقارب خوارزمشاه، وتحت إمرته نحو عشرين ألف فارس^(٤٢)، فأدرك هذا الحاكم منذ البداية هدف هؤلاء المتظاهرين بالمعمل في التجارة، وغرضهم الحقيقي هو التجسس والاستطلاع، فأرسل إلى خوارزمشاه وأعلمه بذلك، فأمر هذا بمصادرة ما معهم من متاجر وبيعها في بخارى وسمرقند^(٤٣)، كما أمر بقتلهم جميعاً، فنفذ حاكم أوتزار الأمر. ويذكر النسوي أن أفراد هذا الوفد انكشف أمرهم لأنهم كانوا إذا خلوا بواحد من العامة هددوه قائلين : " إنكم لفي غفلة مما ورائكم وسيأتيكم ما لا قبل لكم به -^(٤٤).

ويشير للورخون إلى أن محصلة مصادرة ما كان مع هذا الوفد من بضائع وسلع برت أرباحاً وافرة على الخوارزمية، لا سيما وأن هذا الوفد

(٤١) ابن الجوزي : تاريخ مختصر الدول ص ٤٠٠ - ٤٠١

(٤٢) السيويني : تاريخ المغلاء ص ٣١٦

النسوي : سيرة السلطان جلالت الدين منكبرتي ص ٨٥

عبد السلام قهس : الترجيع السابق ص ٥٧

(٤٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٦٦

(٤٤) النسوي : المصدر السابق ص ٨٦

تكون من نحو أربعمائة وخمسين رجلاً وربعاً خمسمائة رجل^(١٤١) ، وعلق المؤرخ التسوي الماصر لهذه الأحداث على ما فعله حاكم أوتترار بقتل أفراد هذا الوفد ومصادرة ما معه من بضائع ومناجر بأنه كان خطأ جسيماً^(١٤٢) ، إذ كان بإمكانه إعادتهم إلى جنكيزخان كما هم وبما معهم من مناجر ، بما يوضح أنه فهم الغرض من إرسالهم ، وحتى لا يمتطوا جنكيزخان ذريعة لإعلان الحرب على الدولة الخوارزمية ، لأنه على حد قول أحد المؤرخين ، كل قطرة أريقّت من دماء هؤلاء كلفت المسلمين سجلاً من الدماء ، وكل شجرة من رؤسهم كلفت المسلمين مائة ألف من الأرواح^(١٤٣) .

أراد جنكيزخان أن يتأكد ما إذا كان خوارزمشاه نفسه هو الذي أصدر الأمر بقتل التجار للمول أم أن حاكم أوتترار هو الذي قام بذلك من تلقاء نفسه فأرسل إلى السلطان يطلب تسليم حاكم أوتترار إذا لم يكن السلطان هو الذي أصدر الأمر بقتل المول ، فإذا تم تسليم حاكم أوتترار أمكن جنكيزخان احتواء المشكلة منعا لتفاقم الأسور - ولا فاذن بحرب ترخص فيها غوائل الأرواح -^(١٤٤) ، إلا أن خوارزمشاه أخطأ مرة ثانية ، فأمر بقتل هؤلاء الرسل أيضاً وذلك سنة ١٢١٨ م / ٦١٥ هـ ، أو قتل الرسول في رواية أخرى وأعاد التبن كانا معه بعد خلق لحامها إمعاناً في

(141) Barthold : op. cit. p. 398

(142) التسوي : نفس المصدر ص ٨٦
(143) الدمار بكري : تاريخ الخميس في أحوال أنفيس تليس ج ١٢ ص ٢٨٦
Vamby : Hist. of Bokhara , p. 116

ميد السلام قهقي : المرجع السابق ص ٩٢
الساداتي : المرجع السابق ص ١٨٧
(144) التسوي : المصدر السابق ص ٨٧

التحقير والأضرار، وحتى يروينا لجنگيزخان قصة مصرع الرسول كما شأدها^(٤٨).

وبعلل المؤرخون المحدثون تصرف خوارزمشاه على هذا النحو، أنه لا بد كان تحت ضغوط سياسية داخلية، فضلاً عن أن حاكم أوترار كانت تربطه به أواصر قرابة وصداقة وطيدة، وله وزن سياسي ووضعي اجتماعي مميز، وينتمي إلى عشيرة لها نفوذها في الدولة، بالإضافة إلى أن تسليم هذا الحاكم للمغول سيفسد من قبل هؤلاء بأنه ضعيف واستسلام، ولهذا فشل خوارزمشاه قتل الرسول وتحديد العلاقة بينه وبين المغول^(٤٩).

لم يعد أمام جتگيزخان إلا أن يوجه حملة لقتال خوارزمشاه، ويبدو أن ما فعله خوارزمشاه برسل جتگيزخان والتجار المغول لم يكن السبب الوحيد الذي دفع جتگيزخان لقتال الدولة الخوارزمية، بل إن من أسباب ذلك أيضاً دعوة الخليفة الناصر لدين الله جتگيزخان لقتال خوارزمشاه لما كان بين هذا وبين الخليفة من عداوة^(٥٠)، بل وصف المؤرخون المعاصرون هذا الخليفة بالظلم والاستبداد وسوء السيرة، وحملته آخرون مسؤولية إطفاء النار في البلاد الإسلامية ومراسلتهم في ذلك^(٥١)، فضلاً عن أن المغول وقفوا على ما عدت تعاتيه الدولة الخوارزمية من ضعف والاضمحلال الداخلي بعد أن استقروا في الجبهات المتاخمة لها، وحفزتهم في ذلك ما كان للشعوب البدوية من رغبة في غزو الشعوب المتقدمة النازلة بالأراضي الخصبة^(٥٢).

(48) Douglas : The life of jenghiz khan, p. 15

عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٥٤

(49) عبد السلام فهمي : نفسه ص ٥٥

(50) Morgan : op. cit, p. 53

(٥١) الفريزي : السلوك لفرقة دول الملوک ج ١ ص ٢١٨

(52) Barthold : op. cit, p. 400

حرص جنكيزخان على أن يتولى بنفسه قيادة الحملة ضد الدولة الخوارزمية ويصحبه أبناؤه وكل جيوشه، كما توافر لديه من أن خوارزمشاه قد حشد قوات كبيرة، وأعد خططه للقتال المفلوحي خريف سنة ١٢١٩م / ٦١٦ هـ^(٥٥) تقدم جنكيزخان على رأس جيوشه التي بلغت ٣٠ على حد قول المؤرخين ٣٠٠٠٠ ما بين مائة وخمسين ألف رجل ومائتي ألف رجل، فبدأ عدا انحاء إلى من قوات الأسراء المجاورين والتجار ومعظمهم من المسلمين الذين خطط لاستخدامهم وسطاء بينه وبين السكان الأصليين في الأقاليم الخوارزمية^(٥٦).

وتذكر الروايات أن جيوش خوارزمشاه كانت تفوق في العدد قوات جنكيزخان إذ بلغ جيش خوارزمشاه نحو أربع مائة ألف مقاتل، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يقد من هذه الميزة لأسباب متعددة أشار إليها المؤرخون منها: ما كان بينه وبين قادته من علاقات عدائية^(٥٧) فضلاً عن أنه وزع فرقته العسكرية في أماكن ومواقع لم تكن بحاجة إلى ما حشد بها من جنود، خاصة تلك المواقع الحسنة داخل إقليم ما وراء النهر^(٥٨)، بالإضافة إلى أنه لم يعهد بقيادة الجيش إلى قائد كفء يثق فيه الجند والقيادة بل ترك الأمر للأسراء الجيش الذين لم يستحسنوا الفكرة التي عرضت عليهم بالتصدي للمفلوحي قبل أن يدخلوا إقليم ما وراء النهر ومنعهم من عبور نهر سيحون، ورأوا أن الأفضل ترك المفلوحي يعبرون نهر سيحون لاستلزامهم في بلاد لا يعرفون مسالكها ويمكن قطع الإمدادات

(٥٥) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٠٢ .

(٥٦) العيني : المفلوحي ص ١٢١ .

(٥٧) Morgan : op. cit. p. 69 .

(٥٨) وضع عشرين ألف فارس في بخارى وخمسين ألفاً في سمرقند، كما أمر بتجهيز سور حول سمرقند وأرباضها وأعد فرقاً من الجيش في بلخ .

عنهم وإهلاكهم في النهاية^{٥٧}، ووافقهم السلطان على ذلك. ولهذا الأسباب كلها لم تكن الأمور في صالح الخوارزمية، لا سيما أن قواتهم لم يجتمع شملها إلا في ربيع سنة ١٢٢٠م.

وتشير الدلائل إلى أن جنكيزخان قد أفاد كثيراً من بعض العناصر الساخطة على خوارزمشاه في التعرف على الأحوال السياسية للدولة الخوارزمية، وما كان جارياً من عدا بين السلطان والحزب العسكري في بلاده^{٥٨}، أما الأحوال الداخلية فقد وُفِّدَ عليها ممن صحبهم في هذه الحملة من التجار، فضلاً عما ظهر خلال حملته من درايته التامة بالطروف الجغرافية^{٥٩}، وما أعدده من خطط استراتيجية، إذ خطط لهاجمة الخوارزمشاه ليس من جهة واحدة، وإنما من أربع جهات، وقسم قواته إلى أربعة أقسام لهذا الغرض، عهد إلى كل قسم بمهمة الإغارة على جزء من إقليم ما وراء النهر ومفاجأة أعدائه وأخذهم على غرة دون أن يترك لهم فرصة الاستعداد لمواجهته^{٦٠}، كما خطط للاستفادة من سكان القرى العزل وباعداد ضخمة فيما أزمع حصاره من مدن حصينة كمادة للغول في حروبهم التي خاضوها في الصين وفي جهات أخرى من آسيا، والاستفادة من هؤلاء أيضاً عند مهاجمة الاستحكامات حيث يسانق هؤلاء النساء في اللقمة للثقل ما ينهمر من السهام، ولرفع الأعلام المغولية حتى يعتقد الأعداء أن أعداد المغول لا تحصى^{٦١}.

(٥٧) عبد السلام هامي: المرجع السابق ص ٥٧ - ٥٨.

(58) Morgan: op. cit. p. 69

(٥٩) العربي: المغول ص ١٢١.

(٦٠) عبد السلام هامي: نفس المرجع ص ٥٨.

(٦١) العربي: المرجع السابق ص ١٢٢ - ١٢٣.

كانت مدينة أوترار مفتاح إقليم ما وراء النهر، وهي المدينة التي قتل فيها الذجار المغول، ولذلك اتجه إليها القسم الأول من الجيوش المغولية أو المجموعة الأولى من جيوش جنكيزخان ويقود هذه المجموعة جغتاي وأوكتاي أبناء جنكيزخان لمحاصرتها، واستمر حصارها نحو خمسة أشهر، ثم استسلمت المدينة بسبب ضربات المغول سنة ١٢١٩م / ٦١٦ هـ، وقبضوا على حكامها إينال خان وأرسلوه إلى جنكيزخان^(١٦٦) الذي أمر بسحب كمية من اللقمة السائلة في عينيه وأذنيه^(١٦٧)، كما نهبوا المدينة ونكلوا بأهلها.

أما مدينة بخارى فكانت أول مدينة يصل إليها جنكيزخان بنفسه وعلى رأس القسم الرابع من الجيوش المغولية أو المجموعة الرابعة ومعهم ابنه تولوي وذلك في فبراير سنة ١٢٢٠م / ذي الحجة سنة ٦١٧هـ، قلم بمع قادة حامية بخارى التي بلغت نحو عشرين ألف جندي إلا أن يدخلوا عنها فخرجوا منها بعد غروب الشمس " فأدركهم القول على نهر جيحون فأولقوا فيهم وقتلهم كافة ولم يبق منهم أثر"^(١٦٨)، فاضطر أهل المدينة إلى الاستسلام للمغول، وتعهدوا بأن يمشوا لجنكيزخان كل ما كان في المدينة من مؤن وزاد أعد لحامية المدينة، وأن يطمسوا الخندق المحفور حول القلعة^(١٦٩)، وعلى الرغم من ذلك أمر جنكيزخان بقتل من بقى من الدالعين وكانوا نحو أربعائة فارس، كما أمر بإجلاء السكان عن المدينة وأن يخرجوا دون أن يحشوا معهم شيئاً وبما يرتدونه فقط من ملابس، واستباح المغول المدينة وأرتكبوا كل

(١٦٦) ابن العبري : المصدر السابق ص ١٠٢ - ١٠٣

(١٦٧) عبد السلام قهس : المرجع السابق ص ٥٩

(١٦٨) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٠٧

(١٦٩) العيني : الفرق ص ١٩٣

الجرائم وانتهكوا الحرمات " ورموا ما في الصناديق من الكتب وجعلوها أولارى للخيول^(٦٧) الأمر الذي حتم على كثير من سكان المدينة المقاومة وإظهار البطولة وطلب الشهادة، خاصة فئة من الفقهاء راعها ما ارتكبه القوق من فظائع مع الأسرى ومع النساء قاستشهدوا وتعرض الكثير للقتل وجسرى نهب المدينة وإحراقها " قاحتفت المدينة بأسرها لأن جبل عماتها من خضب " ^(٦٨) ، فلم يبق من سكانها إلا من نزع منها إلى إقليم خراسان .

ساق القوق أمامهم من بقى من أهل بخارى مشاة إلى سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر وقتلوا كل من عجز عن المشي، كما ساقوا سكان القرى، وكل من صادفهم في الطريق حتى وصلوا إلى سمرقند في مارس من نفس العام، فاستولوا عليها أيضاً واستباحوها ونكّلوا بأهلها وقتلوا المدافعين عنها^(٦٩) ، ثم وصل ولدا جنكيزخان: جغتاي وأوكتاي وانحازا إلى والدهما بعد دخول سمرقند، وأعمل القوق السيف فيمن طلب الأمان ومن سلخوا أسلحتهم، وحتى من بقى من حامية المدينة ولجأ إلى المسجد الجامع تقرر قتلهم وإحراق الجامع، ويذكر المؤرخون المعاصرون أن حامية المدينة بلغت ما بين خمسين ألفاً، ومائة وعشرة آلاف فارس، وأشار مؤرخ محدث إلى أنه كان بالمدينة عشرون موشعاً أعدت للدفاع^(٧٠)، فلم يبق جنكيزخان على أحد سوى بعض الصناع البهرة الذين أرسلهم إلى منغوليا، وبعض الرجال الذين أراد الاستفادة بهم فيما أزمع القيام

(٦٧) ابن العبري : المصدر السابق ص ٨-٤

(٦٨) ابن العبري : نفسه ص ٨٠

(68) Morgan : op. cit. p. 69

هازوكه لام : جنكيزخان ص ٤٠٤ - ١٠٦

(69) Howorth : Hist. of the Mongols. Part I, p. 79

به من حصار المدن الأخرى، وقبل أن يغادر جنكيزخان سمرقند فرس على أطلها جزيرة سفوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار، ويدخل المغول سمرقند التي اعتبرها الخوارزميون خط الدفاع الأول انهارت خططهم الدفاعية وتحطمت مملكتهم مما سهل على المغول الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية الباقية دون كبير عناء^(٧٠).

وفي إبريل من نفس العام سير جنكيزخان جيشاً بقيادة جوجي (جوش) ويثمل المجموعة الثانية من الجيوش الأربعة، سيره إلى مدينة جند فاستولى عليها ونهبها المغول، ثم سير المجموعة الثالثة من الجيوش المغولية إلى إقليم خوارزم للسيطرة على بقية المدن في ذلك الإقليم الذي يعتبر أهم أقاليم الدولة الخوارزمية فحاصروا مدينة بناكت أربعة أيام حتى استسلمت فقتلوا حاميتها وساقوا بعض رجالها للإفادة منهم في أعمال الحصار، وجرى على خوقنده الواقعة أيضاً على نهر سيحون ما جرى على المدن الأخرى من قتل وتطريد وتدمير حتى ساقوا أمامهم من الأسرى أكثر من خمسين ألف أسير^(٧١)، وفر حاكمها إلى مدينة خوارزم التي كان يربط فيها جلال الدين منكبرتي الأبن الأكبر للسلطان الخوارزمي^(٧٢).

ويلسر المؤرخون المحدلون ما حققه المغول من انتصارات وتقدم في أملاك الإمبراطورية الخوارزمية بأنه لم يكن بسبب بطولات أظهروا المغول أو نماذج للشجاعة والافتخار من قبلهم، وإنما بسبب ما ابتاز به قادتهم من مهارة وطاعة لسيدهم جنكيزخان، وما خضع له الجند للمغول

(٧٠) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٦٣ - ٦٤

(٧١) الميراث : المغول ص ١٢٥

(٧٢) عبد السلام فهمي : نفس المرجع ص ٦٠

من نظام صارم^(٧٣)، وما التزم به هؤلاء من تنفيذ أوامر سيدهم وقادتهم الكبار، بل إن البطولات الشخصية ونماذج الشجاعة والإقدام أظهرها كثير من المسلمين في حربيهم مع المغول، إذ أشار المؤرخون المعاصرون إلى أن أهل المدن التي استولى عليها المغول "كانوا يمتنعون فيها أشد امتناع" فصار المغول "يملكون محلة محلة"^(٧٤)، فكلما انظر الأهل إلى إخلاء محلة ملكها المغول بعد عشاء أي أظهر المسلمون كثيراً من الشجاعة والإقدام، قابليها عجز السلطان عن إعداد الجيوش إعداءاً جيداً، والزام قادته بالطاعة والنظام بل والتحويل على الارتداد المستمر^(٧٥)، وإخلاء المدن ونقطة الارتكاز أمام قوات جنكيزخان^(٧٦)، فضلاً عما أظهره جنكيزخان من مكر ودهاء بواقفه على ما كان من ارتياب السلطان في قادته والحزب العسكري في بلاده، فضاغف من هذا الارتياب وزور رسائل ادعى أنها وصلت إليه من قادة السلطان، وبعث بهذه الرسائل إلى خوارزمشاه، فزاد هذا ارتياباً في قادته^(٧٧)، وقرر الانتحاح إلى بلغ بعد فشله في منع المغول من اجتياز نهر جيحون، ثم قرر السير إلى نيسابور في إبريل سنة ١٢٢٠م معتقداً أن المغول سوف يمدون إلى بلادهم بعد أن امتلأت أيديهم بالفتاوى وما أصبح معوم من أسرى^(٧٨).

وفي الوقت الذي أرسل فيه جنكيزخان ثلاثة جيوش اجتاز أحدها نهر جيحون لطاردة خوارزمشاه، بينما أجهه الآخران إلى إقليمين من

(٧٣) هارولد لام : جنكيزخان ص ١١٤

(٧٤) ابن بطوطة : تاريخ مختصر الدول ص ٤١٠

(٧٥) هارولد لام : المرجع السابق ص ١٠٤

(76) Morgan : op. cit. p. 69

(77) Ibid. p. 69

(٧٨) العريضي : المغول ص ١٢٨

أقاليم الدولة الخوارزمية للاستيلاء على المدن الهامة. فكان السلطان الخوارزمي ينتقل من مدينة إلى أخرى، بعد أن استبد به الحشوف واضطربت أحواله^(٨٠)، وعلى الرغم مما تهيأ له من فرصة إعداد جيش كبير للقاء الغول عندما وصل إلى بحر قزوين، إلا أنه ما لبث أن اختلف مع قاداته، فتبدد أسر هذا الجيش وتفرق قاداته وجدد الغول في أثر السلطان دون أن يمهله حتى يجمع لهم الجند، لما ثبتوا أن فقدوا أثره تماماً عند همدان. في الوقت الذي غابها هو سراً في نقر قليل متجهاً إلى جزيرة آيسكون^(٨١)، فمضى الغول فأغاروا على آذربيجان ونهبوا إردبيل، ثم انسحبوا إلى شاطئ بحر قزوين، واشتبكوا في قتال مع الكرج، على حين إلتجأ السلطان إلى تلك الجزيرة في بحر قزوين (آيسكون) بمساعدة أهالي المنطقة. إلا أنه حزن كثيراً على رسوئه في جزيرة تالية بعيدة عن المعر، فعرض مرشاً شديداً، ولما علم أن والدته تركان خاتون قد وقعت في أيدي الغول، كما أسر أيضاً بعض أطفاله ونسائه وقتلهم الغول من آخرهم، اشتد عليه الغرض^(٨٢)، وما لبث أن جاز إلى ربه، فلم يجدوا ما يكتفونه به إلا ثوبه الذي كان يرتديه^(٨٣)، وذلك في ديسمبر سنة ١٢٢٠م/ شوال سنة ٦١٧هـ، بعد أن عهد بالحكم من بعده لابنه جلال الدين منكبرتي وقد أسلم في قدرته على الشار من أهدافه كما يذكر المؤرخون المعاصرون^(٨٤).

(٨٠) ماروك لام : جلنخان ص ٦٠٨
(٨١) الذهبي : المعبر في طبر من فهرج ص ٧٠، وجزيرة آيسكون في بحر قزوين لا تبعد كثيراً عن ساحل غازندران .
(٨٢) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٧٣
(٨٣) الساماني : المرجع السابق ص ١٩١
(٨٤) السوي : سيرة أسلفان جلال الدين منكبرتي ص ٢٢٠

ويشير المؤرخون إلى هذه النهاية بأنها كانت نهاية مأسوية لسلطان حكم معظم ما كان خاضعاً للدولة السلجوقية، وكان تحت إمرته قوات ضلعة من وراثتها قوى بشرية عظيمة، ولكنه مع ذلك لم يستطع الإفادة من ذلك في صد التتار، على الرغم مما أظهرته قواته الإسلامية من الشجاعة والإقدام، وما قدمته من تشجيعات وبطولة^(٨٦)، فقد أباد المسلمون من عوامل الضعف التي بدت في كيان هذه الإمبراطورية، وما كان من نزاع بين السلطان وقادته العسكريين^(٨٧)، وما كان من اختلاف بين عناصر ذلك الجيش، وما حدث من انقسام بعض فرق الجيش من الانسحاب إلى المسلمون، أو العزوف عن قتالهم، فضلاً عما اشتهر به خوارزمشاه من قسوة وعنف مع بعض طوائف شعبه خاصة رجال الدين^(٨٨)، وعدائه أيضاً للخليفة العباسي^(٨٩)، الأمر الذي دفع الخليفة العباسي لمراسلة جنكيزخان^(٩٠)، وحثه على غزو الدولة الخوارزمية، كل ذلك كان له إسهام فيما لحق به من هزائم والنهضة المأسوية التي انتهت إليها.

وأسفرت هجمات المغول هذه عن استيلائهم على بلاد ما وراء النهر، حيث عين جنكيزخان حاكماً على بخارى، وعهد إليه بالقران الأمور في الإقليم كله، وإعادة الهدوء والسلام إلى تلك الجهات، في الوقت الذي استأنف فيه جنكيزخان التقدم، فهاجم مدينة ترمذ بعد أن أغلق الحصار عليها أحد عشر يوماً، استسلمت بعدها فقرر قتل سكانها

(٨٦) ابن العمري : تاريخ مختصر الدول، ص ٤١٠ Morgan : op. cit. p. 69 (85)

(٨٧) العريضي : الفرق، ص ١٢٧

Morgan : op. cit. p. 69 (87)

(٨٨) هارولد لام : جنكيزخان، ص ٩٥

وتدميرها تماماً ثم اتجه جنكيزخان لمعسكر على شاطئ نهر جيحون، وعلى هذا اقتصرته هجمات المغول على الأقاليم التابعة لخوارزم، والتي انضمت إلى مملكة خوارزم زمن السلطانين تكش وعلاء الدين محمد، ولم تمس حتى الآن إقليم خوارزم نفسه^(١٢٩).

ثم جاء الدور على عاصمة خوارزم جرجانية، إذ حشد جنكيزخان نحو مائة ألف جندي للهجوم على خوارزم أسهم ولده جغتاي وأوكتاي بجيشاهما في الهجوم على جرجانية، ومثلا الجناح الأيمن لجيش المغول في الوقت الذي اندفع فيه جوجي (جوشي) على رأس جيشه قادماً من الشمال الشرقي^(١٣٠)، وحرس جنكيزخان على حشد كل ما يمكن حشده للهجوم على هذه العاصمة لما يعلمه من حصانتها من ناحية، وما امتازت به حاميتها من الأتراك من الشجاعة والإقدام من ناحية أخرى، ولهذا استمر حصارها نحو سبعة أشهر، أظهرت خلالها الحامية وأهل المدينة ضروياً من الشجاعة والإقدام، وسطرت قصصاً من البطولة والفداء فأحدثوا في المغول خسائر جسيمة^(١٣١)، وكلما ابتلك التتار محلة قاتلهم الناس في المحلة التي تليها، ولعل الأمر على ذلك حتى سقطت المدينة في أيدي التتار، قتلوا من فيها ونهبوا كل ما كان فيها، ونقلوا أكثر من مائة ألف من الصناع المهرة وأرباب الحرف إلى المناطق الشرقية وسبوا النساء والأطفال^(١٣٢)، ثم ما لبثوا أن دسروا المدينة تدميراً تاماً وحطموا السد الذي يمنع ماء نهر جيحون عن المدينة فاندفعت المياه إلى داخل المدينة وغمرت بها كلها وهدمت بمعالها، وشرق في

(١٢٩) العربي : نفسه ص ١٢٩

(١٣٠) عبد السلام قهوي : المرجع السابق ص ٦٦

(١٣١) عبد المرم قهوي : نفسه ص ٦٦

(١٣٢) العربي : القول ص ١٢٩

لثاء أو تحت الألقاص كل من أفلت من القتل، وكان سقوط جرجانية في إبريل سنة ١٢٢١م / ربيع الأول ٦١٨هـ وعهد جنكيزخان بخوارزم إلى جوجي، فأصبح إقليم خوارزم المغير إلى خراسان^(٩١).

وفي الوقت الذي واصل فيه جنكيزخان لغزو خراسان، كان السلطان الجديد جلال الدين منكبرتي طوارزمشاه قد اجتاز خراسان ومعه ثلاثمائة فارس فقط، وعلى الرغم من ذلك التقى بالملوك والشتك معهم وقتل منهم عدداً كبيراً^(٩٢)، إلا أنه اضطر في نهاية الأمر إلى الفرار لقلّة رجاله وكثرة عدد القوّال^(٩٣)، فاتجه ناحية نيسابور ووصل قصباً إليها، ثم اتجه إلى غرنة، بينما لقي أخواه بمرعهما على أيدي القوّال بالقرب من نسا. وبعد وصول السلطان الجديد إلى غرنة، قرّر اتّخاذها قاعدة للنضال ضد القوّال، ورحب به أهلها والنضوى تحت لوائه أعداد فظيرة من المتطوعين، فاستطاع تكوين جيش بلغ عدده على حد قول المؤرخين المعاصرين سبعين ألف فارس^(٩٤).

مضى جنكيزخان في استكمال فتح خراسان، فاجتاز نهر جيحون في ربيع سنة ١٢٢١م / ٦١٨هـ، بعد استيلائه على ترمذ. اتجه إلى بلخ فاستسلمت المدينة " وخرج إليه أهاليها" وبذلوا الطاعة وحملوا الهدايا وأنواعاً من المأكّل والشرب، فلم يقتل عليهم ... بل أسر بخروجهم إلى الصحراء ... ورعى قبهم السيف " ^(٩٥)، ثم جعل فيها حامية، واستولى على بعض المدن الأخرى بعد أن قتلوا من فيها، ثم عهد جنكيزخان إلى

(٩١) Morgan : op. cit. p. 69

(٩٢) هارولد لام : جنكيزخان ص. ٦١٨

(٩٣) عبد السلام قاضي : المرجع السابق ص ٦٦

(٩٤) القسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ١٣٢ - ١٣٣

(٩٥) ابن الجوزي : تاريخ مختصر الملوك ص. ٤١١

ولده تولوي القضي في إتمام فتح خراسان على رأس نحو عشرة آلاف من المغول بخلاف من ساقوه أمامهم من السكان النعسان، ونجح تولوي في إخضاع أهم مدن هذا الإقليم^(٩٩)، ثم اتجه إلى مرو عاصمة خراسان، والتي اشتهرت بالثراء والفن فحاصرها خمسة أيام ثم استسلمت وقبض على وجهائها، وأمر أن يخرج أهل المدينة منها فأمر بضرب أعناق الجنود وعذب أرباب المال في طلب أموالهم، ثم حرقوا المدينة وقتلوا أهلها كلهم "وأحصوا القتلى فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل"^(١٠٠)، وأبقوا على نحو أربعمائة رجل من الصناع.

وكان تدمير مدينة مرو عاصمة خراسان والقرى القديمة لسلطين السلاجقة العظام والتي ضمت قبر السلطان سنجر، الذي نبهه التتار طلباً للمال طناً منهم أنهم سيجدون فيه ذهباً وفضة، وجاء تدمير هذه المدينة كارثة مروعة وخسارة جسيمة للمسلمين في آسيا، فقد زُهرت بالكتابات وكتب التراث، وضمت العلماء والكتاب والفكرين والأشعة، فأتى التتار على كل ذلك^(١٠١)، ودمروا ما بها من قصور ودور ومكتبات ولم يتركوها إلا خراباً قدت موطناً لليوم والغريبان، وعلى الرغم مما أبداه أهلها وشبابها من شروب الشجاعة والأقدام أو كما قال ياقوت الحموي: "بأن أفعالهم كانوا رجالاً"، وأن شبابهم لأبطال وأن شيوخهم لأولياء الله^(١٠٢).

ثم اتجه تولوي على رأس جيشه إلى نيسابور في نفس السنة، فألقى الحصار عليها خمسة أيام ثم دخلها المغول بعد أيام من الاستيلاء.

(٩٩) Morgan : op. cit. p. 69 .

(١٠٠) ابن الأثير : الكامل ج ١٩ ص ١٨١

(١٠١) المعري : الغول ص ١٣١

(١٠٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان - مرو -

على مرو، أي في إيريل من نفس العام، وأمر تولوي بقتل أهلها فكانت مذبحة مروعة، حتى قدر عدد القتلى من سكان المدينة بنحو مليون ونصف مليون^(١٠٣)، وسبى حريمها وخربوا المدينة بحثاً عن الأسماك، ولم يبقوا إلا على نحو أربع مائة من الصناع وأرباب الحرف كما دلتهم، ثم لغيت مدينة هرات والتي كانت تعد آخر مدن خراسان الهابة نفس للصبر، فقتل من أهلها اثني عشر ألف شخص من السكان، ووضع المغول فيها حامية وعينوا حاكماً على المدينة، فأتم التتار بذلك الاستيلاء على إقليم ما وراء النهر وخراسان^(١٠٤).

وكان السلطان الجديد جلال الدين قد أغلقت من المغول، ونجح في أن يهزم بهم هزيمة بالقرب من برون شمالي كابول - كما سبق وأن أخبرنا - ووصل إلى نيسابور ثم إلى غزنة، وفي غزنة أُنشج له أن يستقبل عدد كبيراً من المقاتلين الذين انضموا إليه، فشكل منهم جيشاً تولى بنفسه قيادته في نفس العام ١٢٢١م / ٦١٨هـ، ثم اتجه على رأسه صوب الشمال، فوجه إليه جنكيزخان جيشاً ضم ثلاثين ألف مقاتل، فالتقى الطرفان في معركة ظلت مستمرة بين الجانبين مدة يومين، وانتهت آخر الأمر بانتصار جلال الدين انتصاراً بالهراً على المغول، بعد أن سالت الدماء وغطت الأرض القريبة^(١٠٥). وانسحب قائد جيش المغول بقلوب جيشه إلى جنكيزخان بعد أن منى به سائر فادحة، أكدت أنه كان يمكن إلحاق الهزائم بالمغول ومنعهم من التقدم في أسلاك الدولة

(١٠٣) عبد السلام فهمي: المرجع السابق ص ٧٠

(١٠٤) Morgan: op. cit. pp. 75 - 6

العربي: المغول ص ١٣٢

(١٠٥) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ١٣٤

الخورزمية، وأتبع للخورزمية الانتقام في تلك الواقعة من أسرى المغول انتقاماً شديداً إذ كانوا يدقون الأوتاد في آذان الأسرى^(١٠٦).

لكن الروايات تذكر أنه بعد تحقيق هذا النصر، عاد قادة الجيش الخورزمي للنزاع على الأقسام الثلاثة، وظهرت من جديد العصية بين عناصر ذلك الجيش^(١٠٧)، فسارع معظم القادة إلى التخلي عن جلال الدين، الأمر الذي اضطر للمغول من جديد فرصة استئلاف عقلياتهم، واجتياح ما بقي من هذه الدولة، والقضاء على ريعها، فقد استأنف جنكيزخان تقدمه لملاقاة جلال الدين لصحو أخبار ما لحق بالمغول من هزيمة، فاضطر جلال الدين إلى الانسحاب، وإخلاء الواقع أمام المغول، بعد أن تخلى عنه قادته وتقلصت قواته^(١٠٨).

تقدم جنكيزخان من ناحية غرنة فاصداً للحاق بالسلطان جلال الدين، إلا أن هذا كان قد تراجع عنها متجهاً إلى نهر السند، فاحتلها جنكيزخان في يسر وسهولة وصين حاكماً عليها، وأسرع للحاق بالسلطان، قبل أن يجتاز نهر السند، فلاحق به ودارت معركة حامية، أظهر فيها السلطان جلال الدين شجاعة فائقة، رغم قلة قواته وسوء الظروف التي خاض فيها تلك الحرب، واشتد القتال في تلك المعركة التي دارت في ٢٤ نوفمبر سنة ١٢٢١ م / رمضان سنة ٦١٨ هـ، فشق السلطان طريقه بين جنود التتار بشجاعة نادرة إذ " حمل عليهم حملات وشق صفوفهم مرة بعد مرة " ^(١٠٩) حتى وصل إلى النهر، وألقى بنفسه فيه

(١٠٦) التتوي - المصدر السابق ص ١٣٤

(١٠٧) التتوي - نفس المصدر ص ١٣٥

(107) Morgan : op. cit. p. 71

(١٠٨) ابن العبري - المصدر السابق ص ٤١٢

مفتطياً حصانه، الأمر الذي نال إعجاب جنكيزخان، فمنع رجاله من قذفه بالسهم، وأشاد بشجاعته وإقدامه، ولحق بجلال الدين نحو أربعة آلاف من رجاله^(١٠٩) في الوقت الذي غرق فيه الياقون غير من وقع في أسر المغول ومن ضمنهم أحد أبناء السلطان وكان طفلاً دون الثامنة، فقتله جنكيزخان بهده، بينما غرقت والدة السلطان وأم ابنه وحريمه في النهر ولم يبادر أحد لإنقاذهم خوفاً من أن يقيموا في أسر المغول^(١١٠)، بينما اتقى السلطان يكتوزه من الذهب والفضة في نهر السند حتى لا تقع في أيدي المغول، فأمر جنكيزخان بعض رجاله المواسين بإخراجها، فأخرجوا بعض هذه الكتوز^(١١١).

وأعقب ذلك ما أمر به جنكيزخان من تدمير غرقة، وقتل جميع سكانها باستثناء الصياع وأرباب الحرف، وكذلك أمر جنكيزخان بتخريب مدينة هرات، وقتل سكانها، ونهب ما فيها من أموال بعد سبي حريمها، ثم إحراقها في النهاية، وبلغ عدد سكانها القتلى نحو مليون ونصف مليون من الأنفس^(١١٢).

تقدم التتار نحو بلاد الكرج (جورجيا) فحربوها حتى بلغوا مدينة تفليس ثم عادوا إلى مراغة سنة ١٢٢٢ م / ٦١٨ هـ، فألقوا الحصار عليها، ثم استولوا عليها وقتلوا من أهلها أعداداً كبيرة ونهبوا كل ما وقع في أيديهم، ثم وصلوا إلى إربل، ثم عادوا إلى همدان التي

(١٠٩) عهد السلام قهسى : الترجع السابق ص ٧٨.

الساماني : الترجع السابق ص ١٩٦

(١١٠) ابن الوردي : تنبيه الختم في أخبار البشر ص ١٥٥

القنوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٢٥٩

(١١١) ابن العمري : تاريخ مختصر المغول ص ٤١٢ - ٤١٣

(112) Morgan : op. cit. p. 76

قتلوا معظم أهلها ونهبوا ما فيها، وكذلك فعلوا في إريدبيل وتبريز في نفس العام، ثم اجتازوا إلى بلاد القوقاز، فهزموا القفجاق قهراً وبمسلحهم إلى بلاد الروس، فبعث الأمراء الروس جيشاً للقتال التتار إلا أنه لقي هزيمة - فلم يبق على قيد الحياة من أسراء كييف أو جنودهم الجسورين سوى القليل^(١١٣) وذلك عند بحر آزوف في مايو سنة ١٢٢٢ م / ٦١٩ هـ، ثم ساروا شرقاً فاجتازوا نهر الفلجيا، وهزموا جيشاً بلغاريّاً، ودانت لهم جميع المناطق الواقعة حول بحر قزوين.

ولم يمس على ذلك سوى عامان إلا وكان المغول قد اجتاحتها إلى وسادة وقم وقاشان وهمدان، وأنزلوا الهزائم بسكان هذه البلاد وأمنوا في قتل أهلها^(١١٤)، ونهب كل ما يقع في أيديهم من أموال ومناجم، وبخسرو المورطون المعاصرون إلى أنه أينما صار المغول لقي السكان مصرعهم، وتحولت الأراضي إلى صحاروات، حتى ذهب أحد هؤلاء المورطين إلى القول من أنه لم يفلت من أيدي الغول سوى شخص واحد من كل ألف شخص، وفي ذلك تصوير لما حاق بالناس من بؤس وشقاء ثم القتل في النهاية بطرق غاية في الوحشية، إرضاء لجنگيزخان الذي أضر عنه أنه قال: "إن منتهى السعادة أن تسحق أعدائك وتراهم يركعون عند قدميك وأن تستولى على خيولهم ومهملهم، وأن تسمح بحبس النساء وعويلهم"^(١١٥). وما حل بالبلاد التي وطأتها أقدام جنگيزخان وجنده من الخراب والدمار ظلت آثاره بالغة قرونًا عديدة^(١١٦).

(١١٣) هارولد لام: جنگيزخان ص ٩١

(١١٤) الميراثي: المغول ص ١٣٧

(١١٥) هارولد لام: جنگيزخان ص ٩١

(١١٦) الميراثي: المرجع السابق ص ١٣٨ - ١٣٩

لم يجد جنكيزخان مبرراً لميوز نهر السند لاقتفاء أثر السلطان جلال الدين خوارزمشاه بعد أن نجح في تحطيم جيشه، بل تشير الروايات إلى أنه تلقى أنباء ثورته وتسرّد قدام به ملك «القانجوت»، فقرر جنكيزخان العودة إلى بلاده عن طريق الهند وجبال الهماليا والليت، إلا أنه وجد الطرق عبر هذه الجبال قد أغلقتها الثلوج فقرر العودة إلى بلاده من حيث أتى، في الوقت الذي تلقى فيه نبوءات من التجمين بالأسير إلى الهند، بل إنه في هذه المناسبة استدعى إليه أحد حكماء الصين، وطلب منه أن يمنحه دواء الخلود^(١١٦)، إلا أن هذا الحكيم أجابه بأنه لا دواء للخلود بل إن هناك من الوسائل ما يحفظ الصحة، فامتدح جنكيزخان ذلك الحكيم وأعاد معزراً مكرماً إلى بلاده^(١١٧).

بدأ جنكيزخان رحلة العودة إلى بلاده في مارس سنة ١٢٢٢م / صفر سنة ٦٢٠ هـ فاجتاز جبال باميان وأمضى الصيف في براري المنطقة في الصيد، ثم عبر نهر جيحون في حريف نفس العام وأملس الشتاء في سمرقند، ثم استأنف سيره في ربيع العام التالي (١٢٢٣م) حتى نهر سيحون، حيث اجتمع بأولاده: جغتاي وأوكتاي وعقد مجلس الأعيان، ثم اجتمع مع ابنته «الثالث جوجي»^(١١٨)، ولم يعد جنكيزخان إلى منغوليا إلا في سنة ١٢٢٥م. والراجع أنه أمضى مدة على شفاف نهر ارتش: بعد أن استقر حكم المغول تماماً في إقليم ما وراء النهر وفي خوارزم منذ ذلك التاريخ (١٢٢٣م)، وأقام جوجي بن جنكيزخان على حكم خوارزم وخراسان ومازندران ومساحات شاسعة، وربما أغرت هذه الممتلكات

(١١٦) هارولد لام: جنكيزخان ص ١٦١ - 3 - Banholi : op. cit. pp. 450 (118)

العربي: القول ص ١٤٠ - ١٤١

(١١٩) هارولد لام: جنكيزخان ص ١٦٥

الواسعة بمحاولة الاستقلال عن دولة والده، وكانت في نفس الوقت سبباً فيها وقع بهينه وبين والده من نزاع، إلا أنه ما لبث أن توفي فجأة^(١٢١)، وقبل أن والده هو الذي أمر بحدس السم له فمات لما بدا منه من محاولة امتلاك بلاد الفلجاني وإثباتها من الدمار والخراب، وعدم موافقته على ما كان القول يقولون به من تخريب وتدمير ورقبته في الاتفاق مع المسلمين. وقبل أيضاً أن موته حال دون اندلاع الحرب بهينه وبين والده، الذي كان قد هزم على السور إليه لمحاربته^(١٢٢)، فقد امتنع جوجي عن الحضور إلى مجلس والده، متعللاً بأنه مريض، ولكن جنكيزخان تأكد من أنه لم يكن مريضاً^(١٢٣).

وبعودة جنكيزخان إلى بلاده تمت مرحلة هامة من مراحل توسع التتار، فقد قضى شتاء سنة ١٢٢٥ - ١٢٢٦ م والصيف التالي له في معسكره على نهر التولا من روافد نهر أورخون حيث تجاوز عمره حينئذ سبعين سنة، بعد أن أخضع البلاد والأقاليم الممتدة من بكين إلى نهر الفولجا، وأسر أيضاً على أن يخضع مملكة التانجوت بالصين بعد أن طرح ملكها طاعته ورفض المشاركة في قتال خوارزمشاه، وفي نفس الوقت أراد جنكيزخان إكمال فتوحاته في الصين بعد استيلائه على الصين الشمالية، فبدأ هذه الحرب في ربيع سنة ١٢٢٧ م، إلا أنه ما لبث أن توفي في ١٨ أغسطس سنة ١٢٢٧ م^(١٢٤)، بعد أن قتل في هذه الحرب ودمر وطرب على عادته حتى أن "جشت القتلى طمئت الحقول" واكمل

(120) Morgan : op. cit. p. 112

(١٢١) العيني : القول ص ١١٢
(١٢٢) هارولد لام : جنكيزخان ص ١٣٧

(123) Morgan : op. cit. p. 72

التنار اجتياحهم لمملكة التانجوت استجابة لشبهة الغازي الراحل^(١١١)، وفي طريق عودة المغول ومعهم عربة الموت تحمل جثمان جنكيزخان كان المغول يقتلون كل من يقع أبصارهم علي عربة الموت المارة أمامهم، حتى لا يعرف أعداؤهم أن جنكيزخان قد انتصت حياته، أو لعلهم أرادوا أن تسحب أرواح هؤلاء القتلى الخان في رحلته إلى خارج العالم^(١١٢).

وفي سنة ١٢٢٩م احتفل خليفته بذكراه على الطريقة التتيرية بتقديم الضحايا إذ أمر بتقديم الطعام لروح والده (جنكيزخان) لمدة ثلاثة أيام، وجرى اختصار أربعين فتاة من أجمل بنات الأسرات النبيلة والقادة العسكريين، وقد ارتدين أحمر ما لديهن من الثياب وتزين بأثمن ما عندهن من الحلي وإرسالهن ليوخدمن جنكيزخان في الآخرة يشافين إلى ذلك التضحية بعدد من الجهاد الأصيلة^(١١٣).

وهكذا نجح المغول في اكتساح الدولة الخوارزمية في فترة قصيرة ربما لم تزد عن أربع سنوات لأن جنكيزخان بدأ حربه عندها في خريف سنة ١٢١٩م / ٦١٦ هـ، وتم له إخضاعها تماماً سنة ١٢٢٣م حين عاد إلى منغوليا عبر نهر سيحون، بعد أن تم له تخريب مدنها ومعانيها وقتل أعداد لا تحصى من سكانها في فترة قصيرة بالنسبة لمعظم المساحة التي استولى عليها من أراضي هذه الدولة، وخرب أعظم مراكز الثقافة الإسلامية هناك في سمرقند وبخارى وجرجان ومرو ونيسابور^(١١٤).

(١١٤) التبريني : المرجع السابق ص ١٤٣

(١١٣) هارولد لام : المرجع السابق ص ١١٥ - ١٤٦

(١١٢) التبريني : القول ص ١٤٤

(١١١) السادني : المرجع السابق ص ١٨٢

الفصل العاشر

توسعات التتار بعد جنكيز خان في أوروبا والشرق الأدنى

- تقسيم إمبراطورية القوقل بعد وفاة جنكيز خان .
- اعتلاء اوكتاي عرش الإمبراطور خانا أعظم .
- ولاية كيوك بعد فترة وصاية والدته على العرش .
- انتقال الحكم إلى مونكو بن تولوي .
- قوبيلاي الخان الأعظم للمغول سنة ١٢٦١ م .
- تكليف هولاجو بحكم خانية فارس نائبا عن الخان الأعظم وتكليفه بالتوسع غربا .
- موقف هولاجو من المسيحية والمسيحيين .
- ابنه بن هولاجو يخلف والده في حكم فارس وموقفه أيضا من المسيحية والمسيحيين .
- تكودار بن هولاجو يخلّف أخاه في حكم فارس .
- أرغشون بن أبدا حفيد هولاجو يحكم خانية فارس حتى سنة ١٢٩١ م .
- توسعات القوقل بعد جنكيز خان .
- مطاردة جلال الدين منكبرتي حتى مقتله سنة ١٢٣١ م في جبال كردستان .
- استيلاء المغول على آسيا الصغرى فضلا عن فارس وبلاد الكرج وأرمينيا وبلاد الجزيرة .
- توسعات المغول في أوروبا .

- تدمير مملكة البلغار • اجتياحهم لروسيا وسيطرتهم على الإمارات الروسية .
- اجتياحهم لبولندا وقتلهم لدوقها وتخريبهم لوراثيا .
- اجتياحهم لبلاد المجر والخضاعهم للبلاد حتى نهر الدانوب وسهوب البلقان .
- وفاة الخان الأعظم أوكتاى سنة ١٢٤١م يتقذ غرب أوروبا من هجوم التتار .
- توسعات المغول على حساب طائفة الاسماعية الشيعة جنوب بحر قزوين وفارس والعراق .
- اثر هجمات المغول على أوروبا حكاما وبابوات .
- اجتياح المغول للحلقة العباسية وتدمير بغداد سنة ١٢٥٨م .
- اجتياحهم لبلاد الشام واجاههم نحو مصر .
- هزيمة المغول في عين جالوت سنة ١٢٦٠م ونهاية خطرهم على الشرق الأدنى وأوروبا .

كان جنكيز خان قد قسم إمبراطوريته بين أبنائه قبل وفاته ، طبقاً لتنظيم الملوك وقانون الياسا ، فخصص جوجي أكبر الأبناء بما جرى الاستيلاء عليه من البلاد النائية صوب الغرب من فتوحات جنكيز خان ، متضمنة منطقة القفجاق حتى حدود بلخار نهر الغولجا وكل الإمارات الروسية في شرق أوروبا ، فضلاً عن منطقة جنوب القوقاز وغرب بحر قزوين^(١) ، ونظراً لوفاء جوجي في حياة أبيه ، فقد نال هذا القسم ابنته باتو حفيد جنكيز خان الذي اشتهر بمذبحة حديثة ورقة عائلته وشدة تعقله ووراثته ، مما جعله يقوم بدور حاسم فيما نشب من نزاع على ولاية العرش الملقب بعد وفاة جنكيز خان^(٢) ، وكانت المنطقة الواقعة بين نهر آرثس وسواحل بحر قزوين ، والتي حلتى بها باتو هذا تسمى منطقة القفجاق أو منطقة القبيلة الذهبية golden horde . نظراً لأن حكام الممسكرات في هذه المنطقة كان لونهم ذهبي ، فأطلق عليها القبيلة الذهبية ، وكان أغلب سكانها من الترك والتركمان^(٣) .

ونال الابن الثاني جغتاي إقليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنة ، فضلاً عن منطقة البراري التي كانت تحتلها دولة الخطا من قبل ، وامتدت من بلاد الأويغور شرقاً حتى بخارى وسمرقند في إقليم ما وراء النهر^(٤) .

(1) Morgan : Op.cit,pp.112-113

(٢) العيني : الملوك من ١٢١٩-١٢٨٨

(٣) القزويني : السلوك لمعركة دولة الملوك ج ١ ص ٣٩٤-٣٩٥ (ملاحظة 1)

عبد السلام فهمي : تاريخ الدولة التتولية ص ١٠٠

(4) Morgan :Op.cit,p.113 □

أما الابن الثالث أوكتاي فقد اختص بالمنطقة الممتدة إلى غربي منغوليا الواقعة بين سلسلة جبلية وأطراف إحدى البحيرات وحوض نهر إيميل ، وهي المنطقة المتجهة صوب بلاد التايغان^(٦٠) ، وكان نصيب هذا الابن أقل نصيب وزعه جنكيز خان على ولاده .

أما أصغر أبناء جنكيز خان وهو تولوي ، فكانت التواعد تقضي بأن يحظى بالوطن الأصلي أي بمنغوليا ، والتي تشمل وديان الأنهار الهامة : نهر كيرولين ونهر أوتون وأعلى نهر تولا ، وتتضمن عاصمة إمبراطورية المغول وهي قرية قوروم^(٦١) ، وقد ظل تولوي هذا يحكم الإمبراطورية بعد وفاة جنكيز خان مدة عامين ١٢٢٧-١٢٢٩ م ، طبقاً لقوانين المغول وتعليمات الياسا بوصفه وصياً على العرش المغولي حتى ينتخب الحان الجديد خلفاً للحان الراحل ، وطبقاً لهذا اختص تولوي بما كان لوالده من الخيانات التي هي مقر الحكم ، فضلاً عن الجانب الأكبر من جيش المغول^(٦٢) .

وكان جنكيز خان قد اختار ابنه الثالث أوكتاي ليخلفه في الحكم ، نظراً لما أمتاز به هذا الابن من الذكاء واتساع الأفق ونشاطه الوافر وشدة عاطفته وكذلك لصلابته ، كما اشتهر أوكتاي هذا بحبه للعمد والمطلف على الرعية ، كما عرف عنه ميته للمسلمين وعظفته عليهم عكس ما أبداه أخوه جغتاي من غلظة وقسوة على الإسلام والمسلمين ، فضلاً عما اشتهر به أوكتاي من الكرم الشديد^(٦٣) ، وبعد نحو سنتين من وصاية تولوي على

(٦٠) العربي : الترجع السابق ص ١٤٨ .

(٦١) عهد السلام فهمي : الترجع السابق ص ١٠٠ .

(٦٢) Miengan : Op.cit.p.113-114

(٦٣) عهد السلام فهمي : الترجع السابق ص ١٠٣ .

العرش انعقد المجلس العام في ربيع سنة ١٢٢٩م لاختيار الخان الأعظم فعرض الأمراء على أوكتاي العرش المفضل ، فتردد طويلاً في قبول التتصب ، ولكنه عاد في النهاية فنزل على رأي الأمراء وقبل المنحة ، وأعلن الأسراء الولاء له والمناواة به خاتماً أعظم في ١٣ سبتمبر سنة ١٢٢٩م ، وقاده أخوه الأكبر جغتاي إلى العرش ليبدأ حكمه من سنة ١٢٢٩ إلى سنة ١٢٤٢م^(٩).

ومن أهم أعمال أوكتاي الداخلية اهتمامه بالعاصمة قراقورم^(١٠) ، التي أدار حولها سوراً ، وتقوية الصلة بين موطن المول الأصيل وبين ما حازه أوكتاي من إقطاع على نهري أرغش وإمبيل وكذلك الاهتمام بالنظام الإداري في الإمبراطورية بعد أن غلبت عليها الصفة العسكرية ، وتنظيم الدواوين تقليداً لما شهدته المول في الدول للتحضرة في الصين وبلاد ما وراء النهر ، وإنشاء نظام البريد والاهتمام بميزانية الدولة ومواردها من الضرائب نقداً وتوابعاً ، والاهتمام بالتعليم في المدارس على نسق ما كان جارياً في الصين^(١١).

توفي أوكتاي في ديسمبر سنة ١٢٤١ م ، فثولت الوصاية على العرش أرملة^(١٢) ، التي ظلت تدبر شؤون الإمبراطورية المغولية حتى سنة ١٢٤٦ م ، نظراً لما اشتهرت به من المهارة والنشاط ، وفي صيف سنة ١٢٤٦ م انعقد المجلس العام واختار الأمراء كيوك ابن أوكتاي وابن

(٩) العيني : الملوك ص ١٥٩-١٦٠

(10) Morgan : Op.cit.p.114

(١١) العيني : المرجع السابق ص ١٦٦-١٦٧

(١٢) اسمها توراكينا خاتون وكانت مسيحية انظر :

عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٣

هذه الوصية خائناً أعظم على القوق، تولى العرش في أغسطس من نفس العام، ولم يقبل هذا الولاية إلا بشرط أن يبقى الحكم وراثياً في سلالة، ثم تلقى من الأمراء يمين الولاء والخضوع^(١٤)، وحل يحكم من سنة ١٢٤٦ إلى سنة ١٢٤٨ م.

واشتهر كيوك هذا بالنشاط الوافر والاعتراف بالنفس وحسب الانضباط، فقرر منذ البداية أن يلتزم الجميع بما كان جارياً زمن جنكيز خان من قواعد، فهيمن على شؤون الإمبراطورية وأشرف بنفسه على كثير من شؤون الأقاليم، وتدخل بقراراته في إحلال وتبديل المناصب، وحرص على أن يوقف الميل إلى الاستقلال عند سائر فروع بيت جنكيز خان فاصطدم بكبير بيت جوجي بن جنكيز خان وهو باتو خان القيقاق وحاكم أقاليم أوربا المسيحية، وكادت تحدث الحرب بينهما لولا أن توفي كيوك فجأة سنة ١٢٤٨ م^(١٥).

انتقل الحكم بعد ذلك إلى أكبر أبنائه تولوي (حفيد جنكيز خان) ويسمى مونكو بترشيج من باتو، فاحتل خائناً أعظم، وأقر مجلس الأمراء هذا الانتخاب في يوليو سنة ١٢٥١ م، فانتقل عرش الإمبراطورية من بيت أوكتاى إلى بيت تولوي. بعد فترة انتقالية صارت الوصاية فيها لأرملة الخان الواحد (كيوك) مدة تقرب من ثلاث سنوات (من إبريل سنة ١٢٤٨ م إلى يوليو سنة ١٢٥١ م) رغم المعارضة الشديدة التي أبدتها بيت أوكتاى وبيت جغتاي لهذا الاختيار والتي تعرضا بسببها للانتقام الشديد بالقتل والنفي والتشريد والسجن^(١٦)، ولكن الخان الجديد كان في

(١٣) النرنى : المرجع السابق ص ١٨٩

(14) Morgan : Op.cit. p.116

(15) Grousset : L. Empire des Steppes , pp.340-41

وثام مع ياتو الذي نقل مقر سلطته إلى الروافد السفلى لنهر الغولجا ، حتى يتسنى له السيطرة على أتباعه الأمراء في روسيا ، وأنشأ بذلك البلاد الخانية التي عرفت بدولة القلقان ، والتي اشتهرت باسم دولة القبيلة الذهبية كما سبق أن أشرنا golden horde ، في الوقت الذي انتقل فيه حكم فارس إلى يد هولاكو ثالث إقطاع مونكو^(١٦).

ويعتبر مونكو أشهر خانات المغول بعد جنكيز خان ، وحكم فيما بين سنتي ١٢٥٦ و ١٢٥٩ م ، وحرس على التمسك بما أصدره جنكيزخان من قوانين ، وكان بارعاً في إدارة الإمبراطورية شديدة التمسك بالعدالة ، كما كان جشعياً باسلاً وسياسياً ماهراً فجعل الإمبراطورية المغولية دولة بالغة القوة^(١٧) ، خاصة بعد وفاة ياتو سنة ١٢٥٥ م ، إذ اتفرد مونكو بالحكم في الإمبراطورية المغولية ، ومنع ما كان جارياً من نزعة استقلالية لدى بعض الأمراء القاطنين ، ولو تمسك خلفاؤه بهذه السياسة لبقيت الإمبراطورية متحدة بدلاً من انقسامها إلى خانات في الشرق الأقصى وتركستان وفارس وروسيا . ولقد تأثر مونكو في نشأته باسم المسيحية النسطورية ، ولذلك صلب على المسيحية النسطورية ، على الرغم من أنه أبدى نفس العطف والمحبة على البوذية ، بل أشر عنه تسامحه مع سائر الديانات^(١٨) ، وتوفي مونكو في أغسطس سنة ١٢٥٩ م ، بينما كان يقاتل بالصين ، وكان أبناؤه صغار السن لا يصلح أحد منهم

(١٦) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٧

Grousset : Op.cit:pp.312-13,pp.364-66

(17) Morgan : Op.cit.p.117

(18) العريضي : المغول ص ١٩١-١٩٥

لاعتلاء عرش الملوك، قتلهم إخوته الثلاثة للعرش : أريق بوكا والأخ الثاني قوبيلاي أما الأخ الأصغر الثالث هولكو فكان يرقب الأحداث الجارية من الطرف الشرقي لملكاته ، وقد تجهز للحرك إلى منغوليا متى دعت الحاجة إلى ذلك ، فإذا جرى اختيار الخان الأعظم أعد هولكو نفسه للتنفيذ ما يكلفه به الخان الجديد من مهام ^(١٩) .

نجح أريق بوكا أصغر الإخوة الثلاثة في البداية في أن يفرض سلطانه على الموطن الأصلي لأسرة جنكيز خان ، حيث تقع قراقورم وتوجد به الخزائن المركزية للإمبراطورية ، وسمى جاداً للفوز بالعرش ، وظل شهوراً يحاول كسب المؤيدين له من الأسرة الحاكمة ، وعقد المجلس العام للأمراء لهذا السبب في الوقت الذي سمى فيه قوبيلاي الأخ الثاني للفوز بالعرش أيضاً ، خاصة وقد حظى بتأييد قادة الجيش وموافقة الأخ الثالث هولكو ^(٢٠) ، إلا أنه تقرر انتخاب أريق بوكا خاناً أعظم بموافقة المجلس العام الذي عقده في ربيع سنة ١٢٦٠ م ، ومساندة معظم أفراد الأسرة الحاكمة في منغوليا ، على الرغم من عدم مشاركة كل فروع أسرة جنكيزخان في ذلك المجلس ، فلم يجر إخطار هولكو ولا قادة القبيلة الذهبية ولا بيت جغتاي ، لإرسال مندوبين عنهم أو القدوم بأنفسهم ^(٢١) ، ولم يستطع قوبيلاي أن يفهر منافسه إلا في نهاية سنة ١٢٦١ م ، حيث أصبح خاناً أعظم للمغول ، في الوقت الذي لعب فيه هولكو دوراً هاماً في الأحداث وفي تاريخ الإمبراطورية المغولية في ذلك الوقت .

(١٩) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٧

(٢٠) الترمي : المغول ص ٢٥٩

(٢١) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٧

مايهمنامن ذلك كله هو موقف هولكو الذي كان مونكو قد عهد إليه - باعتباره الأخ الأصغر له - بإدارة حكومة فارس ، وأرسل إليه رسالة يطلب فيها التخلص نهائياً من السلطة الروحية الإسلامية ، سواء أكانت إسماعيلية في مازندران وجهات من فارس ، أو سنية في بغداد وما والاها إلى الشام ، وجاء ذلك في صالح القوى المسيحية في أرمينيا السفرى والصلبيين في بلاد الشام ، خاصة في أنطاكية الذين ارتضوا السجادة الغولية وجعلوا من التتار حماة وحلفاء لهم ^(٢٢) ، كما نصحه مونكو أن يستأنس برأى زوجته الأولى طغر خاتون ^(٢٣) ويعمل بنصائحها في جميع القضايا والشئون ^(٢٤) ، وكانت هذه حفيذة ملك الكرايت في شرق منغوليا وتدين بالمسيحية النسطورية .

وعلى الرغم من أن هولكو كان يودياً ، إلا أنه حاول إرضاء هذه الزوجة فحرص على شمول المسيحيين بكرمه وأفضاله ، وأنه بسببها عامل للمسيحيين من رعاياه معاملة حسنة ^(٢٥) . فأنشأ الكنائس في أنحاء فارس ، واستقبل المسيحيين من كافة الديار ، وعلى اختلاف لغاتهم ، وعمرهم بالهدايا وبكل مظاهر التقدير ، وأنشأ المدارس التي تروى عليها أطفال المسيحيين ، وأقيمت الصلوات والقداسات ، وقرعت أجراس الكنائس في مختلف الأنحاء ، وتعم رجال الكنيسة بالهدوء والأمن في ظل حكمه ^(٢٦) .

(٢٢) العربي : الترجع السابق ص٢٠٧-٢٠٨

(٢٣) تكتب اسمها (توقوز خاتون) أو (توكوز خاتون) وتقر

عهد السلام فهي : الترجع السابق ص١٠٩

(٢٤) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ص١٣١ ونشر كاتيمر - الترجمة العربية

(٢٥) مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص١٠٠

(٢٦) العربي : للعوك ص٢٠٨

ولهذا السبب أيضا ازدادت العلاقات سوءاً بين هولانكو وبينى عمومته خانات القبيلة الذهبية أو مغول اللججاق ، لأن بركة خان زعيم تلك القبيلة ، كان يميل إلى المسلمين ويحفظ عليهم^(٢٧) ، وتواترت الأنباء باعتناقه الإسلام ، بينما حرص هولانكو على إرضاء المسيحيين والقرب منهم ، فعرض هولانكو للتأنيب والتفريع من قبل بركة خان ، وزاد ذلك بعد ما أنزله هولانكو وحاشيته من دمار بغداد وما تعرض له الخليفة العباسي من هوان ، ثم الاقتتال على يديه^(٢٨) ، ومن هوان كراهية بركة خان لهولانكو أيضا أن بيت جوجي الذي ينتمي إليه بركة خان اعتبر سيطرة هولانكو على إقليم آذربيجان اغتصاباً لجاناب من أملاكهم التي اختص بها هذا البيت منذ أيام جتكيك خان ، ولهذا وقع الاحتكاك بين قوة هولانكو وقوى القبيلة الذهبية عند القوقاز ، أي في المنطقة الفاصلة بين حدود كل منهما ، ورد بركة خان وقادته على أقمار هولانكو ، فقاموا باضطهاد للمسيحيين من رعاياهم ، وعندما حاول هولانكو أن يفرض سلطانه شمال جبال القوقاز تعرض لهزيمة ساحقة على يد أحد قادة القبيلة الذهبية من بيت بركة خان^(٢٩) .

ولما توفي مونكو سنة ١٢٥٩ تاركة أطفالاً صغاراً لا يصلحون للحكم -كما سبق أن أشرنا- وتنازع أطولته على العرش فقام بالعرش في النهاية قوبيلاي سنة ١٢٦١م. خاصة وقد حظى بتأييد قادة الجيش ، فأصبح الخان الأعظم في الإمبراطورية المغولية ، فاعتبر أخاء الثالث هولانكو ، وهو الأخ الأصغر ، نائباً عنه في حكم فارس والمناطق القريبة في الإمبراطوري

(٢٧) Morgan : Op.cit.p.124

(٢٨) القزويني : الملوك لمعركة مونك الملوك ج١ ص١٦٥

(٢٩) العيني : الملوك ص ٢٥٢

فلم يهولوا هذا دورا هاما في تاريخ الامبراطورية وخلاص حروبهم في الغرب في العراق والشرق الأدنى^(٣٠).

ثم انشغل هولاكو في حروبهم مع القبيلة الذهبية حتى توفي في النهاية في ٨ فبراير سنة ١٢٦٥م بالقرب من مراغة وخلفه في الحكم في فارس ابنه الأكبر أيضا كنانب عن عمه قوبلاي وذلك في الفترة بين سنتي ١٢٦٥ و ١٢٨٢م فظل أيضا هذا يقيم في آذربيجان وتحولت حاضرتهم إلى تبريز ، والتي احتفظت بمكانتها حتى نهاية أسرة هولاكو ، وبقي أيضا هذا مثلما كان أبوه نائبا للخان الأعظم قوبلاي الذي بعث إليه بمرسوم بتقليده الحكم خلفا لوالده هولاكو ، بعد نحو خمس سنوات من اعتلائه^(٣١).

وعلى الرغم من أن أيضا هذا كان يودها مثل والده هولاكو ، إلا أنه مائل أياه في عطفه على المسيحيين من التناصرة واليعاقبة والأرمن ، وتحالف معهم ضد المسلمين في مصر والشام ، وتزوج في نفس العام الذي ولي فيه الحكم من ابنه الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس ، وكان نصيرا وحاميا لطريق التناصرة وصديقا له^(٣٢).

ولقد حرص أيضا على تهدئة الأمور مع القبيلة الذهبية وإنهاء الحرب مع بركة خان القجاق ، وكذلك إنهاء النزاع مع خانية تركستان التي كان يحكمها بيت چغتاي ابن جنكيز خان ، فانتهت الحرب مع هذه الخانية سنة ١٢٧٠م ، وجرى إحلال حاكم جديد في تركستان

(30) Morgan : Op.cit.p.117

(٣١) عبد السلام قومي : المرجع السابق ص ١٥٣

Howarth : Op.cit,3,pp.208-11,p.223,227,231.2

(32) Grousset : L'empire des Steppes ,p.445

سنة ١٢٧٨ م ، ثم أخيرا توفي أبها- نائب قوبيلاي- في إبريل سنة ١٢٨٢^(٣٣).

وتولى الحكم في ذلك الجزء من الإمبراطورية المغولية ، بعد أبها أخوه تكدار (١٢٨٢-١٢٨٤م) ، فلم يكد يتولى حكم هذا الجانب من إمبراطورية المغول حتى أعلن إسلامه ، واتخذ لنفسه اسم أحمد ، ولقب بالسلطان على الرغم من أنهم كانوا قد نصره على المذهب النسطوري باسم نقولا ، لكنه كان يعيل إلى الإسلام ووجه اعتماده إلى تحويل التتار إلى الإسلام^(٣٤) . ونظرا لأن أبها هذا كان يحكم باعتباره نائب الخان الأعظم -عمه قوبيلاي- في حكم فارس ، فقد احتل قدامى التتار من البوذيين والنساطرة المسيحيين لدى الخان الأعظم على تصرفات تكدار ، فغضب الخان الأعظم من ذلك وهدد بالتدخل ، الأمر الذي جعل تكدار يعمل بطريق الكنيسة النسطورية المسئولة عن هذا الاستعداد ، فأمر بإلقائه في السجن^(٣٥) .

إلا أن الساططين على تكدار نجحوا في تأليب أرقون بن أبها وحاكم خراسان على أخيه ، فغضب نزاع بينهما واندلعت الحرب الأهلية بين الجانبين ، ورحق أرقون على العراق العجمي ولكنه تعرض للمذبحة في مايو سنة ١٢٨٤ م فأعلن الاستسلام لأخيه ومع ذلك تأمر كبار قادة تكدار للإطاحة به ونجحوا في ذلك ، فلم يلبث أن لقي مصرعه في نفس العام ، وتولى أرقون الحكم^(٣٦) .

(٣٣) عبد السلام قمي : المرجع السابق ص ١٦٥

(34) D'Ohsson : Op.cit.3,pp.552-4

(٣٥) الميراثي : القول ص ٢٠٣

(٣٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٥٤٦

الشكندري : المصدر السابق ج ٥ ص ١٢٠

تولى الحكم في ذلك الجزء من الإمبراطورية المغولية بعد تكودار أخوه أرغون بن أبغا (١٢٨٤-١٢٩١م) وكان يونياً مثل والده أبغا وجدّه هولكو، لكنه سلك نفس السلك تجاه المسيحيين واليهود فشمّلهم برعايته وعظّمه، وأسند إليهم الوظائف الهامة في الإدارة، خاصة في النواحي المالية^(٣٧)، وأعاد عمارة الكنائس التي دمرها تكودار ولقى المسيحيون بصفة خاصة منه عطفًا ومحبّة، وشجّعته زوجته المسيحية النسطورية ابنة أخت الملكة الراحلة طغرخاتون (زوجة هولكو) على هذه السياسة وأنجبت له ابناً تسمّره باسم تغولان وهو الذي أصبح الخان أولجايتو فيما بعد^(٣٨).

ويمكننا أن نستخلص من ذلك كله أن إمبراطورية المغول انقسمت بعد عهد جنكيز خان إلى أربعة أقسام: قسم القسم الأول منها الموطن الأصلي في منغوليا وما حولها وامتد القسم الثاني في الشرق فشمل ما فتحه جنكيز خان وخلفاؤه في الصين وما حولها، وقسم الثالث بلاد فارس وما استولى عليه جنكيز خان من الدولة الخوارزمية، وشمل القسم الرابع والأخير بلاد القفجاق أو القبيلة الذهبية والأراضي الممتدة إلى الغرب والشمال الغربي للدولة تجاه القوقاز وبحر قزوين وبرزارى روسيا وما كانت تشغله الإمارات الروسية ذاتها.

وبعد وفاة جنكيز خان ولّى الخاتمة المنظم طبقاً لتنظيم الغول وتعاليم الياسا في الفترة التي تمثّلنا على امتداد القرن الثالث عشر كل من: أوكتاى ثم كيوك ثم انتقل الحكم إلى مونكو بن تولوي ثم إلى أخيه

(37) Morgan : Op.cit.pp.164-5

(38) عبد السلام قنسى : المرجع السابق ص ١٧٢-١٧٣

قويلاى بن تولوى .

وإذا كانت خاتنة القفجاق أو القميلة الذهبية لها أهميتها بين هذه الأقسام باعتبار خاناتها قد أظهروا عطف علي الإسلام والمسلمين ، بل اعتنق بعضهم الإسلام ، وكانت لهم مواقفهم الطيبة تجاه المسلمين ، إلا أنه ما يهتما في هذا الموضوع بالذات هو خاتنة فارس ، التي ولي أمرها هولاءكو -ذائع الصيت- يتكليف من الخان الأعظم مونكووقويلاى ، ومثل حكمها توابا للخان الأعظم في هذه الخاتنة إن توارث الحكم فيها أبناء هولاءكو وأحفاده ، فاعتلى حكمها بعد هلاكو ألبا بن هولاءكو ثم أخوه توكودار بن هولاءكو ، ثم أرغون بن ألبا حفيد هولاءكو حتى سنة ١٢٩١ م أي إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي الفترة التي تهتما في هذا الموضوع.

أما من توسعات القول في تلك الفترة أي بعد جنكيز خان وحتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ، فقد سبقت الإشارة إلى أن جنكيز خان كان قد أرغم جلال الدين منكبرتي على الإلتجاء إلى الهند^(٣٩) . إلا أن هذا ما لبث أن غادرها سنة ١٢٢٣ م / ٦٢٠ هـ إلى كرمان ، بعد عودة جنكيزخان إلى بلاده ، ثم اتجه جلال الدين إلى فارس فوطد سلطانه في شمال فارس معتمدا على ماكان هناك من نفوذ للخوارزمية في تلك الجهات ، ووجود أحد إخوته الذي يابر بإعلان ولائه لأخيه ، كما أعثت الفرق العسكرية في تلك الجهات ولأمرا لجلال الدين ، فقرر هذا النفسى إلى بغداد لقتال الخليفة^(٤٠) العباسي ، إلا

(٣٩) ابن العربي : تاريخ مختصر الدول ص ٢١٢-٢١٣

(٤٠) العربي : القول ص ٢٦٦-٢٦٧

أنه أشهر قسوة في معاملة السكان وارتكب رجاله كثيرا من المظالم والتسوق، فانفتح الطريق أمامه إلى بغداد، لكنه ما لبث أن اتجه إلى الشمال إلى أذربيجان فهرب أنابكها من تبريز، فأذهن سكانها لجلال الدين فدخل هذه المدينة سنة ١٢٢٥م، واتخذ منها جلال الدين قاعدة للوثوب على بلاد الكرج أو مملكة جورجيا المسيحية التي درج حكامها على مساندة الفرنج ضد الأمراء المسلمين^(٤٢)، فتوجه جلال الدين لقتالهم في نفس العام وأنزل بهم هزيمة ساحقة، وأردفها بنصر آخر عليهم في العام التالي، ودخل رجاله عاصمتهم تفليس واستباحوها، ولم تفلح محاولات الكرج لاستعادة بلادهم، وتوعد سلطان جلال الدين في أذربيجان^(٤٣).

صار جلال الدين متكبرتي بذلك سيداً على غرب إيران، فخضع له كرمان وفارس والعراق المجرى وأذربيجان، واتخذ عاصمته في أصفهان وتبريز، فاستعاد بذلك الجانب الغربي من الإمبراطورية الخوارزمية. ويخبر المؤرخون إلى أن هذا الفارس المنقر إلى الروح السياسية لأنه لم يحاول أن يقيم مملكته الجديدة على نظام متين صلب، حتى يتسنى له الاستعداد للقاء التتار والانتقام منهم لما أنزلوه بوالده وأسرته من خسائر^(٤٤)، بل أنه سرعان ما انزلق إلى عداة وخضام مع من يقرض أنهم حلفاؤه في غرب آسيا، واتجه بحملة لتهديد بغداد سنة ١٢٢٤م، وأفاد من الخصومات التي وقعت بين أفراد البيت الأيوبي في مصر والشام والجزيرة^(٤٥)، واستجاب لدعوة العظم العيسى صاحب دمشق

(٤٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٨٣

(42) Morgan : Op.cit, pp.69-71

(٤٣) ابن واصل : ملوك القرويه ج ٤ ص ١٢٨-١٢٩
العيني : التوكل ج ١ ص ١٦٩

(44) Setton : A Hist. Of the Crusades, Vol. 11, p.449

لمحاربة أطويه الأشراف والكامل ، فتقدم جلال الدين منكبرتي لمهاجمة أخلط^(١٢٢) سنة ١٢٢٦ م وهاجمها ، فاستسلمت المدينة في إبريل سنة ١٢٣٠ ، وتعرض سكانها للقتل أو الأسر ، فترتب على ذلك تحالف سلطان سلجقة الروم صاحب قونية والملك الأشرف حاكم الجزيرة وأخلط ضد جلال الدين ، وهاجموا التتار في القرب من آذربيجان . فحلت بالخورزمية هزيمة ساحقة في أغسطس سنة ١٢٣٠ ولأن جلال الدين بأنذربيجان واستقر الصلح بين الجانبين^(١٢٣)

وتم يكس جلال الدين يعود إلى تبريز بأنذربيجان ، حتى علم بتقديم المغول لمطاردته ، في الوقت الذي لم يبق فيه أحد من المسلمين حليفا له بل أظهر الجميع العداء له ، كصاحب آذربيجان وصاحب أخلط وصاحب بلاد الروم وكذلك الأسماعية ، فضلا عن الخليفة العباسي ، لما شته جلال الدين من حروب لا تنزاع الجلال من أيديهم ، وتمويش ما فقد إلى أيدي جنكيز خان ، فتخلي الجميع عن مساعدته^(١٢٤) .

وكان أوكتاى الذى خلف جنكيز خان ، قد أنفذ جيشا من المغول بلغ عدده نحو ثلاثين ألف جندي للقضاء على جلال الدين ، وذلك سنة ١٢٣١ م معتقدا على ما زعمه المغول من خـ.زف في نفوس سكان البلاد الإسلامية في خراسان وما وراءها غربا : فلم يكن هذا الجيش أثناء تقدمه مقاومة تذكر ، فاستولى المغول على الرى وهمدان وما بينهما من أراضي ، ثم مشوا إلى آذربيجان فدمروا وخربوا ونهبوا وقتلوا من لقروا به من

(١٢٢) يوشافة : الذين على القوشين في أخبار الدولتين ص ١١٨ ، نشر للمعارضة ١٩٩٧
ابن الجوزى : حياة الزمان في تاريخ الأئمة ج ١ ص ٢٠٠ ، نشر شيخاغو سنة ١٩٠٧

(١٢٣) المعري : المغول ص ١٧٠-١٧١

(١٢٤) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٨٣

أهلها^(٤٨) ، في الوقت الذي لم يجرؤ فيه جلال الدين على لقائهم " فقد على رعباً وطولاً " ، قسلاً عن اختلاف عساكره معه ، وخروج وزيمه عن طاعته ، ففر إلى سهول مراغة : ثم إلى أخلاط يلتمس الالتجاء ، حين أحس بتعقب المغول له ، وراح يطلب مساعدة الأمراء المسلمين والخليقة العباسي ويحذرهم عاقبة إيمانهم ، إلا أن الجميع تقاعس عن نصرته ، ولم ينهض أحد لمساعدته ، فأتجه إلى آمد فدعاه المغول وتفرق عساكره وتخطفهم الأمراء المسلمون انتقاماً لما سبق وأن ارتكبهوه من أعمال القتل والتخريب خاصة في أخلاط^(٤٩) ، فأتجه المغول إلى ديار بكر بالجزيرة وإربل وأخلاط ، فأنزلوا بأهلها كل قبيل ، ولم يجرؤ أحد على منعهم أو الوقوف في وجههم في الوقت الذي فر فيه جلال الدين إلى جبال كردستان وهام على وجهه ، حتى عثر عليه بعض الأكراد فقتلوه ، بعد الهزائم التي أنزلها به المغول في ميافارقين^(٥٠) سنة ١٢٣١ / ٦٢٨ هـ ، وجاء ذلك نذيراً وقالاً سيلاً لسلبي الشرق الأدنى أحسن به حكمه وأمرأؤه خاصة الأشرف موسى ، الذي أثر عنه قوله : " والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام " ^(٥١) في الوقت الذي تفرق فيه جيش جلال الدين ، وراح يتهرب المناطق الواقعة على أطراف الجزيرة وإيران ، وأحدثوا الخراب والدمار بمسكان كثير من هذه المناطق وبعض مناطق أرمينيا ، وعرضوا خدماتهم على من هو في حاجة إليها طلباً للعيش كجند مرتزقة^(٥٢) .

(48) Morgan : Op.cit. p.71

(٤٩) الذهبي : المعبر في خبر من طبرج ج ٢ ص ١١٠

(٥٠) الذهبي : المصدر السابق ج ١ ص ١٦٤

(٥١) أبو المحاسن بن تفرج بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٧

(52) Semon : Op.cit. 11, p.663

ثم مضى المغول إلى ديار بكر بالجزيرة وأربيل ، فأعمنوا في القتل والتخريب وأثاروا الخوف في قلوب الناس وارتكبوا الأعمال الوحشية حتى قيل أن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية فيجمع من بها من الناس ، فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد فلا يتجاسر أحد على مد يده إلى ذلك القترى ، ويذكر ابن الأثير أن رجلاً من هؤلاء القطار عزم على قتل رجل ولم يكن مع هذا القترى سلاحاً يقتله به فقال له : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح ، فوضع السكين رأسه على الأرض فعضى القترى فأخضر سيفا فقتله به ^(٨٣) .

وهكذا سيطر المغول على الأقاليم التي كانت خاضعة للدولة الخوارزمية وبعض الأقاليم الأخرى ، ولم يكن تجاههم في ذلك بسبب الخلقاء آخر سلطان خوارزمي وقف في وجههم وحاول التصدى لهم ، وظلو الهدان معين يمكن أن يواصل نفس الاتجاه ، لم يكن تجاههم بسبب ذلك فحسب ، بل أيضاً لتفاسد الأسراء والحكام المستقيمين وشعوبهم من تجدة الخوارزمية وترك آخر سلاطنتهم يلقي مصيره المحتوم ^(٨٤) .

وبما زرعه المغول من خوف في نفوس الناس ، دون أن يجدوا مقاومة ، سيطروا على فارس حتى سنة ١٢٤١ م - وعلى آذربيجان وأران وأرمينيا ، ثم ظهروا في أصالي القراات : وأثاروا الرعب في بلاد الشام وأزمعوا على غزو بلاد الخلافة العباسية في العراق العربي والبلخ الجزيرة التابع للأيوبيين - وآسيا الصغرى الخاضعة للسلاجقة ^(٨٥) ، وحين

(٨٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٣٨٨

(٨٤) عبد السلام فهمي : أترجح الشان : ص ٩٤

(٨٥) Morgan : Op.cit p.145

تأكيد الخليفة المستنصر بالله العباسي أن الفول هازمين على قصد بغداد سنة ١٢٣٧م بعث إلى السلطان الكامل محمد الأيوبي يستجد به، فأمر هذا بتجنيد عشرة آلاف جندي من مصر والشام لنجدة الخليفة^(٥٧).

ولم يؤد تهديد الفول للبلاد الإسلامية إلى اتحاد حكام وملوك وأمراء هذه البلاد ووجدتهم لمد هذا الخطر، بل وقع التنازع والتناحر بينهم، بين سلاجقة الروم في قونية والأيوبيين في الجزيرة وبلاد الشام، ووقعت الحرب بين الجانبين، وأدخل سلطان سلاجقة الروم جموع الخوارزمية في جيش كجند مرتزقة بعد مقتل جلال الدين منكبرتي، واستعان بهم في حروبه ضد الأيوبيين^(٥٨).

واصل الفول اجتياحهم للشرق، فأخضعوا بلاد الكرج المسيحية، فأعلن هؤلاء إذعانهم للفول، وأقروا بالخضوع لهم، فعادت ملكتهم إلى العاصمة تقيس، ولم يبالغ الفول في عدائهم للمسيحيين لأنهم القادة الفول كان أجدادهم من الساطرة المسيحيين بل أن السلطان الأعظم أوكثاي أوصى قاداته بحماية الأرمن وبعث من تولى أمور المسيحيين^(٥٩)، ثم واصل الفول الحروب مع سلاجقة الروم بآسيا الصغرى فسقطت في أيديهم أرزنوم سنة ١٢٤٢م، ثم ألحقوا بالسلطان كيخسرو الثاني هزيمة ساحقة بالقرب من أرزنجان سنة ١٢٤٣م واستولوا على سيواس وخرموا قيصرية ونهبوها وفر كيخسرو الثاني إلى الحدود البيزنطية^(٦٠) واستقرت

(٥٧) القزويني: الملوك ج ١ ص ٢٥٧-٢٥٨

(٥٨) العرفي: الفول ص ١٧٥-١٧٦
(58) D'Ohsson: Op.cit.2,pp.69,208-296,3,pp.469-97
Browne: The eclipse of Christianity in Asia pp.147-9
Howarth: Op.cit.111,pp.208-77
(59) Morgan: Op.cit.p.145

الأمر على أن تؤدي الدولة السلجوقية كل سنة أربعة آلاف دينار كجزية ، وترسل الإمدادات اللازمة للمغول كلما طلب منها ذلك ، وكان ذلك إيذاناً بزوال دولة السلاجقة التي بدأ الضعف والاضمحلال يتحدر في عظامها في الوقت الذي زاد فيه سلطان المغول ، حتى امتدت أملاك المغول إلى حدود الدولة البيزنطية ، وامتدت سيادة المغول على آسيا الصغرى ، فضلاً عن فارس وبلاد الكرج واعترف هوشوم ملك الأرمن بسيادة المغول سنة ١٢٤٤م^(٦١) .

وفي عهد أوكتاى أيضاً جرت توسعات المغول في أوروبا ، وامتدت فتوحاتهم في جزء كبير من تلك القارة لاسيما في شرقها في الوقت الذي لم يحصل فيه حكام أوروبا كثيراً بهذهؤلاء المغول في أول الأمر ، ولم ينتبهوا كثيراً لخطرهم القادم من أقصى الشرق ، فضلاً عن أن هذا الخطر جاء في وقت لم تكن فيه أوروبا مستعدة للتصدي له ، حتى بعد أن اجتاز المغول جبال القوقاز لأول مرة سنة ١٢٢٢م زمن جنكيز خان^(٦٢) ، واجتياحهم لأطراف روسيا ولهذا فقد بدأت مشروعات المغول لغزو أوروبا في وقت مناسب لهم ، وبعد أن استقرت الأوضاع في الإمبراطورية المغولية ، واستولى الخان أوكتاى على عرش تلك الإمبراطورية^(٦٣) .

فقد وجه هذا الخان جيشاً تتألف من نحو خمسة عشر ألف مقاتل لمواصلة الحرب في أوروبا تحت قيادة بياتو خان استلمس الآراي والأوراي ويشترك فيه ممثلون من كل فروع أسرة جنكيز خان من أولاد

(٦١) عهد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٦٢) خيول آدم : جنكيز خان ص ١١٨ .

(٦٣) العمري : المغول ص ١٨٤ .

جوجي ومن أولاد وأحفاد أوكشاي ومن أولاد وأحفاد جيتشاي^(٦٣). واستهلكت الحملة أعمالها في خريف سنة ١٢٣٦م بالزحف إلى أوروبا ، فدمرت مملكة البلغار التركية وحطبت ونهبت حاضرتها التجارية الواقعة بالقرب من نهر الفولجا ، ثم في ربيع سنة ١٢٣٧م هاجم المغول الترك التاتاريين في البراري الروسية ، والذين عرفهم المسلمون باسم القفجاق وأطلق عليهم الصجريون والبيزنطيون اسم الكومان ، فأعلن جانب من هؤلاء القفجاق الخضوع والإذعان ، فأصبح العنصر التركي هو أساس سكان خانية القوق التي عرفت بخانية القفجاق والتي اشتهرت باسم القبيلة الذهبية التي حكمها أحد فروع بيت جوجي . ثم قاد بركة حملة أخرى سنة ١٢٣٨م فأتمت إخضاع القفجاق^(٦٤).

ولعل أهم توسعات القوق في أوروبا ما حدث من اجتياحهم لروسيا ، فقد بدأوا بإخضاع منطقة البراري في جنوب روسيا في شتاء سنة ١٢٣٩-١٢٤٠م وسيطروا على المدينة التي اتخذها اللان حاضرة لهم^(٦٥) ، في تلك الجهات في الوقت الذي سارت فيه حملة مغولية أخرى للقتال الإمارات الروسية ذاتها مستغلين فرصة ما كان جارياً في تلك البلاد من نزعة انفصالية بين الأمراء الروس ، وحرص على استقلال كل أمير عن الآخر ، ونجح المغول في السيطرة على تلك الإمارات واحدة تلو الأخرى ابتداءً من سنة ١٢٣٧م ، حيث أهلكوا سكانها وقتلوا ونهبوا وسبوا

(63) Morgan : Op.cit.pp.173-4

(64) Morgan : Op.cit.p.174

(٦٥) عرفت بمدينة مداف أو منقاس ، انظر العريضي : المغول ص ١٨١

وأَنزَلُوا الرِّعْبَ وَالْفَزَعَ فِي قُلُوبِ الْمَسِيحِيِّينَ هُنَاكَ^(٦٦٦) وَدَمَرُوا وَخَرَّبُوا عَلَى عَادَتِهِمْ فَلَمْ يَبْقَ -عَلَى حَدِّ قَوْلِ أَحَدِ المؤرخين - "مَنْ يَشْرِفُ الدَّمْعَ عَلَى الْقَتْلِ أَوْ يَرَوِي خَيْرَ مَا وَقَعَ مِنْ كَارِثَةٍ" ، وَتَقْدِمُ الْمَغُولُ نَحْوَ مُوسْكُو الْقَتْلِ تَعَرَّضَتْ لِلنَّهَبِ وَالتَّدْمِيرِ فِي فِبرَايِرِ سَنَةِ ١٢٣٨ م ، وَاقْتَحَمُوا هَدَداً مِنْ الدِّينِ الأُخْرَى الهَامَّةِ فِي بِلَادِ الرُّوسِ^(٦٦٧) ، فَاسْلَعُوا النِّيرانَ فِي بَعْضِهَا وَأَحْدَلُوا مَذْبَحَةَ مَرْوَمَةَ فِي مَدِينَةِ فِلَادِيمِيرَ وَقَتَلُوا كُلَّ السَّكَّانِ فِيهَا ، حَتَّى الَّذِينَ لَجَأُوا إِلَى الْكَثَائِلِ حَيْثُ أَحْرَقَتَهُمُ النَّيرانُ ، وَجِئَتْ آخِرُ مَقَاوِمَةِ الرُّوسِ تَحْتَ قِيَادَةِ أَحَدِ أَمْرَانِهِمْ فِي مَارِسِ سَنَةِ ١٢٣٨ م عَلَى ضِفَافِ نَهْرِ سِيَتَا كُو سِيَتِي فَحُلِبَتْ الْهَزِيمَةُ فِيهَا بِالْأَمِيرِ الرُّوسِيِّ وَقَتْلَى مِصْرَعُهُ فِيهَا^(٦٦٨) ، وَلَمْ يَنْقُذْ مَدِينَةَ تَوْجُرُودَ الشَّهِيْرَةَ إِلَّا مَا حَدَثَ مِنْ ذَوْبَانِ اللَّوْجِ الصَّحِيْفَةِ بِهَا فَخَوَّلَتْ الأَرْضَ إِلَى مَسَلَّتَقَاتِ تَمَشَارَ عَلَى أَنْخِيَوِ الْخُيُوشِ. فِيهَا ، ثُمَّ وَاسَلَ الْمَغُولُ زُحْفُهُمْ فِي نِوَايَةِ سَنَةِ ١٢٤٠ م إِلَى أُوكْرَايَا فَاسْتَوْلُوا عَلَى كِييْفَ وَدَمَرُوهَا فِي دِيْسَمِبَرِ سَنَةِ ١٢٤٠ م ثُمَّ نَهَبُوا مَا جَوْلَهَا مِنْ أَرْضِي وَبَارَاتِ وَأَجِيرِيَا الأَمْزَاءَ عَلَى الْفَرَارِ إِلَى الْمَجَرِ^(٦٦٩) .

وَأَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ الدَّوْرِ عَلَى كُلِّ بِلَادِ بُولْغَارِيَا وَالدَّيْمِيرِ ، فَهَذَا إِتْرَاقُ جَيْشِ مَقْوِلَ الْقَتَالِ بُولْغَارِيَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي مَضَى فِيهِ جَيْشُ مَقْوِلَ آتَمِ لِلزَّحْفِ عَلَى الدَّيْمِيرِ ، فَبَلِي سَنَاتُ ١٢٤٠-١٢٤٦ م اِتَّقَتِهُمُ الْغُزُوكُ فَرَسِيَا تَجَمُّدَ مِيَاهِ نَهْرِ الْفَسْطَقُولَا ، فَاجْتَلَزَوْا النِّسْرَ فِي فِبرَايِرِ سَنَةِ ١٢٤٦ م .

(٦٦٦) مصطفى جاله بدر : مغول إيران ص ٩٠

(٦٦٧) Morgan : Op.cit.pp.143-4

(٦٦٨) الصيرفي : المغول ص ١٤٠

(٦٦٩) Marensi : Op.cit pp.1 - ٢

واجتاحوا بولندا^(٢٠١) ، فاضطر الأمير البولندي بولسلاف الرابع إلى الهرب إلى مورايا ، فاشعل المغول النار في أهم مدن بولندا ، واضطر السكان للهرب ، وهاموا على وجوههم ، ثم اجتاز المغول نهر الأودر ، واشتبكوا في قتال مع دوق بولندا هنري الذي كان يقود جيشا تألف من نحو ثلاثين ألف مقاتل من البولنديين ، فغلا عين التحق بهم من صليبي ألمانيا والفرسان التيوتيون ، إلا أن المغول نجحوا في إلحاق هزيمة ساحقة بهذا الجيش في إبريل سنة ١٢٤١م والى الدوق البولندي هنري مصرعه في تلك المعركة^(٢٠٢) ، وترتب على ذلك أن غارت المغول الفساد في مورايا ، ونهبوا وحاربوا وأحرقوا كثيرا من النوازل يسكن هذه البلاد قبل أن يلاحقوا بالجيش الآخر التوجه لقتال المجرين^(٢٠٣) .

وفي نفس الوقت اتجه القسم الثاني من جيش المغول تحت قيادة باتو ويضم ثلاث فرق عسكرية للتوغل في بلاد المجر . فتلصت الفرق الأولى إليها من جهة الشمال بين براتوليسا ومورايا ، واتجهت الفرقة الثانية نحو غاليسيا ، حيث ألزمت الهزيمة يحاكم هذه المقاطعة في مارس سنة ١٢٤١م ، حين تمسدى نيسم محاولا الدفاع عن ممرات جيش الكرويات ، أما الفرقة الثالثة فقد اتجهت من مولدافيا متوغلا في أرض المجر ، حينئذ انتهت بعض المدن ودمرتا وقتلت سكانها^(٢٠٤) ثم هاجمت هذه الفرق للجمع من جديد في إبريل سنة ١٢٤١م أمام مدينة يست التي اتخذها ملك المجر بيلا الرابع مركزا للمقاومة وحشد فيها

(٢٠١) مصطفى دله بيلر ، مغول يوران ص ٤٠

(٢٠٢) الغزالي ، المغول ص ١٨٢

(٢٠٣) Morgan : Op.cit.p.119

(٢٠٤) الغزالي ، المغول ص ١٨٢-١٨١

جيشاً كبيراً إلا أن القوات المغولية نجحت في إشرال هزيمة قاسية بالقوات المجرية في إبريل سنة ١٢٤١ م ، واستولت على مدينة بست التي جعلها المغول ثمنه للنيوان ، بينما اضطر بيلا الرابع ملك المجر إلى الفرار نحو ساحل البحر الأدرياتي^(٧٤) ، وأعمل المغول سيوفهم في سكان المدينة وما حولها ، فأحدثوا مذابح رهيبة بين سكان المجر ، فخضعت المغول كل البلاد حتى نهر الدانوب ، باستثناء بعض القلاع الصغيرة التي جد المغول في اقتحامها ، واجتازوا نهر الدانوب في نهاية الأمر منتهزين فرصة نجمد مياهه في ديسمبر سنة ١٢٤١ م^(٧٥) .

أمضى المغول الصيف والخريف سنة ١٢٤١ م في سهوب البلقان وبرايمها التي تماثل سهوب بلادهم ، ولم يجر من القتال إلا ما حدث من مطاردة ملك المجر بيلا الرابع الذي كان قد لجأ إلى كرواتيا ، ثم إلى أرخبيل دالماتيا حين اقتربت منه قوات المغول فأنزل المغول الخراب والدمار في بعض المدن الواقعة على البحر الأدرياتي^(٧٦) ، ثم انسحب المغول إلى بلاد المجر في مارس في العام التالي (١٢٤٢ م) ، وهكذا انساب المغول فوق رقعة أوروبا الشرقية ، فلم تعد ثمة حدود للمنطقة التي انتشر فيها المغول ، ولم يتوافر الأمن لمدينة من المدن في تلك البقاع ، فقد بدأت أوروبا تستسلم لجحافل المغول حين اكتسحوا شرقها وأزعموا التقدم إلى أبعد من ذلك^(٧٧) .

ويشير المؤرخون إلى أن غرب أوروبا لم يتقده في ذلك الوقت من هذه المحنة سوى وفاة الختان الأعظم أوكشاي سنة ١٢٤١ م ، الأمر الذي

(74) Morgan : Op.cit.p. 138

(٧٤) العربي : نفسه ص ١٨٢

(76) Morgan : Op.cit.p. 138-9

(٧٦) العربي : المغول ص ١٨٢

استوجب عودة باتو قائد الجيوش الغازية في شرق أوروبا إلى العاصمة المغولية قراقورم للاشتراك في اختيار الخان الأعظم الجديد^(٧٨)، فتوقفت التوسعات المغولية في أوروبا، ونجا الشطر الغربي من تلك القارة من خطر الغزو المغولي.

وهكذا اجتاع المغول شرق أوروبا فبدأوا بمملكة البلغار التركية ودخلوا عاصمتها الواقعة بالقرب من نهر الفولجا، ثم استولوا على براري روسيا أو بلاد الفلجان، وشكلوا خاتمة الفلجان التي اشتهرت باسم خاتمة القبيلة الذهبية التي حكمها أحد فروع بيت جوجي من جنكيز خان، وأتم بركة خان إخضاع بقية هذه المناطق وضمها إلى خاتمة الفلجان^(٧٩)، ثم اجتاعو روسيا وقسوا على إمارتها واحدة تلو الأخرى ودمروا مدنها الهامة، ثم اتجهوا إلى بولندا فاجتاحوا وقتلوا دوقها هنري وعالتوا الفساد في موزافيا ثم اتجهوا إلى المجر، فاجتاحوا مدنها وخرّبوا ودمروا أراضيها وقتلوا سكانها، وأجبروا ملكها بيلا الرابع على الفرار نحو ساحل الأدرياتي^(٨٠)، فأخضعوا كل البلاد حتى نهر الدانوب، وأمضى المغول في هذه الحملات على أوروبا الفترة فيما بين سنتي ١٢٣٦م وسنة ١٢٤٢م فسيطروا على مساحات شاسعة من أوروبا صارت من أملاك باتو.

وإذا لم يكن حكم أوروبا قد تنبهوا إلى خطر المغول في أول أمره منذ أن اجتاز هؤلاء جبال القوقاز لأول مرة سنة ١٢٢٢م زمن جنكيز خان، إلا أن الأمر تغير منذ سنة ١٢٣٨م حين اندفع المغول في

(٧٨) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٤
(٧٩) Morgan : Op.cit, p.174

(٨٠) الخريش : المرجع السابق ١٨٤

لتفوحاتهم في تلك القارة فعلا بشيء من الجسارة وكثير من القتل والتخريب والتدمير وإحداث المذابح الرهيبة والحرائق المدمرة حيث أنزلوا الرعب والفرع في قلوب المسيحيين هناك^(٨١) ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لما أظهره الإسماعيلية الشيعة في قلعة الموت جنوب بحر قزوين ، الذين امتد سلطانهم إلى المناطق المجاورة في شبكة من المعاقل والحصون في فارس والعراق^(٨٢) ، اهتماما متزايدا بالخطر الممؤل وثبوا حكام أوروبا إلى حقيقة هذا الخطر القادم من الشرق ، بإرسال سفارة إلى غروب أوروبا سنة ١٢٣٨م تحمل هذا المعنى والإحساس المتزايد بهذا الخطر ، خاصة وقد أرسل هولانكو رسالة إلى حكام وأمرأه إيران يقول فيها : " لقد أتينا إلى هنا بناء على أمر الخزان الأعظم وعزمنا على تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء على تلك الطائفة ، فإذا ساعدتم معنا في تلك العملية بالجيش والعدد والآلات ، فسوف تهلى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ... أما إذا تمناوتكم ... فإننا... نتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم ."^(٨٣)

ويشير المؤرخون إلى أن هؤلاء الإسماعيلية -طبقا لهذا - اعتبروا أنفسهم القرينة التالية للمغول ، وقد أثارهم معبر جيرانهم المسلمين ، وأدركوا أنهم أحد الأهداف القادمة للمغول فتحركوا في اتجاهين ، الاتجاه الأول حاولوا فيه أن يؤلفوا من الشعوب التي تعرضت لخطر المغول حلفا لمواجهة هذا الخطر بما في ذلك من كانوا أعداء الإسماعيلية^(٨٤) ، وفي

(٨١) مصطفى طه بدر : مغول إيران ص ٨

Morgan :Op.cit.pp.174-7

(82) Seton: Hist. of the Crusades, Vol.1, pp.99-128

(٨٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ص ٣٤٠ الترجمة العربية (

(٨٤) العريضي : المغول ص ١٨٤-١٨٥

نفس الوقت أنفذوا إلى أوروبا ستة ١٢٣٨م م رسلاً إلى ملوك إنجلترا وفرنسا يعلمونهم بهذا الخطر ، ويطلبون في نفس الوقت المساعدة شارحين لهما ما اشتهر به للغول من قسوة وميل لإثارة الرعب والخوف وما قاموا به في البلاد التي غزوها من تدمير وتطريب وقتل بطرق غاية في الوحشية^(٨٥) ، وتحمس الإسماعيلية لإثارة ملوك أوروبا ضد المغول خاصة بعد أن هرع الحكام المجاورين، والقائمين بالحكم في آسيا الصغرى وما حولها على تقديم قروض الطاعة والولاء للمغول^(٨٦).

وإذا لم يكن كل من ملك إنجلترا وملك فرنسا قد أولى هذه المرحلة الاهتمام الكافي فإن الإمبراطور فريديك الثاني إمبراطور ألمانيا والصقليتين، قد أدرك فعلاً خطورة الموقف، وبأمر بإرسال رسالة إلى ملك إنجلترا هنري الثالث يطلب منه القيام بعمل مشترك ضد المغول ، لحماية أوروبا من غزوهم^(٨٧) ، واستجابت الكنيسة الغربية ، فألهمت في تنبيه الناس في أوروبا بالخطر المغول ، وألححت إلى أنه يمكن أن يكون عقاباً من السماء إذا لم يلتزم الناس الرحمة والغفران . ويلجأون إلى الصوم وأعداد العدة لوقف هذا الخطر ، وتأثر أمراء آخرون في أوروبا بدعوة الإمبراطور فريديك الثاني ، وساد الخوف من هذا الخطر في جنبات كثيرة من

(85) Mathew Paris' s English Hist, Vol.1, p.131

رئيس عبرة من البابايس.
" About this time, special ambassadors were sent by the saracens, chiefly on behalf of the old man of the mountain, to French king, telling him that a monstrous and inhuman race of men had burst forth from the northern mountains and had taken possession of the extensive rich lands of the east"

(86) Grousset: L' Empire des steppes, p.247

(87) Morgan : Op.cit, p.179

القارة^(٨٨)، حتى أشار مؤرخ معاصر إلى أنه في نفس العام الذي بدأت فيه جحافل المغول تفتاح روسيا وشرق أوروبا أي ابتداء من سنة ١٢٢٨م عم الخوف حتى بلاد الشمال ، وأقصى شرب أوروبا حتى امتنع صيادو السمك في جوثلند وفريزلند من القدوم إلى إنجلترا جرّبا على عاداتهم لمسد سمك الثوتة ، وأحجم آخرون عن مواصلة نشاطهم البحري في تلك الجهات خوفا وتحسبا لهجمات المغول^(٨٩).

وعلى الرغم من كل ذلك لم تكن المواقف في أوروبا على مستوى هذه الأحداث ، ولم يحصل سفره الإسماعية إلا على وصول جوفاء وأجابهات لا تشلي الغليل ، بل انشغل الناس في أوروبا بما كان جاريا من صراع بين البابا والإمبراطور^(٩٠) ، وقصر البعض دعوة الإمبراطور فريديك الثاني للتكاتف ضد المغول بأنها محاولة لتفشل الجميع عما كان يجري بينه وبين البابا ، واستقلال التكاتف الأوروبي لمساندة قضيته ضد البابا ، بينما ذهب فريق آخر من الناس إلى أنه من الأفضل ألا تتحرك أوروبا لمحاربة التتار وتركهم يحاربون المسلمين فيضعف الجانبان ويتحفظا ، فيتم التصر بذلك للمسيحيين^(٩١) في الشرق وفي الغرب ، بينما لم يظهر فريق ثالث من الأوروبيين اهتماما بهذا الخطر لأنه لايشغلهم سوى ما يتعلق بالحروب الصليبية وما كان يجري بين الصليبيين والمسلمين في الشرق ، ومدى صعود بقايا الكيان الصليبي في بلاد الشام وفلسطين في ظل عداء المسلمين^(٩٢).

(88) Matthew Paris's English Hist.Vol.1,pp.131-2

(٨٩) العربي : المغول ص١٨٦

(90) Morgan : Op.cit.p.179

(91) Camb.Med.Hist.Vol.IV,p.639

Mathew Paris 's English Hist.Vol.1,P.132

(92) Morgan : Op.cit.p.176-7

في الوقت الذي تركز فيه فكر البابوية بدرجة كبيرة ، على ما كان جارية بينها وبين الإمبراطورية من نزاع ، ولم تول أمرا آخر اهتماما كبيرا ، على الرغم من أن البابا جريجوري التاسع أرسل قبل وفاته كتابا يعرب فيها عن عطفه على مملكة الكرج المسيحية مما أصابها على يد المغول ، وكذلك على ما جرى لملك الدجر الذي تعرض لاجتياح المغول ، وجرت المذابح الرهيبة بين رعاياه ، على أيدي هؤلاء الغزاة الطفلة⁽⁹⁴⁾ ، ولكن فكر البابا وجهه انصرف حينئذ لمركته مع الإمبراطور ، حول ما سبق وأشرنا إليه من فكرة السمو والتفوق والتقليد العلماني ورغبة البابا في إجبار الإمبراطور فردريك الثاني على الانصياع والطاعة ، ولم تتنفس أوروبا الصعداء إلا بعد أن توفي خان المغول الأهمم أوكتاي وانسحاب للمغول إلى روسيا سنة ١٢٤٢م⁽⁹⁵⁾ .

ولما كان البابا إنوسنت الرابع الذي خلف جريجوري التاسع ، والذي اعتلى كرسي البابوية ابتداء من سنة ١٢٤٣م قد أدرك حقيقة الخطر المغولي ، وفكر فعلا في التصدي لهذا الخطر سعوا على خطة من شقين ، الشق الأول منها : الدعوة إلى حشد الجيوش لحربهم وانتفاذ العالم المسيحي من شرهم ، والشق الآخر هو محاولة تحويل هؤلاء المغول إلى المسيحية حتى يكفوا عن مواجهة أوروبا المسيحية⁽⁹⁶⁾ : إلا أن الشق الأول من خطته قد فشل تماما ولم ينتج في حشد الجيوش لمحاربة المغول ، والتصدي لهم على الرغم من أنه منح المحاربين المتطوعين في هذه الجيوش امتيازات روحية ومادية ماثلت ما منحته البابوية لمن

(94) العربي : المرجع السابق ص ١٥٧

(94) Canib. Med.Hist.Vol. 6, p. 135, p. 136

(95) Morgan : Op.cit.p.179-180

شاركوا في الحروب الصليبية في الشرق ، فضلاً عن أنه جعل للحملة المزمع إنقاذها لمحاربة المغول من الكاثبة والاحترام ما حظيت به الحملات الصليبية من الاحترام والتقدير من قبل^(٩٧) ، أما الشق الثاني من خطته فلم يكن في الإمكان تحقيقه عملياً ، وإنما يمكن التفكير في تحقيقه على المدى الطويل ، وللأزمة التالية ، لأن تحويل هؤلاء إلى المسيحية كان يحتاج إلى وقت وجهد كبير ، وذلك خلال اتصالات وعلاقات بين البابوية هؤلاء المغول^(٩٨) .

وكنّا قد أشرنا من قبل إلى توسعات المغول في كل من فارس وبلاد الكرج وأرمينيا وآسيا الصغرى والجزيرة . وذكرنا أن سيادة المغول امتدت إلى حدود الدولة البيزنطية في الفترة بين سنتي ١٢٣١م و١٢٤٤م بعد اعتراف هيثوم ملك الأرمن بسيادة المغول سنة ١٢٤٤م^(٩٩) .

وتبع ذلك توسعات المغول في أوروبا بدايةً بمملكة البلقار وبراغيا روسيا أو بلاد الفلجان ، ثم اجتياحهم لروسيا ذاتها ، وقضائهم على إمارتها الواحدة تلو الأخرى ، ثم اجتياحهم بولندا ، وأردفوا ذلك باجتياح المجر وألخسوا كل البلاد حتى نهر الدانوب^(١٠٠) ، وذلك في الفترة ما بين ١٢٣٦ و١٢٤٢م . ومعنى ذلك أن المغول فيما بين سنتي ١٢٣١ و١٢٤٤م أضاقوا مساحات شاسعة لإمبراطوريتهم بالتوسع في آسيا وأوروبا^(١٠١) ، ثم مضوا في التوسع بالسيطرة على ممتلكات الإسماعيلية في أطراف فارس وبلاد الشام ، فاستولوا على قلعة البوت في ديسمبر

(٩٧) الغريشي : المغول ص ٨٧

(97) Matthew Paris' s English Hist, Vol.1, pp.131-2

(٩٨) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٨

(99) Morgan : Op.cit.p.143-4

(١٠٠) الغريشي : نقده ص ١٨٣

سنة ١٢٥٦ م، وصفي أملاك هذه الفتنة^(١٠١)، وجرى التخلص من آلاف مؤلفة منهم بالقتل ولم يبق على قيد الحياة منهم إلا من اعتصم بجبال فارس، في الوقت الذي لم تجد فيه استقلالات الإسماعيلية بملوك أوروبا خاصة ملك فرنسا وملك إنجلترا^(١٠٢).

ثم جاء الدور على الخلافة العباسية في العراق، وكان على عرش هذه الخلافة عند فلول هولاء، الخليفة المستعصم بالله العباسي، الذي أجيبت المصادر على وصفه بالشعف وسوء التقدير " فلم يكن شديد اليأس بل كان قليل الخبرة بأمور المملكة، وكان أصحابه قد سيطروا عليه وكلهم جهال أرذل"، وذكرت الروايات أن هذا الخليفة أحاط نفسه بكل مظاهر الأبهة والعظمة وحرس على أن يقبض أكثر وقته في سماع الأغاني والتفرج على اللاهي والمساخر^(١٠٣)، بل إنه فشل في وقف اشتداد العداء داخل بلاطه، بين وزيره الشيعي ابن الملقى وكاتبه الشئ أبيك الدوادار، وعلى الرغم من أن بغداد كانت في ذلك الوقت بالغة الحصين والفاعية، وفي وسع الخليفة أن يحشد نحو مائة وعشرين ألف مقاتل للدفاع عنها، إلا أن ذلك كان رهنا بمشيلة الأمراء أصحاب الإقطاعيات الحربية الذين لم يكونوا محل ثقة الخليفة لاهم ولا قيادة الجيش العباسي، الأمر الذي جعل الخليفة يلجأ إلى تخفيض عدد الجيش بما يتسبب له أن يحصل إلى المفقود متحصل هذه الإقطاعيات الحربية

(١٠١) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ من ٢٥٧-٢٥٨ (الترجمة العربية)

الذهبي: المعبر في خبر من شهر جمادى ٢١٦

عبد السلام فهمي: المرجع السابق من ١١٢-١١٣، p. 131-2 Matthew Paris's English Hist. Vol. ٦, p. 131-2 (102)

(١٠٣) قال ابن العبري: " أنه كان صاحب لهو وشغل يلعب بالهوى واستولت

عليه النساء وكان ضعيف الرأي قليل المزم كثير الفتنة عما يجب لتدبير

الدول... انظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول من ٤٤٥

فيتجشّب خطر القول^(١١٤)، فأنططش عدد الجيش العباسي إلى نحو عشرين ألف مقاتل .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما اندلع من حروب داخلية بين العناصر المختلفة خاصة من سكان بغداد من أهل السنة والشيعة والنصارى واليهود ، واندلاع الحرب بين السنة والشيعة في ضاحية الكرخ ، ولموغ هذه الفترة ذروتها في فبراير سنة ١٢٥٧م/٩٥٥هـ ، حين نزل بالشيعة من أهل الكرخ نوازل شديدة على أيدي أهل السنة ، الأمر الذي دفع وزير الخليفة "أبى الخلقسى" الشيعي إلى مكتبة التتار وإطعامهم في بغداد^(١١٥) ، كما تذهب أغلب الروايات التاريخية فصاروا إلى بغداد قاصدين دار الخلافة العباسية .

تقدم جيش هولاكو إلى شرقى بغداد في المحرم سنة ٦٥٦هـ/يناير سنة ١٢٥٨م ، ثم لحق به جيش مغول آخر إلى غربى بغداد ، فأحكما الحصار عليها ، وشرع المغول في مهاجمة أسوار المدينة^(١١٦) ، وكان هولاكو قد أرسل إلى الخليفة المستعصم يطلب أن تكون له السلطات الزمنية في بغداد مثل التي حازها من قبل أمراء بنى بويه وسلطين السلاجقة وقد : "علمت أن الجيوش المغولية منذ زمن جنكيز خان قد أخضعت العالم بأسره.. وأنزلت ضربات الذلة والمهانة بأسرات الطواغيت والسلاجقة وملوك الديلم ومسائر الأتابكة.. فهل تحسب أن تحوّل الحرب ضد

(١١٤) العريفي : المغول ص٢١٤

(١١٥) النعشى : السير في طور من طور ج ٥ ص٢٢٥-٢٢٦

(١١٦) ابن القوطى : الحوادث الجامعة ص٤٢٤

رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ج ٦ ص ٢٨٦

مصطفى طه بدر : مجلة الإسلام الكبرى، ص١٣٢ ، فؤاد عبد المعطي السواد : المغول ص٦٦

لوائثاً^(١٠٧)، وبلغ التهديد ذروته حين قال: " فسوف لا تنجوا مني ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت في باطن الأرض ، فإذا أردت أن تحفظ رأسك فاستمع لصحى يسمع العقل والذكاء " ، في الوقت الذي عجز فيه الخليفة عن إيجاد حل لمواجهة هذا التهديد^(١٠٨) ، خاصة وأنه مال قبل ذلك لمسالمتهم ، وكان يردد "بغداد تكفيني ولا يستكثرونيها على إذا تنازلت لهم عن باقي البلاد ولا يهجمون على"^(١٠٩) فلما وصلوا فعلا وبعثوا بتهديدهم الماقر استقر رأى الخليفة على رفض هذا الإنذار ، وتعرض رسل هولاءكو للأذى من قبل سكان بغداد .

وكان رد الخليفة على هولاءكو شديد التهجة إذ دعاه إلى الإقلاع عن غبه والرجوع إلى خراسان^(١١٠) ، واعتمد الخليفة على أنه يستطيع استغلال ملوك وأمرائه للشرق والغرب وكل المؤمنين بالله ، معتقداً أن الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر سيهرعون للدفاع عن الخلافة ويعلن المسلمون في إيران وتركستان وغيرها من الخاضعين للغول التمرد على حكامهم ، غير مدرك أن الأيوبيين والمماليك كان لديهم من الشاكن ما يحول بينهم وبين مساعدة الخلافة^(١١١) وأنه لن يجرؤ أحد على التحرك ضد الغول بعد أن روج هؤلاء الناس وزرعوا الخوف في نفوس الجميع .

احتشدت جيوش الغول كلها في يناير سنة ١٢٥٨ م/ المحرم سنة ٦٥٦ هـ في شاحية بشرق بغداد بقيادة هولاءكو ووصل عدد هذه الجيوش نحو مائتي ألف مقاتل من الفرسان ، وعلى الرغم من ذلك حاول هولاءكو

(١٠٧) العربي : الغول ص ٢١٥

(١٠٨) مصطفي طه بدر : مجلة الإسلام الكبرى ص ١١٨

محمد باقر حمادة : وقائع الحروب المملوكية والغزو المغولي ص ٣١٤-٣١٦

(١٠٩) ابن السري : تاريخ مختصر الملوك ص ٤١٥

(١١٠) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ص ٢٧٠

عبد السلام فهدى : تاريخ الدولة المملوكية ص ١١٦-١١٧

(١١١) العربي : الغول ص ٢١٦ - ٢١٧

مراوغة الخليفة كسبا للوقت ، فطلب منه أن يحضر إليه بنفسه إذا كان في نيته التسليم ، أما إذا عزم على الحرب فليرسل وزيره والدويدار ليعرفوا مطالب المغول^(١١٢) ، فأرسل الخليفة وزيره ابن الملقمى ومعه عدد من حاشية الخليفة ، فلم يلتفت إليهم هولاكو ، ولم يعرهم أى اهتمام^(١١٣) ، في الوقت الذى كان قد أرسل فيه ثلاث فرق من جيوشه لمهاجمة بغداد من جهة الغرب في سرعة فائقة ، فلما علمت قوات الخلافة بهجوم المغول على بغداد من الجهة الغربية خرجت من بغداد لإحاطة احتشاد المغول ، إلا أن هؤلاء حطموا السدود والجسور ، فأغرقت المياه الأراضي الواقعة خلف جيوش الخلافة ، وبادر المغول بالاشتياك مع من أصبحوا محاصرين ، فقتلوا منهم نحو اثني عشر ألف مقاتل ، ولأن الباقون بالفرار إلى بلاد الشام ، واحتكمت قوات المغول الحصار حول بغداد^(١١٤) ، من الضفة الغربية لنهر دجلة تحت إشراف القادة المغول ، ومن الجانب الآخر بقيادة هولاكو نفسه ومعه كتبا ، وحرسوا على ألا تنهيا الفرصة لأحد من المحاصرين للفرار عن طريق النهر ، ثم ما لبث المغول أن أجهزوا على بقية الحامية التي حاولت الفرار .

عندئذ اضطر الخليفة إلى الخروج لمقابلة هولاكو ، فطلب منه هولاكو أن يامر جميع سكان المدينة بالخروج منها والمعين أيديهم إلى أعلى ، فلما تكامل عددهم قتلهم المغول عن آخرهم ، وأجهزوا على من لم

(112) Quatremere : Histoire des Mongols ,p.279

(113) Howarth : Hist. Of the Mongols ,Vol.1,p.199
Morgan : Op.cit.p.145

(114) Glubb : The lost centuries ,p.252

عبد السلام قهسي : الترجع السابق ص ١٢٠

يخرج من المدينة وذلك في مذبحة رهيبة^(١١٦) ، وأشعلوا الحرائق في بغداد في ١٣ فبراير سنة ١٢٥٨ ، ونهبوها واستباحوها سبعة أيام ، ولم يبق المفلول على شيخ أو طفل أو امرأة ، ودام القتل والنهب أربعين يوماً ، حتى بلغ عدد ضحايا هذه الشقايع من سكان المدينة مئات الآلاف وطربت الجوامع وبشهد الإمام موسى الكاظم وقبور الخلفاء في الرصافة^(١١٧) ، وقدر بعض المؤرخين أن عدد القتلى في بغداد بلغوا نحو مليون وثمانمائة ألف قتيل^(١١٨).

ولما دخل هولاكو بغداد في ١٥ فبراير سنة ١٢٥٨ م ، قدم له الخليفة كنوز من الأحجار الكريمة والحلى بمختلف أنواعها وعشرة آلاف دينار ، ونحو ألفين من الثياب ، وطلب هولاكو من الخليفة أن يدلّه على ما خفي من الثروة ، فأشار الخليفة إلى شاطورة بداخل القصر امتلات بمسالك الذهب ، فراح المفلول بكدها في شكل تلال حول خيمة الخان ، ثم أمر هولاكو بأن يحسوا حرم الخليفة وحاشيته فوجدوها سبعة من النساء والسرايا^(١١٩) ، وبعد أيام قليلة وفي ٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م / صفر ٦٥٦ هـ ، أمر هولاكو بقتل الخليفة المستعصم بالله وولده الأكبر وخمسة من كبار رجاله المخلصين^(١٢٠) ، وتعددت روايات المؤرخين عن الطريقة التي أعدم بها الخليفة المستعصم^(١٢١).

(115) Morgan : Op.cit.p.151

(١١٦) لاستطلاع : بغداد في عهد الخلافة العباسية ص٢٩٢-٢٩٣ (ترجمة بشر

قرنميس)

(١١٧) الذهبي : المعبر في خبر من غير ج٥ص٢٢٦

(١١٨) ابن المبرور : تاريخ مختصر الدول ص٤٧٥

(١١٩) الذهبي : المصدر السابق ج٥ص٢٣١

(١٢٠) أبو الفدا - المختصر في أخبار البشر ج٤ص٢٠٣

ابن شاذان الكتبي : فوات الوفيات ج٢ص٢٣٧

كما أمر هولاكو بإشعال النيران في مبانى المدينة فاحترق المسجد الجامع وقصور العباسيين وقبورهم ، وطالت النيران أجساد القتلى في شوارع المدينة ، في الوقت الذى لم يتعرض فيه الخوارج للسكان المسيحيين الذين لجأوا للكنائس بأمر هولاكو وزوجه طغرل خاتون ، وأفاء هولاكو على بطريرق الناصرة بالأحباس ودور الخلافة حتى تراءى للبعش أن ما جرى كأنه من أعمال حملة صليبية نسطورية^(١٢٢) ، أو هى الحرب الصليبية الغزالية أو الحرب النسطورية ، ولهذا طرب المسيحيون لسقوط بغداد ، وأشاد كتابهم بهولاكو وطرل خاتون وكتبوا : ولكن هذا الارتياح لم يستمر طويلا ، فلم يلبث الإسلام أن قهر فزاته بعد فترة قصيرة وأعيد إعلان الخلافة العباسية في القاهرة على يد بههرس^(١٢٣) .

ثم جاء الدور على بلاد الشام التي كان يتقاسمها الأيوبيون والصليبيون ، فكان للصليبيين إمارتى أنطاكية وطرابلس في الشمال وساحل البحر المتوسط ، ومملكة بيت المقدس دون مدينة بيت المقدس ذاتها في الجنوب ، وملك الأيوبيون داخلية بلاد الشام بما فيها حلب ودمشق وأشهر أمراءهم هو التاجر يوسف ، وبعد إطلاق سراح الملك لويس التاسع من مصر ، توجه إلى بلاد الشام في مايو سنة ١٢٥٠ م - فصار المثلث الأول عن الصليبيين في بلاد الشام وإدارة مملكة بيت المقدس الاسمية^(١٢٤) .

(١٢١) المرتضى : الملوك ص. ١٢٠-١٢١

(١٢٢) Morgan : Op. cit. p.152

(١٢٣) جان دي جونفيل : القدس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ص. ١٩٧ (ترجمة خيشي)

King : The knights Hospitallars in the holy land ,p.249

Runciman : Hist. of the crusaders ,111,p.274

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت أحوال الصليبيين في ذلك الوقت غاية في السوء فقد نزل بالصليبيين نوازل كثيرة في تلك الفترة ، وصرع كثير من مقاتليهم ومن الداوية والاسبثارية وأصبحت الإمارات الصليبية وقتذاك بالاضطراب والفوضى ونشبت فيها حروب داخلية ، وصراع بين الجنوية والبيازنة وتمرضت للضعف والاضمحلال^(١٢٦) ، فكان وصول لويس التاسع تهددة لأوروبا ، ويقال فيها نحو أربع سنوات عاملاً في حفظ ما بقي من الكيان الصليبي في الشرق وعد سقوطه في أيدي المماليك حكم مصر الجدد ، إذ جعل من كبار الأمراء أنصاراً له واهتم كثيراً برفع روح الصليبيين المعنوية ، وقضى ما ينشأ بينهم من منازعات ، بعد أن أمست مصالحهم خليطاً من الأغراض الدينية والأطماع السياسية المافرة، مثلما أمست دمازهم خليطاً من الصليبيين الجدد ودماء المستوطنين^(١٢٧).

غير أن ثمة عامل جديد كان له تأثير شديد على مسار الأحداث في بلاد الشام وأعنى به النزاع الذي تشب بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر، فقد أصبح للناصر يوسف الأيوبي في بلاد الشام وحلب ودمشق وبيت المقدس، وبقيت دولته مستقلة عن دولة المماليك في مصر، واستمرت الأحقاد والكراهية بين الجانبين، وذلك كان في صالح الصليبيين، فتهبأت الفرصة لليوس التاسع للإفادة من هذا الوضع^(١٢٨) إذ حرص المماليك في مصر ألا تتاح الفرصة للتحالف

(١٢٤) جوانفيل : المصدر السابق ص١٩٧ محمد الشيخ : عصر الحروب الصليبية في الشرق ص٥٢٠-٥٢١

(١٢٥) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع ص٢٤٣-٢٤٤
Crousset : Histoire de Croisades, iii, p. 496
Sreversson : The crusades in the East, p. 330
(126) Wiet : L. Egypte Arabe, P. 405
Runciman : Op. cit. iii, p. 276

القرنيزي : المارك ج ١ ص ٢٧٤

لouis التاسع مع الأيوبيين في الشام ضدّهم ، فعملوا على التقارب مع Louis التاسع بإطلاق سراح بقية الأسرى الفرنسيين في مصر سنة ١٢٥٢م ، الذين كانوا لا يزالون في الأسر منذ فشل حملة Louis التاسع على مصر^(١٢٧) غير أنه ما لبث أن جرى صلح بين المماليك والأيوبيين ، الأمر الذي حرم Louis التاسع من الاستفادة من الأوضاع واسترجاع بيت المقدس ، وأخيرا قرر Louis التاسع العودة إلى فرنسا في إبريل سنة ١٢٥٤م ، خاصة بعد أن فشل في التحالف مع المغول^(١٢٨).

ولاشك في أن الخوف من المغول قد جعل طرفي الصراع في الشام ومصر يتجنبان الحرب مع الصليبيين في تلك الظروف ، فضلاً عن أن هذا الخوف قد حسم الأمور في مصر بانتزاع قطر السلطنة لنفسه من الصبي الملك المنصور على بن العزيز أبيك إذ " لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو " وذلك في نوفمبر سنة ١٢٥٩م^(١٢٩) ، ولم يستطع هولاء أن يوقع بين قطر هذا والناصر يوسف الأيوبي في بلاد الشام ، وعلى الرغم من ذلك لم يصد الناصر يوسف بحلب لمواجهة للمغول بعد أن داهموا حران واجتازوا نهر الفرات في طريقهم إلى حلب فترك الناصر يوسف حلب واتجه إلى دمشق للإقامة بها وترك نائباً عنه في حلب^(١٣٠) ، لم يمسك في ضاحية من ضواحي دمشق وأرسل يستنجد بالأمراء الأيوبيين والمماليك ، لكنه عاد قلباً للاحتباء بقلمه دمشق ، بعد أن دبر جماعته من الأمراء

(127) Grousset : Op. cit. III, p.500

(128) D'Ohsson : Histoire de Mongols,3,p.310

(١٢٩) أبو المعالي بن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص٧٣

(١٣٠) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٤٨٧

المالك ومنهم يبيسر مؤامرة لاغتياله لما لحسوه فيه من الاستكاثرة والتخاذل أمام الملوك، وفر يبيسر إلى غزة ثم لاذ هو ومجموعة من الأمراء المالك إلى قطر بمصر، فتم التوافق بينهم لمحاربة التتار^(١٢١).

تقدم جيش الملوك تحت قيادة هولاكو، الذي اصطحب معه زوجته المسيحية طغر خاتون وعلى مقدمة الجيش القائد كتيبا ومن قادته أيضا باهجو، فتقدموا إلى الجزيرة واستولوا على تميمين، وخضعت حران والزها، وأحدثوا مذبحة رهيبة في سروج لما أبدله هذه المدينة من مقاومة، ثم وصلوا إلى البصرة على نهر الفرات، واستباحوا منبج، ثم نزلوا على حلب، فالحقوا بمن خرج من حاميتهما لحربهم هزيمة كبيرة، وقتلوا أعداداً كبيرة منهم^(١٢٢)، ثم اتجهوا إلى عزاز فقتلوهما بالأمان، ثم وصل الجيش الرئيسي للمقول بقيادة هولاكو إلى حلب بعد أن انحاز إليه أعداداً كبيرة من الأرمن والصلبيين بهلاد الشام، فألقى هولاكو الحصار على حلب في يناير سنة ١٢٦٠م فما لبثوا أن نزلوا إليها^(١٢٣) فأغلبوا سيوفهم في سكانها المسلمين بينما صعدت القلعة ولم تستسلم إلا بعد نحو شهر، واستمر قتل السكان ونهب المدينة ستة أيام، ومن سلم من القتل من المسلمين جرى بيعه في الأسواق خاصة في موانئ الصليبيين بالشام، وأعملوا الحرائق في المسجد الجامع الكبير قامتدت الحرائق إلى سائر المساجد، ولما استسلمت قلعة حلب أمر هولاكو بتدميرها، وعين حاكماً على حلب^(١٢٤).

(١٢١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج٣ ص ١٤٩ -
(١٢٢) ابن العمري: المصدر السابق ص ٤٨٦-٤٨٧
(١٢٣) الذهبي: السير في خير من غير ج٢ ص ٢٤١
(١٢٤) محمد كرد علي: خطط الشام ج ٢ ص ٦٠٥
عبد السلام طهسي: المرجع السابق ص ١٤٦

وأحدث سقوط حلب التي كانت حصن المسلمين القوي والتي سميت كثيرا أمام الصليبيين وأباطرة بيزنطة الفزع والخوف في نفوس المسلمين ببلاد الشام ، فبدأ يتوافد على هولاكو كثير من الأمراء المسلمين ليعملوا ولاهم وخضوعهم^(١٣٦) ، ومنهم الأشرف موسى صاحب حمص ، بينما تحالف مع المغول -كما سبق أن أشرنا -أمير أنطاكية الصليبي يوهينولد السادس وعلوهم ملك الأرمن ، وأفادا من هذا التحالف فحصلوا على قدر من الغنائم التي نهبها المغول من حلب ، فضلا عما استرجعه كل منهما من أملاك سبق وأن استول عليها المسلمون بالإضافة إلى ضم بعض الحصون الإسلامية المتاخمة لبلادهم^(١٣٧) ، ثم أعلن أعيان حمص إذهابهم لهولاكو بعد هروب المنصور الأيوبي إلى دمشق ، فجنبوا المدينة ما حدث في حلب من مذاهج .

رحل الناصر يوسف من دمشق متجها إلى مصر ومعه المنصور صاحب حمص ، وبعثوا واصل المنصور صاحب حمص طريقة إلى مصر حيث استقبله السلطان قلاوون بترحاب ، كان الناصر يوسف متردداً إذ عاد فأنجه شمالاً دون هدف فقبض عليه المغول^(١٣٨) ، ثم جرى قتله بعد ذلك على أيديهم ، في الوقت الذي توجه فيه وفد من شيوخ دمشق وأعيانها للقاء كتبغا المغولي ، وأعلنوا الخضوع والاستسلام لقبول المغول خضوعهم وعينوا حاكما مغوليا على دمشق ، ثم استسلمت قلعة دمشق فتهب المغول كل ما

(١٣٦) العريضي : المغول من ١٢٤٤-١٢٤٥

(136) Morgan :Op.cit.pp.154-5

Grousset : Histoire de Croisades,3,pp.525-30

عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٤١

(١٣٧) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ص ٣٠٨ (الترجمة العربية)

فيها وقتلوا قائدها وتائبه وخرّبوا أسوار دمشق واستولوا على ما بها من أسلحة^(١٣٨) ، ثم أتم كتبها فتح بلاد الشام في الأسابيع القليلة التالية لدخولهم دمشق في مارس سنة ١٢٦٠م ، فاستولوا على نابلس ووصلوا إلى أطراف حمّة وبيت جبريل والخليل ومطك وياناس ، ولم يهاجموا بهمت القدس ، واستتبع ذلك تدمير الأسوار والاستحكامات والقلاع بالبلاد التي استولوا عليها مثل حلب وحمص وحماة ودمشق وياناس^(١٣٩) .

ولاحظ المؤرخون أن كتبها وكان من التأييد المتأخرة قد اصطحب معه عند دخوله دمشق في مارس سنة ١٢٦٠م كل من ملك أرمينيا المسيحي وأمير أنطاكية الصليبي ، فاكتملت الكارثة على المسلمين بسقوط المدن الكبيرة الثلاث : بغداد وحلب ودمشق ، فأحدث ذلك دويماً هائلاً في العالم الإسلامي ، وأشار المؤرخ القريزي إلى أن النصراري بدمشق استظالموا على المسلمين وعاقروا الخمر في نهار رمضان ، وأخذوا في رشه على ثياب المسلمين في الطرقات وصبوه على أبواب المساجد ، وأخذوا يمررون بالصليب في شوارع المدينة صائحين "ظهر الدين الصحيح دين المسيح" في ظل تأييد وتشجيع نائب هولاء (كتبها)^(١٤٠) .

وهكذا انتهت مرحلة هامة من مراحل توسعات المغول قسوا فيها على قلاع الإسماعيلية ودمروا بغداد ، وفرسوا سلطانهم على إقليم الجزيرة وأذربيجان ، حتى جبال القوقاز ، ثم اتحدوا إلى بلاد الشام فاستولوا على حلب وحمص وحماة ودمشق ، فضلاً عن كثير من المدن ،

(١٣٨) محمد كرد علي : خطط الشام ج٢ ص ١٠٧ .

(١٣٩) القريزي : السلوك ج١ ص ٤٢٦ .

أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٨٠ .

Morgan : Op.cit.pp.154-6

(١٤٠) العريضي : المغول ص ٢٤٩ .

Grousset : Op.cit.vol3,pp.525-30

ولم يجرؤ الأمراء الأيوبيون على الوقوف في وجههم ، فكانت وجهتهم بعد ذلك مصر ودولة المماليك البحرية^(١٤١) ، وفي أغسطس سنة ١٢٥٩م ، توفي الخان الأعظم مونكو قانشطر هولانكو إلى المودة إلى مقر الخانية ليكون قريباً من الأحداث في منغوليا ، حتى يجرى اختيار الخان الجديد ، وسار كثيراً مستولاً عن حكومة الشام وفلسطين^(١٤٢).

وعلى الرغم من التوايما الحمسة التي أظهرها كثيراً تجاه المسيحيين ، يحكم أنه كان مسيحياً نظرياً وحرصه على مخالفة ملك الأرمن المسيحي وأمبر أنطاكية الصلبي وإدراكه لأهمية قيام تحالف بين القوق والفرنج ، إلا أن بارونات المملكة الصليبية بعكس كانوا يخالفون الآخريين في رأيهم في القوق ، إذ اعتبروا القوق متبشرين خاصة بعد أن قام القوق بنهر مدينة صيدا وقيامهم بأعمال وحشية فيها أصاع أي أمل في عقد محالفة بين القوق والفرنج^(١٤٣) ، فأفاد المماليك في مصر من هذا النزاع وخططوا لإنزال الهزيمة أولاً بالقوق ثم بالفرنج إلى الصليبيين . ويشير المؤرخون إلى رسالة بعث بها الفرنج في الشام إلى شارل دي انجو في إبريل سنة ١٢٦٠ م تظهر أسفهم وحزنهم على سقوط حلب وحمص وحماة ودمشق في أيدي القوق ، وعلى ما حل بالمسلمين من كارثة ، وأظهرت هذه الرسالة ميل الفرنج للمسلمين وتفضيلهم للمسلمين على القوق^(١٤٤).

بعث هولانكو في يناير سنة ١٢٦٠ رسالة إلى مصر إلى السلطان

(١٤١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩٦

(١٤٢) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ج ٢ ص ٣٠٦

(143) Morgan : Op.cit.155

(١٤٤) التبريزي : القوق ص ٢٥٤-٢٥٥

قطز يطلب منه التسليم وتضمنت هذه الرسالة تهديداً ووعيداً^{١٤٦} «إنا نحن جند الله... خلفنا من سخطه وسلطانا على من حل به غضبه... فندفن ما نرحم من بكى ولانرق لمن شكى... وقد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد قتلهم بالهرب وعلينا الطلب... فخلونا سوابق وسهامنا طوارق وسوقنا صواعق وقلوبنا كالجهال وعدتنا كالثمالة، فالحصون لدينا لا تمنع والمساكن لقتالنا لا تنفع ودعاؤكم علينا لا يسمع»^{١٤٧}. ونشراً لموجة هولاكو إلى منغوليا بسبب وفاة الخان الأعظم مونكو، فقد أقاد السلطان قطز ومالوك مصر من ذلك، «لأن من تبقى من عساكر القوق تحت قيادة كتيبتنا كان يتراوح عددهم بين عشرة آلاف وعشرين ألف مقاتل، وزاد من صعوبة موقف كتيبتنا ما أظهره الفرنج من العداء للمغول»^{١٤٨}.

بادر قطز بالإعداد لقتال التتار بدفعه لذلك إيمانه وعزمه على الجهاد، فقرر قتل الرسل الموفدين من قبلهم، فاصبحت الحرب واقعة لا محالة^{١٤٩} وصرح قطز بأنه سيلقى التتار بقمته، وأظهر بيبرس حماسة وشجاعة لا تقل عن ذلك، فطلب منه قطز أن يتقدم الجيش ليستطلع أخبار العدو، فسار إلى غزة على رأس المالوك، فلم يستطع من كان بها من القوق إلا الرحيل فدخلها بيبرس في يوليو سنة ١٢٦٠م في الوقت الذي نجح فيه قطز في الحصول على موافقة الفرنج في عكا على السماح للجيش الإسلامي باجتياز بلادهم وبشراء ما يحتاجون إليه من مؤن^{١٥٠}.

(١٤٦) القلشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢٢
(146) Morgan : Op.cit.p.155
Grousset : Op.cit.3,pp.325-30

(١٤٧) القلشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢٢-١٢٣
(١٤٨) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٢٤
Morgan : Op.cit.p.155

تقدم قطز عبر الساحل في أغسطس سنة ١٢٦٠ م ، واجتاز عكا فلقى ترحيباً من صليبي عكا ، وأقاد الجيش الإسلامي من الإقامة بقرب عكا وما توافر له من مؤن وفي نفس الوقت وقف على تحركات التتار الذين كانوا قد اجتازوا نهر الأردن ، ونزلوا بشرق الجليل في الوقت الذي تحرك فيه قطز من عكا مجتازاً الناصرة حتى بلغ عين جالوت في ٢ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م^(١٢٩) ، وأخفي قطز الجانب الأكبر من جيشه خلف التلال المجاورة فوقع كتيبة في الفخ الذي نصبه له المماليك ، ولما سار كتيبة بالهجوم على المماليك راح هؤلاء يناوشونهم ويعملون على جذبهم إلى التلال ، فاحتل تطويقهم بقوات المماليك فاشتد القتال ، واضطرب نوعاً ما جناح السلطان قطز ، فالتقى هذا بخواتمه عن رأسه وصاح بأعلى صوته "واسلاماً" وحمل بنفسه ويمن معه على التتار حملة صادقة ، فأعملوا القتل في التتار ولقى كتيبة مصرعه ، وإن تضاربت الروايات في كيفية مصرعه ، وهل صرع بعد أسره^(١٣٠) أم أثنى القتال ، وانتهت بذلك معركة عين جالوت في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ / سبتمبر سنة ١٢٦٠ م .

وترتب على معركة عين جالوت نتائج بالغة الأهمية ، فقد لحق بالقول لأول مرة هزيمة ساحقة ، وتعرض جيشهم للدمار والقضاء التام . فنتخلص دمشق من تبعيتها للمغول ، وطارد المماليك فلول التتار القليلة حتى حلب وأسروهم ، فخطفهم الناس وقاسوا من السيلاب ما يستحقونه^(١٣١) ، وأصبحت بلاد الشام حتى نهر الفرات تابعة للمماليك ،

(١٢٩) العيني : الملوك ص ٢٥٩-٢٦٠

عبد السلام فهمي : نفسه ص ١٢٦-١٢٧

(١٣٠) Runciman : Hist.of the Crusades, III, p.313

(١٣١) العيني : الملوك ص ٢٦٢

وحين حاول المغول مرة أخرى مهاجمة حلب تعرضوا للهزيمة بالقرب من حمص فانسحبت فلولهم إلى ما وراء نهر الفرات .

وأنقذ انتصار الماليك في عين جالوت العالم الإسلامي من شر التتار ، وحمل الإسلام والحضارة الإسلامية من عصف هذه الشرذمة الطاغية ، فلو نفذ التتار إلى مصر لما بقى في العالم الإسلامي من يوقظهم^(١٢٢) ، ولو انتصر المغول في تلك الواقعة لاسترد الفرنج مملكة بيت المقدس ، ومن النتائج أيضا أن صار لمصر الزعامة بعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، وأضحت القاهرة المركز الجديد للإسلام ، ومركز الإقامة الجديدة للحضارة الإسلامية.

وبعد انتصار الماليك في عين جالوت أضحت دولة الماليك أقوى دولة في الشرق الأدنى وعلى مدى نحو قرنين من الزمان^(١٢٣) ، وترتب على انتصار الماليك في عين جالوت أن تداعى أمر المسيحيين ، وارتفع شأن المسلمين ، وعجلت وقعة عين جالوت بزوال ما بقى من الإمارات السلبيية في الشرق ، وكانت أهم نتائج هذه الواقعة أنها لم تنفذ مصر والعالم الإسلامي من شر التتار فحسب ، وإنما أنقذت أيضا أوروبا من تهديد التتار^(١٢٤) .

(122)Morgan : Op.cit.p.156

(١٢٣) العربى : تلمذ ص٢٦١

(١٢٤) إبراهيم أحمد العدوى : التاريخ الإسلامى ص٣

الباب الثالث

الاتصالات بين أوروبا والقتار

الفصل الحادي عشر : سفارات أوروبا إلى القطار للتبشير بالمسيحية
بينهم ومحاولة تنصيرهم على المذهب
الكاثوليكي .

الفصل الثاني عشر : مدى نجاح سفارات أوروبا وبثاتها التبشيرية
إلى القطار فيما أرسلت من أجله .

الفصل الثالث عشر : الرسل والسفارات المتبادلة بين أوروبا والقتار
بغرض التحالف العسكري ضد المسلمين .

الفصل الرابع عشر : تحالف مغول فارس مع الأرمن وفرنح الشرق
ضد تحالف مغول القفجاق مع المغاليك .

①

②

③

④

⑤

⑥

⑦

⑧

⑨

⑩

⑪

الفصل الحادى عشر

سفارات ورسول أوروبا إلى التتار للتبشير بالمسيحية بينهم ومحاولة تخديرهم على المذهب الكاثوليكى

- بداية معرفة أوروبا بالتغول .
- خثات التغول والعقيدة المسيحية .
- أول سفارة للبابا إويسنت الرابع إلى التغول برئاسة الراهب يوحنا أوف بلاتوكارينى سنة ١٢٤٥ م
- السفارة الثانية لهذا البابا إلى التغول برئاسة الراهب أندريه لوتج جميعو سنة ١٢٤٥ م .
- السفارة الثالثة لهذا البابا إلى التغول برئاسة الراهب أسكلين أوف لومباردى سنة ١٢٤٥ م .
- سفارة الملك الفرنسى لويس التاسع إلى التغول سنة ١٢٤٩ م برئاسة الراهب أندريه لوتج جميعو للحالفة معهم بشرط تحويلهم أولاً إلى المسيحية.
- السفارة الثانية للملك الفرنسى لويس التاسع إلى التغول برئاسة ولهم روبروق سنة ١٢٥٣ م
- جهود البابا أوربان الرابع لاجتذاب هؤلاء إلى المسيحية وإخالفه فيها فيما بين سنتي ١٢٦٠ - ١٢٦٤ م .
- محاولة البابا جريجورى العاشر ١٢٧١ - ١٢٧٦ م للتبشير بالمسيحية بين التغول على عهد الخان الأعظم قوبيلاي .
- رسالة الملك إدوارد الأول ملك إنجلترا إلى الخان أيقا سنة ١٢٧٤ م بوصيه فيها بالمسيحيين .

- سفارة البابا نيقولا الثالث سنة ١٢٧٨م إلى مغول فارس للتبشير بالمسيحية ومحاولة إعادة الانساطرة والبعثبة إلى حظيرة المسيحية الكاثوليكية .
- السفارة التي أرسلها البابا نيقولا الرابع للتبشير بالمسيحية بين المغول برئاسة راهبان سوما سنة ١٢٨٨م إلى الخان أرغون بن أبغا .
- السفارة الأخرى التي أرسلها نفس البابا إلى الخان قوبلاي وإلى الخان أرغون برئاسة جون أوف مونت كورفينو سنة ١٢٨٩ م .

إذا لم يكن حكام أوروبا والبابوية قد تنبهوا إلى خطر المغول في أول أمره. منذ أن اجتاز هؤلاء جبال القوقاز لأول مرة سنة ١١٢٢م زمن جنكيزخان^(١)، إلا أن الأمر تغير منذ أن اندلع المغول في فتوحاتهم في القارة الأوروبية بشيء كبير من الجسارة وتمطش للقتل وسفك الدماء، وميل للتطريب والتدمير وإحداث المذابح البشرية الرهيبة، وإشعال الحرائق المدمرة، وإفراق المدن والحواسر، مما أثار الرعب والفرع في قلوب المسيحيين هناك^(٢)، فلما اندفعوا في شرق أوروبا وحملوا مملكة البولفار واجتاحوا بولندا والمجر في الفترة ما بين سنتي ١٢٣٦ و ١٢٤٢م بعد اجتياحهم لبرازى روسيا وإماراتها الواحدة تلو الأخرى، أصبح الخطر يهدد قلب أوروبا وبقية أتحائها، وكان على أوروبا حكماً وبإيات أن يعملوا على وقف هذا الخطر وإنقاذ أوروبا من شره^(٣).

وأسهمت السفارة التي بعث بها الإسماعيلية إلى ملكى إنجلترا وفرنسا: لإحاطة هذين الملكين بحقيقة هذا الخطر، وطلب المساعدة للوقوف في وجهه، في تنبيه حكام أوروبا وتوجيه نظرهم إلى هذا الخطر، بعد أن روع المغول الدنيا في ذلك الوقت بقسوتهم وأعمالهم الوحشية، وما أحدثوه في أوروبا من خراب ودمار^(٤)، وقد أحس هؤلاء الإسماعيلية بأنهم الهدف القادم لهؤلاء التتار، والفريسة التالية لهم، وقد أشارهم مصير جيوشهم المسلمين^(٥).

(١) هارولدلام : جنكيزخان ص ١١١

(٢) مصطفى شاه بنر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ٥

(٣) Morgan : op. cit. p. 179

(٤) Matthew Paris's English Hist. Vol. I, p. 131

(٥) العريضي : المغول ص ١٨١ - ١٨٢

وكنّا قد عرضنا في الفصل السابق ، تسلسل حكم الخانات العظام في دولة المغول بدءاً من جنكيزخان ومن جاء بعده ، وكذلك خانات فارس بدءاً من هولاكو ومن جاء بعده على مدى القرن الثالث عشر الميلادي كله ، وهي الفترة التي تضمنا في بسط العلاقات بين أوروبا ودولة المغول ، فذكرنا من الخانات العظام في الإمبراطورية المغولية : جنكيزخان وأوكتاي ومونكو وقوبلاي ، وعددتنا من خانات فارس هولاكو وأيقا وتكودار وأرفون حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي .

وبهذا هنا أنّ تشير إلى علاقة المغول بالمسيحية وإلى الخانات الذين أظهروا ميلاً نحو المسيحية ، أو عطفوا عليها وعلى المسيحيين ، أو الذين اعتنقوا هذه العقيدة فعلاً^(٦٦) ، وإلى أي مدى عرفت المسيحية طريقها إلى بعض رجال المغول ، لأنه في ضوء ذلك يمكن عرض محاولات البابوية في أوروبا لجذب هؤلاء المغول إلى المسيحية ، ومحاولة إدخالهم فيها والتبشير بها بينهم ، وإرسال السفارات المتتالية : على رأسها الرهبان الفرنسيسكان والديومنيكان لمحاولة إقراء خاناتهم وقادتهم بالدخول في المسيحية ، ودعوتهم لاعتناقها ونشرها بين شعوبهم .

فلم يجعل المغول تماماً المسيحية ، حتى قبل قيام دولتهم ، فالمعروف أنّ المسيحية النسطورية عرفت طريقها إلى بعض قبائل المغول في فترة سابقة للقيام دولة المغول ، واعتنقها بعض رجالهم ، إذ نطقت إليهم المسيحية وكذلك الإسلام ، لكنهم لم يؤثروا اليهودية أي اهتمام^(٦٧) ، وإن لم يكن انتشار المسيحية ثم الإسلام بينهم أمراً سهلاً ، إذ انتشرت المسيحية

(٦٦) فؤاد عبد المنعم الصمد : الشرق الإسلامي في عهد الإنجليز ص ٥٤

عبد السلام لمحي : المرجع السابق ص ١٠٩

(٦٧) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٦٤

التسوية بين بعضهم منذ فترة بعد صراع بينها وبين الوثنية، وعاش بينهم قساوسة المسيحية ورجالها^(٩)، بل التحق بعضهم بخدمة كبار رجال الخول وخاناتهم وظهروا في بلاط بعضهم.

وانتشر الدعاة للمسيحيون في منغوليا منذ زمن سبق ظهور التجار المسلمين فيها، ومن ثم فإن تأثيرهم خاصة على الحكام الخول كان أوضح، ولهذا سعى إلى الاستفادة من سلطات هؤلاء الحكام، فحصلوا على إعفاء الكتائب من الضرائب بكافة أنواعها^(١٠). ولهذا فقد أظهر بعض خاناتهم ميلاً وعطفاً على المسيحية والمسيحيين فقد روى أحد المؤرخين المعاصرين أن جنكيزخان نفسه " رأى في مناسه راهباً عليه السواد ويده عكازه وهو قائم على يابه يقول له : لا تخف إعمل ما شئت فإنك مؤيد، فأنته جنكيزخان مدهوراً زعراً مطوياً بالفرح وعاد إلى منزله وحكى حقه لزوجته، فقالت له هذا زى أسقف كان يتردد إلى أبي ويدعو له، فطلب جنكيزخان ممن كان في خدمته من نصارى الأويغور أحداً من الأساقفة، فأدخلوا عليه الأسقف "ماردنجا"، فلما دخل عليه بالبيرون الأسود قال : هذا زى من رأيت في منامي، لكن شخصه ليس ذلك، فقال الأسقف : " يكون الخان قد رأى بعض قديمتنا"، ومن ذلك الوقت " صار يميل إلى النصارى ويحسن الظن بهم ويكرمهم"^(١١).

وأثر عن مونكو بن تولوي حفيد جنكيزخان الذي كان خاناً أعظم، أنه كان يحضر قداس الأحد، ويواظب على حضور المناسبات الدينية، التي جرت في عهده بين رجال الأديان وحين قدم إليه الراهب

(٩) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٩٠ - ٦ - ٢٥ Morgan : op. cit. pp.

(١٠) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٨

(١١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٠٩ - ٤٠٢

وليم زويروق مبعوث الكنيسة الكاثوليكية ورسول الملك الفرنسي لويس التاسع سمح له بالمشاركة في هذه المناظرات الدينية^(١١)، وحين وقع مونكو هذا الاتفاق مع هيثوم ملك أرمينيا الصغرى في شهر يوليو سنة ١٢٥٤م نص البند الرابع منها على إعفاء الكنائس في الإمبراطورية المغولية من الضرائب.

ولقد تأثر مونكو هذا في نشأته بأهله المسيحية النسطورية، ولذا عطف على المسيحية النسطورية، على الرغم من أنه أبدى نفس العطف والمحبة على البوذية^(١٢)، وعهد مونكو هذا إلى أخيه الأصغر هولاكو بإدارة حكومة فارس، وأرسل إليه رسالة يطلب فيها أن يتخلص نهائيةً — كما سبق أن أشرنا — من السلطة الروحية الإسلامية، وجاء ذلك في صالح القوى المسيحية في أرمينيا الصغرى والمسيحيين في بلاد الشام، كما نصحه مونكو بأن يستأنس برأى زوجته الأولى طغرل خاتون ويعمل بتصالحها في جميع القضايا والشئون^(١٣)، وكانت هذه حفيظة ملك الكرايت في شرق منغوليا، وتدين بالمسيحية النسطورية، فحاول هولاكو أن يسترخص هذه الزوجة، فعمل للمسيحيين بكرمه وأفضاله، وعاملهم معاملة حسنة^(١٤)، فأنشأ الكنائس واستقبل المسيحيين وغفرهم بالهدايا، وأنشأ المدارس التي يتروء عليها أطفال المسيحيين، وأقيمت الصلوات والقداسات وقُرعت أجراس الكنائس في مختلف الأنحاء، ونعم رجال الدين المسيحي بالهدوء والأمن في ظل حكمه^(١٥).

(١١) هارولد لام : جنكينز هان ص ١٥٢ ، Morgan : op. cit. pp. 25-7

(١٢) العريضي : المغول ص ١٩٤ - ١٩٥

(١٣) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٩ .

(١٤) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ص ٢٤٤

(١٥) مصطفى طه بدر : المرجع السابق ص ١٠ .

(١٥) العريضي : المغول ص ٢٠٨ .

أما قوبلاي فقد أشار المؤرخون إلى أنه أرسل إلى البابا رسالة يطلب فيها مبشرين دينيين، وكمية من الزيت المقدس من السراج الذي يضيء صريح السيد المسيح في بيت القدس، فلبى البابا طلبه^(١٦٦)، ولما دخل عليه البندقيان نيكولو بولو وأخوه ومكلا في حضرته، استقبلهما ببشاشة وترحاب، وأستغ علىهما كرمه وعطفه وتحدث إليهما بلطف وإيناس، فاستفسر منهما عن أحوال القسم الغربي من العالم، وعن إمبراطور الرومان، وعن الملوك والأمراء المسيحيين الآخرين، وعن البابا بصورة خاصة وأحوال الكنيسة ومقالاتها " مبددا اهتماماً عظيماً بهذه الأمور " ^(١٦٧).

ونظراً لأن هولاكو استمر يمارس سلطانه في فارس، بعد وفاة مونكو سنة ١٢٥٩م وفي عهد قوبلاي كخائب لهذا الخان الجديد، فقد استمر هولاكو في عطفه على المسيحيين وشعولهم بكرمه^(١٦٨)، حتى قبل أن البابا اسكندر الرابع أرسل إلى هولاكو كتاباً سنة ١٢٦٠م / ٦٥٨هـ يخبره فيه أنه علم برفضه في اعتناق المسيحية وبحاجته لمن يعلمه طقوسها، فراح البابا يعد له الزايا التي تمود عليه باعتناقه المسيحية وما يمكن أن يحظى به من الخلاص وكيف ينال الخير في السماء. ثم وصلت إلى هولاكو سفارة من قبل بطريرك بيت المقدس بهدف إقامة لقاء مع المغول ومعرفة خطط هولاكو تجاه صليبي الشام سنة ١٢٦٠م، بعد أن نجح هولاكو في القضاء على الخلافة العباسية واستعد لاجتياح الشام، وكان على رأس تلك السفارة راهب دومنيكاني يدعى ديفيد أوف آتشين

(١٦٦) إيلمن بور : تماذج بشرية من المنصور الأوسطي ص ٧٦

(١٦٧) إيلمن بور : المرجع السابق ص ٧٠

(١٦٨) فؤاد عبد المعطي السيد : المرجع السابق ص ٥٤

David of Ashby ، رأى هولكو بعد أن استمع لهذا الراهب عن الدين المسيحي ومكانة الكرسي الرسولي، الذي يعتليه البابا في روما، أن يبقى هذا الراهب في بلاطه، ولا يعود إلى عكا التي قدم منها، فأنشج لهذا الراهب أن يعارض مهامه التبشيرية في خانبة المغول في فارس لسنوات طويلة، ربما إلى مثلهل الربع الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٧٤م)^(١٩).

أما أبقا بن هولكو فعلى الرقم من أنه كان يونياً - كما سبق وأن أشرنا - إلا أنه مائل أباه هولكو في عطفه على المسيحيين من النساطرة واليعاقبة والأرمن، وتزوج من ابنة الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس، وكان صديقاً لبطريرق النساطرة وحامياً له^(٢٠)، فقد أرسل مبعوثاً إلى البابا كليمنت الرابع سنة ١٢٦٨م بقرص تكوين حلف عسكري من الغرب الأوربي وصهره الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن ضد المسلمين في الشرق^(٢١) ويبدو أن مبعوث أبقا إلى البابا أراد إثارة حماس البابا والغرب الأوربي للتعاون مع أبقا ضد المسلمين، فأطهر البابا أن أبقا قد اعتنق المسيحية فعلاً، في محاولة لكسب تأييد المسيحيين في الغرب والبابوية ضد المسلمين في الشرق^(٢٢).

وهكذا لم يكن المغول حتى قبل قيام دولتهم مجهلون المسيحية، بل عرفوها وتسللت إلى بعض قبائلهم وبعض رجالهم على مذهبها النسطوري بحقة خاصة، فأُنشجت بعض الكنائس وقرعت أجراسها في

(19) Sykes : A History of Persia . 11, pp. 98-9

(20) Grousset : L'Empire des Steppes, p. 445

(٢١) فؤاد عبد الحميد : المرجع السابق ص ٥٧

(22) Heworth: Hist. of the Mongols, III, p. 278

بقاع مختلفة من تلك الدولة؛ وظهرت مدارس مسيحية الذئق بها أطفال هؤلاء المسيحيين، ومال بعض خانات المغول إلى تلك العقيدة، وأظهروا عطفهم على أتباعها، ونسب إلى بعضهم اعتناق المسيحية^(٢٢)، واعتنقها بعضهم فعلاً وربما لهذا أبدت البابوية حماسة طاقية لجذب هؤلاء المغول إلى العقيدة المسيحية والتبشير بها بينهم، وإرسال السفارات والرسائل من أجل ذلك، حتى يقال أن أربعة من البابوات تبادلوا مع أبقا الذي اعتنى بعد أمه هولاءكو مرش فارس الرسائل والرسائل وكانوا يشعرون في رسائلهم إلى اعتناقه المسيحية^(٢٣). وأسندت هذه السفارات إلى رهبان من القرنيسكان والدومنيكان للقيام بذلك، وفي هذا الإطار جرت الاتصالات الأولى بين أوروبا والمغول أو بين البابوية وخانات المغول في الشرق^(٢٤)، خاصة بعد أن اجتاحت روسيا وشرق أوروبا وحربوا بولندا والمجر ومورافيا، وجاء الدور على قلب أوروبا ذاتها، فكان لابد من تحريك البابوية والغرب لمحاولة صرقهم عن ذلك، وإن أمكن اجتذابهم إلى العقيدة المسيحية للقاء على شروقهم ونواياهم ضد أوروبا، وكذلك محاولة التحالف معهم ضد المسلمين^(٢٥).

ويذكر المؤرخون أن البابا إنوسنت الرابع الذي خلف جريجوري التاسع، والذي اعتنى كرسي البابوية اعتباراً من سنة ١٢٤٣م قد أدرج حقيقة الخطر المغولي، وفكر فعلاً في التصدي له، معولاً على خطة من شقين الشق الأول منها: الدعوة إلى حشد الجيوش لحربهم وإغناز أوروبا

(٢٢) فواد عبد المولى الصناد : المرجع السابق ص ٥٥ - ٥٦

(٢٣) مصطفى طه بحر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ٧
(25) Howarth : op. cit. III, pp. 278 - 81

(٢٤) فواد عبد المولى الصناد : المرجع السابق ص ٩٠

من شرهم، والشق الآخر هو محاولة تحويل هؤلاء المغول إلى المسيحية حتى يكفوا عن مهاجمة أوروبا المسيحية⁽²⁷⁾.

وإذا كان الشق الأول من خطة هذا البابا قد فشل - كما سبق أن أشرنا - فإن ما يهمنا هنا هو الشق الآخر من تلك الخطة، وإن كان من المسموية بمكان توقع نتائج سريعة ترجى من هذا الشق، وإنما يمكن ذلك على المدى الطويل تحويل هؤلاء المغول إلى المسيحية، وبشيء من الجهد، ومن خلال العلاقات بين البابوية وهؤلاء التتار⁽²⁸⁾، ولهذا أنفذت البابوية سفارة إلى المغول من الرهبان الفرنسيين على رأسها John of Plano Carpini يوحنا أوف بلانو كارييني⁽²⁹⁾، أو كما كان يطلق اسمه في بعض أقطار أوروبا جان دي بلان كاريينو⁽³⁰⁾، ومعه بتدكت البولندي وذلك سنة ١٢٤٥ م.

وجاء اختيار البابا للرهبان الفرنسيين لعرفته التامة بقدره رهبان هذه الجماعة على التفسير بالدين المسيحي على مذهبه الكاثوليكي، مع تزايد نشاط طوائف الرهبان بصفة عامة⁽³¹⁾، ولخيرتهم التي اكتسبوها من هذا العمل في شرق أوروبا وجهات أخرى في العالم، فضلاً عن قدرتهم على تحمل مشقة السفر إلى بلاد المغول عبر البراري والسهوب الآسيوية لتحقيق هذا الغرض، وتحركت هذه السفارة من ليون جنوب فرنسا في إبريل سنة ١٢٤٥ م، واستغرق وصولها إلى عاصمة المغول في قراقورم أكثر من سنة إذ وصلت إلى عاصمة المغول في يوليو سنة

(27) Morgan : op. cit. pp. 179 – 180

(28) Matthew Paris's English Hist. Vol. I, pp. 131 – 2

(29) Morgan : op. cit. p. 24

(30) إدوارد برزوي : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٠

(31) العريفي : المغول ص ٣٣٠

١٢٤٦م ، بعد أن اجتازت روسيا وشرارى آسيا الوسطى ، حتى بلغت معسكر الخان الأعظم بالقرب من قراقوم^(٣٢) ، في أغسطس سنة ١٢٤٦م ، ونظراً لأن هذا الخان قد أحاط نفسه بمستشارين من المسيحيين النمساوية ، فقد استقبل مبعوث البابا استقبالاً طيباً^(٣٣) .

وتعتبر هذه السفارة التي أرسلتها البابوية إلى المغول أول بعثة أوروبية تصل إلى عاصمة المغول (قراقورم) في قلب منغوليا وعن طريقها حصلت البابوية والغرب الأوربي على أول معلومات ضافية ومكتوبة عن هؤلاء المغول وحقيقة أمرهم ، فضلاً عن تلك المعلومات التي تتعلق بحياة هؤلاء التتار ونظمهم ومعتقداتهم ونموذج حكمهم للأقاليم التي استولوا عليها ، وجيوشهم وطرق شيوخهم وثوسمهم ، وكذلك عاداتهم وتقاليدهم^(٣٤) .

وتذكر الروايات أن كارتييني هذا ورفاقه قد وصلوا إلى عاصمة التتار ، والتقوا مع بعض رجالات التتار وكبار قادتهم ، وتبادلوا معهم الحديث وشرحوا أهداف سفارتهم ، ونقلوا إليهم حرس البابوية على الاتصال بدولة التتار ، وإقامة علاقات الودية معها ، واستمع إليهم التتار وتلقوا دوافع هذه السفارة ، وحضر جون كارتييني ورفاقه مراسم تقليد كيوك خاناً أعظم للمغول في أغسطس سنة ١٢٤٦م^(٣٥) ، ويبدو أن هذه السفارة قد أفصحت عن أهداف قدمها إلى دولة المغول ووضعت التاحية الدينية والتبشير بالمسيحية ضمن الأهداف التي كان من بينها إقامة

(32) Morgan : op. cit p. 24

(٣٣) المربعى : تلغ ص ١٨٩

(34) Morgan : op. cit. p. 24

(٣٤) المربعى : المغول ص ١٨٩

علاقات سياسية بين أوروبا والتتار^(٣٦) ، فضلاً عن وضع أسس للعلاقات التجارية بين أوروبا والمغول في الفترة التالية .

كما تذكر الروايات أن البعوث البابوية قد نجح في بسط أهداف سفارته إلى المغول وأسباب قدومهم إلى تلك الدولة ، فأوضح أنهم مكلفون من قبل البابا رأس العالم للمسيحي في الغرب وسيد كل المسيحيين بدهوة التتار إلى اعتناق المسيحية^(٣٧) ، ليخلقوا مجدداً في السماء كما حققوه في الأرض ، وليصبحوا كهناً أمام الرب ، مثلما هم أمام الناس ، مع التلميح بموه العاقبة في الآخرة إن هم أصغوا آذانهم عن سماع كلام البابا^(٣٨) ، وأوضح البعوث البابوية أن البابا يزعم إرسال كثير من رجال الدين المسيحي والبشرى إلى المغول ، لو أدرك أن ذلك هو مطلب المغول ويلقى القبول لديهم .

ويبدو أن البابا ومبعوثيه الفرستسكان لم يكونوا واقعيين من استجابة هؤلاء التتار إلى دعوتهم للدخول في المسيحية ، فكان لا بد وأن تكون ثمة أهداف أخرى للسفارة يمكن تحقيق بعضها إذا لم تحقق السفارة نجاحاً في الجانب التبشيري . فأوضح البعوث البابوية لكبار رجال التتار عدم ارتياح البابا لما ارتكبه التتار من مذابح رهيبة بين الرعايا المسيحيين في بولندا والمجر ومورافيا ولي البلقان^(٣٩) ، لأن هؤلاء المسيحيين لم يخلوا ما يستوجب هذا العقاب الذي خرج عن نطاق

(36) Runciman : A Hist. of the Crusades, 3, p. 259

(37) Browne : The Eclipse of Christianity in Asia, pp. 147-9

(38) D'Oheson : Histoire des Mongols, 31 , p. 69, pp. 208-31

(39) Setton : The Papacy and the Levant (1204-1571), 1, p. 97

العرف، والذي أدى إليها إيذاءً شديداً كما يلتبس البابا ألا يتكرر مثل هذا العمل بين رعاياه المسيحيين في المستقبل.

كما لم يتم الميثم البابوي أن يتبادل عما يفكر فيه التتار، وما يزعجون القيام به، وتوايهم خاصة تجاه أوروبا^(١٢١)، كما لم يفت الميثم البابوي أن يطلب من القبول أن يستجيبوا لطلب البابا بحسن معاملة السفراء وإعادتهم سالمين بعد تزويدهم بما يحتاجون إليه من مؤن وزاد في طريق عودتهم، وضمان سلامتهم خلال طريق العودة.

وقد لاحظ الميثم البابوي ورفاقه الفرنسيون خلال بقائهم لدى القبول، حتى انتهاء مراسم تقليد كيوك خاناً أعظم، أو حفل تنويع كيوك خاناً أعظم^(١٢٢)، ما لفت أنظارهم من ناحية وآتهم من ناحية أخرى، أما ما لفت أنظارهم فهي الخيام الكبيرة التي كانت الشاؤك الوحيدة التي تحدث عنها الراهب جون بلانو كارييني، ومن قدم بعده إلى ديار القبول وكان أقدمها على وجه الخصوص هي الخيمة التي كان يجلس فيها الخان الأعظم أو كبار أتباعه، إذ كانت هائلة الحجم^(١٢٣)، ووصف أحد هؤلاء السفراء مرادق باتو خان بقوله: ".... كان باتو جالساً داخل المرادق على منكأ طويل هريس يشبه السرير، وعليه قطاء مموه بالذهب ويرتفع ثلاث درجات عن الأرض، وقد اتخذت إحدى زوجاته مكانها إلى جواره، على حين جلس حوله كبار رجاله، وإلى جوار المدخل أقيمت مائدة عليها كؤوس من ذهب وقضة محلاة بالجواهر، وبها لبن إناث

(١٢٠) العريش: القبول ص ١٨٩

(١٢١) إدوارد بروي: تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٠

(١٢٢) غامرتن: تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٣٧

الخيول ، وقد حذرنا الحراس ألا نتكلم قبل أن يبدأ باتو الحديث»^(٤٤) ،
وواضح أن هذه الخيام الكبيرة كانت هي المنازل الوحيدة التي وردت في
تقارير الرهبان السفراء إلى القبول .

أما ما آلم هؤلاء السفراء من ناحية أخرى، فقد لاحظوا أن عدداً
كثيراً من سفراء الأمم قد حضروا تلك المراسم وقدموا بالآلاف وقد أرفقوا
على تقديم كثير من الهدايا القيمة للخان في تلك المناسبة. هذا من ناحية
ومن ناحية أخرى وجدوا كثيراً من الأسرى الروس والدجريين الذين
استخدمهم التتار في خدمتهم وعهدوا إليهم ببعض الوظائف وعرفوا منهم
الكثير عن أوروبا وشعوبها وعقيدتها^(٤٥) .

وعلق المؤرخون على ما بنا من أهداف هذه السفارة ومن حرص
البابوية على ضمان سلامة الشعوب المسيحية في شرق أوروبا، ومطالبة
القول بعدم تكرار وحشيته مع أي شعب مسيحي آخر، أن البابوية
تخطت حدود مهامها الروحية والدينية، إلى مهام سياسية وزمنية مما
كان يدخل في نطاق اهتمام الحكومات وسلطة الحكام والأباطرة
والملوك^(٤٦)، وعكس هذا مكانة البابوية في القرون الأخيرة من العصور
الوسطى، وكيف طمعت إلى ممارسة دور سياسي وسلطة زمنية كانت في
الحقيقة من مهام الحكام والملوك والأباطرة، وكيف حرصت على فتح
محادثات تتعلق بأمور الحرب والسلام والسياسة وضمان سلامة الشعوب
المسيحية في أطراف أوروبا^(٤٧) .

(٤٣) مارولد لام: جينكيزخان وجدائل القبول من ١٢٦٢ - ١٢٤١

(44) Morgan: op. cit. p. 174

(45) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 4 - 5 , p. 34

(46) Morgan : op. cit. p. 180

وتذكر الروايات أن الخان الأعظم المغولي لم يبد استحياساً لما حواه خطاب البابا من نقد عنيف لتصرفات المغول تجاه شعوب شرق أوروبا إذ لم يكن المغول لمسمحوا لأحد بمثل هذه الانتقادات التي يشهرونها تدخلاً في شئونهم وانتقاماً من سيادتهم وحريتهم في التصرف بما يحلو لهم تجاه أعدائهم، ولهذا فقد استاء الخان الأعظم كثيراً من لهجة البابا التي اعتبرها تطاولاً على ما لإمبراطوريتهم العالمية من قانون علوي⁽⁴⁸⁾ وما ساروا عليه من عرف وتقاليد، فقد كان المغول يلبسون فخراً بقوتهم واتساع إمبراطوريتهم وعظم سلطانهم في ذلك الوقت وتمتعهم كبيراً بهم حينئذ من مجرد الاستماع إلى نقد أو تخرج⁽⁴⁹⁾.

ويلهم من ذلك كله أن سفارة البابا إنوسنت الرابع إلى المغول في ذلك الوقت اقتضت على محاولة إبعادهم في المسيحية من ناحية، والاحتجاج لديهم على ما قاموا به ضد المسيحيين في شرق أوروبا: في بولندا وبلغاريا والمجر⁽⁵⁰⁾ من مذابح رهيبة، وطلب عدم تكرار ذلك مع أي شعب مسيحي آخر من ناحية ثانية، فضلاً عن محاولة معرفة نوايا هؤلاء المغول تجاه أوروبا من ناحية ثالثة، ولم تتضمن هذه السفارة طلب اشتراك المغول مع أوروبا في إنقاذ حملة صليبية مشتركة لقتال المسلمين في الشرق الأدنى، وانتزاع بيت القدس والأراضي المقدسة من أيدي المسلمين⁽⁵¹⁾، فلم يكن في فكر البابا أو مبعوثيه الاتفاق معهم على القيام بحملة مشتركة ضد المسلمين من أول لقاء أو من أول سفارة إليهم أو

(٤٧) العريضي : المغول ص ٢٠٢

(48) Morgan : op. cit, p. 180

(49) Setton :The Papacy and the Levant (1204-1571), Vol.1, p. 97

(50) D'Ohsson : op. cit. 111, pp. 410 - 412

جعلهم حلفاء لأوروبا في يوم وليلة للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين .

وحيثما تبين للخان الأعظم أن البابا يدعو إلى اعتناق المسيحية، أرسل الخان الأعظم رسالة إلى البابا إتوسنت الرابع في نوفمبر سنة ١٢٤٦م يأمره فيها بأن يحضر هو وجميع ملوك وحكام الغرب الأوربي لخدمته، ويعلنوا اعترافهم بسيادته، ويبدلوا له يمين الطاعة والولاء^(٥٢)، ولابد وأنه كان يقصد بالاعتراف بالسيادة وبذلك الطاعة والولاء أن يظهروا خضوعهم له ويؤدوا الجزية عن أنفسهم ورعاياهم دون مناقشة^(٥٣)، وفيما يختص بالتمسك والدخول في المسيحية فقد كان رغبته لذلك قاطعاً، وإن حاول مبعوث البابا أن يتعلق ولو ببعض الأمل في أن هذا الرفض لم يكن قاطعاً أو نهائياً، وأنه لازالت هناك فرصة للتغيير واحتمالات لإعادة النظر، وبدا ذلك واضحاً في التقرير الذي قدمه هذا المبعوث إلى البابا سنة ١٢٤٧م^(٥٤).

ولم يلبس من المبعوث الباباوي أن الأفكار التي حوّاها هذا الخطاب جد خطيرة، لأن طلب الخان الأعظم خضوع ملوك وحكام الغرب الأوربي لتقديم قروض الطاعة والولاء لا يعني إلا شيئاً واحداً وهو أن هؤلاء الملوك والحكام سيخضعون حتماً لخان المغول، فشكّن هذا الخضوع عن رضى وقبول بدلاً من أن يحدث عقب الانكسار في الحرب، لأن المغول آمنوا أنهم سادة الدنيا آجلاً أو عاجلاً^(٥٥)، وظالما حكموا تلك

(٥١) وقد كتب هذا الخطاب باللاتينية، ولا زالت نسخة محفوظة في أرشيفات الفاتيكان.

(52) Morgan : op. cit. p. 24

(٥٣) (العربي : انظر ص ١٩٠)

(54) Morgan : op. cit. p. 180

المساحات الشاسعة من آسيا وشرق أوروبا والشرق الأدنى، فكان الدور على قلب أوروبا وغربها قائم لا محالة، كما لم يقب عن فكره أيضاً رفض الخان الأعظم الدخول في المسيحية، وبالتالي فهو لازال معادياً لأوروبا المسيحية ولن يمنعه شيء من شن الحرب عليها، لاسمها وأن الخان التتاري (أوكتاي) كان يعدّ العدة لاقتحام بقية العالم، واحتياح أوروبا لولا أنه توفي فجأة⁽⁵⁵⁾.

وربما لهذا تضمن التقرير الذي قدمه جون بلاثو كاريني للبابا حول مقارنته إلى الغول ضرورة تكاتف حكام القارة لمواجهة هذا الخطر، لأنه قائم لا محالة، فبدلاً من أن يشغل كل حاكم بالدفاع عن نفسه، فليكن تشاغل اليهود لحرب هذا العدو القادم، وربما لهذا أيضاً رفض المبعوث البابوي اصطحاب سفراء الغول معه وهو عائد إلى الغرب الأوربي، رغم إلحاح الغول في ذلك، لأنه أدرك حتماً ما كان من روج عدائية ضد هؤلاء في أوروبا بعد أعمالهم الوحشية في بولندا والمجر ومورافيا⁽⁵⁶⁾، وتطريد المدن وهدم الكنائس وقتل الناس بطرق وحشية، ولهذا توقع للمبعوث أن يتعرض هؤلاء الرسل لنفس المسير على أيدي المسيحيين في الغرب، فضلاً عن أنه خشي أن يكون الهدف من إرسالهم هو مجرد التجسس على أوروبا توطئة للهجوم عليها.

وعلى هذه الصورة انتهت سفارة البابا إنوسنت الرابع إلى الغول وعاد المبعوث البابوي ورفاقه البرنيسكان من نفس الطريق الذي سلكوه إلى الشرق، فوصلوا إلى ليون في جنوب فرنسا حيث قدموا تقريرهم إلى البابا عن سفارتهم⁽⁵⁷⁾.

(55) Runciman: op. cit. 111, p. 252

(56) Seton: op. cit. 1, p. 97

(57) Morgan: op. cit. pp. 179 - 180

وفي نفس العام الذي أرسل فيه هذا البابا سفارته إلى المغول (١٢٤٥م) ، أرسل سفارة أخرى تهض بها هذه المرة بعض الرهبان الذومنيكان على رأسهم الراهب أندريه لونج جيمو Andrew Longjumeau إلى المغول عبر منطقة الشرق الأدنى، نظراً لأنها كلفت بمهام لدى بعض حكام الشرق الأدنى وشعوبه، تخرج عن نطاق اهتمامنا في هذا الموضوع^(٥٨) إضافة إلى ما كلفوا به من مهام لدى المغول في فارس.

وتذكر الروايات أن هذه السفارة وصلت إلى منطقة تبريز في فارس وكان رئيسها يفتي لقاء القائد التتوي بايجو Baïju وتسلمه خطاباً من البابا إنوسنت الرابع ليسلمه إلى الخان الأعظم، إلا أن المبعوث البابوي لم ينجح في لقاء القائد التتوي واضطر إلى الانتظار فترة هناك التقى خلالها ببعض رجال الدين التتو الساطرة في تبريز وشمال غرب فارس^(٥٩) وحصل منهم على ما يقيد هزم المغول على غزو أوروبا، وخططهم لتشر سلطاتهم في العالم كله. ولما طال انتظار هذا المبعوث في تبريز قرر تسليم خطاب البابا للقائد فرقة من فرق بايجو في غرب آسيا، مؤملاً أن يصل هذا الخطاب للقائد بايجو ثم للخان الأعظم. وبعد تسليمه خطاب البابا اعتبر ذلك نهاية لسفارته إلى المغول، وبدأ رحلة العودة إلى الغرب، حيث وصل إلى مدينة ليون في جنوب فرنسا للقاء البابا وذلك عام ١٢٤٧م^(٦٠).

(58) Runciman : op. cit. 111, p. 232, p. 260

(59) Morgan : op. cit. p. 180

العربي : مغول ص ١٩٠ - ١٩١

(60) Pelliot : "Les Mongols et la papauté", R. de L'Orient chrétien, 3rd ser. 111, pp. 3 - 30

ويشير كثير من المؤرخين المحدثين والدارسين إلى أن خطاب البابا إنوسنت الذي حملته هذه السفارة، لم يقدر له أن يصل إلى القائد بايجو أو الخان الأعظم، وأن هذه السفارة لم تنجح فيما بعثت من أجله. واقتصر دورها على ما حصلت عليه من معلومات من رجال الدين المسيحيين في تبريز، وبمض الأساقفة النساطرة هناك عن خطط الغزو بغزو أوروبا وإخضاع شعوب العالم بأسره لسلطانهم وإطلاع البابا على ذلك كله^(٦١).

أما السفارة الثالثة والتي بعث بها البابا إنوسنت الرابع وأستدعا إلى راهب دومنيكاني آخر. هو أسكلين أوف لومباردي Ascelin of Lombardy إلى المغول^(٦٢)، فقد اتخذت نفس الطريق الذي سلكته السفارة السابقة، فاجتازت الشام ومشت إلى تبريز للقاء القائد المغولي بايجو، وخرجت هذه السفارة في ربيع سنة ١٢٤٥م أيضاً من مدينة ليون في جنوب فرنسا، وعادت بعد أكثر من ثلاثة أعوام أي في طريف سنة ١٢٤٨م^(٦٣).

وليس من شك في أن الهدف من هذه السفارة لا يخرج عن الأهداف التي أرسلت من أجله السفارات الأخرى من قبل، وإن زاد على ذلك محاولة البابوية التحالف مع المغول وأحداث التقاطع بين الغرب المسيحي والمغول في آسيا والشرق الأدنى^(٦٤)، ومحاولة الإنفاق مع المغول

(61) Ibid : pp. 28 – 30

(62) Runciman : op. cit. 111, p. 259

(٦٣) العريضي : المغول ص ١٩٠

(64) Morgan : op. cit. p. 180

حتى لا يجتاحوا الكيانات الصليبية في الشرق الأدنى، خاصة بعد أن أخضعوا بلاد الكرج (جورجيا) وأرمينيا الصغرى، وكلتا هاتين كانت مسيحية، في هذه الفترة بالذات، وكان يمكن أن يجيء الدور على الإمارات اللاتينية في بلاد الشام، وما بقي من الكيان الصليبي هناك^(٦٥).

ونحن ندين بما تعرفه عن سفارة أسكلين هذا لرفيق من رفقاء هذا الراهب الدومنيكاني هو سيمون أوف سانت كوينتن Simon of St. Quentin^(٦٦)، على الرغم من أن هذه السفارة ضمنت أيضاً رفقاء آخرين من الرهبان الدومنيكان من الشرق جرى ضمهم إلى هذه السفارة أثناء الطريق لتسهيل مهمتها، نظراً لأن بعضهم كان على دراية بلغات تلك المناطق وعادات الناس فيها وتقاليدهم^(٦٧).

ولقد أشار سيمون - رفيق الراهب أسكلين - إلى أن البابا كان قد طلب تسليم رسالته إلى القائد القوي باليجو، نظراً لأنه القائد القاطن في مد السيطرة القوية على منطقة الجزيرة وأصالي الرافدين وآسيا الصغرى وأرمينيا، وما والاها غرباً، فالتفت السفارة فعلاً بهذا القائد في غرب آسيا^(٦٨)، وكانت تتعرض لمحنة في ذلك اللقاء حين رفض أعضاءها الركوع للقائد القوي. وعدم حملهم هدايا تسييراً عن خضوعهم وولائهم للمعول، كما يرجح الصغراء على ذلك في لقاءاتهم برجال القول وولائهم الأعظم.

(65) Runciman : op. cit. 111, p. 259

(66) Morgan : op. cit. p. 180

(٦٧) الميريس : نفسه ص ٩٠

(68) Runciman : op. cit. 111, p. 259

ويبدو أن رفض هؤلاء السفراء الركوع أمام بايجو استند إلى اقتناع هؤلاء الرهبان الدومنيكان بأنهم يمثلون البابا رأس العالم المسيحي كله، والذي يدين له الناس في كل العالم المسيحي بالطاعة الروحية والدينية، وأن ركوعهم لا ينبغي أن يحدث لحاكم مهما علا شأنه لأنه حتماً لا يداني البابا في سلطانه ومكانته، وإذا كانت الهدايا التي ينتظرها القبول من السفراء تعتبر دليلاً على الخضوع والولاء، فلا حاجة لهم بها لأنهم لم يحضروا لتقديم قروض الطاعة والولاء، وإنما لحام كفتوا بها من السيد الأعلى لكل المسيحيين بين هؤلاء المنبريين^(٦٩).

ولهذا غضب بايجو كثيراً وكادت تحدث محنة لهؤلاء السفراء لولا أن تدخل بعض رجال القبول ممن كانوا على دراية بالسفارات السابقة ورد الخان الأعظم عليها، خاصة سفارة الراهب جون بلاتو كارييني قبل ذلك بعام واحد، فسمح هؤلاء بايجو بأن يبعث مع هؤلاء السفراء رسالة إلى البابا تحوي ردّاً يعاقل ما جعله كارييني من رد في العام السابق ويتضمن رفض بايجو ما طلبه البابا بأن يخضع القبول للسلطة الروحية للبابا، ويؤكد إصرار القبول على التمسك بما للإمبراطورية العالمية من قانون علوي^(٧٠). ويركز على أن يحضر البابا وملوك وحكام الغرب إلى مقر الخان الأعظم للإقرار بالتبعية والخضوع وتقديم قروض الطاعة والولاء، وتتميز هذه السفارة عن سابقتها بأنها ارتحلت عائداً إلى الغرب وفي معيتها اثنين من سفراء القبول إلى البابا يحملون رد القبول المشار إليه، ويعتقد أنهما كانا من المسيحيين

(69) Pelliot : op. cit. Vol. 28, pp. 112-131

(٧٠) العربي : القبول من ٢٠٨

وواضح أن هذه السفارة التي أستدعا البابا إلى رهبان من الدومينيكان قد فشلت مثل سابقتها التي قام بها الرهبان الفرنسيون في حمل المغول على الدخول في المسيحية أو إحداث تقارب معهم أو حتى إقناعهم عن إحداث الشايع بين المسيحيين، ولهذا نستطيع القول أن جهود البابوية للتشجيع بالمسيحية بين المغول في تلك الفترة المتقدمة من تاريخ العلاقات بين الجانبين لم تسفر عن شيء، ولم تحقق القرض منها^(٧٢)، وإن كانت قد أحاطت البابوية والغرب بمعلومات ضافية عن هؤلاء المغول وعقائدهم وعاداتهم وثقافتهم ولغاتهم وتوابعهم تجاه أوروبا والغرب المسيحي^(٧٣).

ما يعني من ذلك أن سفارة أسكلين عادت إلى ليون في جنوب فرنسا في خريف سنة ١٢٤٨ م، وفي معيتها رسل بايجو إلى البابا اللذين استقبلهما البابا ووقف على فحوى ما حملاه من رسائل، وعرف مدى استعداد هؤلاء المغول للدخول في المسيحية، ثم سمح لهما بالمودة مزودين ببعض الهدايا، ويحملان بعض رسائل البابا للقادة المغول؛ كما يذكر المؤرخون المعاصرون^(٧٤).

ولقد واصل البابا محاولاته للتصير المغول وإدخالهم في المسيحية، فصا حملة سفره بايجو إلى قادشهم دار حول رغبة البابا في تحقيق

(71) Runciman : op. cit. 111, p. 259

وتذكر بعض المؤرخين أن أحدهما هو أليكس الألباني، والآخر هو سركيس الشطرنج نظر العريش : المرجع السابق ص ٢٠٢

(72) Morgan : op. cit. p. 180

(73) Ibid . p. 24

(74) Runciman : op. cit. 111, p. 259

الخلاص لأرواح كل البشر من الذنوب قبل الموت، وتحقيق الوحدة بينهم جميعاً أمام الرب، وأنه يرى أن المغول أولى بهذا الخلاص من غيرهم لما ارتكبه من آثام وخطايا في حروبهم خاصة ضد المسيحيين، وأنه على استعداد لإرسال رجال الدين للرد على استفسارات المغول عن كل ما يتعلق بالمعتقد المسيحية ومبادئها، وأن يفوزوا بالخير في الأرض وكذلك في السماء بدخولهم في المسيحية⁽⁷⁵⁾.

وعلى الرغم من كل ذلك، لم يستجب المغول لطلبات البابا إنوسنت الرابع للدخول في المسيحية، كما لم يلب البابا وحكام الغرب دعوة المغول للمغول أمام الخان الأعظم لتقديم فروض الطاعة والولاء، ولهذا فشلت سفارات البابا إلى المغول⁽⁷⁶⁾، كما لم تلبد البابوية والغرب الأوربي أي اهتمام بمطالب المغول. ولهذا لم تحقق البابوية أهدافها في تلك الفترة، لأن الظروف لم تكن مواتية⁽⁷⁷⁾، ولأن المغول كانوا يفتخرون قسراً بتوسعاتهم، وامتداد إمبراطوريتهم، وسلطانهم في العالم في ذلك الوقت، وتبذعهم كبريائهم حينئذ من مجرد الاستماع إلى مطالب البابوية، كما تزين لهم قوتهم فكرة السمو والتفوق على كل قوى الدنيا في ذلك الوقت⁽⁷⁸⁾.

وفي إطار الهدف الذي سعت إلى تحقيقه البابوية في اجتذاب المغول إلى العقيدة المسيحية والتبشير بها لمحاولة صرفهم عن حرب أوروبا أو غزو أراضيها جاءت محاولة رابعة قام بها الملك الفرنسي لويس

(75) Pelliot : op. cit. Vol. 28, pp. 121 – 131

(76) Runciman : op. cit. 111, p. 259

(٧٧) العربي : المغول ص ١٩٠

(78) Morgan : op. cit. p. 180

التاسع فترة وجوده بالشرق، وله إنتاج قيماء قشلت فيه البابوية^(٧٩)، ويجذب هؤلاء القبول إلى المسيحية مدفوعاً في ذلك بما عرف عنه من تقوى وورع وحماة للعقيدة المسيحية.

وكان الراهب الدومنيكاني لونيچ جميعاً له عاد من سفارته الفاشلة إلى القبول وقدم تقريره إلى البابا إنوسنت سنة ١٢٤٧ م؛ فلما أبحر الملك لويس التاسع قاصداً الشرق على رأس حملته الصليبية التي عرفت بالحملة الصليبية السابعة في أغسطس سنة ١٢٤٨ م. صاحبه الراهب الدومنيكاني المشار إليه هو وأخوه. وعرج الملك لويس التاسع في طريقه على جزيرة قبرص، حيث قضى بالجزيرة نحو تسعة أشهر استقبل خلالها سفيرين مسطوريين من قبل الممولى^(٨٠)، وفي قبرص فكر الملك لويس التاسع في إنفاذ سفارة إلى القبول لمحاولة اجتذابهم إلى المسيحية وأحداث تقارب معهم^(٨١)، لاسيما وأنه كان في طريقه على رأس حملة صليبية ضد المسلمين، وفي حاجة إلى محالفة القبول لمنع اجتياحهم بلاد الشام وهدم بقايا الكيان السليبي هناك من ناحية، والاستفادة بهم في صراعه المنتظر مع المسلمين في مصر والشام من ناحية أخرى، خاصة بعد أن علم بما أظهره القبول حينئذ من ميل نحو المسيحية وعطف على المسيحيين المتسامرة، وما وضعوه من خطط لمهاجمة المسلمين في الشرق الأدنى، وكلها مبررات لقيام تحالف معهم بشرط أن يتحول القبول أولاً للمسيحية^(٨٢).

(79) Ibid. p. 181.

(80) Morgan : op. cit. p. 181.

(81) Matthew Paris's English History, Vol. 11, p. 319.

(82) Setton : Hist. of the Crusades, Vol. 11, p. 507.

فلما فكر لويس التاسع في إنفاذ سفارة إلى النغول لم يجد أنسب من الراهب لوتج جيمو وأخاه لتكليفهما بهذه السفارة. خاصة وأن لوتج جيمو قد أصبحت له خبرة كبيرة بمثل هذه السفارات، فبسبب أنه وأخوه يجيدان اللغة العربية^(٨٤) ولغات أخرى لأهل البلاد التي سيجتازونها في طريقهم إلى بلاد النغول، وحملها الملك لويس التاسع هدية تليق بخان النغول، عند اعتناقه المسيحية، وهي كنيسة صغيرة يمكن حملها ونقلها من مكان إلى مكان وأمر "بأن تكون جميعها قرمزية"، وحملته رغبته في اجتذاب التتار إلى ملتنا على إصدار أمره بتصوير جميع تصاليم ديننا على تلك الكنيسة بشارة الملكة بالولادة والجلاد والتعميد وجميع الأخوان وتزول الروح القدس"^(٨٥)، وأرسل معه كذلك بعض المقدسات الدينية اللازمة لهيكل الكنيسة، فضلاً عن بعض الهدايا والتحف "ومجموعة من الأكواب والكتب ... اللازمة لترتيب القداس، والكنوز من الأخوان المبشرين للبلاد القداس أمام التتار"^(٨٦). فقادرت هذه السفارة قبرص في يناير سنة ١٢٤٩م في طريقها إلى منغوليا لتقابلها الخان الأعظم كيوك^(٨٧).

وصلت هذه السفارة أولاً إلى ميناء أنطاكية على الساحل الشامى، ثم اتجهت نحو الشرق نحو منغوليا "فاستغرق سفرهم إلى ملك التتار العظيم مدة عام كامل"^(٨٨)، وحينما وصلت إلى قراقورم - عاصمة النغول

(٨٤) Runciman : op. cit. 111, p. 260

(٨٥) جواتفيل : القديس لويس - حياته وحملاته على مصر والشام ص ٢١١ (ترجمة د. حشوي)

(٨٦) جواتفيل : المصدر السابق ص ٢١١

(٨٧) Morgan : op. cit. p. 182,

العربي : النغول ص ١٩١

(٨٨) جواتفيل : المصدر السابق ص ٢١١

— علم أفرادها أن كبوك قد مات وأن أرملة أصبحت تسيير دفة الحكم كوصية على العرش واستمرت في وصايتها على العرش أكثر من ثلاث سنوات (١٢٤٨ ~ ١٢٥١م) فاستقبلت السفارة بالترحاب، ولكنها كمادة المغول اعتبرت الهدايا التي أرسلها الملك لويس التاسع جزئية يؤذيها القابع للسيد^(٨٨) ، في الوقت الذي سخر فيه المغول من دعوة الملك لهم لاعتناق المسيحية، ولم يبدوا أى استجابة لهذه الدعوة، بل أرسلت الوصية مع تلك السفارة عند عودتها بعد نحو ثلاث سنوات رسالة وجهتها إلى الملك لويس التاسع باعتباره تابعاً لها وطلبت فيها أن يواظب على إرسال الهدايا والأموال كل سنة^(٨٩) ، - لذلك نتصيح أن تبعث إلينا - عاما بعد عام - بضيء من ذهب وقصبتك، وبذلك نقيتنا أصدقائك، فإن لم تفعل هذا دمرناك أنت وشعبك^(٩٠) ، بل وطلبت منه أيضاً الحضور لتقديم فروض الطاعة والولاء، فأرتاح لويس التاسع لهذا الرد وسأه كثيراً ما حاول المغول اعتباره من أتباعهم بينما أشار المغول حرص لويس على الاستقلال^(٩١) ، فلما وصله رد المغول ندم كثيراً على أنه أرسل إلى هؤلاء التتار سفارة^(٩٢) ، مؤملاً تحقيق ما فشلت فيه البابوية معهم .

وعلى الرغم من ذلك لم يياس لويس التاسع في محاولته اجتذاب المغول إلى المسيحية وإدخالهم فيها، وشجعه على ذلك ما سمعه من أن أحد خانات القنجاقي في جنوب روسيا كان يقدر المسيحية ويعطف على

(88) Morgan : op. cit. p. 182

(٨٩) العيني : المغول ص ١٩١

(٩٠) جواتفيل : المصدر السابق ص ٢١٩

(91) Seton : op. cit. 111, p. 507

(٩٢) جواتفيل : المصدر السابق ص ٢١٩

المسيحيين فقرر الملك لويس التاسع أن يرسل سفارة أخرى على رأسها الراهب الفرنسيسكاني ولهم روبروق^(٩٥)، ومعه راهب آخر هو بارتليميو أوف كرمونا فخرجت هذه السفارة من فلسطين في أوائل سنة ١٢٥٣م متجهة إلى القسطنطينية ومنها اتجهت إلى شبه جزيرة القرم في مايو سنة ١٢٥٣م، ثم اجتازت جنوب روسيا، إلى معسكر أحد أمتهان باتو خان الفججاق ويدعى "سارتاق" على مقربة من نهر الفولجا الذي كان يحيط نفسه بمجموعة من المسيحيين النساطرة، وفي حاشيته أحد الدايوة يعمل مترجماً له، قسبر روبروق ورفاقه إلى معسكر والده باتو^(٩٦) على الضفة الشرقية لنهر الفولجا، فسيره هذا إلى العاصمة الفولجية قراقورم لمقابلته مونكو، الذي كان قد اعتلى العرش في ذلك الوقت، بعد فترة وصاية زوجة الخان كيوك^(٩٧).

استقبل مونكو مبعوث الملك لويس التاسع روبروق في يناير سنة ١٢٥٤م، ورأى روبروق في بلاط القوقل بقراقورم عدداً كبيراً من ممثلي الديانات المختلفة المسيحية والشامانية والبوذية والإسلامية، والتقى ببعض ممثلي العالم المسيحي منهم سقراء من لادن الإمبراطور البيزنطي^(٩٨)، وراهب أرمني قدم من فلسطين ورجل آخر جاء من اللورين، كان في خدمة زوجة نسطورية لمونكو ومبعوث آخر مسيحي سرياني وغيرهم من المسيحيين من مختلف الأقوام من المجرين والروس والكرج والأرمن^(٩٩)، إذ بقى روبروق في البلاط القوقل نحو خمسة

(٩٥) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٩٦) العريضي : القوقل ص ١٢٥ .

(٩٥) Morgan : op. cit. p. 182

(٩٦) Runciman : op. cit. 111, p. 295

(٩٧) العريضي : القوقل ص ١٢٦ - ١٢٧ .

شهور، أدرك خلالها أن مونكو يكن عداءً للدولة الإسلامية، ويرغب في محاربتها، وليس ثمة ما يمنحه من القيام بعمل مشترك مع الأوربيين ضد المسلمين إلا اقتناعه الكامل بأنه ليس في العالم سوى سلطان واحد لاحكام سواه هو الخان الأعظم للتار^(١٠٠).

وتذكر الروايات أن وليم روبروك كان يأمل أن يسمح له مونكو بالبقاء لديهم لدعوة المغول إلى المسيحية والتشجيع بها بينهم، إلا أن الخان الأعظم لم يوافق على ذلك، بل طلب منه العودة إلى ملكه لويس التاسع حاملاً خطاباً يطلب منه القدوم إلى بلاطه لتقديم فروض الطاعة والولاء ويحمل أسلوب التمايل الذي أرسلت به رسائل المغول للبابوية والتعرب من قبل وطلب قدومهم لإعلان الخضوع لسيّد العالم خان المغول الأعظم والإقرار بدفع ما هو مقرر على التابع نحو سيده من أموال وهدايا في كل عام^(١٠١).

أما فيما يختص بتقديم المساعدة للمسيحيين في صراعهم مع المسلمين في الشرق الأدنى وهو أحد أهداف المغارات المرسلة إلى خان المغول، فقد وعد مونكو ببذل هذه المساعدة إذا قدم أمراء وحكام المسيحيين إلى بلاطه لأداء يمين الولاء والتبعية له باعتباره سيّد العالم وأن سياسته الخارجية تستند إلى أن أسدقائه وحلفائه هم الذين يدينون له بالتبعية والطاعة، وليس ثمة عمل مشترك إلا بعد أن يقر هؤلاء بالخضوع لسيّد العالم^(١٠٢).

(١٠٠) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٨ - ١٠٩

(١٠١) العربي : المغول ص ٣٣٠

(100) Runeman : op. cit. 111, p. 297

فلما استمع ولعم روبروق إلى هذه المطالب، وأدرك أن ملك فرنسا لن يقبل شيئاً منها يبادر بمبادرة عاصمة التشار^(١٠١) في أغسطس سنة ١٢٥٤م متجهاً إلى عاصمة خان القفجاق باتو، على المجرى الأدنى لنهر الفولجا، ثم اجتاز جبال القوقاز، فوصل إلى أرمينيا ومنها إلى أراضي سلطنة السلاجقة التي كانت تحت حماية المغول، ثم أبحر من ميناء إيباس بأرمينيا الصغرى إلى قبرص، ثم منها إلى عكا فوصل في أغسطس سنة ١٢٥٥م، فعلم أن الملك لويس التاسع قد عاد إلى فرنسا، أي أن وصوله بعد أن كان لويس التاسع قد غادر بلاد الشام إلى فرنسا قبل نحو عام. وعندئذ أرسل ولعم روبروق إليه تقريراً عن سفارته إلى بلاد المغول مرفقاً به رسالة الخان الأعظم مونكو^(١٠٢).

لم تتوقف البابوية والغرب الأوربي عن محاولات اجتذاب القبول إلى العقيدة المسيحية وبذل الجهد للتبشير بها بينهم، فبشر اللورخون إلى أن البابا أوربان الرابع الذي اعتلى كرسى البابوية فيما بين سنتي ١٢٦٩ و ١٢٦٤م أظهر حذراً وحساسية فواصلة الجهود للتبشير بين المغول وإدخال هؤلاء نفسه في العقيدة وتعميده وفق مبادئ المسيحية، حين أحس بمطلب هذا على المسيحيين وتقديره لهم^(١٠٣).

ويبدو أن البابوية وحكام الغرب الأوربي لم يذكروا كثيراً أن ما أظهره خانات القبول من مذهب على المسيحية ورعاية المسيحيين، وشمول هؤلاء بكرمهم، لم يكن يستند إلى العاطفة ومجاملة بعض

(١٠١) جوتفيل : المصدر السابق ص ٢١٨ - ٢١٩
Setton : op. cit. 111, p. 507

(١٠٢) العربي : المغول ص ١٩٨
(١٠٣) فؤاد عبد المولى الصادق : المرجع السابق ص ٥٤

الزوجات المسيحيات والمساعدين النساطرة والعاملين في بلاطات الخوارج من قسوسة وراهبات وقرابين وقرابين قسيس، وإنما أيضاً أمته الصالح السياسية^(١٠٤)، ولهذا حين تعارض هذا السلوك مع المصالح السياسية، كانت هذه المجالات تنتهي مباشرة، ولا يلزم لها التبعات أي وزن.

وتنظر لأن البابا أوربان الرابع لم يدرك ذلك جيداً، بل لفت نظره سلوك هولاء تجاه المسيحيين، وعطفه عليهم حتى زمن له بعض القادمين من لدن هذا الخان ميل هولاء نفسه إلى المسيحية واستعداده للدخول فيها^(١٠٥)، وحاجته إلى من يقوم بتعميده وفق تقاليد هذه العقيدة، يادر البابا بالاستجابة لهؤلاء مباركاً هذه الخطوة متحمساً لتلبية هذا الطلب واعداء هولاء وراعيه الذين سيدخلون في العقيدة المسيحية القوي في الدنيا وفي الآخرة: إذا هم أقدموا جادين على التعميد عن رضى واطمئنان^(١٠٦)، غير أن آمال البابا أوربان الرابع ذهبت أراج الرياح لأن هولاء لم يفعل ما يثنى عن أنه كان رافضاً فعلاً في ذلك التعميد أو متجنباً نحو العقيدة المسيحية، وأن الأمر لم يخرج عن كونه انعكاساً للمصالح السياسية للخوارج ومجاملة اليعاقبة - كما سبق أن أشرنا^(١٠٧).

ونفس الشيء حدث في عهد البابا جريجوري العاشر (١٢٧١-١٢٧٦م) ، الذي علم بمجرد اعتلائه كرسي البابوية سنة ١٢٧١م أن الخان الأعظم الخوارج قوبلاي كان قد أرسل سفارة على رأسها أحد

(104) Morgan ; op. cit. p. 183

(١٠٤) العريش : المرجع السابق ص ٣٠٥ - ٣٠٦

(106) Howarth : op. cit. 111, p. 210

(١٠٦) عهد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٥٥

رجالهم^(١٠٨)، وفي صحبته اثنين من المشاهير أحدهما والد الرحالة ذائع الصيت ماركو بولو وعنه يقول بولو وماقيو بولو الذين كانا في خدمة الخان الأعظم فترة طويلة أرسلهم إلى الهانوية يطلب إرسال بعض رجال الدين المسيحي للقيام بمهمة شرح النسخة وتوضيح مبادئها لشعبه والتبشير بالمسيحية في بلاده، فلم يتردد البابا جريجوري العاشر في إعادة الرجلين إلى بلاد الفول ومعهما رسائل من لدنه إلى الخان الأعظم وفي صحبتهم راهبين من الفرنسيسكان مشهود لهما بالكتابة والعلم بالمقيدة للقيام بالمهمة أحدهما هو وليم الطرابلسي^(١٠٩) والآخر يقولو دي فيكترا ومنحهما تقويضاً يرسم المساومة والدعوة للمقيدة والتبشير بها بين الفول، كما أرسل معهما بعض الهدايا الثمينة للخان الأعظم.

ولم يقدر لهذين الراهبين أن يكملوا الرحلة إلى بلاد الفول في الوقت الذي مضى فيه يقول بولو وماقيو بولو إلى منغوليا لقابلة قوبلاي حيث بقيا هناك فترة طويلة في خدمته، أما الراهبان المذكوران فقد أحجما عن مواصلة السفر إلى الشرق، بل بقيا في أرمينيا وقد خافا على نفسيهما بعد أن شاهدا أثر الخراب والدمار الذي أحدثته قوات المماليك بآسيا الصغرى^(١١٠)، وخشى كل منهما أن يعلم المماليك بوجهة كل منهما وقصدهما من تلك الرحلة فيأمرؤا بقتلهم، لهذا أحجما عن مواصلة الرحلة، وانتهت بذلك محاولة البابا جريجوري العاشر اجتذاب الفول إلى المسيحية والتبشير بها بينهم^(١١١).

(108) D'Ohsson : op. cit. 111, pp. 540-9

(109) Runcman : op. cit. 111, p. 340

(110) Setton : op. cit. 11, p. 625

(111) Setton : The Papacy and the Levant (1204-1571), Vol. 1, pp. 133 - 4

وحين أشار الرحالة الشهير ماركو بولو إلى هذه السفارة اتخس باللائمة على البابا في ضياع هذه الفرصة، وأن البابوية لم توفق في اختيار الأشخاص الذين يمكن أن ينهضوا بالمهمة. وإنما اختارت رجولين من الضماف آتارا العاقية، ولم يكن لديهما الإصرار الكافي على إنجاز ما كلفا به وتحمل أعباء السفر والاستعداد للتضحية بنفسيهما في سبيل ما خرجا من أجله. ومن ناحية أخرى تشير الدلائل إلى أن الخان الأعظم قوييلاي لم يكن يعنى بهذه السفارة إلى الغرب الأوربي، وطلب بعض رجال الدين المسيحيين رغبته في أن يعتنق المسيحية^(١١٢)، على أيدي هؤلاء الرجال أو يسمح لشعبه باقتنائها على أيدي هؤلاء الرجال، بقدر ما كان يعنى بها إشعار الغرب الأوربي والبابوية اهتمامه بالمسيحية المسيحية وعطفه على المسيحيين ليكون ذلك موافياً لاهتمامه بكل العقائد والأديان كالإسلام واليهودية والبولونية، فالمعروف أن هذا الخان أظهر اهتماماً بكل هذه العقائد والأديان على الرغم من أنه عاش بولونيا ومات بولونيا أيضاً إذ استخدم خاتبات اللبول كسر السديانات لتحقيق سهاستهم^(١١٣)، ورجح كثير من المؤرخين أن يكون قد قصد بهذه السفارة بجانب ما أشرنا إليه الحصول على بعض المسيحيين ليعملوا لديه بعد أن ألف خدمتهم في بلاطه وفي أنحاء دولته في مختلف الشئون.

ولم يكن حكام أوروبا أقل حماسة من البابوات في محاولة إدخال التنار في المسيحية والتشجيع بها بهنهم، فبالإضافة إلى محاولات كويس التاسع ملك فرنسا في هذا الشأن، أظهر الملك إدوارد الأول ملك إنجلترا

(112) Morgan : op. cit. p. 183

(١١٣) الميربي: الشرق ص ١٩٤

حماسة أيضاً في هذا الشأن^(١١٥)، إذ يقال أنه أرسل رسالة إلى ألبا خان فارس مؤرخة في يناير سنة ١٢٧٤م / رجب سنة ٦٧٣هـ رداً على رسالة تلقاها من هذا الخان في نفس العام، شكره فيها على حبه للمسيحية وعطفه على أتباعها وأوصاه خيراً بجميع المسيحيين في بلاده^(١١٦).

وفي سنة ١٢٧٨م تكررت محاولات البابوية للتبشير بالمسيحية بين مغول فارس حين أرسل البابا نيقولا الثالث (١٢٧٧ - ١٢٨١م) خمسة من الرهبان الفرنسيسكان لهذا الغرض وأرسل معهم رسائل للخان ألبا باعتباره نائباً عن عمه قوبيلاي في فارس^(١١٧)، وخطابات للخان الأعمش قوبيلاي نفسه في متغوليا، وأوضح البابا في رسائله أنه أتاب عنه هؤلاء الرهبان لتعميد كل من ألبا وعمه قوبيلاي بعد أن علمت البابوية برغبة كل منهما في دخول المسيحية وطلب التعميد^(١١٨) من ناحية وطلب السماح لهم كذلك بالتبشير بالمسيحية بين الرعايا المغول من ناحية أخرى، ولم يتم البابا التلويح للخطتين المقولبتين بأنهما إذا عمداً وفق تقاليد المسيحية فسوف يتوزان بالخلاص في الدنيا وفي الآخرة، وبإزالة الثواب الأكبر في السماء، فقد كان البابا نيقولا الثالث معنياً بتحقيق هذا الغرض فضلاً عن رغبته في تحقيق التحالف المسيحي المغولي ضد الإسلام^(١١٩).

(١١٥) مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ٩
(115) Howarth: op. cit. Vol. 111, p. 280
D'Ohsson: op. cit. Vol. 111, pp. 543 - 44

فؤاد عبد المطلب السعيد : المرجع السابق ص ٦٢ - ٦٣
(١١٦) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٥٥ ، ص ١٦١
(117) Settan: op. cit. Vol. I, p. 133

ليكن دور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ص ٧١
(118) settan: op. cit. Vol. 1, p. 133

ولم يَزِدْ هذه السفارة عما سبقتها بأن البابا وضع في اعتباره إعادة أولئك الذين يخدمون الخانات، من المسيحيين النساطرة واليعاقبة وأهل المذهب الخارجي على مذهب روما والغرب الأوربي إلى حظيرة المذهب الكاثوليكي وسيادة البابوية في الغرب، فقد أظهرت بابوية روما حديثاً وحرماً على إقناع هؤلاء المسيحيين الشرقيين بالانصواء تحت مظلة المذهب الكاثوليكي وسيادة بابوية روما^(١١٩)، فحُكِرَ جميع السلطات للرهبان المبعوثين في هذه السفارة لإعادة أولئك النساطرة واليعاقبة إلى صف الكنييسة الأم والبطر من قطع منهم من رحمة الكنييسة أو من الماعولين في خدمة دولة التتار، وقبول لوبة الشذنين منهم والمتزولين بأخطائهم، وحلهم من دنوبيهم وخطاياهم طائفاً واقتوا على ترسية الكنييسة أو الأشخاص الضارين منهم. تحقيقاً للغرض الذي سميت البابوية حيثُ تحقيقه^(١٢٠).

كما أوصى البابا مبعوثيه بإنشاء الكتائس في أنحاء دولة المغول والحرس على إقامة القداسات والترائيل وطقوس العقيدة وخدماتها الدينية والاجتماعية، وكل ما يساعد على نشر المسيحية بين رعايا المغول.

وعلى الرغم من كل ذلك لم تسفر هذه السفارة عن شيء^(١٢١)، بل لم يثبت أصلاً أنها وصلت إلى أهدافها، كما لم يعفد خان المغول الأعظم أو ابن أخيه خان فارس، وأن البابوية أسرفت كماداتها في آمالها في اجتذاب هؤلاء التتار إلى المسيحية وتمييدهم، وأن مصالح المغول السياسية

(119) Morgan : op. cit. p. 180

(120) Runciman : op. cit. 111, p. 397

(١٢١) مصطفى شاه بدر : الرجوع السابق ص ٩

— كما قلنا — هي المسئولة عن كثير من هذه العلاقات والرسائل ولكنها لم تكن قط تهدف إلى امتناع المسيحية أو السماح لمبشرى البابوية بنشرها في دولة المغول^(١٢٢).

استمرت محاولات البابوية للتبشير بين المغول بالمسيحية، ولم تنأس البابوية في محاولاتها لاجتذاب المغول إلى العقيدة ونشر المسيحية بينهم، فحين احتل كرسى البابوية البابا نيقولا الرابع Nicholas IV (١٢٨٨ - ١٢٩٢ م)، وكان مقدماً للرهبان الفرنسيسكان قبل احتلاله الكرسي البابوي^(١٢٣)، أظهر حماسة كبيرة لنشر المسيحية بين المغول والتبشير بها بينهم، فانتهاز فرصة وصول مبعوث أرغون بن أيقا خان فارس إلى القرب الأوربي. وكان هذا الخان بالقات حاكماً على الإسلام والمسلمين بسبب الهزائم المتكررة التي مني بها المغول في عصر والده أيقا علي يد المماليك حكام مصر والشام، ولهذا سعى هذا الخان للتخالف مع المسيحيين فقد كان يميل للمسيحية والمسيحيين من رعاياه معروفاً^(١٢٤) حتى عد عصره بحق عصر الصداقة والتخالف مع البابوية في روما، وملك وحكام أوربا، فأرسل أربعة سفارات إلى المقر البابوي في السنوات ١٢٨٥، ١٢٨٧، ١٢٨٩، ١٢٩٠ م يعرف فيها استعداده للقيام بحملة مشتركة مع المقر البابوي لحرب المماليك^(١٢٥).

(122) Morgan : op. cit. p. 183

(123) Setton : op. cit. Vol. I, p. 112

(124) فؤاد عبد النبي السيد : المرجع السابق ص ١٩٠ - ١٩١

(125) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٥٦-١٥٨ - ١٧٧ - ١٧٨

Budge : The Monks of Kublai Khan, introduction, pp. 42-61, pp. 72 - 75

Runicman : op. cit. 111, pp. 398 - 402

وفي السفارة التي رأسها رابان سوما^(١٢٢) ١٢٨٧ - ١٢٨٨ م بالذات والتي أراد بها أرغون التقارب مع الغرب الأوربي والتحالف السياسي مع أوروبا^(١٢٣) ، انتهز البابا الفرصة لمحاولة اجتذاب مغول فارس إلى المسيحية والتبشير بالمعقيدة بهنهم هناك ، فأرسل رداً على هذه السفارة مع رابان سوما في أواخر سنة ١٢٨٨ م وبعض الهدايا إلى الخان الأعظم وبعض كبار أعيانه وشملت هذه الهدايا بعض المقدسات الدينية^(١٢٤) ، كما أرسل معه رسالتين لأرغون أشار في الأولى منها بعطف هذا الخان على جميع المسيحيين من رعاياه وكرمه معهم ، وشكره على ذلك كما دعاه للتبشير والدخول في المسيحية : لأن في ذلك خلاصه وخلص شعبه وقوزه في الدنيا والآخرة ، لو عمل على نشر العقيدة بين رعاياه . وفي الرسالة الثانية ألح البابا على هذا الخان لتسارع لتبني المعمودية والفوز بالخلاص ، وركز البابا على ما سبق وأن طلبه من هذا الخان : تتم فرحة الكنيسة في روما والشعوب القريبة بذلك ، دون أن يعد البابا باتخاذ إجراء محدد في هذه الأثر^(١٢٥) .

ويبدو أن البابا نبلوا الرابع ، كان على علم بأن ثمة شخصيات في بلاط هذا الخان ممن اعتنقوا المسيحية ، يمكن أن يكون لهم تأثير على هذا الخان . فأرسل إليهم رسائل وبعض الهدايا^(١٢٦) . ومن هؤلاء والده

(١٢٢) من أصل تركي . وكان صديقاً لبطريرك المسيحيين النساطرة * مازيا بوا ٢٩ .
وقدم معه من بلاد الصين ثم بدأ رحلته إلى الغرب أوائل سنة ١٢٨٧ م .

انظر عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٧٨ .

وانظر العريضي : الملوك ص ٢٧٧ (ملاحظة ١)

(127) Budge : op. cit. pp. 42 - 64 , pp. 72 - 5

(١٢٨) العريضي : الملوك ص ٣١٨ .

(١٢٩) رنسان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ١١٢ - ١١٣ (ترجمة العريضي)

(130) Budge : op. cit. pp. 164 - 197

الخزان التي بعث لها برسالة يشيد فيها باعتمادها المسيحية ويهتئها على ذلك ويحثها على محاولة نشر العقيدة بين رعاياها وأتباعها، وحث ولدها الخان على اعتمادها والسماح لرعاياه باعتمادها ونشرها بين المغول، كما أرسل رسالة أخرى إلى أميرة ثانية في البلاط المغول تدور حول نفس المعنى^(١٣١)، فضلاً عما أرسله من الكتب إلى الأمراء والأميرات المغول والرسائل التي يدعوهم فيها إلى اعتناق المسيحية^(١٣٢)، فضلاً عما بعث به البابا إلى عدد من المعلمين في خدمة هذا الخان من الأوربيين المسيحيين يحثهم على أن يكونوا نموذجاً طيباً أمام قريهم من الرعايا ليجذبوا المغول إلى العقيدة المسيحية، ويساعدوا على نشرها بين أولئك المغول، كما أرسل رسالة أخرى إلى دنيس أسقف «العاقية في تبريز»^(١٣٣).

وإذا أسقطت البابوية من حساباتها الأهداف السياسية لسفارة رايان سوما، ولم نعر هذه الأهداف أي اهتمام ركزت كل اهتمامها على محاولة إغراء أرغون ابن ألبا بالدخول في المسيحية والسماح لرعاياه باعتمادها^(١٣٤)، الأمر الذي يؤكد أن البابوية تبنت فكرة تحويل هذا الشعب إلى العقيدة المسيحية وإدخاله فيها والتبشير بها بين رعاياه ولم تنبأ في كل محاولاتها، في الوقت الذي كان فيه هذا الخان بعد المدة لإرسال بعض رجاله إلى الغرب الأوربي بهدف إقامة حلف عسكري وتعاون مشترك بين المغول وأوروبا ضد المماليك المسلمين في الشرق

(١٣١) العربي: المغول ص ٣٠٨

(١٣٢) مصطفى طه بدر: المرجع السابق ص ٨

(١٣٣) العربي: المغول ص ٣٠٨

(١٣٤) فؤاد عبد المولى الشوك: المرجع السابق ص ١٩٤

مصطفى طه بدر: المرجع السابق ص ٨

لهذا أراد هذا الخان جذب اهتمام الغرب والبابوية وحلهم على إقامة هذا الحلف والمشاركة في مشروعه العسكري ضد المماليك بأن جمع المسيحيين العاملين لديه، وكذلك المسيحيين الأوربيين اللوquدين من الغرب، وطلب من كبير الرهبان اعتماد ابنه وكان ظلًا وسط هذا الحشد من المسيحيين، وهذا الطفل هو الذي اعتلى عرش الخانية فيما بعد باسم أولجايتو، وهي محاولة لإقحام الغرب الأوربي حرم الخان على المسيحية وتعهد ابنه وول عهده على أيدي راهب كاثوليكي، ليقنع الغرب بمرسوخ المسيحية بين القوم، ليقوموا بمحادثتهم ضد المماليك في الشرق الأدنى^(١٣٦).

ومضى أرفون ابن أيقا في هذه المحاولة للتأثير على المسيحيين وكسب لقتهم بأن طلب كنيسة متقلقة على هيئة خيمة تتحقق بهلائه، ويتولى أمرها سؤما المسيحي، ثم شمل المسيحيين في ذلك الحفل بكرمه وبضائه، فمنحهم أعطيات سخية ووزع عليهم هدايا، وعرض على الأوربيين من تسويقه الرجال العاملين في بلاطه ممن أقنعهم بامتثال المسيحية، ليكون ذلك دليلاً على حبه للمسيحية والمسيحيين، واستعداده للعنى في التبشير بها بين رعاياه لو تعاون الغرب الأوربي معه وحالفوه ضد المماليك المسلمين^(١٣٧).

(135) Howarth : op. cit. 111, pp. 348-53

Aziz Surial Atiya : The Crusades in the Later Middle Ages, pp. 249 – 50

(136) D'Ottoson : op. cit. Vol. IV, pp. 67-79

(١٣٧) فؤاد عبد المنعم الصياد : المرجع السابق ص ١٩٢ – ١٩٣

ويعلق المؤرخون على ذلك، بأنه جرى في إطار سياسة المغول تجاه القوى الأخرى وأن المصالح السياسية أملت عليهم أحياناً التظاهر بالرغبة في دخول المسيحية والسماح بالتبشير بها بين رعاياهم لتحقيق مصالحهم السياسية لاسيما وأنهم أدركوا حماسة البابوية وبعض حكام أوروبا لاجتذاب المغول إلى العقيدة المسيحية وبذلك الجهود للتبشير بها بين رعاياهم، وكلما رغبوا في تحالف سياسي ومشاركة عسكرية ضد المسلمين كلما تظاهروا بالرغبة في الدخول في المسيحية وطلب المعمودية؛ ليكون ذلك وسيلة للحصول على تأييد الغرب السياسي للمغول^(١٣٨).

وتدل السفارة الأخرى التي أرسلها البابا نيقولا الرابع إلى المغول أن هذا البابا كان أكثر حماسة ممن سبقوه لنشر المسيحية والتبشير بها بين المغول، إذ لم يكد يمر عام على سفر رابان مسوما إلى الشرق حتى أرسل البابا بعثة تبشيرية أخرى مكونة من خمسة من الرهبان الفرنسيسكان على رأسهم جون أوف مونت كور فيشو John of Monte Corvino^(١٣٩) الذي حاز شهرة كبيرة بجهوده التبشيرية بين المغول، والذي قضى سنوات في بلاد الصين ومنغوليا وتبريز، أسفرت عن إدخال أعداد من الناس في العقيدة المسيحية، إذ بنى الكنائس وعمد أطفالاً صغاراً صاروا مساعدين له في التبشير، وأنجز كثيراً من الأهداف التي نعب من أجلها إلى الشرق^(١٤٠)، خاصة الأهداف التبشيرية ومحاولة نشر المسيحية بين المغول إذ لم تكن له أهداف سياسية وكان البابا قد بعث معه رسائل للخان الأعظم قوبلاي في الصين، ولخان فارس أرفزون:

(138) Longan: op. cit. p. 183.

(139) مصطفي طه بدر الترجيع السابق ص ٨.
(140) Atiya: The Crusades in the Later Middle Ages, pp. 248-52.

وبعض كبار رجال الدولة المغولية، وخرجت هذه السفارة في صيف سنة ١٢٨٩م من أجل التبشير لأن الخان الأعظم لم يكن قد أبدى اهتماماً سياسياً بشؤون الشرق الأدنى^(١٤١).

وليس ثمة شك في أن هذه السفارة قصد بها البابا نيولاً الرابع إدخال المغول في المسيحية وحلهم على سرعة التمسك ومحاولة التبشير بينهم بالمعقّدة، فقلد دارت مسأله إلى خانات المغول كلها حول هذا المعنى، ولم يكن لها أهداف أخرى أو رقبة في تحالف أو تدعيم كيان المسلمين في الشام لأن هذا الكيان المسلمين كان يلقط أنفاسه الأخيرة في ذلك الوقت ويوشك أن يزول تماماً على أيدي المغاليك^(١٤٢)، ولهذا اقتضت سفارة جون هذا على ما كان البابا يهدف إليه من التبشير بالمسيحية ومحاولة اجتذاب المغول إلى هذه المعقّدة.

قام جون أوف موننت كورقيو بتسليم ما معه من الرسائل الخاصة برجال خاتمة فارس^(١٤٣)، وأمضى عدة شهور في تدريز بيشر بالمسيحية بين المغول متخذاً من أحد الأميرة مركزاً له وسط مجموعة من الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان، ثم غادر تدريز في عام ١٢٩١م متجهاً نحو الصين لمقابلة الخان قوبيلاي وتسليمه ما معه من رسائل تلخيه، فوصل جون وأحد رفاقه إلى بكين سنة ١٢٩١م، بعد أن كان قوبيلاي قد توفي قبل وصوله بشهور قليلة، فقام بتسليم رسالة البابا لخليفة قوبيلاي في

(١٤١) العرني : المغول ص ٢٠٩ .

Runciman : op. cit. 111, p. 429

(142) Grousset : L'Épire Mongol, Vol. 111, p. 727

(143) D'Obsson : op. Cit. Vol. IV , pp. 67-79

Howarth : op. Cit. Vol. 111 , pp. 348 – 353

الحكم وهو حفيده أوجباتيو (١٢٩٤ - ١٣٠٧م) الذي استقبل جون استقلالاً خافلاً وسمح له بالتبشير بالمسيحية^(١٤٤).

أظهر جون دأباً وحدياً في التبشير بالمسيحية في بلاد الصين فأدرك أن تنصير العاملين في جيوش المغول من الأرمن والكرج وغيرهم من الجنسيات، الذين أسره المغول في حروبهم أو دخلوا في خدمة المغول بمحسب إرادتهم، أسهل كثيراً من التبشير بالمسيحية بين المغول أنفسهم^(١٤٥)؛ فإذا نجحت جهوده بين هذه الجنسيات ساعده هؤلاء على توفير المناخ اللازم لذلك الجهد بين المغول، خاصة وأن مخاطبته هؤلاء الأرمن والكرج أسهل كثيراً من مخاطبة المغول، إذ أنه أجاد اللغتين الفارسية والأرمينية فترة وجوده في الشرق، فضلاً عن تعلمه أيضاً اللغتين التركية والمغولية خلال وجوده بالصين^(١٤٦).

ونجا جون هذا نحواً غاير به طرق من سبقه للتبشير بالمسيحية في الشرق، إذ حاول أن يبيع بذور التبشير بالمسيحية في تلك البلاد، التي تحتاج إلى جهود الآلاف من المبشرين، فاشترى مائة وعلمسين طفلاً في عمر السابعة والحادية عشر من الأرقاء وقام بتعليمهم وتنشئتهم تنشئة مسيحية، فأسلمهم هؤلاء معه في التبشير بالمسيحية بين الآلاف من السكان. ليخط جون هذا خطاً واضحاً في قصة التبشير بالمسيحية في بلاد الصين ووسط آسيا، ويصبح هذا الرجل من أشهر المبشرين بالمسيحية في تلك الديار^(١٤٧).

(144) Browne: *The Eclipse of Christianity in Asia*, pp. 149-150, p. 155, p. 158.

Howarth: *op. cit.*, 111, pp. 208-11, p. 223, p. 277, pp. 331-2, pp. 340-1, pp. 385-7.

(145) Atiya: *op. cit.*, pp. 248-52.

(146) Runciman: *op. cit.*, 111, p. 401.

(147) Runciman: *op. cit.*, 111, p. 401.

وتنظراً للجهود التي بذلها هذا الشجر في بلاد المغول، أصدر البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤م) مراسيم بابوية بتقليد جون هذا منصب رئيس أساقفة بكين وأعطاه صلاحيات البطريرق في كل أنحاء دولة المغول وبخاتية فارس تحت زعامة رئيس أساقفة ألبا^(١٤٨)، وأُرسل له معاونين من الرهبان الفرنسيسكان، فتواصلت جهوده وزملاءه في إنشاء الكنائس والأديرة في أنحاء مختلفة من بلاد المغول وتحويل بعض السكان إلى العقيدة المسيحية، على مذهبها الكاثوليكي، وتوفي جون سنة ١٣٢٨م وترك عدداً كبيراً من الرهبان والأساقفة يواصلون ما بدأه في بلاد المغول وعلى مدى فترة طويلة^(١٤٩).

وواضح أن هذه السفارة قصد بها التبشير بالمسيحية، ولم يكن لها أهداف أخرى، ولم يخلص بها الرغبة في التحالف أو طلباً لتأييد الصليبيين في الشرق الأدنى لأن هذه السفارات والرسائل للتبادلة التي أرسلها أو استقبلها أرغون حدثت في الوقت الذي انتهزت فيه بقايا الكيان الصليبي في الشرق على أيدي المماليك^(١٥٠) كما سبق وأن أشرنا.

(١٤٨) الغريزي : المغول ص ٣٣١

(١٤٩) الغريزي : نفسه ص ٣٣١

(١٥٠) Grousset : L'Empire Mongol, Vol. III, p. 227

الفصل الثاني عشر

مدى نجاح سفارات أوروبا وبعثاتها التبشيرية إلى المغول فنجاً أرسلت من أجله

- الدوافع المختلفة للبعثات التبشيرية إلى المغول
 - منع غزوهم لأوروبا وإقناع شرهم
 - الصعاب معهم عند المسلمين في الشرق الأدنى
 - محاولة تنصيرهم وإدخالهم في المسيحية الكاثوليكية
 - إقناع المسيحيين الشرقيين بالانسواء تحت مظلة المذهب الكاثوليكي وسادة البابوية
 - مد نفوذ البابوية إلى قلب آسيا ومنح البابوية فرصة التباهي بذلك .
- أوجه القصور لدى هذه البعثات مما تسبب في عدم نجاحها فيما خرجت من أجله
 - لم يلق رهبانها معاونة تذكر من دولة مسيحية قوية أو قوة مسيحية
 - أعداد رهبانها كانت قليلة لا تتناسب مع الأهداف المرجوة
 - إمكاناتها المادية كانت قليلة لا تكفي لتحقيق أهدافها
 - عدم إلمام بعض رهبانها باللغات المحلية للرعايا المغول الذين ذهبوا لتنصيرهم
 - التباعد بين رهبانها والمسيحيين الشرقيين في فهم جواهر العقيدة المسيحية وما كان بين الجانبين من حواجز .
- المحصلة النهائية لإنجازات هذه البعثات
 - مجرد تظاهر بعض الخانات بالتقرب دون الدخول في العقيدة فعلاً
 - تنصير أعداد قليلة من الرعايا المغول
 - الإسهام في سد ثغرة في معارف أوروبا عن سكان آسيا
 - الإسهام في تعليم وثقافة بعض الرعايا المغول
 - كسب رهبان البعثات أداة تقارب وتفاعل مع بعض المسيحيين الشرقيين .

لم تكن جهود أوروبا التبشيرية بين المغول وبعثاتها وسفاراتها إلى هؤلاء لجذبهم إلى المسيحية الكاثوليكية ، وليدة الحماسة الدينية والورع الديني فحسب ، بل كانت لأسباب كثيرة أيضا ولدوافع متعددة ، بما في ذلك البعثات التي أرسلتها البابوية وحكام الغرب الأوروبي إلى هؤلاء المغول والسفارات التي حرصت على تتابعها إلى تلك الدولة في الشرق^(١).

فبداية لم تكن أوروبا تعرف المغول أصلا لتفكر في تحويلهم إلى المسيحية ، حتى بعد أن اجتازوا جبال القوقاز لأول مرة سنة ١٢٢٢م زمن جنكيز خان^(٢)، غير أنه حين اندفع المغول في توسعاتهم في القارة الأوروبية مطربين مدمرين ما يصادفهم ، مع تمشيش للقتل وسبك الدماء ، في مذابح بشرية رهيبة ، وإشعال للحرائق وإفراق المدن والحواسر ، مما أثار الرعب والفرع في قلوب المسيحيين هناك^(٣) ، بدأ الأوروبيون يفكرون في كيفية مواجهة هذا الخطر الداهم ، خاصة وقد اندفع المغول في شرق أوروبا فقتلوا على مملكة البلغار و اجتاحتوا بولندا والمجر في الفترة ما بين سنتي ١٢٣٦-١٢٤٢م ، بعد اجتياحهم لبراري روسيا ، وقضائهم على إماراتها الواحدة تلو الأخرى ، فأدرك الأوروبيون أن هذا الخطر إذا يهدد قلب أوروبا ذاتها ، فكان على حكام أوروبا وبابواتها التفكير في كيفية وقف هذا الخطر وإنقاذ بقية أوروبا من شرور هذا الشعب^(٤).

إذن لم تكن فكرة إرسال البعثات التبشيرية والسفارات الدينية وليدة الرغبة في نشر المسيحية بين رعايا المغول ، لتوسيع النطاق الذي

(١) فؤاد عبد المعطي السيد : المرجع السابق ص ٩٥

(٢) هارولد لام : جنكيز خان ص ٩١١

(٣) مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ٥

(٤) Morgan : Op.cit.p.179

انتشرت فيه المسيحية والإكثاريات من أتباعها ، وكسب شعوب جديدة تضاف إلى الشعوب المسيحية في أوروبا فحسب ، بقدر ما كانت فكرة تحويل الملوك إلى المسيحية لانتفاء شرهم ومنع غزوهم لأوروبا ، وإيقاف زحفهم إلى الغرب أيها ، فقد كان الأوروبيون يعتقدون أن الملوك سوف يهاجمون أوروبا^(٦) إن أجلا أو عاجلا ، وربما لهذا كانت تلك البعثات التبشيرية والسفارات الدينية مكلفة بمحاولة إغراء خانات الملوك وكبار رجالاتهم وقادتهم بالدخول في العقيدة ، وهم الذين يبدون الحل والعقد وهم الذين يغرون الزحف والتوسع أو الإحجام عن ذلك^(٧)

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فكرت البابوية وحكام غرب أوروبا للمهتدين بالفكرة الصليبية والحملات الصليبية إلى الشرق والعالمين على دعم بقايا الكيان الصليبي المترشح في الشرق ومحاولة تقويته في مواجهة المسلمين ، ومنع انهياره ، فكروا في حليف يساعد في ذلك وقوة يمكن أن تضغط على المسلمين ليخف ضغط هؤلاء على بقاياهم في الشرق الأدنى ، ومشاركة هذه القوة في عمل عسكري ضد المسلمين لتحقيق الغرض^(٨) ، وطالما برزت قوة الملوك في ذلك الوقت ، وطرقت نفسها على أحداث المنطقة ، فقد أصبحوا أنسب القوى للتحالف مع أوروبا ضد المسلمين ، خاصة وأنهم بدعوا تاريخهم بعنائهم للمسلمين والإسلام ، و اجتاحت القوى الإسلامية في وسط آسيا وغربها ، وتفرقت إلى الشرق الأدنى ، وأصبحوا أنسب القوى للعمل المشترك ، وقد غدوا يقرب الكيان الصليبي المترشح في بلاد الشام فليس ثمة ما يمنع من

(٦) فؤاد عبد الحميد المصباح : نفس المرجع ص ٦٠

(6) Morgan : Op.cit.pp.179-180

(7) D'ohsson : Histoire des Mongols ,iii,p.442

التحالف معهم للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين ، وليس ثمة ما يمنع البابوية أيضا من ان تطلب اعتناق الخان المغولي الديانة المسيحية كشرط أساسي لقيام هذا التحالف السياسي بين أوروبا و التتار^(٩)

بل ان خانات القوق سموا أحيانا للتحالف مع ملوك وحكام أوروبا ضد المسلمين خاصة أيقا بن هولأكو ، بعد هزيمة المغول في صين جالوت ، إذ قام بالاتصال مرارا ببعض حكام أوروبا للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين في الشرق الأدنى^(١٠) ، فتبوءت المراسلات بين البابوات الأربعة : كليمنت الرابع وجريجوري العاشر وبوختا السادس والعشرين ويقولون الثالث ، وبين أيقا هذا بن هولأكو ، تتضمن طلب العمل المشترك ضد الممالك^(١١) ، وكذلك بين البابا نيقولا الرابع والخان أرغون بهدف اقتزاع الأرض المقدسة من الممالك المسلمين^(١٢) ، وقد نشر بعض ملوك أوروبا إلى الممالك المسلمين على أنهم أخطر على المسيحية في الأراضي المقدسة من التتار ، و صار لزاما عليهم التفكير في القيام بعمل مشترك مع المغول ضد الممالك^(١٣) .

ونظراً لأن هؤلاء المغول كانوا وثنيين يعتقدون الوثنية و الشامانية وديانات آسيا ، ولا يعرفون عن المسيحية إلا القليل عن طريق الصائدين

(٨) فؤاد عبد المولى الصمد : نفس المرجع من ٦٠

(9) Prawdlin : The Mongol Empire, its Rise and Legacy (New York 1967) pp.370-371

(10) Sykes : A History of Persia , 11 , pp.62-3 1921

عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٤٤

(11) Howarth : Op. cit. 111, pp. 348-53

D'Ohsson : Op. cit. 1V, pp. 67-79

(12) Howarth : Hist. Of the Mongols , 111, pp.275-280

D'Ohsson : Histoire des Mongols , 111, pp.539-542

لديهم من التسلط والدياكية و أسرى الحروب . ومن اعتنق المسيحية من قبل مع قتلهم^(١٢) ، فكان لا بد من التفكير في جذبهم إلى العقيدة المسيحية . وإدخالهم فيها لإزالة ما قد يكون من حواجز بينهم وبين رعايا أوروبا لإنجاز ما فكر فيه الأوروبيون أصحاب الأفكار الصليبية . ومن أظهروا مهلاً واضحاً لإنجاز الحملات الصليبية ودعم الكهنة المترشح في الشرق^(١٣)

لم تكن البعثات التبشيرية وسفارات أوروبا إلى المغول يفرض جذبهم إلى المسيحية وإدخالهم فيها تخلو من أغراض أخرى سياسية وعسكرية ، فضلاً عن أهداف صليبية ، إذ أراد حكام القرب مخالفة التنازل ومصادقتهم ، ثم أصبح التنازل يسمون سعيًا جاداً لتكوين حلف مع القرب ضد أعدائهم المماليك في مصر والشام^(١٤) ، فلم يخل الأمر من أغراض سياسية وعسكرية و أهداف صليبية، كما هو واضح، ونضيف إلى ذلك غرضة ثالثة أو حذفاً ثالثة وهو أن هذه البعثات التبشيرية والسفارات الدينية : وضع مرسلوها في حططهم أيضاً صرف المسيحيين في دولة المغول من التسلط والدياكية والعاملين في دولة المغول وسلط الخانات وأسرى الحروب وعدم المغول وبعض شؤونهم الذين اعتنقوا المسيحية على مذاهبها الشرقية في فترة سابقة على قيام دولة التتار . صرف هؤلاء جميعاً عن مذاهبهم المخاضة للكنيسة الكاثوليكية والسيادة العائلية للبايوية، فكان من بين أهداف من ذهبوا إلى الشرق في تلك البعثات محاولة إدخال هؤلاء المسيحيين التسلط والدياكية في نطاق

(١٢) عبد السلام قومي : المرجع السابق ص ١٥٤-١٥٥

(١٤) Runciman : Op.cit.iii.p.429

(١٥) فؤاد عبد الحلبي السباد : المرجع السابق ص ٤٩ - ٦٠

عبد السلام قومي : المرجع السابق ص ١٦١

* Grousset : L'Empire Mongol. 111 . pp.

التبعية للكنيسة العالمية والسيادة البابوية في روما ، والإقرار بسيادة البابا على كل الكنائس في الغرب وفي الشرق^(١٦) ، لاسيما وقد قطعت البابوية شوطا كبيرا في إقرار هذه السيادة على كثير من الكنائس ، ولما زلت بهذه والرياسة في نفس الفترة تقريبا ، فلا بأس أن يكون من بين أهداف هذه السفارات والبعثات التبشيرية تحقيق هذا الغرض ، وتحويل النساطرة واليعاقبة إلى الكاثوليكية والإقرار بسيادة الكنيسة العالمية في روما تحت سلطة البابا^(١٧) خاصة وقد تزايد عدد المسيحيين النساطرة واليعاقبة في بلاط بعض حانات المغول^(١٨) .

كما لا يخلو الأمر من بعض أهداف يمكن أن تتفاخر البابوية بتحقيقها أو تنهاه بإنجازها من أن سيادتها قد وصلت إلى قلب الصين وأطراف آسيا في الشرق لتسترد لمعانها وتستعيد بريقها أمام رجال الدين ورجال الدنيا في أنحاء أوروبا ، بعد أن تددت صورتها بعد صراعها مع الإمبراطورية فترة ، ثم وقوعها في الأسر البابلي في أفيثون فترة أخرى ، حين حوصرت وفقدت كثيرا من مجدها^(١٩) .

في ضوء ذلك يمكن الحكم على نتائج تلك البعثات التبشيرية والسفارات الدينية التي رأسها غالبا الرهبان من الفرنسيسكان والدمينيكان ، وعدى نجاحها فيما ذهبت من أجله إلى دولة المغول ، فلم تكن أغراضها وأهدافها قط تبشيرية خالصة أو دينية فقط ، بل حملت معها أهدافا أخرى سياسية وعسكرية وصلحية^(٢٠) ، ومن أجل

(16) Morgan : Op.cit.p.180

(17) Camb.Med.Hist.Vol.6,pp.4-5,p.34

(١٨) ابن الجوزي : تاريخ مختصر الدول ص.١٤٠

(18) Stephenson : Med.Hist.p.503

(١٩) طراد عبد المولى الصياد : المرجع السابق ص.٩٥

سيادة الكنيسة الكاثوليكية وعلويتها ، كما أن البعثات التي أرسلها ملوك وحكام أوروبا إلى التتار بصفة خاصة لم يكن هدفها ديني ينصب على نشر المسيحية بين رعايا التتار ، لأن اهتمام هؤلاء الحكام والملوك بالمسيحية كان أقل من اهتمام البابوات ، خصوصا وأن الروح الدينية في أوروبا عامة كانت قد ضعفت منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، كما أن هؤلاء الملوك والحكام كانوا مشغولين بأمورهم الخاصة⁽²⁰⁾ . أي أن أهداف هذه السفارات والبعثات لم تكن دينية بحتة ، وإنما حملت معها أهدافا أخرى كتهرة ، كان من الصعب على رهبان هذه البعثات إنجازها .

في الوقت الذي لم تلق فيه هذه البعثات التبشيرية معاونة من قوة كبيرة قريبة في آسيا أو دولة قريبة تدعّم بالمسيحية الكاثوليكية ، أو ترعى حتى هذا المذهب وكانت أقرب دولة مسيحية هي أرمينيا الصغرى ، التي كان أغلب سكانها يعتقدون المذهب الشرقي⁽²¹⁾ ولا يدين بالمذهب الكاثوليكي فيها إلا القليل ، ولم يكن متوقعا أن تقدم لتلك البعثات مساعدة أو تأييدا للتبشير بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي من ناحية فظلا من أنها ما لبثت أن أعلنت للمغول وسارت وفق سياسة القبول من ناحية أخرى ثم ما لبثت الممالك أن اجتاحتها وخربوا معالمها في نهاية الأمر من ناحية ثالثة⁽²²⁾ .

(20) King : Knights Hospitallers in the holy land p.265

مصطفى عه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ٨-٩

(21) Serton : The paracy and the Levant , ج.٩٧

(22) Ibid , p.97

Runciman : Op.cit. 111, p.401

وبالإضافة إلى ذلك كله لم تكن الإمكانيات البشرية والمادية لهذه البعثات يمكن أن تساعد على تحقيق ما كلفت به على الوجه الأمثل ، لأن اجتذاب المغول إلى المسيحية الكاثوليكية كان يحتاج لجهود أكبر من ذلك كثيرا و أعداد أكثر من الرهبان والبشرى يفوق عدد من أرسلوا فعلا مئات المرات ، بل آلاف المرات ، فبقوة المغول بأقسامها للتعدد كانت بحاجة إلى أعداد كثيرة من الرهبان للبشرى ، إذا فرقت أوروبا فعلا تحويل رعاياها إلى المسيحية وتحقيق الغرض الذي أرسلت من أجله السفارات والبعثات ، إذ كثيرا ما أرسلت البابوية بعثة أو سفارة من رسول واحد^(٢٣) .

بل لم يزد عدد الرهبان الذين خرجوا في بعض هذه البعثات عن أصابع اليد الواحدة ، وعن اثنين في بعض البعثات الأخرى ، وكان عليهم أن يصلوا إلى عاصمة المغول لمقابلة الخان الأعظم وتسليمه رسائل البابا أو من يمثلهم من حكام أوروبا من أجل التبشير ، وأحيانا كانوا مكلفين بالانتقال إلى خانية فارس لمقابلة حاكمها الذي ينوب عن الخان الأعظم^(٢٤) ، فقبلا من أن بعض رهبان هذه البعثات تطلع إلى الوصول إلى بكين وقبب الصين من أجل تحقيق الهدف ، فكانت محاولاتهم مجرد فطرة وسط محيط من الوثنيين من الشامانيين والبوذيين في تلك المجهل الواسعة للترابية الأطراف في قلب آسيا ووسطها^(٢٥) ، إذا قدر لهم الوصول سالمين .

(23) Budge : The Monks of Kublai, pp.164-197

عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٨٠

(24) Setton : Op.cit.1, p.133

تجلد بور : تملج بشرية ص ٧١

(25) Browne : Op.cit, pp.149-58

Howorth : Op.cit.111, pp.208-23, pp.331-2 □

فالواقع أن حصول هذه الأعداد القليلة من الرهبان إلى أطراف دولة المغول كان رهنا بظروف كثيرة : لعل أهمها استتباب الأمن والسلام وتوقف الحروب وفرة السلطات على توفير الحماية و الأمان للمسافرين والتجار وغيرهم ، فالواقع أن اندلاع الحروب بين بعض أقسام الدولة المغولية كثيرا ما تسبب في تعطيل الطرق وعدم كفاية الأمن عبر هذه الأقسام فقد اندلعت الحروب بين خانية فارس وخانية القبيصة الذهبية أو مغول القنجاك^(٢٧) ، في أطراف روسيا وبرابريا ، وكذلك الحروب التي نشبت بين المغول والقوى الإسلامية كالعالمية كان لها أثر في توقف الرحلات وتهديد طرق المسافرين والتجار ، ولم يكن رهبان البعثات التبشيرية يمكن أن يصلوا في سهولة إلى القنجاك التي خططوا للوصول إليها ، بل أن بعضهم أُنجم أحيانا عن مواصلة السفر بسبب عدم كفاية الأمن^(٢٨) ، والبعض الآخر تعرض أثناء سفره لمحن فقد حياته بسببها ، وجرّد البعض الآخر مما كان معهم من زاد و أموال وتركوا في الصحارى والقفاز وعبر سلاسل الجبال والوهاد ، ومن كان يصل منهم إلى هدفه كان يعتبر نفسه محظوظا ، وقضى بعضهم نحو ثلاث سنوات لكي يصل إلى عاصمة الخان الأعظم في قرانجورم في منغوليا^(٢٩) ومنهم من تعرض للأمرأى والأويطة وقضى نحيبه قبل أن يصل إلى هدفه^(٣٠) .

(٢٧) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ج٢ ص١٤ (الترجمة العربية) .

فؤاد عبد المطلب المصباح : الشرق الإسلامي في عهد الأيلخانيين ص٤٦-٤٣ .

(27) Setton : Op.cit. t.p.625

(28) Browne : The Eclipse of Christianity in Asia,pp.149-158

(29) Grousset : L'Empire des Steppes,p.445

فإذا أدركنا أن قلة عدد هؤلاء الرهبان وبخسارة الأهداف التي خرجوا من أجلها نأكدنا أن تلك الأعداد القليلة من الرهبان ، لم تكن تكفي للتبشير في تلك المجال الواسعة والبراري الممتدة والأقاليم القترامية الأطراف في دولة المغول وألسانها المتعددة .

من أجل ذلك فكر أحد الرهبان البعوثيين في التغلب على هذه المشكلة بمحاولة تنشئة أعداد من الأطفال وتعميدهم وتدريبهم على المعاونة في التبشير في دولة المغول ، إحساساً من هؤلاء الرهبان بضعف الإمكانيات البشرية لهذه البعثات التبشيرية والسفارات الدينية^(٣٦) ، فضلاً عن أنهم كانوا بحاجة ماسة لمن يسهم معهم في إنشاء الكنائس والأديرة ، ويتنهض بدور في الراجعات الدينية والروحانية لتلك الكنائس ، لذلك وقضت الإمكانيات البشرية وضعف هذه الإمكانيات حائلاً أمام إنجاز الرهبان ما خرجوا من أجله في دولة المغول .

أما عن الإمكانيات المادية لهذه البعثات التبشيرية ، فكانت لا تتناسب مع الأهداف الكبيرة التي خرجت هذه البعثات لتحقيقها ، فكيف نتصور أن بعثة من اثنين من الرهبان أو ثلاثة أو حتى خمسة^(٣٧) يمكن أن تحمل معها أموالاً تكفي أو تغطي التزامات هذه البعثات على مدى سنوات طويلة ، ولم يكن من السهل على هؤلاء البعوثيين الاتصال بالبابوية أو بحكام أوروبا في هراسمهم أو بمراكز الأديرة التي يتبعونها لطلب المعونة ، لبعد المسافة من ناحية وصعوبة الاتصال من ناحية أخرى

(36) Runciman : Op.cit.111,p.401

(37) العربي : المغول من ١٢٠٦-١٢١٩

فكان السافر إلى بلاد الملوك يقطع المسافة من غرب أوروبا إلى عاصمة الملوك أو يكين في سنوات^(٣٢) ، بل أن بعض هؤلاء المبعوثين ماتوا خلال رحلاتهم ، وتعرض البعض الآخر لمحن ومخاطر أثناء الطريق ، ومن كان يصل منهم إلى هناك يكون قد أنهك في الطريق وققد كثيراً مما كان يحمله وما خطط لاستخدامه في بعثته التبشيرية من مال أو زاد أو هدايا جعلها إلى أصحاب السلطة والنفوذ ، ولم تكن شاة وسائل تموينه مما فقهه أو مده بالمال أو الزاد أو الحماية خلال الطريق إلى آسيا^(٣٣) ، أو مده بالمال الذي يوجهه لأقامة الكنائس والأبيرة واستقطاب الأسمان والمساعدين وتغطية مصاريف القديسات والتراتيل وخدم الكنائس والشماسة ، والتصدق على الفقراء والقيام بالواجبات الاجتماعية ، التي درجت الكنيسة على القيام بها ، فضلا عن الواجبات الدينية والروحية. ولهذا كثيرا ما تجأت هذه البعثات إلى طلب الممولات والهيئات من بعض الخيرة المسيحيين على قلتهم ، في محاولة لإكمال ما حملوه معهم من أموال لا تكفي لإنجاز مهامهم أو تحقيق أهدافهم^(٣٤)

فإنه أضلنا إلى ذلك أن هذه البعثات كان عليها تقديم الهدايا الثمينة والسذهب والفضة لختانات الملوك في محاولة للتأثير عليهم واستقطاب تدخلهم ومعاونتهم فيما قام به رهبان هذه البعثات : أدركنا أن ثمة قصور مادي وإمكانات مادية قليلة ، حالت دون تحقيق ما هدفت إليه هذه البعثات^(٣٥) ، وقرأنا أن بعثة من هذه البعثات تقدمت

(32) Runciman : Op.cit, I 11, p.429

(33) مصطلح شة بحر : المرجع السابق ص ٤٦-٤٧

Howarth : Op.cit, I 11, p.356

(34) Pelliot : Les Mongols et la Papauté, p.198

(35) Budge : The Monks of Kublai Khan Emperor of China, p.195 (1928)

إلى الخان الأعظم تطلب منه التمسر والتعميد واعتناق المسيحية ، وتطلب منه السماح لها بالبقاء بالتبشير بالمقيدة وتعارف صراحة أنها لا تعمل أموالاً أو ذهباً أو فضة ، يمكن أن تقدمه للخان ، وإنما حملت معها وعوداً بأن يرى الخير كل الخير في السماء ، إذا هو عيّد وتلصق ودخل في المقيدة بدعاتهم وسمح لهم بالبقاء بالتبشير^(٣٦)

ووضحت هذه المعاني فيما قاله الراهب الفرنسيكاني ولهم روبروك أثناء بعثته فيما بين سنتي ١٢٥٣، ١٢٥٥ م لكونكو خان المغول الأعظم في عاصمته : "نحن لا نحمل ذهباً أو فضة أو معادن نفيسة يمكن أن نقدمها لك هدية ولكننا نملك فقط أنفسنا التي نقدمها لخدمة الرب والدعاء له من أجلك ...". فلم يكن لهذه الكلمات صدى في نفس الخان الأعظم ، ولا كان الدعاء له كافياً أو مقنعاً ليسمح لهم بالتبشير في بلاده " وتعميد الناس وفقاً لشرعية الرب " . ويشير المؤرخون إلى أن ولهم روبروك صدم بما رآه في بلاط الخان من ظفوس نسطورية تتسم بالجهل والتخلف^(٣٧) ، كما صدم برفض الخان السماح له بالبقاء أو بالتبشير بالمسيحية وأمرهم بالعودة إلى بلادهم ، فلم تتمكن البعثة من تحقيق ما خرجت من أجله^(٣٨).

فلمس ثمة شك إذن في أن الإمكانيات المادية ، حالت أحياناً دون تحقيق الأهداف التي سعت إلى تحقيقها هذه البعثات التبشيرية ، وأحس بذلك رهبان هذه البعثات ، وتصرفوا في حدود الصلاحيات التي

(36) William of Rubruck ,p.165,pp.176-7 (Trans.Rockhill)

(37) William of Rubruck , pp. 184-6

(38) Runciman :Op. cit. 111, p.296

حاولت لهم من البابوية والغرب، وفي حدود ما حملوه معهم من أموال وهدايا ومؤن وزاد، خاصة وأن بعضهم قضى سنوات طويلة إما في محاولة الوصول إلى قلب الإمبراطورية المغولية أو الانتقال بين ربوعها للاستكشاف والاستطلاع، ورسم الخطة لتحقيق الأهداف التي كلفوا بها من قبل البابوية والغرب الأوربي^(٣٩).

وثمة عامل آخر أسهم لاشك في فشل هذه البعثات التبشيرية، وفي عدم تحقيقها للأهداف التي بعثت من أجلها، وهو عدم معرفة كثير من رهبان تلك البعثات للغات المحلية للرباعيا الذين تجولوا بين ظهرائهم، أو عدم إلمامهم بلهجات كثير من السكان، كان يمكن أن يقرروا بواسطتها من الرباعيا المقول ويتجسروا في إقناعهم بما جاءوا من أجله^(٤٠)، فضلا عن افتقار هؤلاء الرهبان بالنسبة لترجمات الكتاب المقدس بلغات أولئك الرباعيا خاصة الصينية والفارسية والهندية، ومن ثم فقدوا عاملا مؤثرا كان يمكن أن يساعدهم على تحقيق أهدافهم.

حقيقة أتقن بعضهم بعض اللغات الأخرى مثل العربية والمغولية^(٤١)، والأرمينية والسيرانية، ولكن هذه اللغات لم تكن تكفي لكسب كل الرباعيا المقول لأن هناك من الرباعيا من لا يتحدثون سوى بالفارسية أو بالهندية أو بالصينية، ولهذا عد ذلك عاملا معوقا لكثير من تلك البعثات ورهبانها الذين اقتصر معرفتهم على لغات أخرى لا تمكنهم من الوصول إلى كل الناس^(٤٢).

(39) William of Rubruck .pp.184-6

(40)Grousset : L' Empire des Steppes,p.445

(٤١) العربي : المغول ص ٣٣٦

(42) Runciman : Op.cit.111,p.297

فممارسة طقوس المسيحية ، و إقامة قداساتها و تراثيلها باللغة اللاتينية أو السريانية أو حتى القولية في الصين لم يكن يحقق الهدف من إقامتها ، نظراً لأن تلك اللغات لا يعرفها جموع السكان في جهات كثيرة من الإمبراطورية القولية ، التي اتسعت وتشعبت و غصت بكثير من اللغات التي يتحدث بها الناس وتلفهمها جموع الرعايا⁽⁴³⁾ ونظراً لأن كثيراً من هؤلاء الرهبان كانوا في سن متقدمة ، فلم يكن لديهم الاستعداد أو الوقت لتعلم لغات الناس أو لهجات الرعايا ، فشكل ذلك حاجزاً في التفاهم بين الجانبين ، و بالتالي لم تكن الجهود التبشيرية للرهبان الفرنسيسكان أو الدومنيكان تحقق الكثير ، واقتصر الأمر على حالات فردية لعدم استجابة الجموع لهذه الجهود التبشيرية ومحاولة التفسير وفق تعاليم المذهب الكاثوليكي⁽⁴⁴⁾ .

من العوامل التي أعالت جهود الرهبان التبشيريين في بلاد الفول ما كان حادثاً من تعاقد في فهم جوهر العقيدة المسيحية ، بين هؤلاء الرهبان الكاثوليك ، و أولئك المسيحيين الشرقيين في ديار الفول من الساسطرة والحقاقية ، و ما كان بين الجانبين من خلافات دينية⁽⁴⁵⁾ ، حقيقة يذك الرهبان التبشيريين جهوداً في التقارب مع أولئك الساسطرة والحقاقية وإزالة كثير من الحواجز في التعامل معهم ، بل و دعوا أولئك المسيحيين الشرقيين إلى الانسواء تحت سيادة المذهب الكاثوليكي و سلطة البابوية ، ولكن الخلافات بين الجانبين حالت أحياناً دون تقديم هؤلاء المسيحيين الشرقيين معونتهم الصادقة للرهبان التبشيريين في جهودهم للتصير رعايا

(43) Atiya : Op.cit.pp.248-52
Runciman : Op.cit.111,p.401

(44) Morgan : Op.cit.p.180

(45) Browne : Op.cit.pp.104-165

الغول^(٤٦)

قلنا زالت المسافات بعيدة تفصلهم عن الكاثوليك ، ولزال اقتناعهم بمذاهبهم و ما بينهم وبين الكاثوليك من فروق بينهم كثيرا عن التعاون الصادق مع أولئك الرهبان الكاثوليك و لا تسمح بتقديم ما كان يأمل فيه هؤلاء الرهبان من معونات^(٤٧) ، بل ان غليموث ولهم روبروق صدم -كما سبق أن أشرنا- بما كان يحدث في بلاط الخان الأعظم مونكو من خلوس نسطورية اعتبرها تنسم بالجهل والتخلف ولا تزيد كثيرا عن الطقوس البدائية^(٤٨)

ولعل ذلك كان أحد أسباب إخفاق هؤلاء الرهبان في تحقيق ما خرجوا من أجله ، حتى ذهب أحد هؤلاء الرهبان إلى أنه لولا مواقف النساطرة وما كانوا يلتقونه في مسامع خانات المغول من سذاجات وترهات ، وتحرشهم الناس على صدم الاستجابة لجهود القيسريين من الرهبان ، لاستطاع هذا الراهب تدمير الآلاف بدلا من المئات ، وفق تعاليم المذهب الكاثوليكي فضلا عما حدث أحيانا بين الرهبان القرتسيسكان والدوستيكان من خلافات كان لها تأثيرها أيضا على جهود الجميع إضافة إلى ما كان من خلاف بين الكاثوليك والنساطرة والمسيحيين الشرقيين^(٤٩).

(46) Morgan : Op.cit.p.180

(47) D'Ohason : Op.cit.IV,p.147

(٤٨) غير من ذلك المربع رستماني ٢٥٢ :

" William of Rubruck professed himself much shocked by the ignorance and debauchery of the Nestorian ecclesiastics and considered their services to be little more than drunken orgies " .

Runciman : Op. cit.111 , p. 296□

(49) William of Rubruck , pp. 184 - 6□

أما المحصلة النهائية لإنجازات هذه البعثات ، فلا شك أنها لم تكن تتواءم مع الجهد الذي بذل من قبل رهبان هذه البعثات والسفارات في الوصول إلى أرض القبول والتنقل بين أقسام إمبراطوريتهم ، والسعي للقاء حكامهم ومبرزينهم وقادتهم ، ثم بعد ذلك الجهد في التبشير بالمسيحية ومحاولة تنصير هؤلاء الملوك وإدخالهم في المسيحية و تعميدهم - وفق مشيئة الرب - وطبقا "لشرعية الرب"^(٥١).

وتشير الدلائل إلى أن معظم جهود هؤلاء الرهبان تركزت في خاتية قارس بصفة خاصة ، وبين مقول قارس على وجه الخصوص ، وعلى مدى فترة طويلة وصلت إلى نحو قرن كامل من الزمان ، وإن لم تحرم بقية الأنحاء من جهود أخرى ، إذ يذل بعضهم الجهد في بلاد الصين وفي خاتية القبيلة الذهبية وفي بعض جهات روسيا ، وإن اختصت قارس بالذات بكثير من الجهود قامت فيها هيئة للأساقفة تحت زعامة رئيس أساقفة ، في الوقت الذي استقرت فيه أسقفية لانتينية في الصين زمن المقول^(٥٢).

وعلى الرغم من ذلك لم تسر هذه الجهود كلها -كما يذكر المؤرخون- من اقتناع خان مغولي أو حاكم من حكامهم باعتناق المسيحية أو الدخول فيها باقتناع وإيمان إذ كانت آمال التبشرين عريضة ولكنها لم تكن إلا سرايا خادعا^(٥٣). حقيقة تظهر بعض خانات القبول بهذا الاقتناع ومثلوا الدور باتقان أمام سفراء أوروبا ، ولكن لم يحدث ذلك إلا

(50) Morgan : Op.cit.p.183

(٥١) القزويني : القبول ص ٣٣١

(٥٢) فؤاد عبد الحميد المعاد : المرجع السابق ص ٦٤

إذا كان الخان ، سواء أكان الخان الأعظم أو خانا أقل عظيمة في قسم من أقسام إمبراطورية القوقاز ، له أهداف سياسية ويقصد رسم صورة خادعة أمام رسل أوروبا تكسيبه عطفًا في الغرب ومحبة وتمجده فرصة التأثير على حكام أوروبا و بابواتها ، خاصة إذا كان يرغب في محالفة سياسية أو المشاركة في عمل عسكري ضد المسلمين^(٥٤) ، أو كان يطلب مشول حكام الغرب الأوروبي أمامه لتقديم فروض الطاعة والولاء حاملين معهم الأموال والذهب والفضة دليل هذا الولاء والخضوع^(٥٥) . فلا يأس أن يتظاهر باعتناق المسيحية ، وطلب للممونية "وفق شريعة الرب" ، ولا يأس بتعميد طفله وولي عهده على يد أكبر رهبان البعثة الكاثوليكية الموقدة ، وتوزيع الهدايا على الحاضرين من المسيحيين سواء أكانوا كاثوليك أم تساغرة أم يماقية أو غيرهم^(٥٦) .

إذا لم يكن من السهل على خانات القوقاز أن يتحولوا عن دين رعاياهم ، فقد كان الخان الأعظم في الصين عادة يوثق ؛ لأن جل الرعايا هناك كانوا بوذيين ، وتحول خانات القبيلة الذهبية في جنوب روسيا إلى الإسلام عادة لأن جل رعاياهم كانوا مسلمين ، كما اعتنق عدد من خانات فارس الإسلام لأن معظم سكان فارس والتركستان كانوا مسلمين^(٥٧) ولم يكن القوقاز يمثلون أغلبية في المناطق التي احتلوها ؛ وإنما كانوا أقلية بالنسبة للرعايا الذين دأبوا لهم ، فلم يرد حكام القوقاز أن يعتنقوا ديانة بعيدة عن ديانة رعاياهم فذلك يعرضهم لشاكل مع شعوبهم ويخلخل الثقة بين الحاكم والمحكوم .

(٥٤) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٥٦-١٥٧ - ص ١٧٧-١٧٨
(٥٥) Runciman : Op. cit. 111, p. 259
(٥٦) D' Ohsson : Op. cit, vol.1V, pp. 67-79
(٥٧) مصطفى طه بنن : المرجع السابق ص ١٢٢
Howarth : Op.cit, 111. pp. 283-87, pp. 296, 407

لهذه الأسباب قللت جهود الباباوات وحكام الغرب الأوربي في تصوير خانات القوقاز وإن تجتحت أحياناً في جعل بعض الخانات في قارس خاصة الأزل منهم يظهرهم سياسة العطف على رعاياهم المسيحيين. وإساءة معاملة رعاياهم المسلمين ، حتى لا يكاد المزمعون يجمعون على أن أحداً من هؤلاء الخانات ، قد اعتنق المسيحية أو تنصر ، وإن اعتكف منهم بابوات أوروبا وحكامها أن كل هؤلاء الخانات ، أو على الأقل معظمهم كانوا مسيحيين⁽⁵⁸⁾.

اقتصر الأمر إذن على ما أظهره بعض الخانات خاصة في إيران من عطف على المسيحيين من رعاياهم ، فإظهار هؤلاء هذا العطف بتأثير زوجته طفرخانوف ، ووضح هذا جيداً عند دخوله بغداد . وعند دخول القوقاز دمشق ، وأظهر ابنه أيضاً نفس الشعور بالعطف على المسيحيين بتأثير زوجته مازيا البيرنطلية . ولم يكن أرقون بن أبغا أقل عطفاً على المسيحيين من أبيه وجده ، وكذلك بعض من جاء بعدهم من خانات القوقاز في إيران⁽⁵⁹⁾.

إذن لم تسفر هذه البعثات التبشيرية عن تحويل أحد من خانات القوقاز إلى المسيحية . ولم تنجح بالتالي في إقناعهم بفكرة التبشير ، كما خطط هؤلاء الرهبان ومن بعدهم إلى الشرق ، وإذا سمح لبعضهم بالتبشير ففي نطاق ضيق وبإمكانات ضئيلة . وبالتالي لم تسفر هذه المحاولات عن شيء مؤثر⁽⁶⁰⁾ . واقتصر الأمر على تحويل مئات قليلة من الناس على أيدي هؤلاء البعثين ، من معتقلي البوذية أو النسطورية إلى المسيحية

(58) مصطلح طفر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص 9
(58) Browne : The Eclipse of Christianity in Asia, pp.149.
50,p.158

(59) Morgan : Op.cit.p.185

الكاثوليكية ، بما لا يتفق مع الجهود التي بذلت في ذلك ، وبما لا يتوافق مع الاهتمام الذي أبداه الغرب الأوربي واليابوية بهذا التبشير ، والرغبة المحمومة في كسب أرض جديدة إلى المسيحية الكاثوليكية^(١٠٠) .

وإذا قارنا بين الأعداد القليلة التي تنصرت على أيدي هؤلاء الرهبان البشريين بالإنجيل في آسيا ، وبين من اعتنق الإسلام في نفس الفترة وجدنا أن من تنصر لا يعدو مئات قليلة بينما الذين تحولوا إلى الإسلام في نفس الفترة بلغوا مئات الألوف في مختلف أنحاء تلك القارة ، و دون جهود كبيرة^(١٠١) ، و إنما بحسن الاقتداء وبالوعظة الحسنة . أي أنه لا وجه للمقارنة بين من اعتنق للمسيحية الكاثوليكية ، وبين من تحول إلى الإسلام في تلك الفترة فالمقارنة في صالح الإسلام دون جدال وشهادة المؤرخين المعاصرين ، الذين تابعوا بدقة هذا التحول . وحتى خاتمة القول أنفسهم انتهى الأمر باعتناقهم الإسلام والدعوة إليه بين شعوبهم^(١٠٢) .

ويكفي هذا في تلك المقارنة ، من دليل على أن بعثات أوروبا التبشيرية لم تسفر عن شيء ذي بال ، وأن المئات القليلة التي تنصرت على أيديهم لا تقارن بمئات الألوف التي أسلمت دون جهود تذكر ، وإنما بالقوة الطيبة والوعظة الحسنة ، وبعض التوايا الطيبة ، وحتى تحول الختان غازان إلى الإسلام تبعه في نطاق الشهادة قرابة مائة ألف نفر من القوم دخلوا في الدين الإسلامي^(١٠٣) .

(١٠٠) فؤاد عبد المطلب الصياد : المرجع السابق ص ٦٤ .

(١٠١) أنطوان : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦١ ومترجم - الشيعة الكاثوليكية .

(١٠٢) فؤاد عبد المطلب الصياد : المرجع السابق ص ١٢٤ .

(١٠٣) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ج ٣ ص ٢١٢ .

عبد السلام لمعي : المرجع السابق ص ١٩١-١٩٢ .

وما دامت هذه البعثات والسفارات الأوربية التي أرسلت للتبشير بالسيحية بين القول لم تسفر عن شيء ذي بال ، ولم تحقق مكاسب تذكر في هذا المجال لدى الملوك ، فمآذا حققت إذن هذه البعثات وما هي المحملة النهائية لجهونها ؟

الواقع أن هذه البعثات التبشيرية لم تحقق الأهداف الدينية المخطط لها سواء من قبل البابوية أو حكومات الغرب الأوربي ، وفشلت فعلا في تفسير الأعداد التي خطط الغرب للتسييرها من رعاية القول ، ولكنها مع ذلك لم تعد وسيلة لتحقيق أهداف أخرى ومكاسب أخرى ربما تخرج عن نطاق التبشير بالمسيحية و «النواحي الدينية» ، ولكنها قلما تحسب لهذه البعثات وتضاف إلى إنجازاتها في الشرق .

فقد أشار المؤرخون إلى أن هذه البعثات التبشيرية وريثانها سفروا ثغرة هامة في معارف أوروبا وثقافتها من سكان آسيا^(٦٤) ، وعن عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم واقتصاد تلك القارة وطرق معيشة أهلها بدقة وموضوعية ، ومن خلال معاشتهم لأولئك السكان وفي نفس الوقت بذل المبشرون الأوروبيون جهودا مضنية في تشجيع رعاية الملوك علي التعملم وطلب الثقافة ، فيشير المؤرخون إلى أن بعض المبشرين الدينيين صنعوا في إقليم القبيلة الذهبية قابوسا لغويا : لاتيني - تركي - شجري اشتهر باسم Codex Cumanicus^(٦٥) . وواصل هؤلاء المبشرون كتاباتهم للبيانات التي قدموها للبابوات وحكام أوروبا ، حتى جاءت هذه البعثات دقيقة وأبنة وتضميلية لتسهم في التكوين الثقافي والعلمي للقارة الأوربية في أواخر

(64) Morgan : Op.cit,p.195

(٦٥) الغريتي : القول ص ٣٣٦

المصور الإسلامي ، ومطلع العصور الحديثة ، حين نشطت الكشوف الجغرافية : و تطلع الأوروبيون إلى اكتشاف آسيا وضمها إلى خريطة القارات التي أزمعوا اكتشافها^(٦٦)

فإذا لم يكن رهبان هذه البعثات التبشيرية -بوافر معارفهم ودأبهم علي التحصيل -قد نجحوا في تحقيق نتائج ملموسة في مجال التنصير والتبشير بالإنجيل ، فإن نجاحهم في مد أوروبا ببيانات ومذكرات ورسائل تحوي معلومات تفصيلية عن آسيا وشعوبها وسكانها لا تقل أهمية عما كتبه بعد ذلك كبار الرحالة والجغرافيون ممن زاروا هذه القارة^(٦٧) ودونوا معلوماتهم عنها وجميلة تجوالهم فيها ، وقدموا لأوروبا هذه المعلومات التي ساعدت رواد الكشوف الجغرافية في اكتشاف آسيا ووضعها علي خريطة القارات التي حققوا كشوفها جغرافية فيها^(٦٨)

وساعد هؤلاء الرهبان علي إنجاز ذلك ، وعلى مد تلك الفترة في معارف أوروبا عن قارة آسيا ، إجابة بعضهم اللغات المحلية في تلك القارة ، ولغات أخرى لشعوب عمل بعض مواطنيها لدي المغول أو أسروا في حروبهم مع المغول و دخلوا في خدمة بولتهم ، فقد أجاد بعض هؤلاء الرهبان و السفراء الميراثية و بعضهم أجاد الفارسية^(٦٩) بجانب العربية لغة قطاعات عربية من رعايا المغول في تلك الفترة، فضلا عن إجادتهم لغة المغول ذاتها .

(66) Morgan : Op. Cit, Pp.195-6

(٦٧) رحلات ماركو بولو من ٦-٨ للترجمة العربية ، وللغة التي كتبها جون مسعود للترجمة الإنجليزية للرحلات ، وانظر أيضا : قزاد عبد المظلي المياد : المرجع السابق من ١٩٧-١٩٩

(68) Morgan : Op.cit.pp.26-27

وانظر أيضا : قزاد عبد المظلي المياد : المرجع السابق من ١٩٧ (حاشية) (٦٩) قزاد عبد المظلي المياد : نفس المرجع من ١٩٢-١٩٥

وكانت إجابة بعض هؤلاء السفراء والرهبان للغة المغول عاملا هاما في الاقتراب من القادة والحكام ولهم الجاهلهم السياسية والدينية من ناحية ، والاقتراب في نفس الوقت من الشعوب المغولية وفقهم أسلوب حياتهم وميولهم الدينية وحياتهم الاجتماعية من ناحية أخرى⁽⁷⁰⁾ ، حتى بذل بعضهم جهدا في ترجمة الكتاب المقدس إلى لغات هذه الشعوب ولهجاتها المختلفة ، فأسمهوا بذلك في توسيع مدارك هذه الشعوب وتوجيه أنظارهم إلى ثقافات أخرى وجديدة بالنسبة لهم ، أي أنهم كانوا أداة تعليمية و ثقافية و حضارية بالنسبة لهذه الشعوب⁽⁷¹⁾ .

فإذا أفسفنا إلى ذلك أن هؤلاء المبشرين التبشيريين كانوا أداة تقارب و تفاهم بين المسيحيين الشرقيين من النساطرة و اليعاقبة ، وبين الكاثوليك و كانوا عامل احتكاك بين هؤلاء و كاثوليك أوروبا ، أدركنا أن بعثات هؤلاء التبشيرية لم تحرم من بعض الإسهامات الحضارية والثقافية ، وكانت عامل جذب واقترب حتى بين طوائف العقيدة المسيحية ذاتها، فقد خلقوا ما كان والقما من تعاود بين هؤلاء و بين الكاثوليك ، و نجحوا في كسر ما كان من حواجز بين أتباع المسيحية في الشرق و في الغرب⁽⁷²⁾ .

(70) Morgan : Op.cit,p.195

(71) Atiya : Op.cit.pp.248-52

(72) Runciman : Op.cit.111,p.397
Morgan : Op.cit.p.180

الفصل الثالث عشر

الرسول والحفارات المتبادلة بين أوروبا والكتار بغرض التحالف المسكرو ضد المسلمين

- سفارة الملك لويس التاسع الأول إلى المغول سنة ١٢٤٩م بغرض التحالف العسكري .
- السفارة الثانية للملك لويس التاسع إلى المغول سنة ١٢٥٣م بغرض التحالف العسكري .
- سفارة ملك أراجون وإليبا كليمنت الرابع إلى ألبا سنة ١٢٦٧م بغرض التحالف العسكري .
- سفارة ألبا خان فارس إلى ملك أراجون سنة ١٢٦٩م وإلى الملك لويس التاسع ملك فرنسا بغرض التحالف العسكري للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين .
- سفارة إدوارد الأول - ولي عهد إنجلترا - إلى ألبا سنة ١٢٧١م .
- سفرة ألبا إلى الملك إدوارد الأول ملك إنجلترا سنة ١٢٧٣م بغرض التحالف العسكري ضد المسلمين .
- سفارة أخرى من ألبا إلى الملك إدوارد الأول سنة ١٢٧٦م لحثه على الإسراع بإعداد حملة صليبية ضد المسلمين .
- محاولات أرفون للتحالف مع مسيحي الغرب والشرق للقيام بهجوم مشترك على المسلمين وسفاراته إلى المقر البابوي فيها بين سنتي ١٢٨٥ . ١٢٩٠ م لهذا الغرض .

إذا كانت البابوية وبعض حكام أوروبا : قد أرسلوا السفارات والبعثات إلى المغول بهدف التبشير بالمسيحية ، واجتذابهم إلى العقيدة المسيحية على مذهبها الكاثوليكي^(١) ، كما وضع في الفصلين السابقين. فإن الأمر لم يقتصر على ذلك، بل تبودلت رسل وسفارات أخرى، كانت تهدف إلى إقامة تحالف عسكري ضد المسلمين، والتنافس القيام بعمل مشترك ضد مسلمي الشرق الأدنى خاصة وقد أبدى المغول رغبة في استلاك أراضي المسلمين، وحماية في القضاء على سلطانهم في آسيا والشرق الأدنى^(٢).

وفي نفس الوقت كان الأوروبيون ينشرون إلى محاولات المسلمين لاسترداد أراضيهم في بلاد الشام وفلسطين، وعدم بقايا الكيان الصليبي في الشرق، نظراً ملؤها الكراهية والضيق والرغبة في كسب حليف يشاركهم حروبهم ضد المسلمين في التنصدي لمشروعات هؤلاء لإنقاذ بقايا الكيان الصليبي المترنح ودعم هذا الكيان في الشرق^(٣).

ويذكر المؤرخون أن أولى السفارات التي أرسلت من أجل التحالف العسكري، للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين، هي السفارة التي بعث بها الملك الفرنسي لويس التاسع إلى المغول، والبعثة التي حرص على إيفادها إلى خان المغول الأعظم، وإن اشترط الملك لويس التاسع دخول المغول في المسيحية قبل القيام بعمل مشترك معهم، يوازع من ورعه وتقواه، ولكن الهدف من تلك السفارة: كان التحالف العسكري معهم ضد المسلمين^(٤).

(1) Runciman : A Hist. of the Crusades, 3 , 259

(2) Afiya : The Crusades in the Later Middle Ages, pp. 238 - 46

(3) D'Ohsson : op. cit. 111, pp. 410 - 12

(4) Morgan : op. cit. p. 181

خاصة وأنه أرسل هذه السفارة وهو في طريقه إلى مصر في الحملة الصليبية التي عرفت بالحملة السابعة، والتي بقي في الشرق بسببها نحو خمس سنوات أو يزيد، كان يحاول من خلالها الاستيلاء على بيت المقدس عن طريق السيطرة على مصر^(٥)، ولابد وأنه كان يبحث عن حليف يعاونه في مشروعاته الصليبية في الشرق، فأرسل تلك البعثة إلى الخوارج بغرض التحالف العسكري، تحقيقاً لما كانت تبديه أوروبا من رغبة في الاستيلاء بالخوارج للاستيلاء نفوذها الضائع في بلاد الشام^(٦).

ولقد سبق أن أشرنا إلى هذه البعثة أو السفارة في جانبها الديني، أو ما اشترطه لويس على الخوارج من التحول إلى المسيحية، قبل القيام بعمل مشترك معهم^(٧)، وهي البعثة التي رأسها أندريا لوتج جيبو وأخوه، التي غادرت جزيرة قبرص في يناير سنة ١٢٤٩م - متجهة إلى شمال العراق لقابلة قائد الخوارج هناك، الذي وجهها إلى منقوليا فلما وصلت إلى قراقوم تبين لها أن الخان الأعظم كيوك قد مات، وأن أرمقته تقوم بالوصاية على المرش^(٨)، فاستقبلت السفارة واعتبرت الهدايا التي أرسلها الملك لويس التاسع جزية يؤديها التابع لمبود، وتم تسعها الظروف بالتفكير في إرسال حملة لمعاونة الملك لويس التاسع ضد المسلمين، بسبب ما تشب من نزاع حول عرش الخان الأعظم في دولة الخوارج^(٩).

(٥) جواتفيل : شافيس لويس من ٩٥ (ترجمة حيلقي)

(٦) مصطفى طه بدر : مغول إيران من ٦

(٧) Matthew Paris's English History V. 11 p. 319

(٨) العربي : الخوارج من ١٩١

(٩) Morgan : op. cit. p. 182

ولقد فشلت هذه السفارة فيما أرسلت من أجله، على الرغم من أنها قضت ببلاد القوقاز نحو ثلاث سنوات، لأن لوتنج جمعوا حمل معه عند هودته رسالة الوصية تشكر فيها الملك لويس التاسع على اهتمامه، وتطلب منه أن يستمر في إرسال الهدايا والأموال كل سنة، كرمز للتحية والخشوع، فارتاع لويس التاسع لهذا الرد^(١٢)، وصدم صدمة شديدة، وإن أشار المؤرخون إلى أنه لم ييأس، بل توقع أنه سوف يجنى الوقت الذي يتم فيه التحالف مع القوقاز^(١٣).

ولقد التزجت هذه السفارة ضمن السفارات الهادفة إلى إقامة تحالف عسكري بين أوروبا والشرق ضد المسلمين، إذ استقبل الملك لويس التاسع وهو في جزيرة قبرص في ديسمبر سنة ١٢٤٨م بمبعوثي القوقاز المسيحيين: داود ومرقس اللذين حملتا للملك لويس التاسع رسالة القوقاز التي أبانت عن عزم القوقاز على محاربة المسلمين^(١٤)، وعلى حماية المسيحيين على اختلاف مذاهبهم وجنسياتهم من اللاتين أو اليونانيين أو الأرمن، وسواء أكانوا تماطروا أو يعاقبوا أو كاثوليك أو أرثوذكس^(١٥).

وقد استشاروا الملك الفرنسي محتويات الرسالة، بأن القوقاز في فارس يفتكرون في الهجوم على بغداد، وهو نفس المشروع الذي تنهذه هولاء بعد ذلك بنحو عشر سنوات، وأن يجري هذا الهجوم في الوقت الذي بدأ فيه الملك لويس التاسع في تنفيذ حملته الصليبية لمهاجمة مصر ومسلمي بلاد الشام، وإن لم تسفر هذه الحملة عن شيء كما سبق أن أشرنا^(١٦).

(١٢) جوفاليل : المصدر السابق ص ٢١٩

(١٣) العربي : القوقاز ص ١٩٥

(12) Seton : Hist. of the Crusades, Vol. 111, p. 507

(13) Morgan : op. cit. p. 181

(١٤) جوفاليل : المصدر السابق ص ٢١٩

وعلى الرغم من فشل هذه المحاولة، لم ييأس الملك لويس التاسع في مشروع التحالف العسكري مع المغول، وشجعه على اللبس في التماس مساعدة المغول العسكرية ما سمعه من ميل ابن باتو خان القبيلة الذهبية للمسيحية، وتقديره للمسيحيين ويدعى سارتاق^(١٢٥) من ناحية، وحاجته إلى مساعدة المغول العسكرية من ناحية أخرى، بعد فشل حملته على مصر واتجاهه إلى بلاد الشام، وقيامه بمحاولة دعم الكيان الصليبي المترشح هناك، وشعوره بالقصور إمكاناته الحربية عن حلف هذا الكيان ودعاه أمام تهديد المماليك في مصر، فقرر الملك لويس التاسع أن يبعث سفارة ثانية إلى المغول برئاسة الراهب القرمسكاني ولهم روبروك^(١٢٦) وبصحبه الراهب بارثلميو أوف كريمونا.

وقد سبق أن أشرنا إلى هذه السفارة أيضاً في جانبها الديني، ولهذا فسوف تقتصر في حديثنا عنها هنا على الجانب العسكري ومحاولة التحالف مع المغول ضد المسلمين، فقد قادرت هذه السفارة أرض فلسطين في أوائل سنة ١٢٥٣م، واتجهت إلى القسطنطينية، ومنها أبحرت في البحر الأسود إلى شبه جزيرة القرم في مايو سنة ١٢٥٣م، ثم اجتازت جنوب روسيا حتى وصلت إلى معسكر سارتاق بن باتو في آخر شهر يوليو سنة ١٢٥٣م بالقرب من نهر الفولجا^(١٢٧).

وعلى الرغم من أن سارتاق هذا كان ميالاً للمسيحية، مقدراً للمسيحيين، محيطاً نفسه بعدد منهم من التناطوة، كما خدمت حاجته أحد الداوية من قبرص، كان يعمل مترجماً له، وسارتاق هذا هو الذي

(١٢٥) العريضي : المغول ص ٢٩٥

(١٢٦) عبد السلام فهمي : الرجوع السابق ص ١٠٩

(١٢٧) العريضي : المغول ص ٢٩٥

خلف أباه باتو في حكم الخانية^(١٨) إلا أنه أعلن أنه لا يستطيع التحدث إلى مبعوث الملك لويس التاسع وإيم روبروق، وأنه سوف يرسله إلى أبيه باتو الذي ينزل على الضفة الشرقية لنهر الفولجا، فلما وصل وإيم روبروق إلى منازل باتو على نهر الفولجا، لقي منه حفاوة بالغة، واستقبله باتو استقبالاً طيباً وأخبره أنه علم بخروج الملك لويس التاسع على رأس جيش لمحاربة المسلمين، وأن اهتمام هذا الملك بالحروب المسيحية، لا يقل عن اهتمام المغول بهذه الحروب، وأنه لهذا سيبثه هو وصحبه إلى الخان الأعظم مونكو، الذي استقامت له الأمور في العاصمة مكان أرملة الخان الراحل^(١٩).

واصل وإيم روبروق وصحبه طريقهم إلى عاصمة المغول، فبلغ معسكر مونكو بالقرب من العاصمة قراقورم في آخر ديسمبر سنة ١٢٥٣م، حيث استقبله مونكو في يناير سنة ١٢٥٤م ودار محاورات لطيفة وطريفة بين روبروق والخان المغول تنبأ فيها روبروق أن مونكو سوف يحكم العالم^(٢٠)، والتقى وإيم روبروق بعدد من سفراء العالم، منهم سفير من قبل الإمبراطور البيزنطي في نيقية ورأى مبعوثاً مسيحياً سريانياً في بلاط مونكو، قدم من قبل الملك الأيوبي المقيث عمر حاكم الكرك وشرق الأردن. كما التقى براهب أرميني قدم من فلسطين، كما التقى أيضاً برجل من متز باللورين كان متزوجاً من امرأة روسية، دخل في خدمة زوجة نسطورية للخان الأعظم، ورأى روبروق في بلاط مونكو رجلاً فرنسياً^(٢١)، يشتغل بصناعة الحلى، كان من أقرب الناس إلى الخان

(18) Morgan: op. cit. p. 174

(19) Ibid. p. 182

(٢٠) عبد السلام فهمي: تأس المرجع من ١٠٧ - ١٠٨

(٢١) اسمه وإيم بوشيز، انظر العريضي: المغول من ١٩٩

الأعظم مونتكو، كانت زوجته هتقارية تجيد الحديث بالفرنسية وبعض اللغات الأخرى، فضلاً عن التقى بهم روبروق من المسيحيين من المجرين واللات والروس والكرج والأرمن^(٢٣).

بقى ولیم روبروق في بلاط مونتكو نحو خمسة شهور أدرك خلالها معارضة مونتكو لكل الدول الإسلامية، ورغم استقباله لبعض سفرائهم^(٢٤)، وأنه عزم على توجيه شقيقه الأصغر هولاكو إلى فارس للقضاء على قوة الحثيحية، ثم إلى العراق للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد، وعلى الرغم من استعداداته لمناقشة القيام بعمل مشترك مع الملك لويس التاسع ضد المسلمين، إلا أن المشكلة التي تحول دون ذلك، هي أنه لا يقبل أن يكون بالعالم سلطان آخر سواه^(٢٥)، وأنه لا يد من استئصال شأفة خصومه، أو إلزامهم بقبول التهمة له وتقديم فروض الطاعة والولاء له، أما أصدقاءه فهم الذين يمثلون تهمتهم له بمحض إرادتهم.

وتصلحت سفارة ولیم روبروق من أجل التحالف العسكري مع القوق، عن وعد من قبل مونتكو بهذا المساعدة للمسيحيين في صراعهم مع المسلمين، إذا أقدم حكامهم على أداء يمين التهمة له باعتباره سيد العالم^(٢٦)، وتحاشى مونتكو الالتزام بتبادل السفارات الرسمية في هذا الأمر، ولم يشر أيضاً إلى موافقته على القيام بعمل مشترك مع هؤلاء لقتال العدو المشترك وهم المسلمون، خاصة في الشرق الأدنى، فكانت هذه السفارة بقيت قسلاً لربما مثلما بقيت سفارة الملك لويس التاسع الأولى إلى

(٢٣) شمرى : القوق عن ١٩٦ - ٢١٩

(٢٤) Runciman : op. cit. 111, p. 295

(٢٥) عبد السلام فهمي : المرجع السابق من ١٠٠٨

(٢٥) Runciman : op. cit. 111, p. 297

بلاط المغول من قبل ، ولم تحقق ما خرجت من أجله ، فقد أترك ولهم روبروق أن ملك فرنسا لن يقبل شيئاً من شروط المغول^(٢٨) .

ولهذا اقتنع ولهم روبروق بأن هذه الشروط لن يقبلها ملك فرنسا ، ولهذا هادر عاصمة المغول قراقورم في أغسطس سنة ١٢٥٤م إلى عاصمة خان القزجاق باتو في سيمير من نفس العام ، على المجرى الأدنى لنهر الفولجا ، ثم اجتاز جبال القوقاز ، حيث شُكّل مقر قيادة المغول في تلك النواحي . والتي يتولاها القائد بايجو الذي استقبله في شومير من نفس العام^(٢٩) . ثم اجتاز روبروق أرمينيا وعبر سلطنة سلاجقة الروم بفونية : حتى وصل إلى ميناء إيباس بأرمينيا الصغرى ، ثم أبحر منها إلى قبرص ، ثم إلى عكا فوصل بعد مغادرة الملك لويس التاسع بلاد الشام في إبريل سنة ١٢٥٤م . لأن لويس التاسع كان قد أبحر من عكا عائداً إلى فرنسا عند سماعه بها وفاة والدته حيثنك ، قاضى ولهم روبروق إلى إرسال تقريره إليه عن رحلته إلى بلاط المغول مصحوباً برسالة الخان الأعظم مونكو^(٣٠) .

انتقل الحكم في خاتبة فارس ، بعد وفاة هولاكو إلى ابنه أيقا (١٢٦٥-١٢٨٢م) الذي بقى كما كان أبوه نائباً للخان الأعظم قوبلاي في حكم فارس^(٣١) . فظهر أيقا تديراً للمسيحية وعطفاً على المسيحيين من الأرمن والنساطرة واليهودية . ورغب في التحالف مع مسيحي أوروبا وبيزنطة ومسيحي الشرق ضد المسلمين ، لاسيما وقد تزوج من ابنة الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس . وكان نصيراً ليخترق

(٢٨) جوانفيل : الميمر السابق ص ٢١٨ - ٢١٩

(٢٩) الميمر : المغول ص ١٩٧ - ١٩٨

(28) Runciman : op. cit. 111, p. 485

(29) Grousset : Histoire de L'Extrême Orient, p. 458

التماطرة، وحديقاً لمن تولى هذا الكرسي الديني^(٣٠).

وفي إطار هذه الاهتمامات كان عليه أن يواجه الحرب التي شنها والده هولكو على بركة خان القنجاك المسلم وحليف المسلمين، فاستؤنفت الحرب سنة ١٢٦٦م، وتغلر خلالها جيش القنجاك، مما اضطر بركة خان نفسه إلى الخروج على رأس جيش كثيف لتصفية هذه الحرب، إلا أنه ما لبث أن توفي أثناء الطريق في نفس السنة (١٢٦٦م)، وارتدت عساكره^(٣١)، ووضح من ذلك كله أن أبغا كان راغباً في مواصلة العداء مع أقاربه المسلمين وحلفاء المسلمين إسهاماً في إكمال البحور العسكرية المقاد، الذي اعتبر نفسه على طرفه وعلى الطرف الآخر المسيحيين في الشرق وفي الغرب على حد سواء.

وإكمالاً لهذا الدور الذي بدأه أبغا، كان عليه أن يشن الحرب على خانبة تركستان التي شاركت مغول القنجاك في تطويق خانبة فارس على عهد هولكو: فاندلعت الحرب مع هذه الخانبة سنة ١٢٦٩ - ١٢٧٠م: وانتهت كما أمل أبغا بهزيمة خانبة تركستان وببعت جغتاي بالقرب من هرات في صيف سنة ١٢٧٠م^(٣٢)، ليستقر حكم أبغا في فارس من ناحية ويتفكر جدياً في إخراج التحالف العسكري مع المسيحيين إلى حيز الوجود من ناحية أخرى: إكمالاً لما بدأ والده هولكو من سياسة التحالف مع القوى المعادية للمسلمين^(٣٣).

(30) Runciman : op. cit., t. II, p. 331
Grousset : L'Empire des Steppes , p. 445

(٣١) عبد السلام نفيس : المرجع السابق ص ٥٦.

(٣٢) فؤاد عبد المعطي السعيد : المرجع السابق ص ٥٧ - ٥٨.

(33) Morgan : op. cit., p. 183

وكان حرس أيقا على أن يضم إلى حلفه الأرمن والكرج وفرنج الشرق. كما خطط أن ينحاز إلى هذا الحلف السلاجقة بأسيا الصغرى والبيزنطيون، فضلاً عن يشترك من القوى الأوربية وبسعى الغرب الأوربي إثر الاتصالات مع البابوية وحكام أوربا في الغرب^(٣٤)، فقد أصبحت علاقاته هذه راسخة ومشهود لها، وتولقت مع القر البابوي في عهد كل من كليمنت الرابع وجريجوري العاشر وتيقولا الثالث، ومع بعض حكام أوربا مثل لويس التاسع ملك فرنسا وإيوارد الأول ملك إنجلترا. وملك أراجون في أسبانيا، وكان يأمل من ذلك كله تنظيم حملة مشتركة ضد المماليك في مصر والشام. غير أن آماله لم تتحقق، إذ كانت الروح الدينية والتنوية عند الصليبيين قد فترت، في الوقت الذي ضعفت فيه سلطة البابوات أمام قوة وسلطة الأباطرة والملوك^(٣٥)، وعلى الرغم من ذلك حاول أيقا أن يخرج هذا التحالف إلى حيز الوجود ويوجه هذا الحلف كله ضد المماليك في مصر والشام وحلفائهم مغول القفجاق والقوى اللالوة في تركستان وإيران^(٣٦).

ولا شك في أن دبلوماسية بيبرس قد أسهمت فيما تعرض له أيقا من متاعب من قبل جيرانه سواء مغول القفجاق أو مغول التركستان، فضلاً عما حققته هذه الدبلوماسية من حرمان أيقا من محالفة بيزنطة: التي اضطرت تحت ضغط مغول القفجاق، وغريبات البلغار إلى تسوية أمورها مع هذين الحليفين^(٣٧)، فجاء ذلك خلعاً من رصيد أيقا من ناحية، وإضافة إلى رصيد كل من مغول القفجاق والبلغار والمماليك من ناحية أخرى.

(34) Setton : The Papacy and the Levant (1204-1571), p. 106

(35) عبد السلام فهمي : الترجيع السابق ص ١٥٥

(36) الميريس : الملوك ص ٢٧٦

(37) Morgan : op. cit. pp. 142 - 5

وتعزراً لما أبداه أبقا من نوايا طيبة تجاه المسيحيين وما تواتر من أنباء في الغرب الأوربي من عطشه على المسيحيين وكراهيته للمسلمين مثل والده، أرسل إليه ملك أراجون والبابا كليمنت الرابع⁽³⁸⁾ سنة ١٢٦٧م سفارة برئاسة جيمس ألريك رونجهان يخطره بما كان يعمده هذا الملك هو والملك لويس التاسع من حملة صليبية إلى الشرق، وتطلب منه المساعدة والتحالف للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين، لا سيما وقد بدأ السلطان الظاهر بيبرس يعد عدته في ذلك الوقت لتصلية الكيان الصليبي في بلاد الشام، وأنطاكية بصفة خاصة⁽³⁹⁾، إلا أن أبقا لم يستطع أن يبدل وعوداً أكبده في هذا الشأن لانشغاله بحرب مغول القيقاق من ناحية ومغول تركستان في إقليم ما وراء النهر الذين هاجموا الشطر الشرقي من ممتلكاته سنة ١٢٧٠م من ناحية أخرى، ولم يزلوا إلا يعد معركة حاسمة نشبت بالقرب من هرات⁽⁴⁰⁾، ولهذا لم يستطع أبقا أن يقدم لقرنح الشرق اية معاونة حين نهض بهمسر لاستعادة أنطاكية سنة ١٢٦٨م، فسقطت أنطاكية قبلاً في أيدي المماليك⁽⁴¹⁾.

وفي سنة ١٢٦٩م أرسل كل من أبقا والإمبراطور ميخائيل باليولوجس مندوبين قايما ملك أراجون Aragon⁽⁴²⁾، في أسبانيا، ونقلوا إليه رغبة أبقا في التحالف مع زعماء أوروبا المسيحيين للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين في الشرق الأدنى، تنفيذاً لما عهد به الملك والبابا كليمنت الرابع قبل ذلك بعامين، غير أن ملك أراجون عاد فعدك موقفه

(38) Sykes : A History of Persia, pp. 62-3

Browne: Persian Literature under Tatar Dominion, p.19

(39) Setton : The Papacy and the Levant, pp. 97 - 8

(40) العيني : الملوك ص ٢٢٢

(41) Runciman : op. cit. 111, p. 325

(42) أرفونة : أنظر : فؤاد عبد المعلى السيد : المرجع السابق ص ٢٧

بناء على نصيحة بعض أمراء أسبانيا الذين صوروا له فظاعة القبول وخطورة التحالف معهم، فلا زال كثير من الأوربيين لا يميلون إلى مخالفة القول لما اشتهر به هؤلاء من وحشية وتطرف وغدر^(٤٤)، على الرغم من أن ذلك لم يكن هو رأي غالبية حكام أوروبا الذين اعتقدوا أن المماليك أخطر على المسيحية في الأراضي المقدسة من التتار، فصار لحطيم قوة المماليك هدفاً مشتركاً بين أوروبا و«خانات القول»^(٤٥).

وليس من شك أن ألبا كان حريصاً على مخالفة أوروبا مستعداً للقيام بعمل مشترك مع حكامها ضد المسلمين خاصة في الشرق الأدنى، فبعد هدوء الأمور لديه، وتصفية حربه مع مغول القيقاق سنة ١٢٦٦م، وانتصاره في حربه مع خانية تركستان في إقليم صا وراء النهر^(٤٦)، عتد هزات سنة ١٢٧٠م - أرسل إلى الملك لويس التاسع ملك فرنسا يعلمه أنه أصبح على استعداد لتقديم مساعدته له إذا أتيح له أن يقود الصليبيين إلى الشرق ويصل إلى فلسطين^(٤٧)، وأنه سيبدل هذه المساعدة الحربية لهم إذا ظهروا في فلسطين، إلا أن لويس التاسع توجه بحملته إلى تونس، فلم يكن يوسع ألبا النوايا لمساعدته هناك.

وعلى الرغم من ذلك لا زال ألبا راعياً في مخالفة أوروبا ضد المسلمين. في الوقت الذي كان فيه حكام أوروبا هم الآخرون يتوفون إلى تخلص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، فدارت المفاوضات من جديد بين الخان وملوك وحكام أوروبا المسيحيين حول هذا الهدف،

(٤٣) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٤٦

(٤٤) D'Ohsson : op. cit. 111, pp. 330 - 42

Howarth : History of the Mongols, 111, pp. 275 - 280

(٤٥) فؤاد عبد المحيى العياد : المرجع السابق ص ٤٩

(٤٦) D'Ohsson : op. cit. 111, p. 442

وأصبح التتار هم الذين يطرقون كل باب في سبيل التقرب من حكام أوروبا والتحالف معهم^(٤٨)، على الرغم من أن التحالف مع التتار لم يعد مغنماً للكثير من حكام أوروبا، خاصة بعد أن انخرطت حملة لويس التاسع عن هدفها، واتجهت نحو شمال إفريقيا، ثم كانت وفاة لويس التاسع هناك وقتل حلقه مثبطاً لجهود كثير من حكام أوروبا في سعيهم لتخليص الأراضي المقدسة^(٤٩)، باستثناء إنجلترا التي لا زالت مقتنعة بضرورة التحالف مع التتار، والتي خرجت في عهد إدوارد على رأس حملة صليبية إلى الشرق لمحاربة المماليك.

فلما وصل إدوارد على رأس حملته إلى بلاد الشام سنة ١٢٧١ م، لم يكن يوسعه أن يواجه المسلمين في بلاد الشام لقلّة من كان معه من جنود، ولذلك أمل في أن يحصل على مساعدة عسكرية يقدمها أبغا إليه. خاصة وقد انتهى أبغا من مشكلاته ومشائيه مع أقاربه مغول القفجاق ومغول تركستان في بلاد ما وراء النهر^(٥٠).

ولهذا يبادر إدوارد الأول بمجرد وصوله إلى مدينة عكا بإرسال سفارة إلى أبغا حاكم فارس، يطلب فيها مساعدته، تحقيقاً لما وعد به من تحالف مع المسيحيين، واستمراراً لما كان يبدية من رعاية للمسيحيين، وفعلًا لم يكن أبغا يصفى حروبه مع أقاربه حتى أوفى بوعده في منتصف أكتوبر سنة ١٢٧١ م، وسحب من حامياته في آسيا الصغرى نحو عشرة آلاف فارس. وبعث بهم إلى بلاد الشام^(٥١)، فأحدث هؤلاء، تخريباً في

(٤٨) قائد عبد المظلي الصمد : المرجع السابق ص ٩٩

(٤٩) Runciman, op. cit. : 11, p. 352

(٥٠) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٥٥

(٥١) Runciman : op. cit. 111, p. 336

البلاد التي اجتازوها في طريقهم إلى الشام، وعاثوا الفساد فيما مروا به من قرى وحصون ومدن ونهبوا مدينة عينتاب، وأجبروا حاميه حلب من التركمان على الفرار بعد أن أوتعوا بها هزيمة ساحقة، فهربت الحامية إلى مدينة حماة، فتقدموا من حلب إلى معرة النعمان وأقامية، وأخذوا دُعراً بين سكان المدن والبلاد التي اجتازوها^(٥١).

وعلى الرغم من كل ذلك لم تسفر هذه المساعدة عن شيء ذي بال، لأنه بمجرد أن علم السلطان الظاهر بيبرس، وكان حينئذ في دمشق بإنباء تقدم هؤلاء الغول طلب الإمدادات من مصر، وحينما شرع في التحرك لمواجهةهم، لم يسع الغول إلا التراجع، لأنهم أدركوا ألا قبل لهم بمواجهة الجيش المملوكي، فكان النصر حليفاً للسلطان بيبرس وكانت كفة الممالك هي الرابحة على كل من الغول والصليبيين في وقت واحد^(٥٢)، فضلاً عما حدث بين أتباع الغول من التصدد، خاصة أولئك القادمين من آسيا الصغرى، فاكتفى الغول بما حصلوا عليه من غنائم، وارتدوا إلى ما وراء نهر الفرات^(٥٣)، الأمر الذي يؤكد أن ما قدمه أبغا من مساعدة للفرنج ببلاد الشام وللعلمير الإنجليزي إدوارد الذي قدم على رأس الحملة الصليبية الإنجليزية سنة ١٢٧١ م، لم تكن ترقى إلى المستوى الذي أمل فيه الطرفان الغول وأوربا، وبالتالي لم تسفر عن شيء، وكانت الغلبة في النهاية للمسلمين^(٥٤).

(٥١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق ص ٦٠.

(٥٢) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٥٧.

(٥٣) الشريفى : الغول ص ٢٤٥.

(٥٤) Morgan : op. cit. pp. 187 - 8.

يل انتهي الأمر بتدخل شارل دانجو بالوساطة بين إدوارد وبييرس. إذ كان شارل دانجو حريصاً على أن تبقى الأمور في بلاد الشام على ما هي عليه، ليتسكن من تحقيق ما راوده من أحلام: حتى يكون له حكم عكا أي حكم مملكة بيت المقدس الإسمية، أي أن يحل محل حاكمها، ويضم هذه المملكة إلى مملكة صقلية، فضلاً عن أحلامه في الاستيلاء على القسطنطينية^(٥٥)، ولهذا سعى شارل دانجو إلى عقد صلح بين حكومة عكا وبييرس في مايو سنة ١٢٧٢ م، فعقدت هدنة فعلاً كان أمدها عشر سنوات، وعشرة شهور. ثم بليت إدوارد أن رحل بعدها عائداً إلى إنجلترا لهتوج ملكاً بعد وفاة والده باسم إدوارد الأول، وترتب على ذلك انشغال بييرس وتفرغه لمواجهة المغول لو فكروا في إعادة الكرة^(٥٦).

في الوقت الذي واصل فيه أيضاً محاولاته للتصالح مع الغرب الأوربي: خاصة وقد بدأ يشعر بالخطر من قبل المماليك، فأرسل أخيراً في سنة ١٢٧٣ رسالة إلى الملك إدوارد الأول: ملك إنجلترا، وأرسل إلى البابا جريجوري العاشر وفداً، تكون من سنة عشر سفيراً، على رأسه الراهب الدومنيكاني ديفيد آشبي D David Ashby الذي أمضى نحو خمسة عشر عاماً في بلاد فارس^(٥٧)، ومعهم رسل من المغول. وكان البابا قد عقد المجلس الكليسي الرابع عشر في مدينة ليون في جنوب فرنسا لبحث بعض القضايا من بينها موضوع تحرير الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، فقرئت في المجلس رسالة الخان أبغا التي تضمنت رغبة

(٥٥) Setton : The papacy and the Levant, p. 48

(٥٦) ابن العري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩٩
(٥٧) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٠ (الفريجة العربية ط٤)
فؤاد عبد الحفي الصبياد - المرجع السابق ص ٩١

الخان في توطيد أواصر الصداقة بين المغول وأوروبا المسيحية لمحاربة المسلمين، وبسأل فيها أيضاً عن الموعد الذي ستخرج فيه الحملة الصليبية القادمة^(٥٩).

وفي نهاية جلساته تعهد المجلس الكرسي بالإعداد لحملة صليبية جديدة ، ووعد بأنذاك جيش صليبي ليستفيد من عروض المغول للتحالف والقيام بعمل مشترك، والترحل سفراء المغول إرسال رسول إلى أيضا للاتفاق على خطة للتعاون العسكري لتحرير الأراضي المقدسة، دون أن تتضح خطوة عملية في هذا الشأن^(٦٠)، على الرغم من أن البابا استمر في سعيه لعمل حكام أوروبا على تنفيذ ما أصدره الجميع من قرارات في الوقت الذي حاول فيه أن يهيئ الأرض المقدسة لاقدم حملة صليبية جديدة^(٦١).

غير أن سعى هذا البابا لم يكال بالنجاح، ولم تؤد تحركاته إلى أي نتيجة. ثم توفي في النهاية في يناير سنة ١٢٧٦م، فتوقفت مشروعات أوروبا الصليبية ولم تتوجه حملة صليبية إلى الشرق. للعمل المشترك مع المغول من ناحية وتحرير الأراضي المقدسة من ناحية أخرى، بل لم يكن في الأفق ما يدل على إرسال حملات صليبية إلى الشرق، فكان أيقاً لم يتلق من أوروبا إلا الوعود^(٦٢).

كرر أيضا المحاولة سنة ١٢٧٦م ، حين أرسل رسوله إلى البابا وبعض حكام أوروبا خاصة ملك إنجلترا إدوارد الأول، يحثه على الإسراع بإعداد حملة صليبية حتى يتسنى لأبنا المشاركة في حرب المسلمين^(٦٣).

(٥٩) الغرني . المغول ص ٢٩٦

(59) Runciman : op. cit. 111, pp. 346 – 7

(٦٠) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٥٥-١٥٦

(٦١) عبد السلام فهمي : نفس المرجع ص ١٥٥ – ١٥٦

(62) Grousset : L'Empire Mongol, 111, p. 693 (Paris 1945)

فرد الملك إدوارد الأول على هذه الرسالة باعتذر عن إمكان إرسال حملة صليبية إلى الشرق في ذلك الوقت " ولكننا لا نستطيع الآن أن نعطيكم اختياراً مؤكدة عن وقت مجيئنا إلى الأراضي المقدسة ، ولا عن تحريك المسيحيين ، ذلك لأنه لم يتقرر شيء بخصوص هذا الموضوع من قبل البابا الأعظم"^(٦٢) ، فلم تسفر هذه المحاولة أيضاً عن شيء ، ولم تحقق ما كان يتفليه بأنها من مشاركة أوروبا في حرب المسلمين .

ويشير بعض المؤرخين إلى أنه يحتمل أن يكون البابا قد وقع تحت تأثير شارل داتجو الذي أقام سياسته على الوفاق مع السلطان الظاهر بيبرس سلطان المماليك وعلى إقامة علاقات الودية والصداقة مع دولة المماليك^(٦٣) وهي السياسة التي اتبناها لتحقيق أحلامه التي أشرنا إليها فيما سبق.

وثمة عامل آخر كان له دون شك تأثير على موقف شارل داتجو والبابوية والغرب الأوروبي من محاولات التحالف مع المموك، فلا شك أن شارل داتجو كان ينظر إلى المموك باعتبارهم حلفاء خصومه البيزنطيين أيضاً ، ولهذا لم يتحمس شارل داتجو للتحالف معهم أو حتى الغرب على ذلك^(٦٤) ، في الوقت الذي رأى فيه البابا أن محاولات التمهيد بالمسيحية بينهم لم تزل ثمارها ، وما كان يأمله في ذلك ذهب هباء ، ولهذا جاءت محاولات أبغا للتحالف مع أوروبا ضد المسلمين محاولات فاشلة لم تؤد إلى نتائج في هذا الشأن^(٦٥) .

(٦٢) فؤاد عبد الحميد المعاد : المرجع السابق ص ٩٣

D'Ohsson : op. cit. 111. pp. 543 - 4

Haworth : op. cit. 111. p. 280

(٦٤) العريضي : المموك ص ٢٩٧

(65) Setton : The Papacy and the Levant, p. 98

(٦٦) فؤاد عبد الحميد المعاد : نفس المرجع ص ٩٩ - ٩٧

عاد أبها من جديد ليتفق مع ليو الثالث ملك أرمينيا الصغرى على القيام بحملة مشتركة على الشام لطرد المماليك من ناحية واستخلاص بيت المقدس من المسلمين من ناحية أخرى وتسليمها للمسيحيين، واتفقا على إرسال رسل جديدة إلى المماليك وأوروبا لإخبارهم بهذا التحالف، وطلب منهم الانضمام إلى هذا الحلف وإرسال حملة صليبية إلى بلاد الشام للمشاركة في القضاء على المماليك^(٦٧)، غير أن أبها لم يتلق رداً على ذلك من الأوروبيين، نظراً لفتور حماسة أوروبا الصليبية في ذلك الوقت وانشغال حكامها بشؤون أخرى، في الوقت الذي شغل فيه أبها نفسه بإخماد اضطرابات في فارس^(٦٨).

وخلال الفترة التي تولى فيها تكودار بعد أخيه أبها حكم خاتنة فارس لم تجر محاولات تحالف بين أوروبا والقتال بسبب تحول تكودار هذا إلى الإسلام وتحمسه لدينه الجديد، إذ تسمى بأحمد، ولقب نفسه بالسلطان، وأرسل إلى المماليك في مصر والشام يعلمهم بالإسلام، ويخطبهم ويدعم ويحالفهم ضد صليبي الشام ومسيحي أرمينيا ضد تطلعات أوروبا والبابوية لاسترداد الأراضي المقدسة المسيحية من أيدي المسلمين^(٦٩).

وإذا تعرض تكودار هذا للغضب الممولى بسبب إسلامه، ومحاولة تحالفه مع المماليك، اعتلى العرش الممولى في فارس أرغون بن أبها، الذي تزعم الثورة التي أطاحت بتكودار، وأنهت عهد عمه هذا، وأنهت

(67) Grousset : L'Empire Mongol, t11, p. 695-6

(٦٨) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ج ٢ ص ١٢ - ١٣

(٦٩) مصطفى طه بدر : ملوك إيران بين المسيحية والإسلام ص ١٢

حياته أيضاً في صيف سنة ١٢٨٤م، بعد أن حكم نحو ثلاث سنوات^(٧٠) فقط، فنهج أرغون ابن أيقا (١٢٨٤-١٢٩١م) نهجاً خالف به سياسة تكودار، فأظهر حماسة لخدمة المسيحية والمسيحيين، وحاول التحالف مع البابوية والغرب الأوربي، رغم أنه كان يونانياً مثل والده وجده، ولكن حقه على المسلمين كان واضحاً بسبب الهزائم المتكررة التي تعرض لها المغول في عهد أيقا على أيدي المماليك في مصر والشام^(٧١).

لهذا حاول أرغون التحالف مع كل القوى المعادية للمسلمين، ففرض صداقته وتحالفه على المسيحيين في كل مكان، وأظهر عطفاً شديداً وميلاً لرعاياه المسيحيين: حتى بعد عهده عهد الصداقة والتحالف بين المغول والبابا وملكوك أوروبا وحكامها^(٧٢)، إلا اقترح القيام بهجوم مشترك في وقت واحد على المسلمين، فغير المغول على بلاد الشام في حين ينزل الصليبيون في عكا أو دمياط، فيعرض المماليك بذلك لهجوم من جهتين في وقت واحد، فإذا تم النصر عليهم يقسم الجانبان (المغول والمسيحي) أملاك المماليك في بلاد الشام، فيحوز المغول حلب ودمشق، بينما يغوز الصليبيون بيت المقدس^(٧٣).

وكان أول اتفاق وقعه هذا الخان هو الاتفاق مع ملك أرمينيا الصغرى، ويتضمن استرداد الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، وأرسل أربع سفارات إلى القصر البابوي في السنوات ١٢٨٥، ١٢٨٧، ١٢٨٩،

(٧٠) ابن خلدون: المعر ج ٥ ص ٤٦.

القطبي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٣٠.

D'Ohsson: op. cit, 111, pp. 552-4, p. 608.

(٧١) عبد السلام تهمي: المرجع السابق ص ١٧٢.

(٧٢) Setton: The Papacy and the Levant, p. 146.

(٧٣) العربي: المغول ص ٣٠٥.

١٢٩٠م يقترح فيها اقتراحه المثار إليه واستعداده للقيام بحملة مشتركة مع أوروبا لحرب المماليك، ويقطعل أن يقوم المسيحيون الغربيون بغزو مصر في الوقت الذي يقوم هو فيه بغزو بلاد الشام^(٧٤)، وأصر دائماً على أنه لن يبدأ هذا المشروع إلا إذا تأكد أن ملوك أوروبا المسيحيين سيبدلون المساعدة والتعاون العسكري وينفذون التزاماتهم في ذلك التحالف العسكري^(٧٥).

فقد بدأ أرغون الكتابة إلى البابوية سنة ١٢٨٥م، حين أرسل إلى البابا هنريوس الرابع، يقترح مشاركته في القيام بحملة ضد المسلمين بمصر والشام، لتدمير قوة المماليك العسكرية واسترجاع الأراضي المقدسة من أيديهم، وذكر أرغون في رسالته أن أمه كانت مسيحية واشتهر جده هولأكو وأبوه أبقا بمطوقهما على المسيحيين وتقديرهما للمسيحية^(٧٦)، وتعهد بأنه سوف يستخلص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، ويجعلها تحت حمايته حتى يتم تنفيذ بنود الاتفاق أو المشروع لتتلق عليه^(٧٧)، ومما ذكره في هذه الرسالة " وإذ تقع بلاد المسلمين (الشام ومصر) بيننا وبينكم، فسوف نطوقهما ونفصلهما الواحدة عن الأخرى.... فإننا قدمنا من جهة وجبنا من الجهة الأخرى، استسلمنا بفشل عساكرنا الأصحاء الأشداء أن نستولي على هذه البلاد"^(٧٨).

(إلا أن محاولاته باءت بالفشل، إذ لم يتلق رداً على هذا

(74) Runciman : op. cit. 111, pp. 398- 402

(75) Budge : The Monks of Kublai Khan , pp. 42 – 61, 72 – 5

(٧٦) مصطفى طه بن : ملوك إيران بين المسيحية والإسلام ص ١٠

Grousset : L'Empire des Steppes. p. 445

(٧٧) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٧٨

(٧٨) قواد عبد المولى المنيار : المرجع السابق ص ١٩١ – ١٩٢

الاقتراع^(٧٩)، إذ لم يكن يوسع البابا أن يحقق هذا المشروع، الذي يهدف إلى إجراء تحالف عسكري بين القبول والمليبيين فكرر أرغون المحاولة مرة أخرى بعد نحو سنتين، حين أوفد سفارة إلى الغرب، على رأسها رابان سوما، الذي أشرنا إليه فيما سبق، فبدأ رابان سوما هذا رحلته في أوائل سنة ١٢٨٧م، فأبحر إلى القسطنطينية، حيث لقي استقبالاً ودياً حافلاً من الإمبراطور أندرو نيقوس، الذي ربطته علاقات طيبة بالقبول، وربما لهذا أبدى الإمبراطور البيزنطي الاستعداد لأن يساعد المساعدة للقبول بقدر ما تسمح به موارده الضئيلة، وما يمكن أن تتحمله هذه الموارد^(٨٠).

ثم توجه رابان سوما إلى نابولي. ويشير المؤرخون إلى أن سوما حين وصل إلى نابولي في يونيو سنة ١٢٨٧م، صدم صدمة كبيرة حين رأى في ميناء نابولي ما نسب من معركة بحرية بين أسطول نابولي وأسطول أراجون (أرغون) الأسباني، الأمر الذي جعله يتأكد من أن الغرب الأوربي إنما شغلته المنازعات والحروب المختلفة، ولا أمل في جمع هؤلاء على هدف التحالف مع القبول^(٨١).

ثم واصل سوما سيره إلى روما، فوصل بعد وفاة البابا هنريوس الرابع فاستقبله الكرادلة في روما استقبالاً قاتراً، باعتباره يخدم سيداً وثناً، وتأكد سوما أن هؤلاء ليس لديهم صورة واضحة عن القبول^(٨٢)، وكيف أن القبول أظهروا استعداداً طيباً لتلقي المسيحية ومخالفة البابوية

(٧٩) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٧٨

(٨٠) العربي : القبول ص ٣٠٩

(٨١) العربي : نفس المرجع ص ٣٠٩

(٨٢) فؤاد عبد المنعم السبك : المرجع السابق ص ١٩٤

والغرب الأوربي، والتعاون معهم لإنقاذ الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين في الشرق، كما تؤكد من جهل هؤلاء الكرادلة، وأنهم لا ترجى منهم مساعدة، ولا أمل في عرض مشروعات سياسية أو عسكرية عليهم؛ وشأن بهم صدره في آخر الأمر^(٨٣).

ولهذا ترك سؤماً مدينة روما، بعد فشل مهمته وبعد أن تشكك الكرادلة في صدق هديته، على الرغم من أنه كان مسيحياً نسطورياً، وكان قسماً ومديناً لبطريرق النساطرة في الشرق، فاتجه إلى جنوة، وفي أغسطس سنة ١٢٨٧م، عبر إلى فرنسا فوصل إلى باريس حيث استقبل استقبالاً حافلاً من الملك فيليب الرابع المعروف بفيليب الجميل^(٨٤)، الذي وعده بأنه سوف يخرج إلى الشرق على رأس حملة صليبية لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، وأنه حريص على مخالفة الملوك، وأنه سوف يرسل معه سفيراً من قبله إلى بلاط الختان المشغول بالإتفاق على تفاصيل التحالف العسكري، وأرسل معه فعلاً جيوريت فيلفيل Gobert of Halville^(٨٥).

انتقل سؤماً بعد ذلك إلى إقليم بوردو، حيث التقى بملك إنجلترا إدوارد الأول، وكان إدوارد الأول قد حارب في الشرق، وأمن كثيراً بضرورة التحالف العسكري مع الملوك كما كان من أكثر ملوك أوروبا تحمساً لهذا التحالف وتوجيه هذا التحالف ضد المسلمين خاصة المالك، وعلى الرغم من ذلك لم يقدم لسؤماً تأكيداً على إخراج هذا التحالف إلى حيز الوجود بل رآه كثيراً، ولم يضع جدولاً زمنياً لتلك

(٨٣) عبد السلام قيس : المرجع السابق ص ١٧٩
(٨٤) Morgan : op. cit. pp. 355 – 6

(٨٥) العربي : القول ص ٣٠٧

الحرب المزمع شنها على المسلمين^(٨٦) ، لأنه يبدو أنه لم يكن مستعداً في ذلك الوقت للخروج في تلك الحملة الصليبية ، ولذلك لم يعرف منه سوماً - كما حدث أيضاً مع ملك فرنسا - متى يجسرى توجيئه تلك الحملة الصليبية.

وبعد اختيار البابا نيقولا الرابع في أوائل سنة ١٢٨٨ م : استقبل السفير الفول سوما ، الذي كانت تربطه به علاقات صداقة ومودة ، والذي عظم البابا كثيراً وخاصة باعتباره سيد العالم المسيحي . وذلك قبل أن يغادر سوما مدينة روما في طريقه إلى الشرق ، وفي صحبته السفير الفرنسي "جويرت هيلفيل" دون أن يعد البابا باتخاذ إجراء محدد في أمر التحالف العسكري^(٨٧) ، وإنما بحث معه بعض الهدايا الدينية للمسلمين ، وبعض الرسائل لبعض الأشخاص هناك ، في الوقت الذي لم تنطو فيه هذه الرسائل إلا على عبارات غامضة ، دون أن يعد البابا بإجراء معين ، أو بتأخير محدد للتعاون والتحالف مع الفول^(٨٨).

ويفسر المؤرخون المحدثون فشل هذه السفارة التي عول على نجاحها كثيراً الخان أرقسون لمحاربة المسلمين بالاشتراك مع الغرب المسيحي ، بأن ملوك أوروبا وحكامها انصرفوا في ذلك الوقت إلى مشاكلهم الخاصة . فقد أبدى شارل دانيجو اهتماماً كثيراً بعد استجوابه على جزيرة صقلية ، وأسهمت البابوية في هذا الاستجواب . ولكن أهل صقلية خرجوا عن طاعة الأنجويين فانغمست فرنسا والبابوية في هذه المشكلة^(٨٩) ، ولم

(٨٦) Setton : The Papacy and the Levant, pp. 146 – 7

(٨٧) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٨٠ .

Budge : op. cit. pp. 164 – 197

(٨٨) العربي : الفول ص ٣٠٨

(٨٩) Setton : The Papacy and the Levant, p. 98

بعد ثمة تفكير في إرسال حملة صليبية إلى الشرق، إلا بعد تسوية هذه المشكلة، بينما انشغل إدوارد ملك إنجلترا بفتح ويلز وتصفية منافيه في الجزيرة، والاستيلاء على اسكتلندا، ولم يكن الاستيلاء على بيت المقدس يمثل أهمية له في ذلك الوقت تفوق أهمية ويلز واسكتلندا وتصفية مشاكله هناك^(٩٠)، كما لم يكن للرأي العام حينئذ من القوة ما يحمله على الخروج إلى الشرق خاصة بعد أن فترت الروح الصليبية، وضمذمت الحفاصة الصليبية كثيراً بين الناس^(٩١).

وعند استقبال أرغون سؤماً وجويرت هيلفيل لم يصدق أن حكام الغرب الأوربي لا يحفلون كثيراً بما تتعرض له الأراضي المقدسة المسيحية في الشرق من خطر، لأن ما عرضه هيلفيل من تفاصيل لم يفتح أرغون، فاعتبر سفارته إلى الغرب فاشلة وأن سؤماً لم يحقق شيئاً مما خرج من أجله^(٩٢)، ولهذا كثر المحاولة للمرة الثالثة سنة ١٢٨٩م، حين أرسل رسولاً جتوى الأصل يدعى "بوسكاريل جيزولف" Buscarel of Gisors، الذي أقام زمناً طويلاً في بلاد القوق وله خبرة بمثل هذه السفارات^(٩٣).

وأرسل أرغون معه رسائل إلى البابا وإلى ملكي فرنسا وإنجلترا، وكانت الرسالة التي حملها هذا للبعوث إلى ملك فرنسا فيليب الجميل قد كتبت باللغة اللغوية بحروف أويغورية أعلمه فيها أرغون أنه سوف

(٩٠) غزاد عبد الحلي الصياد : المرجع السابق ص ٦٢.

D'Ohsson : op. cit. 111, pp. 543 - 4

Howorth : op. cit. 111, p. 280

(٩١) العربي : القول ص ٣٠٩

(92) Runciman : op. cit. 111, p. 401

(٩٣) عبد السلام قهس : المرجع السابق ص ١٨٠

يخرج على رأس جيش إلى بلاد الشام في أوائل سنة ١٢٩١م ليصل إلى دمشق في ربيع من نفس العام، فإذا أرسل الملك فيليب قوات لتشارك في هذه الحملة فسوف يستول الممولى على بيت المقدس وسوف يسلمها أرفغون للملك فيليب^(٩٤)، أما إذا تقاضى الملك عن إرسال الحملة المساعدة وتحويل حملة القبول، فسوف تنبذ اليهود كنسها ولا يتحقق الفرض، وأخبره أيضاً أنه سوف يصحب معه ملك الكرج المسيحي على رأس قواته وسوف يلواح عدد جنود هذه الحملة مائة بين عشرين وثلاثين ألف فارس^(٩٥).

ولابد وأن الرسالة الأخرى التي كتبها أرفغون للملك إنجلترا، لم تختلف كثيراً عن هذه الرسالة، أما رد ملك إنجلترا فلم يتضمن أيضاً تاريخاً معيناً أو يحدد خطوات معينة في هذا التحالف. بل يتصح الخان الممولى بالرجوع إلى البابا الذي يوسعه أن يناقش الأمر مع الملكين المعنيين^(٩٦).

وهكذا لم يظهر بوسكارد إلا بعودة مشكوك في أمر تحقيقها، وعاد أدراجه بإجابات لا تثير كثيراً بخير أو بتعاون مشفر. ولهذا أرسله أرفغون مرة أخرى ومعه اثنين من القبول للمسيحيين إلى روما أي إلى البابا فيقولوا الرابع، ومنها يتجهون إلى إنجلترا لمقابلة الملك إدوارد الأول، إلا أن هذا الملك كان مشغولاً بمشاكله الداخلية في اسكتلندا — كما سبق أن اشرنا — فلم يستطع أن يعد بشيء هذه المرة أيضاً، ولهذا عاد الرسل

(٩٤) Morgan : op. cit. pp. 185 - 8

(٩٥) عهد السلام قومي : المرجع السابق ص ١٨٠

(٩٦) عهد السلام قومي : المرجع السابق ص ١٨٠

الثلاثة إلى روما من جديد^(٩٨) ، في طريق عودتهم إلى الشرق ، وقد اشكك بهم الضيق لعدم حصولهم على ما يفيده مشاركة أوروبا في التحالف العسكري مع سيدهم أرغون. وما أن وصلوا إلى روما توطئة لغادرتهم إلى بلادهم. حتى بلغهم نبأ وفاة الخان أرغون في سنة ١٢٩١م^(٩٩) .

انتهى عهد هذا الخيان إذن دون أن يتحقق التحالف العسكري بين المغول وأوروبا ، وبالتالي لم يحدث قتال مع المماليك في عهد هذا الخان. ولم ترض على وفاة أرغون أربع سنوات حتى دخل مغول فارس في الإسلام^(١٠٠) ، ولا زال الأوروبيون المحدثون يفسرون السبب في عدم إخراج التحالف العسكري من أوروبا وأرغون إلى حيز الوجود بانشغال حكام أوروبا المسيحيين بمشاكلهم الخاصة وحروبهم الإقليمية ، وصدور بالتتويج آن سقارة أرغون الأخيرة إلى أوروبا قد جاءت في الوقت الذي سقطت فيه عكا آخر بقايا الكيان الصليبي بهلال لاشام في أيدي المماليك^(١٠١) ، ثم توفي أرغون في مارس سنة ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ^(١٠٢) . فأنهت هذه الصفحة من صفحات محاولة التحالف بين المغول وأوروبا ضد المسلمين في الشرق الأدنى .

(٩٨) قرار عبد المولى السباد : الترجع السابق ص ١٩٦ .
(98) Setton : The Papacy and the Moslems, pp. 196-7

(٩٩) انجيري : المغول ص ٣١٦
(99) Grousset : L' Empire Mongol, Vol, III , p. 727

(١٠٠) الحافظ الذهبي : المعبر في خبر من غير ج ٥ ص ٣٦٦

الفصل الرابع عشر

تحالف مغول فارس مع الأوزب وقره خوار ضد تحالف مغول القلجاي مع المماليك

- محاولات جيش أول ملك أرمينيا الصفري للتحالف مع المغول ضد المسلمين.
- مغارته الأولى سنة ١٢٩٧م إلى بلاد الخان الأعظم المغولي
- زيارته بنفسه لبلاد الخان الأعظم سنة ١٢٩٣م .
- تباعد مواقف قرنج الشرق من التحالف مع المغول .
- نتائج تحالف أرمينيا مع المغول في عهد جيش أول .
- محاولات جيش الثاني التحالف مع المغول .
- نتائج هذا التحالف .
- تحالف مغول القلجاي مع المماليك .
- سفارات الظاهر بيبرس إلى بركة خان القلجاي .
- النتائج التي ترتبت على هذا التحالف .

ومثلما سعت أوروبا كثيراً والغول أحياناً إلى التحالف العسكري لتوجيه هذا التحالف ضد مسلمى الشرق بصفة خاصة سعى أيضاً الأرمن وفرنجة الشرق لهذا التحالف لتفك الفرس لا سيما وأن وطأة المالك على الأرمن وعلى الكيان الصليبي في الشرق كانت شديدة في كثير من الأحيان وأحسن الأرمن وفرنجة الشرق بالحاجة للتحالف مع الغول للوقوف في وجه المسلمين والتصدي لهجماتهم التي أصبحت تؤرق هذه الكيانات المسيحية خاصة في الأوقات التي شغلت فيها أوروبا عنهم وعن تدعيمهم بإرسال الحملات الصليبية إلى الشرق .

لهذا تكررت محاولات هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى للتحالف مع الغول باعتبار مملكته مملكة مسيحية، أسهمت في مشروعات الصليبيين الأوربيين في الشرق ، وكانت على عدا شديدة مع مسلمى الشرق الأدنى فالتفت مساعدة الغول العسكرية باعتبارها واجهة صليبية أو واجهة مسيحية في الشرق بعد أن تداخلت علاقات هذا الملك الاجتماعية والسياسية مع الكيان الصليبي في بلاد الشام وفلسطين^(١) .

فقد أقدم الملك هيثوم الأول هذا على مصارعات سياسة مع أمراء الفرنج وبعض الحكام المسيحيين، فزوج إحدى أخواته من هنري الأول ملك قبرص، وزوج أخته الثانية من يوحنا إيلين كوتيت ياقا الصليبي، كما أن بناته تزوجن من أمراء لاتين، ف تزوجت سيبيل من يوهيموند السادس أمير أنطاكية الصليبي، بينما زوج الأخرى من يولييان كوتيت

(1) Setton : Hist. of the Crusades, Vol 11, p. 652, Note 3

صيدا الصليبي، والثالثة ماريا من جنّى إيلين بن بلون^(٢)، وأكد هيثوم الأول بذلك أن مملكته غدت واجهة مسيحية في الشرق لها مصالح صليبية وعداء صافر مع المسلمين، لاسيما المماليك في مصر والشام، ولذلك سعى هيثوم الأول للتحالف مع الممّول لتحقيق مكاسب لمملكته من ناحية وللكنّيان الصليبي في بلاد الشام من ناحية أخرى^(٣).

ففي سنة ١٢٤٧م أرسل هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى أخاه سمباد الأرمني إلى خزان الممّول الأعظم كيوك من أجل التحالف، واستغرقت رحلة سمباد الممتدة بين سنتي ١٢٤٧ و ١٢٥٠م، ويشير المؤرخون إلى أن سمباد هذا طاق خبرة من مبعوثي أوروبا في إدراك ما يمكن أن يعود على المسيحية من مزايا، إذ تم التحالف مع الممّول، واستقبله كيوك بحفاوة بالغة، ومنحه براءة تكفل للملك هيثوم الأول الحماية والحياة^(٤).

ولقد أرسل سمباد هذا وهو في سمرقند رسالة في فبراير سنة ١٢٤٨م إلى صهره هنري الأول ملك قبرص أوضح فيها مدى ما يتمتع به المسيحيون النساطرة في بلاط كيوك وفي دولة الممّول من مزايا، فقد عاشوا في حماية الخان الأعظم، وحفظوا منه بالتشاريف وجعل لهم امتيازات، وأضفى عليهم الحماية من كل ما يهددهم، ووعد الخان الأعظم بهذا المساعدة لاسترجاع ما استولى عليه السلاجقة من أملاكهم^(٥).

(٢) Cahen : La Syrie du nord, pp. 650 -2

Setton : op. cit. t.I, p. 652 n. 3

(٣) عبد السلام قنسى : المرجع السابق ص ١٠٨

(٤) العربي : الممّول ص ١٩١

Runciman : op. cit. t.II, p. 295

(٥) Runciman : op. cit. t.II, p. 295

وإذا كانت هذه السفارة الأولى لملك أرمينيا، إلى بلاط الخان الأعظم، قد حصلت على هذه الوعود بالمساعدة، ووحدة المثكنة الأرمينية، واسترجاع ما فقدته إلى أيدي السلاجقة، دون خطوات عملية للمحاربة أو التحالف ضد المسلمين^(٦)، فقد رأى الملك هيثوم الأول في سنة ١٢٥٣ م، أن يقوم بنفسه بزيارة الخان الأعظم مونكو في عاصمته قراقورم، فكان أول ملك يقوم بزيارة عاصمة المغول من لقاء نفسه، ويحصل إرضائه، فقد جرت العادة على أن يكون زوار البلاط المغولي من الملوك أو الحكام أو الأمراء أتباعاً للخان، ودون ذلك ينوب عن الملوك ممثلين أو مبعوثين يستقبلهم الخان باعتبارهم نواباً^(٧)، ملوكهم وأمراءهم أو ممثلين لهم، وبمجرد وصول الملك هيثوم الأول إلى بلاط مونكو في أوائل سنة ١٢٥٤ م أعلن ولادة للخان الأعظم والتمناه إليه^(٨).

وتذكر الروايات أن الخان الأعظم مونكو قد استقبل الملك هيثوم الأول بحفاوة بالغة، وجدد له الضمانات التي بذلها من قبل الخان السابق كيوك، ووسع نطاق هذه الضمانات، فقد وعد بالاحصاء لشرائب من الكنائس والأديرة الأرمينية في أملاك المغول^(٩) وشيخون مملكة أرمينيا بالحماية وهدم الأبن، وحصل من مونكو على وعد بالاحصاء لشرائب هو للأذى أو الضرر، وألا تنتهك حرمة مملكته، واعتبره الخان الأعظم كبير مستشاريه المسيحيين فيما يتعلق بأمر غريب آسيا^(١٠).

(٦) Saunders : The History of the mongol Conquests, p. 113 (1971)

(٧) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٨٩ - ٤٩٠

(٨) عبد السلام قهسي : الترجيع السابق ص ١٠٨

(٩) الميرفتي : المغول ص ٢٣٨

ويبدو أن ذلك لم يكن هو كل ما أمل فيه الملك هيثوم الأول، فلم يكن يمثيه فقط الحفاظ على وحدة مملكته وحمايتها من قبل المغول، وشمول المسيحيين الخاضعين لسلطان المغول بالأمن والأمان، بل كان يمثيه أيضاً الحصول على مساعدة المغول لاستعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين، وإعادتها إلى الفرنج الصليبيين باعتبار مملكته واجبه مسيحية صليبية في الشرق^(١٠)، وأصبح له التحدث باسم الفرنج اللاتين في بلاد الشام وفلسطين وباسم كافة ملوك وحكام أوروبا المسيحيين^(١١)، لتحقيق آمال أوروبا حكماً وبابوات في الحصول على المساعدة العسكرية للمغول ضد المسلمين في الشرق الأدنى، ولهذا فقد أخبره مونكو أنه لو تعاونت معه الدول المسيحية فسوف يسترجع لهم بيت المقدس^(١٢).

ويبدو أيضاً أن شمول الخان الأعظم مونكو الملك هيثوم الأول برعايته وحفاوته وفهره بالهدايا وبذل الأموال الكثيرة، قد جعل هذا الملك يعتقد بأن جهوده قد تكفلت بالتجاح وأنه حقق ما لم تحققه البعثات الأخرى التي أرسلت إلى بلاط الخان الأعظم من أجل مساعدة المغول العسكرية، والقيام بعمل مشترك ضد مسلمي الشرق الأدنى، ولهذا بدأ هيثوم الأول في العودة إلى بلاده في نوفمبر سنة ١٢٥٤م / ٦٥١هـ^(١٣)، متخذاً طريق تركستان وفارس ليرزور هولأكو في فارس، بعد أن علم أن أخاه مونكو قد عهد إليه بالقضاء على الخلافة العباسية، والاستيلاء على

(١٠) saunders : op. cit. p. 113

(١١) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٦٠٨

(١٢) Cahen : op. cit. pp. 694 – 6

Runciman : op. cit. 111, p. 253

(١٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٦٢

بغداد. بعد تحطيمه معاقل الحشيشة في إيران وغربي آسيا ووصل هيثوم الأول إلى بلاده (أرمينيا) في يوليو سنة ١١٢٥م^{١١١}.

ولا شك أن الملك هيثوم الأول قد جاوز الحدود في تقايله بمساعدة الفول وقيامهم بعمل مشترك مع المسيحيين، إذ لم تزد الأمور عن وعود وبذل للوعود. حقيقة عزم الفول على إزالة الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد، ولكن ذلك لم يكن وقاء لوعودهم مع مسيحي الغرب أو الشرق، وإنما في إظهار سياسة خاصة بالفول وامتداد إمبراطوريتهم وسيطرتهم على الجهات المجاورة^{١١٢}، ولم يكن لمصلحة أحد. وعلى الرغم من أنهم شملوا المسيحيين بمفهوم ورحمتهم. وقدروا المسيحية كعقيدة، إلا أن ذلك لم يكن يعني أنهم يكونون العداء للدين الإسلامي، وإن خططوا للسيطرة على بلاد المسلمين، فضلاً عن أنهم لا يوافقون على قيام دولة مسيحية مستقلة، فبالإضافة عادت بيت المقدس للمسيحيين فلا يمكن قبول استقلالها، بل لا بد من خضوعها للفول وإقرارها بالتبعية لدولتهم^{١١٣}.

حقيقة إن انتصار الفول على المسلمين قد يقيد مصالح العالم المسيحي بوجه عام ولكن الدلائل كلها تشير إلى أن الصليبيين في الشرق الأدنى ومعهم حكام أوروبا، كانوا يؤثرون المسلمين على الفول، فقد عرفوا المسلمين وتعاملوا معهم وخبروا قدرهم وحضارتهم في الوقت الذي نظروا

(١٤) قواد عبد المعطي الصاد : المرجع السابق ص ٩٦ - ٩٧
Runciman : op. cit. 111, p. 298

(١٥) العريضي : الفول ص ١٩٩ .

Morgan: op. cit. p. 81

(١٦) العريضي : نفس المرجع ص ١٩٩

فيه للغول على أنهم شعب غريب قدم من الصحارى والبراري النائية واتصف بصفات البرابرة والهمجية^(١٧). ولم ينس هؤلاء ما فعله الغول في شرق أوروبا وما ارتكبه من جرائم وما أحدثوه من مذابح وهيبة وحرائق وقتل وتدمير وتخريب، وما أظهروه من جبروت وعطسة في البلاد التي اجتاحتها خاصة بولندا والمجر ومورافيا وروسيا، ولهذا لم يتحس الكثير من مسيحي أوروبا للتحالف مع ذلك الشعب المثير^(١٨).

ولم يشترك كل المسيحيين، خاصة في الشرق في هذا الفهم. وفي تلخيص التعامل مع المسلمين على التعامل مع الغول، خاصة وقد حاول الملك هيثوم الأول أن يحمل الأمراء اللاتين على قبول فكرة التحالف المسيحي الغول، فلم تلق محاولات هيثوم الأول للتحالف مع الغول للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين القبول عند أمراء الفرنج في الشرق باستثناء بوهيموند السادس، كونه أنطاكية وسهر هيثوم الأول^(١٩)، الذي أعلن موافقته على هذا التحالف وتحمسه للمشاركة في أي عمل مشترك، وظل بجانب هيثوم حريصاً على التفاهم مع الغول، وكوفي بوهيموند السادس هذا من قبل الغول بعد انتصاراتهم في بلاد الشام^(٢٠)، فاسترد بعمونة الغول ما سبق وأن استولى عليه صلاح الدين من قلاع وحصون، وكانت فيما سبق تابعة لأنطاكية ومن أهمها اللاذقية، في مقابل أن يعيد بوهيموند إلى الكرسي الديني في أنطاكية البطريرق اليوناني "إيشيوس" أي بطريرقاً أرثوذكسياً على مذهب الكنيسة الشرقية كنسرت

(17) Morgan : op. cit. p. 155

(18) Setton : The Papacy and the Levant, p. 97 (N. 52)

(19) Morgan : op. cit. p. 154

(٢٠) العربي : الغول ص ٢١٤

للمقوق لاستعادة اللاتينية^(٢١)

غير أن الفرنج بمائلين جهات آسيا لغزو من ذلك. ونظروا للمقوق نظرة ملؤها الازمراء والاحتقار. ولم يتحمسوا كثيراً لما تحمس له العربي الأوربي في هذا التحالف والعمل العسكري المشترك ضد المسلمين^(٢٢). فأنكر الفرنج بعكا ما جرى من صداقة بين بوهيموند السادس، أمير أنطاكية والمقوق. فلم يكن استرداد اللاتينية في نظرهم له أهمية التي تدفع الإهانة التي لحقت بالكنيسة اللاتينية، حين أعيد البطريق اليوناني إلى مقرة في أنطاكية. ولهذا سافر البابا بخرسان بوهيموند من رحمة الكنيسة^(٢٣).

ولهذا لم يمض وقت طويل على تنصيب هذا البطريق الأرثوذكسي في أنطاكية بأمر المقوق. إلا وقام هيثوم الأول ومعه بوهيموند السادس أمير أنطاكية سنة ١٢٦٣م باختطاف هذا البطريق ونقله إلى إرمينيا الصغرى. وإعادة الكرسي الديني في أنطاكية إلى بطريق لاتيني كاثوليكي. ولكن ذلك كله لم يمح صورة تعاون كونت أنطاكية مع هيثوم في خدمة المقوق^(٢٤). بل يذكر المؤرخون أن بارونات أنطاكية وجهوا رسالة إلى شارل كونت أنجو شقيق الملك لويس التاسع في إبريل سنة ١٢٦٠م يخبرون فيها عن تخوفهم مما قد يحدث عند زحف المقوق على الشرق الأدنى من أخطار. ويطلبون مساعدة أوروبا ومساعدته هو بصفة

(21) saunders : op. cit. p. 113

Runciman : op. cit. p. 319

(22) Grousset Histoire des Croisades, Vol. 3 . pp. 525-30 . pp. 580 - 606

(٢٣) العربي المقوق ص ١٢٥

(24) Runciman op cit 111, p 319

خاصة، وشارك بارونات أنطاكية في اللجوء إلى شارل داتجو أيضاً بحكام عكا الذين تطلعون هم أيضاً إلى من يساعدهم في تلك المشكلة، فأبدوا الاتصال بشارل داتجو بالذات، نظراً لما سبق أن أبداه من مطامع في البحر المتوسط ومحاولاته انتزاع عرض صقلية⁽²⁵⁾.

ولم يكن بارونات أنطاكية وحكام عكا، هم فقط الراضين التحالف مع المغول وكارهين للمداقة مع المغول، بل إن تجار المدن الإيطالية لاسيما البنادقة، كانوا أيضاً كارهين لهذا التحالف والراضين لتلك المداقة بسبب علاقاتهم التجارية الوثيقة مع المسلمين خاصة في مصر، والذين تركز اهتمامهم على التجارة الواردة من الشرق الأقصى، والتي تتخذ الطريق إلى الخليج العربي أو البحر الأحمر⁽²⁶⁾.

في الوقت الذي تشر فيه كثير من الفرنج الصليبيين في الشرق وفي الغرب أيضاً إلى المغول على أنهم قوام ملأى الفطوسة قلوبهم، وليس الحلفاء والأصدقاء عندهم سوى اتباع، فعلى الرغم من أن بينهم عدداً لا بأس به من المسيحيين الشرقيين، فليس هؤلاء إلا ملاحدة من النساطرة أو اليقانية، الذين لا يكونون الاحترام للكنيسة الأم في العالم المسيحي، وما جرى في بغداد من قتل وتخريب وتشريد، لا يبدل إلا على همجية المغول واقتارهم لأي قدر من الحشارة والموتة والرحمة⁽²⁷⁾، وتوقع كثير من فرنج الشرق والغرب أنه إذا جرى عدام بين المغول والمعاليك،

(25) Kunciman : op. cit. 111, pp. 290 – 2

(26) Ibid. p. 324

(27) Morgan : op. cit. p. 155

فالمراجع أن أهواء الفرنج وعاملتهم سوف تتجه ناحية المائليك المسلمين^(٢٨).

وقل الملك هيثوم الأول مختصاً لما تم الاتفاق عليه مع المغول، فتردد كثيراً على بلاط خانات المغول، وبذل لهم المساعدة العسكرية كلما طلبوا ذلك، وشارك جند الأرمن جنباً إلى جنب مع عساكر المغول في آسيا الصغرى وبلاد الشام^(٢٩)، وكافأه المغول على ذلك قربوا إليه ما سبق أن استولى عليه السلجقة من أرمينيا من حصون وقلاع، وذلك بعد أن حقق المغول انتصاراتهم في أصالي الراقدين وآسيا الصغرى وبلاد الشام، بل منحوه بعض الأملاك الأخرى مكافأة على مشاركته معهم في بعض المعارك خاصة في بلاد الشام^(٣٠).

ولاشك أن الأرمن قد أقاموا من تحالفهم مع المغول، فأحرز هيثوم الأول بعض الانتصارات على قلع أرسلان الرابع، سلطان سلجقة التروم سنة ١٢٥٩م وعلى التركمان في الأطراف الغربية للبلقيية سنة ١٢٦٣م، وتحمل الأرمن نتائج هذا التحالف، خاصة بعد انكسار المغول في عين جالوت سنة ١٢٦٠م^(٣١).

وكان هولكو قد أبلى في بلاد الشام وقلسطين قوة عسكرية تتراوح عددها بين عشرين ألف جندي وعشرة آلاف جندي، تحت قيادة كتيبة، ثم عاد هولكو إلى فارس فصار كتيبة مسؤولاً عن حكم بلاد الشام

(٢٨) العريضي : المغول ص ٢٤٦

(٢٩) ابن العمري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٨ - ٢٤٩

عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٤٣

(٣٠) العريضي : للمغول ص ٢٤٩ - ٢٥٠

(٣١) ابن العمري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩٨ - ٤٩٩

وقلسطين^(٣٣) ، وكان كثنفاً مسيحياً تسطورياً أنهى مشاعر طهية تجاه المسيحيين ، وأدرك أهمية التحالف بين المغول والفرنجة في بلاد الشام وقلسطين ، وشجعه على ذلك ما أبداه كل من أمير أنطاكية يوهيموند السادس والملك هيثوم الأول من مشاركته الرأي في هذا الاتجاه^(٣٤) .

بل إن الملك هيثوم الأول ومعه يوهيموند السادس أمير أنطاكية ، حضرا مجلس الحكماء ، الذي انعقد في يوليو سنة ١٢٦٤م في مقر حكم هولاكو بالقرب من تبريز ، حيث حضر بعض حلفاء هولاكو وأتباعه ، ومنهم ملك الكرج ، على الرغم من شعور كل من هيثوم الأول ملك أرمينيا ويوهيموند السادس أمير أنطاكية بالخطر والوجل لما فعله في العام السابق على ذلك الاجتماع من الخطف البطريرق الأرثوذكسي من أنطاكية ونقله إلى أرمينيا ، وإخلاء مكانه لبطريرق لاتيني كاثوليكي^(٣٥) ، ويدل ذلك على رغبة مخفية من هذين التابعين في مواصلة التحالف مع هولاكو ضد المسلمين من ناحية ، وإصرار هولاكو على التجاوز عما حدث لمصلحة ما كان يؤمن به من تحالف مع القوى المناهضة للمسلمين في الشرق الأدنى ، فقد اكتفى هولاكو بأن يعتذر يوهيموند عما جرى في أنطاكية دون أن يكون لهذا الحادث أثر في تغيير السياسة العامة التي جرى عليها المغول^(٣٦) .

أما العقاب فقد أتى من جهة الماليك فقد أراد السلطان الظاهر بيبرس معاقبة هيثوم الأول ملك أرمينيا حليف القوق ومستشارهم

(٣٣) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١١٤

(33) Richard : "The Mongols and the frank" J. A. 113 pp.51-2

(34) Rancinan : op. cit. 111, p. 319

(٣٥) العزلي : المغول ص ٢٧٨

وبحرشهم الأكبر على قتال المسلمين، فضلاً عن قيامه بتسديد الأخشاب والحديد من آسيا الصغرى إلى مصر، كثل ذلك جعل بيبرس يحاول معاينة هذا الملك، فأرسل جيشاً مملوكياً في صيف سنة ١٢٦٦م لمهاجمة أرمينيا الصغرى^(٣٦)، فأوقع المسلمون الهزيمة بالأرمن وحلفائهم الصليبيين والمغول في أغسطس سنة ١٢٦٦م عند مريساك قرب أنطاكية، وقتل في المعركة أحد أبناء الملك هيثوم الأول، وأسر ابن ثان له في الوقت الذي كان فيه هيثوم نفسه في تبريز يستجدي معونة المغول^(٣٧).

وما لبث المماليك أن أغاروا على المدن الرئيسية في قلبية : القصبة وأدنة وطربوس، فضلاً عن ميناء إياس. في الوقت الذي اتجه فيه شق آخر من جيش المماليك إلى مدينة سبوس عاصمة أرمينيا الصغرى، واستولى عليها، وأكمل فيها التناحر^(٣٨)، وأسر المسلمون في هذه الحملة نحو أربعين ألف أسير، وحازوا مغانم كثيرة - حتى بيع رأس البقر ب درهمين -^(٣٩).

ثم ما لبث بيبرس أن اجتاحت أرمينيا الصغرى للمرة الثانية في مارس سنة ١٢٧٥م، فأغار المسلمون على مدنها برأ وبحراً، ولم يجرؤ - ليو الثالث - ملك أرمينيا الصغرى الذي خلف والده هيثوم الأول على التعرض الأرميني على الوقوف في وجه بيبرس^(٤٠)، ثم غزا بيبرس سلطنة سلاجقة الروم في الأناضول، الواقعة تحت الحماية المغولية، وفيها حامية

(٣٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦٤٠.

(٣٧) أبو الفدا : المختصر ... حوادث سنة ٦٦١ هـ.

عبد السلام قهقي : نفس المرجع ص ١٥٨.

(٣٨) فضل بن أبي الفضل : فتوح السيد ص ١٥٢.

(٣٩) القرظي : السلوك ج ١ ص ٥٥٤.

(٤٠) القرظي : السلوك ج ص ٦١٧ - ٦١٨.

مغولية قوية، فاستطاع بيبيرس أن يتزك بهذه الحامية هزيمة ساحقة في البستان في إبريل سنة ١٢٧٧م^(٤١)، ثم دخل بيبيرس مدينة قيصرية، فخطب له على منابرها، ثم قفل راجعاً إلى بلاد الشام^(٤٢)، فاستشاط أبناً غلباً لما لحق بقواته من هزيمة، فانتفض فرصة عودة بيبيرس إلى الشام، وقاد أبناً جيشاً كثيفاً، اخترق به آسيا الصغرى، واستعاد سلطنة سلاجقة الروم، وقتل أعداداً كبيرة من المسلمين في تلك البلاد^(٤٣)، في الوقت الذي كان فيه بيبيرس قد جاز إلى ربه في يوليو سنة ١٢٧٧م.

وإذا كان الملك هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى قد أظهر هذه الحماسة الطاغية للتحالف مع المغول والتي عوقب من أجلها من قبل الممالك، وشاركه الرأي أمير أنطاكية الصليبي فإن بقية بارونات المملكة الصليبية بحكم لم يشاركوهما الرأي في هذا الاتجاه: فلا زال هؤلاء البارونات يعتبرون المغول مقهريين، لا يمكن التحالف معهم، لقسوتهم المتناهية وميلهم للقتل والتخريب^(٤٤)، ويؤثرون عليهم المسلمين، فضلاً عما حدث من قيامهم بنهب صيدا ردأ على قيام أمير صيدا الصليبي بالاعتداء على القول المجاورين له، كل هذا أضعف الأمل تماماً في عقد تحالف بين المغول والفرنجة^(٤٥).

(٤١) بفضل بن أبي الفخار : المصدر السابق ص ٢٥٩

(٤٢) للفريرى : السلوك ج ١ ص ٦٣١

(٤٣) النجوى : المبرج ٥ ص ٣٠٥

(44) Morgan : op. cit. p. 155

(٤٥) القريش : المغول ص ٢٥٠ - ٢٥١

عيد السلام قهوى : المرجع السابق ص ١٥٩

وحيث أرسل الفرنج إلى شارل داتجو رسالة في إبريل سنة ١٢٦٠م يستنجدون به، وضح فيها ميلهم إلى المسلمين، وتفشيهم التماثل معهم، بل انطوت هذه الرسالة على حزن وأسى لسقوط حلب وحمص وحمصاء في أيدي المغول، وعلى ما حل بالأيوبيين في بلاد الشام من كوارث على أيدي المغول، وكان متوقفاً أن يلتزم الفرنج مساندة المالك ضد المغول، وطلب معاونتهم ضد ذلك الشعب المتبرر، فلا شك أن غالبية فرنج الشام كانوا يرفضون التحالف مع المغول، أو الاعتماد على مساعدة المغول ضد المسلمين^(٤٦).

وحيث امثل عرش أرمينيا الصغرى الملك هيثوم الثاني، الذي خلف والده أيو الثالث سنة ١٢٨٩م، انتهز هذا الملك فرصة مصرع السلطان خليل بن قلاوون سلطان المماليك في أواخر سنة ١٢٩٣م، وما حدث من اضطرابات داخلية في مصر والشام، وأوبئة ومجاعات، قراح يوظف صلاته بملكة قبرص التي أضحت البقية الباقية من مملكة بيت المقدس الصليبية^(٤٧)، ثم توجه لزيارة خان المغول في قارس لتجديد التحالف مع المغول، وكان غازان قد نجح في انتزاع السلطة هناك، فتوجه إليه هيثوم الثاني، وبذل يمين التسمية، وحصل منه على وعد ببذل المساعدة الحربية لأرمينيا الصغرى، وتعهده بألا تنسار الكنائس المسيحية أو تتعرض للتدمير^(٤٨).

والراجع أن تبحر آمال المغول في التحالف مع غرب أوروبا، لم

(46) Runciman : op. cit. 111, p. 408

(٤٧) العربي : المغول ص ٣١٩

(48) Runciman : op. cit. 111, p. 428

بحرك ملك أرمينيا المسيحي فقط، وإنما أحبا أيضاً آمال من ارتبطوا بصدقة المغول من قبل، فقد التمس الملك هيثوم الثاني عند هويته من الشرق سنة ١٢٩٥ م صداقة البيزنطيين، ربما مؤملاً منهم إلى حلفه ضد المسلمين^(٤٩)، فتوجه إلى القسطنطينية لمقابلة محالفة مع بهزنة ودعم هذه المحالفة بمصاهرات سياسية معهم. وإذا كان هيثوم الثاني هذا قد تعرض لبعض المقاصب في بلاده من قبل أخيه الذي نجح في اختصاب السلطة في أرمينيا الصغرى لسنوات، إلا أن هيثوم الثاني عاد مرة أخرى إلى العرش سنة ١٢٩٩ م، بعد أن كان للمالوك قد غزوا بلاده، واستولوا على كثير من مدنها وقلاعها^(٥٠).

ويشير المؤرخون إلى أن المغول نهضوا لمساعدة حليفهم هيثوم هذا، فوجهوا ثلاث حملات لمهاجمة بلاد الشام في السنوات ١٢٩٩، ١٣٠١، ١٣٠٣ م، إلا أن هذه الحملات كلها انتهت بالفشل الذريع، وتراجع المغول إلى بلادهم، بل نجح المسلمون في إزاله هزائم ساحقة بالمغول والقوات الأرمينية سنن ١٣٠٢، ١٣٠٤ م^(٥١)، فدخلت أرمينيا ضمن اندفاعها في التحالف مع المغول، فأبوا الإتاوة للمغول وتعرضت بلادهم للتخريب من قبل المالوك، فضلاً عما نشب في قتيقة من حروب داخلية، ومن خطورة من قبل الأتراك بآسها الصغرى. وانتهى الأمر بأن فقدت استقلالها تماماً في مستهل الربيع الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي^(٥٢).

(٤٩) Morgan : op. cit. p. 185

(٥٠) Ibid. p. 185

(٥١) العريضي : المغول ص ٣١٩

(٥٢) العريضي : نقشه ص ٥٢٠

وإذا كان قوتج الشام قد مالوا ناحية المسلمين، وعزفوا عن مخالفة المغول للأسباب التي عرضناها، إكمالاً لما سبق أن أشرنا إليه، من فشل أوروبا في التحالف العسكري مع المغول، واقتصار الأمر على وجود من قبل خانات المغول، بتقديم المساعدة والمشاركة في أعمال عسكرية مع مسيحي أوروبا، إذا أقدم حكام أوروبا وأمرائها على تقديم فروع الطاعة والولاء للخان الأعظم للمغول، واعتبروا أنفسهم أتباعاً للخان الأعظم سيد العالم الأوحده⁽⁵³⁾، فقد قابل ذلك ما أظهره مغول القفجاق، خاصة بركة خان الذي اعتنق الإسلام، من عطف على المسلمين وميل لهم ورغبة في التحالف معهم، بعد أن أزعجه ما فعله هولاكو بالمسلمين من قتل وتخريب وقتل الخليفة العباسي وتدمير بغداد⁽⁵⁴⁾.

فقد أعلن بركة خان القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق، أن هولاكو فعل ما فعله بالمسلمين، وأطاح بمرؤس ملوكهم: دون أن يستشير أئمة أو يأخذ رأيهم في قتل الخليفة العباسي، وقام بركة خان بالدعاء أن ينتقم الله من هولاكو للدماء البريئة التي سكبها، فأبان بركة خان بهذا عن استعداد التحالف مع الممالك في مصر والشام ضد عدوهم المشترك مغول قازس، وأظهر رغبة أكيدة في التقارب مع المسلمين ضد طائفة قازس المغولية⁽⁵⁵⁾.

ويذكر المؤرخون أنه جرت سفارات ومراسلات بين السلطان الملوكي المظفر بيبرس، وبين هذا الخان وذلك سنة ١٢٦٢ - ١٢٦٣/

(53) Runciman : op. cit. 111, p. 296

(54) الطقشدي : صبح الأعشى ص ٤٧٣
قازس حيد المظفر بيبرس : المرجع السابق ص ٤٦ (معاينة ٤)

(55) Morgan : op. cit. pp. 143 - 4

١٢٦٦هـ ، حين وجه بوبرس القلبي مجد الدين والأمير سيف الدين كاش
تلك إلى بلاط بركة خان^(٥٦) ، ومعهما رسائل وكتب تضمنت أحوال
المسلمين والإسلام ، ومبايعة الخليفة العباسي في القاهرة ، ووصف جند
الإسلام ومدى كثرتهم ، وعدد أجناسهم من أتراك وتركمان وأكراد وغير
ذلك ، وتضمنت أيضاً التودد إلى بركة خان ، ومحاولة استمالته ، وحشد
على الجهاد للقيام بعمل مشترك ضد مغول فارس ، خاصة وقد بلغت قوة
المسلمين شأواً بعيداً وجنودهم سامعين طائعين^(٥٧) .

وسار مع هذه السفارة رجلان من القطار من رجال بركة خان
ليقودا هذه السفارة عبر الطرق والمسالك إلى مضارب القبيلة الذهبية أو
مغول التفجاق واستمرت الاتصالات والتقارب مع مغول التفجاق والماليك
في مصر جارية فترة طويلة^(٥٨) .

غير أن هذه الاتصالات جرت في الوقت الذي نشبت فيه الحرب
قديماً بين بركة خان وهولاكو خان فارس ، لاسيما وقد سارت الحرب في
أول الأمر في صالح هولاكو الذي استطاع في أواخر سنة ١٢٦٢م ، أن
يجتاز دريند ، وأن يتقدم إلى شمال القوقاز ، وأن يتقدم في مضارب القبيلة
الذهبية أو مغول التفجاق ، قبل أن تتحول الحرب في صالح بركة خان ،
الذي نجح في شن هجوم مفاجيء على قوات هولاكو على شاطئ نهر
تريك Terek أجبرها على الارتداد تجاه آذربيجان^(٥٩) .

(٥٦) القيريزي : السلوك لعروة دول الملوك ج ١ ص ٤٧٩ - ٤٨٠

(٥٧) العريضي : المغول ص ٣٦٨ - ٣٦٩

القيريزي : المصدر السابق ج ١ ص ٤٨٠

(٥٨) Halperin : Russia in the Mongol Empire, pp. 250-1

(٥٩) العريضي : المغول ص ٣٦٩

وإذا لم تنجح القرمّة لتطهير تصاون عسكري بين مغول القفجاق والماليك في مصر والشام، وطروح تحالفهما إلى حين الوجود، في ذلك الوقت، فذلك لأن موقف مغول فارس بدأ يزداد حرجاً بسبب موالاتهم للمسيحية والمسيحيين ومناخفتهم للإسلام⁽⁶⁰⁾، فقد اعتنق الإسلام مغول القفجاق في جنوب روسيا، ثم مغول التركستان في الوقت الذي استقرت فيه الأمور للماليك في مصر والشام، فأضحى بيت هولاكو، بين شقي الرحا: يطوفه المسلمون من جهتين: مغول القفجاق والتركستان من جهة، والماليك بمصر والشام من جهة أخرى⁽⁶¹⁾، فأحاط بهولاكو ومغول فارس الأعداء من وراء الأنهار الهامة: نهر جيحون من ناحية والقوقاز من ناحية ثانية ونهر الفرات من الناحية الثالثة.

وترتب على ذلك أنه لم يعد بوسع هولاكو وخلفاؤه، أن يقدموا المعاونة العسكرية لكل من الأرمن وفرنج أنطاكية، دون أن يتعرضوا لهجمات مغول القفجاق في جنوب روسيا ومغول تركستان من ناحية، ودون أن يكون لذلك رد فعل من قبل الماليك في بلاد الشام ومصر من ناحية أخرى⁽⁶²⁾، فترك الباب مفتوحاً أمام الماليك لمهاجمة الأرمن والفرنج - كما رأينا - الأمر الذي كان له أثر سيء على وضع هذين الكيانين المسيحيين الذين ظالا تمتعا بتأييد ومساندة مغول فارس⁽⁶³⁾، قيل أن ثلثي بهولا، هزيمة عين جالوت، وتطويقهم قوات المسلمين من جهات متعددة، بما في ذلك قوة أقاربهم مغول القفجاق في جنوب روسيا.

(60) Cahen : Introduction à l'histoire de L'Asie, pp. 423 - 4
p. 426 - 31

(61) Runciman : op. cit. 111, p. 319

(62) Howarth : Hist. of the Mongols, pp. 218 - 25

(63) ابن العربي : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٨ - ١٩٩

فما جرى من علاقات مودة وتحالف بين خانات القنجاك والماليك، ارتباط من جهة بإسلام بركة خان، وما أظهره من مهول طيبة نحو المسلمين، كما ارتباط من جهة أخرى بكراهيته وعداوته لأبناء عمومته بيت هولكو في فارس^(٦٤)، الذين أجمعوا في كراهيتهم للمسلمين، على الترقم من أنهم كانوا حتى ذلك الوقت يوثنيون، وكان اغتصابهم لبعض أملاك بيت جوجي الذي ينتمي إليه بركة خان عاملاً هاماً في ازدياد الكراهية بين هذين الفرعين من فروع الغول^(٦٥).

ويبدو أن بيبرس أدرك تضرر الاتصال بهنه وبين مملوك القنجاك بسبب وقوع قوى معادية في الطريق تمنع هذا الاتصال، من القوى التابعة لمملوك قبارس أو الدائرة في قلكهم، كملكسة الكرج وملكسة أرمينيا الصغرى، فضلاً عن قرنج أنطاكية، وبقيّة الكيان الصليبي في بلاد الشام^(٦٦)، فكان عليه أن يفكر في طرق أخرى للاتصال بحلفائه مملوك القنجاك في جنوب روسيا، فقرر أن تتخذ السفارات المتبادلة معهم طريق البحر، بعد السعي للحصول على موافقة القوى البحرية المتحكمة في هذا الطريق من ناحية، ومحاولة تأمين مسافات أخرى من هذا الطريق من

(64) Setton : The Papacy and the Levant, p. 97

(٦٤) القلقشندي : صبح الأعشى ص ٤٧٣

سعيد عاشور : العصر المملوكي في مصر والشام ص ٣٢٤ (٦٤) - القاهرة

(١٩٧٦)

حملة ناصر النجدي : العلاقات بين دولة الماليك ودولة مملوك القنجاك

(مؤلفات كلية الآداب جامعة الكويت - الكويت

الثانية - الرسالة الثانية ١٩٨١م)

(66) Cahen : op. cit. p. 650 - 2

Setton : Hist. of the Crusades, Vol. 11, p. 652 (N. 3)

ناحية أخرى^(٦٧).

وأثمرت العلاقات الطيبة بين السلطان المظفر بيبرس وبركة خان عن نوع من التعاون والرؤى الواحدة للقضايا السياسية، إذ كان المغول قد نصّبوا سلطانين سلجوقيين، في حكم الأناضول، هذا قلج أرسلان وأخيه كيكاوس، وخضع قلج أرسلان كلية لأوامر الملوك، فحسب أن تحالفه مع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل لاسكارس، الأمر الذي شجعه على خلع أخيه كيكاوس من أملاكه، بأمر المغول^(٦٨)، فليجأ كيكاوس هذا سنة ١٢٦٣م / ٦٦٢هـ إلى بركة خان وبيبرس، فتلقي المساعدة منهما مما يؤكد أن رؤية كل من بركة خان والمظفر بيبرس تطابقت في هذه القضية من ناحية فحسب أن وقوفهما معاً ضد مصالح مغول فارس من ناحية أخرى^(٦٩).

وفي سبيل تأمين طرق اتصال مغول القفقاس بالماليك، خاصة الطرق البحرية التي أشرنا إليها من قبل، انضمت أهمية بيزنطة وموقعها الذي يتحكم في طرق الاتصال بين مغول القفقاس والماليك، خاصة وقد كانت أعضاء بيزنطة مع مغول فارس، وتحالف ميخائيل الثامن باليولوج مع هولاكو ثم مع ابنه أيفان^(٧٠)، غير أن مغول القفقاس تحالفوا مع البلغار، فأنزلوا هزيمة بالإمبراطور البيزنطي سنة ١٢٦٤م، وكان ميخائيل الثامن يلقي حتفه في تلك الحرب، ثم واصل

(٦٧) المبرشي : الملوك ص ٢٨٠

(٦٨) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٨

(٦٩) Morgān; op. cit. : pp. 142 – 5

(٧٠) فؤاد عبد الحميد الصياد : المرجع السابق ص ١٠٠

عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٠٠

مغول القنجاك هجماتهم على أملاك بيزنطة فضلاً عما سببه البلغار من مذاهب بيزنطة في ذلك الوقت^(٧١).

لهذا سعى الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن لتسوية الخلاف مع مغول القنجاك بجنوب روسيا. فأضحت العلاقات وثيقة بين بيزنطة ومغول القنجاك والممالك، وتزايدت تبادلات السلالات بين مغول القنجاك وسلاطين الممالك، بعد أن أمنت الطرق، خاصة البحرية بين الجانبين، بتأييد بيزنطة فأضاف هذا أعباء جديدة على مغول فارس أعداء المسلمين ومغول القنجاك^(٧٢).

ولا شك أن وفاة هولاكو بعد ذلك سنة ١٢٦٥ م، أضعفت مركز الغول في مرحلة بالغة الحرج^(٧٣)، لاسيما وقد لحقت به بعد شهر قطز خاتون التي كان لها دور كبير فيما جرى من اتحيار هولاكو للمسيحيين، وتحالفه معهم ووقوفه إلى جانب الأرمن والفرنج وتقريب الساطرة وغيرهم من المسيحيين الشرقيين^(٧٤)، فضلاً عن تهديد مغول القنجاك أملاك فارس كل ذلك أوقف إلى حد ما مشروعات مغول فارس العسكرية وتحالفهم ضد المسلمين.

وهكذا كان تحالف مغول القنجاك في جنوب روسيا مع الممالك في مصر والشام رداً على تحالف مغول فارس مع الأرمن وسلاطين الشرق، وإذا كان الإمبراطور البيزنطي قد ارتبط بعلاقات المودة والصداقة

(٧١) العربي : الملوك من ٢٨٢

(٧٢) Morgan : op. cit. pp. 142-5

(٧٣) الدبلي : نفسه من ٢٧٩

(٧٤) عبد السلام فهمي : المرجع السابق من ١٩٩

والصاهرة مع المغول في فارس، فقد نجح مغول القنجا والماليك في إرغامه على تغيير مسار علاقاته السياسية، وتحويلها إلى الجانب الآخر، فتوثقت العلاقات بين بهزنة ومغول القنجا والماليك، فأقسم ذلك في تسهيل الاتصال بين طرفي هذا التحالف^(٧٦)، أي بين مغول القنجا والماليك بتأمين طرق الاتصال البحري بينهما وتسهيل هذه الاتصالات، فتبدلت السفارات بين الجانبين: لتلقى أعيان جديدة على مغول فارس وحلفائهم في الشرق^(٧٧).

وتكاثرت بمرور الأيام العراقيل أمام مغول فارس، لتحقيق ما أملوا في تحقيقه مع تحالفهم مع أوروبا ومسيحي الشرق عند المسلمين، ولم يظفروا بمائل في هذه الناحية، وفي الوقت نفسه تصاعدت بمرور الأيام قوة الماليك في مصر والشام، الذين استطاعوا تصفية الكيان الصليبي في الشرق^(٧٨)، واستردوا أنطاكية ثم طرابلس وهدموا بقايا مملكة بيت المقدس الأسمية في هكسا، ولم يكن بوسع مغول فارس أن يقدموا لهم المساعدة أو ينهضوا لحمايتهم للأسباب التي أشرنا إليها، ثم كان تحوّل طائفة فارس القبول إلى الإسلام وتزايد انتشار الإسلام بين رعيتهم^(٧٩) نهاية لنشاط هذه الخالية ضد المسلمين في الشرق.

(75) Morgan : op. cit, p. 145

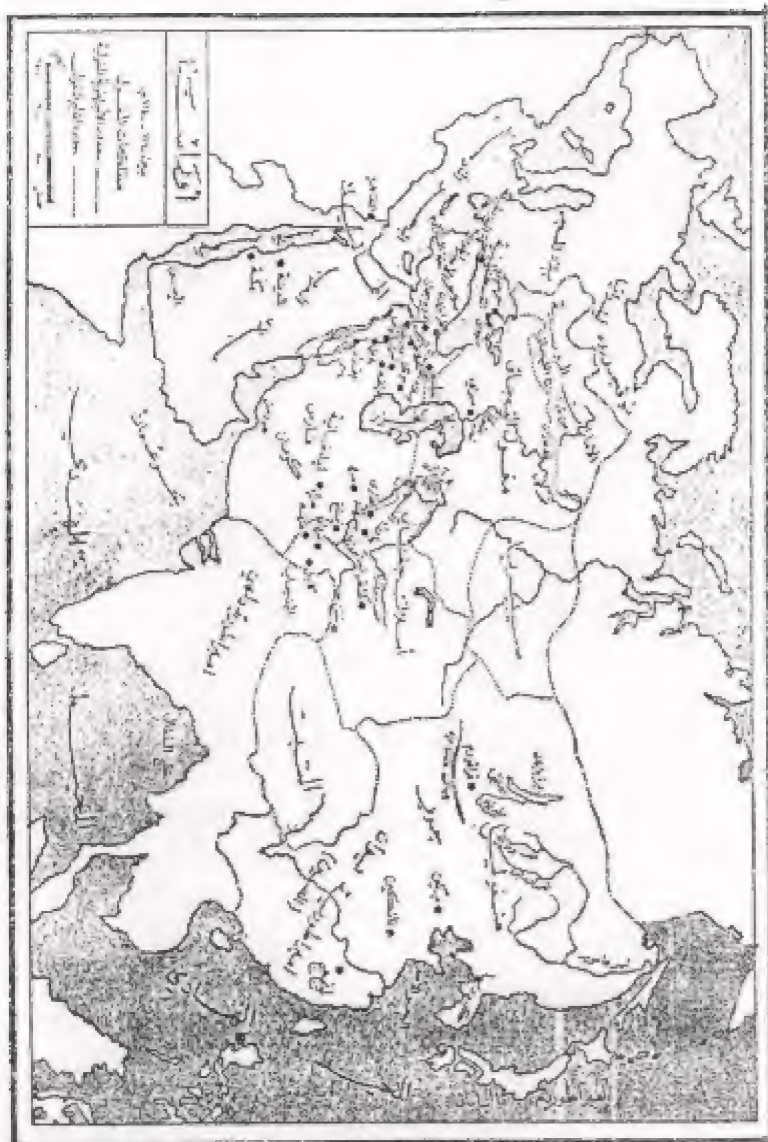
(٧٦) العريضي : الشرق ص ٢٨٠

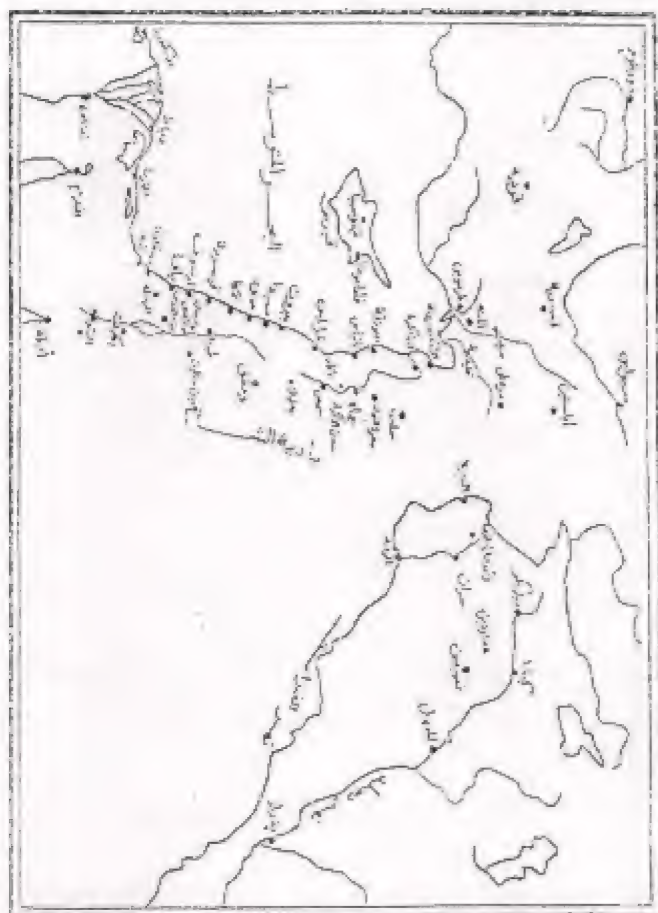
(77) Grousset : L'Empire Mongol, Vol. 111, p. 727

(٧٨) العريضي : الشرق ص ٣١٦

—







المصادر العربية والأجنبية
المراجع العربية والمعرية والأجنبية

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي الجوزي) :
 - الكامل في التاريخ (ط مصر ١٣٤٨ - ١٣٥٨ هـ)
 ابن الجوزي (أبو المظفر شمس الدين) :
 - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (نشر شيكاغو سنة ١٩٠٧ م)
 ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين بن علي) :
 - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (حيدر آباد سنة ١٣٤٩ هـ)
 ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :
 - المعبر وديوان المبتدأ والخير (القاهرة ١٨٦٧)
 ابن شاكر الكنتي (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن) :
 - قوات الوفاة (القاهرة ١٩٥١ م)
 ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر) :
 - البداية والنهاية في التاريخ (القاهرة ١٩٣٨ م / ١٣٥٧ هـ)
 ابن المعمر (فريغوريوس القسطنطيني) :
 - تاريخ مختصر الدول
 (تصحيح الأب أنطون صالحاني اليسوعي - بيروت ١٩٨٣ م)
 ابن العماد الحنبلي (عبد الحي أبو الفلاح) :
 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨ أجزاء ١٣٥٠ هـ)
 ابن الفوطي (جمال الدين عبد الرازق بن تاج الدين أحمد) :
 - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (بغداد ١٩٣٢ / ١٣٥١ هـ)
 ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :
 - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (تحقيق الشياح وريبع ج ٥)

- ابن الوردي (أبو حنيفة زين الدين عمر بن مظفر ابن عمر):
 - تلعة المختصر في أخبار البشر (ط بولاق ١٢٨٥هـ)
 أبو شامة (شهاب الدين محمد بن إسماعيل):
 - الذيل على الروشتين في أخبار الدولتين (نشر المطابع سنة ١٩٤٧)
 أبو الفدا (الملك المؤيد إسماعيل):
 - المختصر في أخبار البشر (ط مصر وط أوروبا)
 أبو المحاسن ابن تفرى بردي:
 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة سنة ١٩٣٣)
 الديار بكري (حسين بن محمد):
 - تاريخ الخميس في أحوال أنلس تقيس (ط ١٨٦٦م / ١٢٨٣)
 الذهبي (الحافظ - شمس الدين محمد ابن أحمد بن عثمان الذهبي):
 - المعبر في طبر من غير (الكويت ١٩٦٦ / ١٣٨٦هـ)
 رشيد الدين فضل الله
 (فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفى الدولة) :
 - جامع التواريخ (نشر كاتريمير سنة ١٨٣٦)
 السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد) :
 - تاريخ الخلفاء وأمرء المؤمنين بأمر الأمة .
 القرعاني (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد):
 - أخبار الدولة وأثار الأول (ط ١ بيروت)
 القلقشندي (أبو الحسن العباس أحمد):
 - صبح الأعشى في صناعة الانشا (مصر ١٩١٤ / ١٩١٥م)
 مفصل بن أبي الفضائل :
 - التهج المديد والفرز القريد فيعاً بعد تاريخ ابن العميد
 (باريس ١٩١١ - ١٩٣٠م)

- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي):
- السلوك لمرقة دولة الملوك (تشر د. زيادة ١٩٣٤ - ١٩٣٩م)
 - التسوري (نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد الفشي):
 - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (تشر حافظ حمدي القاهرة سنة ١٩٥٣م)
 - ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي):
 - معجم البلدان (ثانية أجزاء ط دار السعادة ١٩٠٦م)
 - Ammianus Marcellinus: The Huns
(Trans. By yong in Medieval World by Cantor)
 - Einhard : " Life of Charlemagne "
In Medieval World by Cantor
 - Mathew Paris's English History,
(Vol. 1 from the year 1235 to 1244)
(Vol. 2 from the year 1244 to 1252) □
(Vol. 3 from the year 1252 to 1273)
 - Roger of Hoveden: The Annals of Roger pf Hovesen
2 Vol.
 - Roger of Wendover: Flowers of History, 2 Vol
□

أبراهيم أحمد العدوى (دكتور) :

- التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية
(ط ١ القاهرة ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م)

أحمد شلبي (دكتور) :

- موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية
(ط ١ القاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٧م)

أحمد محمود الساداتى (دكتور) :

- تاريخ الدول الإسلامية بأسسها وحضارتها
(ط ١ القاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م)
- الدولة الإسلامية : نسبه القارة الهندية وإيران وبلاد ما وراء النهر والممانستن.

المسيد الحاج العريضى (دكتور) :

- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (بيروت لبنان ١٩٦٨)
- الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٩٥م)
- المغول (بيروت ١٩٨٦م / ١٤٠٦هـ)

جمال حمدان (دكتور) :

- أنماط البيئات (ط ١ القاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م)

حافظوم (نور الدين) :

- تاريخ العصر الوسيط في أوروبا (لبنان ١٩٦٧م - ١٣٨٦هـ)

حافظ أحمد حمدي :

- الدولة الخوارزمية والمغول - القاهرة ١٩٤٩ م
- الشرق الإسلامي قبل المغول - القاهرة ١٩٥٠م

حمتين ربيع (دكتور) :

- دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٨٣)

حياة ناصر الحجي (دكتور):

- العلاقات بين دولة المالك ودولة مغول القنجان
- (حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية الثامنة ١٩٨٠م)
- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):
- أوروبا المصور الوسطى جزءان (القاهرة ١٩٦٦م)
- العصر المالكي في مصر والشام (ط ٢ - القاهرة ١٩٧٦م)
- عادل هلال (دكتور):
- العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي
- (ط ١ - ط ١ ١٩٩٧م)
- عبد السلام فهمي (دكتور):
- تاريخ الدولة المملوكية في إيران (القاهرة ١٩٨١م)
- فريد حماد عاشور (دكتور):
- العلاقات السياسية بين المالك والمغول
- (ط ١ القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م)
- فؤاد عبد المعطي الصياد (دكتور):
- الشرق الإسلامي في عهد الإنجليز (الدوحة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م)
- محمد السيد غلاب:
- تطور الجنس البشري (ط ١ الإسكندرية ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م)
- محمد كرد علي (دكتور):
- خطط الشام (ط ٢ بيروت ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م)
- محمد ماهر حمادة (دكتور):
- وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي
- (بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)

محمد مصطفى زبالة (دكتور) :

- حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة (القاهرة ١٢٦٦)

مصطفى ط بدر (دكتور) :

- مغول إيران بين المسيحية والإسلام (دار الفكر العربي - القاهرة)
- وسام عبد العزيز فرج (دكتور) :
- دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية (الإسكندرية ١٩٨٣)

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :

- الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى (الإسكندرية ١٩٧٥)
- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (الإسكندرية ١٩٩٠)
- التنظيم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى (الإسكندرية ١٩٩٧)
- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (الإسكندرية ١٩٩٨)
- عصر الحروب الصليبية في الشرق (الإسكندرية ١٩٩٨)

إسوارد بروي :

- تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى)
- (ط١ لبنان ١٩٦٥ ترجمة يوسف أسعد)

أرنولد (توماس) :

- الدعوة إلى الإسلام
- (ط٣ ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين القاهرة ١٩٧٤م)

إيلين يور :

- تماذج بشرية من العصور الوسطى
(ط) ترجمة محمد توفيق حسن --- بيروت ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م)
- بارتولد (فلاديمير) :
- تاريخ الترك في آسيا الوسطى
(ترجمة د. أحمد السعيد سليمان --- القاهرة ١٩٥٨ م)
- تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغول
(الكويت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م)

براون (إيفارد) :

- تاريخ الأدب في إيران
(نقله إلى العربية أمين الشواربي --- القاهرة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م)
- بروكلمان (كارل) :
- تاريخ الشعوب الإسلامية
(نقله إلى العربية نبیه أمين ومثير البعلبكي بيروت ١٩٤٩)

جوانفيل :

- القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام (ترجمة حبشي)
والق لنتون :
- شجرة الحلبارة ج٢ (ط) ترجمة أحمد فخرى القاهرة)
- فد بان (الصيني) :
- جنكيزخان سقاح الشعوب
(ط) ترجمة صوفي عبد الله --- القاهرة ١٣٧١ / ١٩٥١ م)
- فاز ياكيف :
- العرب والروم
(ترجمة محمد عبد الهادي سفيرة)

فهرس:

- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (ترجمة زيادة والمرينى والمندى)
كانتور :
- التاريخ الوسيط (ترجمة قاسم عبده قاسم)
كرويب وجاكوب :
- تراث العصور الوسطى (ترجمة بدران وزيادة)
كولتون :
- عالم العصور الوسطى في التظم والحضارة
(ترجمة جوزيف تسييم يوسف)
- لاسترايح (كي) :
- بغداد في عهد الخلافة العباسية
(ترجمة بشير فرنسيس بغداد ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م)
- موسى :
- مهلاذ العصور الوسطى
(ترجمة عبد العزيز جابود ومراجعة المرينى)
- ماركو بولو :
- رحلات ماركوبولو
(الترجمة العربية والتقدمة التي كتبها جون سيسفيلد للترجمة
الإنجليزية للرحلات - القاهرة ١٩٧٧) ، (والترجمة التي قام
بها الأستاذ عبد العزيز جابود القاهرة - ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م)
- هارولد لام :
- جنكيزخان وجحاقل المفل
(ترجمة مئزى أمين القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م)

هامبرتن (جون) :

- تاريخ العالم ج * (ترجمة وزارة التربية والتعليم - القاهرة)

هلمشر :

- أوروبا في العصور الوسطى (مترجم)

Adams :

- The History of England .
- Medieval Church.

Altamira :

- A History of Spain from the beginning to the present Date
(trans. By Muna lee , London 1952)

Aziz Surial Atiya :

- The Crusades in the Later Middle Ages.
(London 1938)

Baldwin, M. W. :

- The Medieval Church (N.Y. 1960)

Barthold W.:

- Turkestan down to the Mongol invasion
(London 1928)

Bréhier, L. :

- L'Eglise et L'Orient au Moyen age les croisades
(Paris 1928)

Brooke, E.:

- A History of Europe 911- 1198 (London 1928)
- The Saxon and Norman Kings (London 1963)

Browne E.:

- The Eclipse of Christianity in Asia
(Cambridge 1933)
- A Literary History of Persia II, III,
(Cambridge 1928, 1965)

Bryce, W. C. :

- The Holly Roman Empire (London 1904)

Budge Wallis :

- The Monks of Kublia Khan, introduction.
- History of the life and Travels of Rabban Souma, in Asia 1928.

Bury, J. B:

- History of the Roman Empire (London 1923)
- A History of the eastern Roman Empire
(London 1912)

Cahun, C. :

- La Syrie du Nord à l'époque des Croisades
(Paris 1940)
- Introduction à L'histoire de L'Asie (Paris 1896)
- Cambridge Medieval History 8 ols. (1924)

- Cantor, N.F. :
- Medieval History (New York 1964)
 - The Medieval World 300- 1300
(Ed. By Cantor N. Y. 1968)
- Chadwick, H.:
- The early Church (London 1967)
- Chapman, C.:
- Studies in the early papacy
- Coulton, G.:
- Life in the Middle Ages 2 Vol.
 - England under the Normans and Angevins
 - Medieval Village, Manor and Monastery
(N.Y. 1960)
- Davis, R.H.:
- Medieval Europe (London 1970)
 - Medieval Empire .
- Davis and Arther:
- " The British Isles " B. H. VI1
- Deanesly:
- A History of Early Medieval Europe
- D'Olsson, M.:
- Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan
jusqu' à Timur Bec. 2 Vols. Amsterdam 1834-
1835, 1852 (Paris 1824)

- Douglas :
- The life of Jenghiz Khan (London 1877)
- Dunlop, D. M. :
- The History of the Jewish Khazar (Princeton University Press 1967)
- Durant:
- The Age of the faith (N. Y. 1950)
- Eyre, E. :
- European civilization Vol.3 the middle ages (London 1935)
- Fisher :
- A History of Europe.
- Fliche:
- L'Europe Occidentale du 888,41125 (Paris 1930)
- Ganshof :
- Feudalism (London 1952)
- Glubb :
- The lost centuries
- Grousser, R.:
- Histoire des Croisades et du Royaume de Jerusalem 3 Vol (Paris 1936)
 - L'Empire Mongol (Paris 1948)
 - L'Empire des Steppes (Paris 1948)
 - Histoire de L'Extreme Orient (Paris 1929)
 - Le Monde Mongol, Histoire de L'Asie, 111, (Paris 1922)

Halperin :

- Russia in the Mongol Empire

Haskins, H:

- The Normans in European History (N. Y. 1959)
- The growth of English Representative Government (London 1948)

Heer, F:

- The Medieval World. Europe from 1100 to 1350 (trans. From the German by J. Sondheimer (London 1924)

Harder and Waley :

- A History of Italy (Cambridge 1963)

Heyck Edward :

- " The rising tide of teuton Power" B.H. VI1

Hodgkin :

- The Moulding of the Nations B.H. VI1

Hoyck :

- "Rise of the Germanic race and the Coming of the Barbarians" B.H.V. VII

Howorth, H:

- History of the Mongols 5 Vols (London 1876- 1888)

- Hoyt and Chodrow :
- Europe in the Middle Ages (U.S.A. 1976)
- Hussey, J. M. :
- The Byzantine world (London 1967)
- Jenkins :
- Byzantium , The imperial centuries AD 610-1071 (London 1966)
- Katz, S.:
- The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe. (New York 1955)
- Keen , S. :
- A History of Medieval Europe (London 1961)
- King E. J. :
- The Knights Hospitallers in the Holy land (London 1931)
- La Monte :
- The world of the Middle Ages (London 1949, 1966)
- Lodge :
- The close of the Middle Ages 1273 - 1494 (Londn 1963)
- Lot, F.:
- The end of the Ancient world and the Beginning of thwe middle Ages (London 1966)

Mahrenholz, R:

- " France through the Middle Ages " B. H. V. 111
- " The last of the old Capet" B. H. Vol. VII.
- "Evolution of Medieval France" B. H. Vol. VII .

Maitland:

- The Constitutional History of England

Mawer :

- The Vikings

Miller :

- The Balkans

Morfill :

- Russia

Morgan (David):

- The Mongols (1985)

Moss :

- The Birth of the Middle Ages

Nicholas :

- The Evolution of Medieval world .

Oman SirCharles :

- The Dark Ages 476-918 (London 1962)

Ostrogorski :

- History of the Byzantine State (Oxford 1956)

Painter :

- A History of the Middle Ages (New York 1954)

Pelliot, P. :

- "Les Mongols et la Papauté" R. de l'Orient Chrétien 3rd ser 111.

Pirenne, H. :

- Mohamed and Charlemagne (London 1968)

Prawdin :

- The Mongol Empire, its Rise and Legacy (N. Y. 1967)

Quatremere :

- Histoire des Mongols de la Perse (Paris 1836)

Rayner, R. M. :

- Concise History of Britain (London 1939)

Robinson :

- An Introduction to the History of western Europe.

Runciman Steven :

- History of the Crusades Cambridge Vol. 111 1954, (London 1971)

Saunders :

- The History of the Mongol conquest (1971)

Schjoth, Hans:

- "Great days of the Northmen" B. H. VII.

Seidlmayer, M.:

- Currents of Medieval thought (trans. By Barker Oxford 1960)

Setton :

- A History of the Crusades, 2 Vols.
(Pennsylvania 1958)
- The Papacy and the Levant 1204 – 1571, Vol. 1,
(The Thirteenth and Fourteenth centuries)
Philadelphia 1976

Simpson :

- Everyday life in the Viking Age (London 1969)

Southern, R.W.:

- The making of the middle Ages (London 1967)
- Western Society and the church in the Middle Ages. (1979)

Stenton :

- Anglo Saxon England

Stephen :

- Hildebrand and his times (London 1914)

Strayer, Munro :

- The middle Ages (N. Y. 1942)

Stephenson :

- Medieval History
- Medieval Feudalism (N. Y. 1942)

Stevenson :

- The Crusaders in the East (1968)

Sullivan, R.E. :

- Heirs of the Roman Empire. (N. Y. 1960)

Sykes Sir Percy :

- A History of Persia Vol. II London 1963,
(Oxford 1922)
- History of Bokhara. (London 1873)

Tille :

- " France under the early Capet" B. H. VII

Trevelyan :

- History of England Part I (London 1959)

Vambery, G:

- History of Bokhara
- The Golden Horde, Egypt and Byzantium.

Vasiliev, A:

- The Byzantine Empire (Madison 1952),
(W. P. 1973)

Walker :

- Jenghiz Khan

Warner and Marten :

- The Ground work of British History
(London 1942)

Wiet :

- L'Egypte Arabe , Histoire de Nation Egyptienne,
IV (Paris 1937)